الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي

إعداد فريق البحوث والدراسات الإسلامية



سجل شامل لأحداث التاريخ الإسلامي حتى وقتنا الحاضر

يُطلب من
خوارزم : ٠٢/٣٣٨٨٦٦٧
علاء الدين : ٠٣/٤٨٧٦١٨٦

إهـــــــداء٢٠٠٦

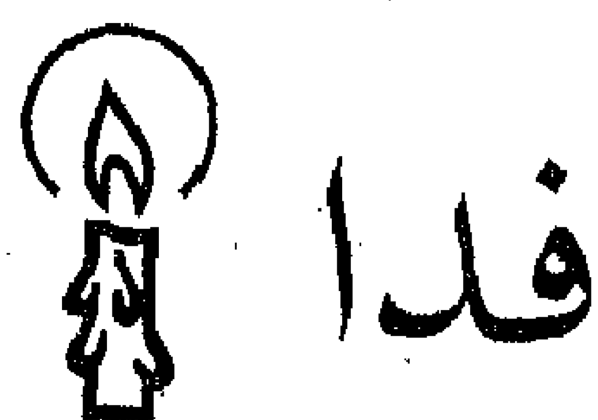
المرحوم / علي حسن عبد الكافي

الإسكندرية

الموسوعة الميسرة
في التاريخ الإسلامي

المجلد الأول

إعداد :
فريق البحوث والدراسات الإسلامية



طبعة جديدة ـ ٢٠٠٠

الناشر مكتبة علاء الدين

رقم الايداع : ٢٨٥٧ \ ٩٨

الترقيم الدولي .I.S.B.N : ٦ -٠٤-٥٥٤٠-٩٧٧

يطلب من

مكتب خوارزم

العنوان ٢٣ شارع الأنصار متفرع من شارع التحرير أمام جراج مقار - القاهرة

ت : ٠٢/ ٣٣٨٨٦٦٧

مكتبة علاء الدين

العنوان ٦٣ شارع صفية زغلول - محطة الرمل - الإسكندرية

ت / فاكس:٤٨٣٦١٨٦ / ٠٣

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ...

وبعد أخانا الحبيب:

نتقدم إليك بهذه الموسوعة الميسرة سائلين الله أن ينفع بها وأن يجعل فيها زادا إيمانيا لكل مسلم غيور على دينه ،ينشد غدا مشرقا ترفرف فيه راية الإسلام من جديد فوق ربوع العالمين.

فريق البحوث والدراسات الإسلامية


فدا

لا يؤلف أحد كتابا إلا في أحد أقسام سبعة،ولا يمكن التأليف في غيرها،وهي:

١.إما أن يؤلف في شئ لم يسبق إليه يخترعه.

٢.أو شئ مستغلق يشرحه .

٣.أو شئ ناقص يتممه .

٤.أو طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه.

٥.أو شئ مختلط يرتبه .

٦.أو شئ أخطأ فيه مصنفه يبينه.

٧.أو شئ مفرق يجمعه.

هذا العمل استلهمناه من خلال هذه العبارة المأثورة فقد وجدنا هذا العلم طويلاً فاختصرناه ومفرقاً فجمعناه سائلين الله أن ينفع به.


فدا

قالوا عن التاريخ

إن التاريخ يوسع أفق المسلم ويطلعه على أحوال الأيام بها وبهم ، فيري الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنة الله في المجتمعات بلا محاباة ول جور ؟

كيف ترقي الأمم وتهبط ؟.....

كيف تقوم الدول وتسقط ؟.....

وكيف تحيا الحضارات وتموت؟.....

وكيف تنام الشعوب وتصحوا ؟.....

إن التاريخ كثيراً ما يعين على فهم الواقع الماثل ولا سيما إذا تماثلت الظروف وتشابهت الدوافع، وهذا ما جعل العرب قديماً يقولون :

ما أشبه الليلة بالبارحة!...

وجعل الغربيين يقولون :

التاريخ يعيد نفسه !...

د. يوسف القرضاوي

قالوا عن التاريخ

أن التاريخ ليس مجرد أقاصيص تحكي ولا هو مجرد تسجيل للوقائع والأحداث إنما يدرس للعبرة ويدرس للتربية.

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾

وكل أمة من أمم الأرض تعتبر درس التاريخ من دروس التربية للأمة، فتصوغه بحث يؤدي مهمة تربوية في حياتها..

ولا يعني ذلك تزوير التاريخ الإسلامي لإعطاء صورة وضاءة لإحداث أثر معين في نفس الدارس، ولا إلي إغفال عثرات المسلمين وانتكاساتهم، وإبراز الأمجاد والبطولات وحدها فهذا ليس هو المطلوب ، و إنما المطلوب أن يكون الدرس التربوي الأكبر المستفاد من درس التاريخ : أن أحوال هذه الأمة في صعودها وهبوطها، ورفعتها وانتكاسها إنما تخضع لنواميس ربانية ثابتة لا تحابي أحدا ولا تنحرف عن مسارها من اجل أحد.....

محمد قطب

قالوا عن التاريخ

التاريخ هو ذاكرة الأمة ، و الذاكرة للأمة كالذاكرة للفرد تماماً ، بها تعي الأمة ماضيها وتفسر حاضرها وتستشرف مستقبلها.
فالإنسان الذي يفقد ذاكرته ، يرتد – على ضخامة جسمه– طفلاً غراً لا يعي شيئا مما حوله ، عاجزاً أن يتبصر في نفسه ، أو يشعر بيومه ، أو يتطلع إلى غده ، وكذلك الأمة حين يضيع منها تاريخها ويشوش في عقول أبنائها عندئذ يضيع منها الطريق ، وتسلم مقودها لمن يوجهها.
فالتاريخ ليس علم الماضي بل هو علم الحاضر والمستقبل في واقع الأمر وحقيقته، فالأمة التي تستطيع البقاء هي التي لها ضمير تاريخي......

د. عبد العظيم محمود الديب

تحذير

هذا الكتاب لغير المتخصصين.
ليس هدفنا من هذا الكتاب أن يكون مرجعاً للمتخصصين فهناك مراجع أكثر توسعاً من هذا الكتاب لكن هدفنا أن يكون مرجعاً سهلاً وافياً متضمناً كل ما ينبغي أن يعرفه المسلم من أحداث التاريخ الإسلامي.

الباب الأول

الخلفاء الراشدون

سنرى أخلاء المسجد ، وأنضاء العبادة ، وحفظة القرآن الكريم ، بل وأبناء الربط والزوايا من السلف رضوان الله عليهم ، لا يقنعون باستقلال بلادهم ، ولا بعزة قومهم ، ولا بتحرير شعوبهم ، ولكنهم ينسابون في الأرض ، ويسيحون في آفاق البلاد فاتحين معلمين ، يحررون الأمم كما تحرروا ، ويهدونها بنور الله الذي اهتدوا به ، ويرشدونها إلى سعادة الدنيا والآخرة ، لا يغلون ولا يغدرون ، ولا يظلمون ولا يعتدون، ولا يستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً

خلافة أبى بكر الصديق

مدة الخلافة من : ١١ من ربيع أول سنة ١١ هجرية إلى ٢١ من جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية فتكون مدة خلافته سنتان و ثلاثة أشهر و عشرة أيام

انتخاب أبي بكر الصديق أول خليفة للمسلمين :

لما مات رسول الله ﷺ اختلف الصحابة فيما بينهم ، فمن قائل يقـــول : مـــات رســـول الله ﷺ ومن قائل : لم يمت ، فلما جاء الصديق حين بلغه الخـــبر دخـــل علـــى رســـول الله ﷺ مترله وكشف الغطاء عن وجهه وقبله ، وتحقـــق أنـــه قـــد مـــات خـــرج إلي النـــاس فخطبهم فقـــال :

(أما بعد ، فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فـــإن الله حـــي لا يموت قال الله تعالي :" وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ") .

فترلت هذه الآية على الناس ومنهم عمر وكأهم يســـمعوها لأول مـــرة فســـكنت قلوهـــم وزال الإشكال عنهم واجتمع المســـلمون في ســـقيفة بـــني ســـاعدة ، وتشـــاوروا فيمـــن يخلف رسول الله ﷺ في قيادة المسلمين ،وبعد مداولات اجتمعـــت الكلمـــة علـــى مبايعـــة أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله ﷺ و لم يشذ أحـــد عـــن ذلـــك حـــتى علـــي بـــن أبي طالب الذي يزعم البعض أنه تأخر عن مبايعة أبي بكـــر الصديـــق .

يقول ابن كثير : (كانت مبايعة على إما في أول يوم أو في اليوم الثاني ، فإن عليـــا لم يفـــارق الصديق في وقت من الأوقات ، و لم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه ، وخرج مع أبي بكـــر إلي ذي القصة لما خرج الصديق شاهرا سيفه يريد قتال أهل الردة كما سيأتي ذكره ولكن لمـــا

حصل من فاطمة رضي الله عنها عتب على الصديق بسبب ما كانت تتوهمه من أنها تستحق ميراث رسول الله ﷺ[1] ولم تعلم بما أخبرها به الصديق واجتمع عليه الصحابة أنه ﷺ قال : (إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة) فحجبها الصديق وغيرها من أزواجه وعمه عن الميراث بهذا النص الصريح ، فسألته أن ينظر عليّ في الأرض التي بخيبر وفدك فلم يجبها أبو بكر إلي ذلك ، لأنه رأي أن حقا عليه أن يقوم في جميع ما كان يتولاه رسول الله ﷺ فحصل لها عتب وتغضب ولم تكلم الصديق حتى ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها ، واحتاج عليّ أن يراعي خاطرها بعض الشيء فلما ماتت رأي أن يجدد البيعة لأبي بكر رضي الله عنه مع ما تقدم له من بيعة ،هذا الهجران من فاطمة فتح على المسلمين شرا عريضا فظهرت فرقة الرافضة كما سيأتي بيانه) .وكان أول ما خطب أبو بكر:

أما بعد أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح علته ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ﷺ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم

[1] - لم يترك رسول الله ﷺ دينارا ولا درهما ، ولا عبدا ولا أمة ، ولا شاة ولا بعيرا ولا شيئا يورث عنه ، بل أرضا جعلها كلها صدقة لله عز وجل . بل توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين دينارا !! .

أزمة المرتدين :

كان ظهور حركة الردة منذ عهد رسول الله ﷺ . فارتد مسيلمة بن حبيب الكذاب في اليمامة وارتد الأسود العنسي في اليمن وارتد طليحة بن خويلد في بني أسد وارتدت امرأة من بني تميم تدعي سجاح كانت تعيش بالجزيرة ، وقد هم النبي ﷺ . أن يرسل جيوشا للقضاء على هؤلاء ولكن المنية وافته قبل ذلك .

ارتد هؤلاء وهم من رؤساء القوم طلبا للرياسة فتبعهم قومهم بغير إعمال العقل ولا تدبر .فلما تولي أبو بكر امتدت حركة الردة في أنحاء الجزيرة العربية وكانت أعظم أزمة تعرض لها أبو بكر الصديق بل إن الأمة الإسلامية في تاريخها كله لم تتعرض لمثل هذه الفتنة الخطيرة .

إنفاذ جيش أسامة

ورغم هذه الفتنة العظيمة فقد صمم أبو بكر أن ينفذ وصية رسول الله ﷺ بإنفاذ جيش أسامة الذي كان أعده الرسول ﷺ. ليتوجه إلى بلاد الروم .

وكان لإنفاذ هذا الجيش والالتزام بتعليمات النبي ﷺ . أثر عظيم في تقليل آثار الفتنة يتضح ذلك فيما يرويه أبو هريرة قال :

" والله الذي لا اله إلا هو لولا أبو بكر استخلف ما عبد الله ، ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثة (أي كرر العبارة ثلاث مرات) فقيل له : مه يا أبا هريرة؟

فقال : إن رسول الله ﷺ. وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام ، فلما نزل بذي خشب (واد على مسيرة ليلة من المدينة) قبض رسول الله ﷺ . وارتدت العرب حول المدينة ، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ . فقالوا :

يا أبا بكر رد هؤلاء ، توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتــــدت العــرب حــول المدينــة ؟!

فقال : والذي لا إله غيره لـــو جَــرَت الكــلاب بــأرجلِ أزواج رســو ل الله ﷺ .

ماردت جيشاً وجهه رسول الله ﷺ ، ولا حللـــت لــواءاً عقــده رســول الله ﷺ . فوجه أسامة ، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتـــداد إلا قــالوا :

لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء مـــن عندهـــم ، ولكـــن ندَعـــهم حـــتى يلقـــوا الروم فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا ســالمين ، فثبتــت هــذه القبــائل علــى الإسلام لما رأوا نصر المسلمين وقوهـــم . "

وهكذا بارك الله في رأي أبي بكر الذي لم يكن رأياً فردياً ، وإنما كـــان أبــو بكـــر يعلــم جيداً أنه لا مجال للاجتهاد أو الشورى مع وجود النص الواضـــح الجلـــي .

ويخرج أبو بكر مودعاً لجيش أسامة بن زيد الشاب الصغــير الســـن ، ويــأمرهم بالمســير ، ويسير معهم ماشياً وأسامة راكباً ، فيقــول أســامة :

يا خليفة رسول الله إما أن تركب وإمـــا أن أنــزل .

فيقول له أبو بكر : والله لا تنـــزل ولا أركـــب ومـــا علـــي أن أغـــبر قدمـــي ســاعةً في سبيل الله ، ثم استأذن أبو بكر أسامةَ في أن يســـتبقي معــه عمـــر بـــن الخطـــاب وكـــان معدوداً في الجيش فأذن له أســـامة .

ونعود للحديث عن حركة الردة فنقول إن الردة كانت علـــى درجتـــين :

- مرتدون ردة كاملة وهؤلاء اتبعوا المتنبئين في بـــلاد طـــيء و حنيفـــة وأســـد وتميـــم واليمـــن .
- ومرتدون ظنوا أن الصدقـــة لا تـــؤدى إلا للنـــبي ﷺ. لأن الله ســـبحانه وتعـــالى قال : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصـــل عليـــهم ..) فلمـــا مـــات

النبي ﷺ . امتنعوا عن أداء الزكاة لأبي بكر متأولين الآية أن الزكاة لا تؤدى إلا لرسول الله ﷺ فأما بعد موته فإنها تسقط عنهم وفي هذا النفر الثاني كانت مراجعة عمر لأبي بكر .

قال عمر لأبي بكر : علام تقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله ﷺ . : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ،وأن محمداً رسول الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها " .

فقال أبو بكر : والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ . لأقاتلنهم على منعها ، إن الزكاة حق المال ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

قال عمر : فما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق .وعقد أبو بكر أحد عشر لواءاً في أنحاء الجزيرة لمحاربة المرتدين فكانت كالآتي :

١- جيش بقيادة **خالد بن الوليد** يتوجه إلى ضاحية مضر في بلاد نجد حيث طليحة ابن خويلد في بني أسد ، فإذا فرغ خالد من طليحة يسير إلى البطاح حيث مالك بن نويرة في بني تميم .

٢- جيش بقيادة **عكرمة بن أبي جهل** يتوجه إلى اليمامة إلى مسيلمة بن حبيب الكذاب في بني حنيفة .

٣- جيش بقيادة **شرحبيل بن حسنة** يتوجه إلى اليمامة أيضاً .

٤- جيش بقيادة **طريفة بن حاجز** يتوجه إلى منازل بني سليم ومن معهم من مرتدي هوازن .

٥- جيش بقيادة **عمرو بن العاص** يتوجه شمالاً إلى قبائل قضاعة ووديعة والحارث.

٦- جيش بقيادة **خالد بن سعيد** يتوجه إلى مشـــارف الشـــام .

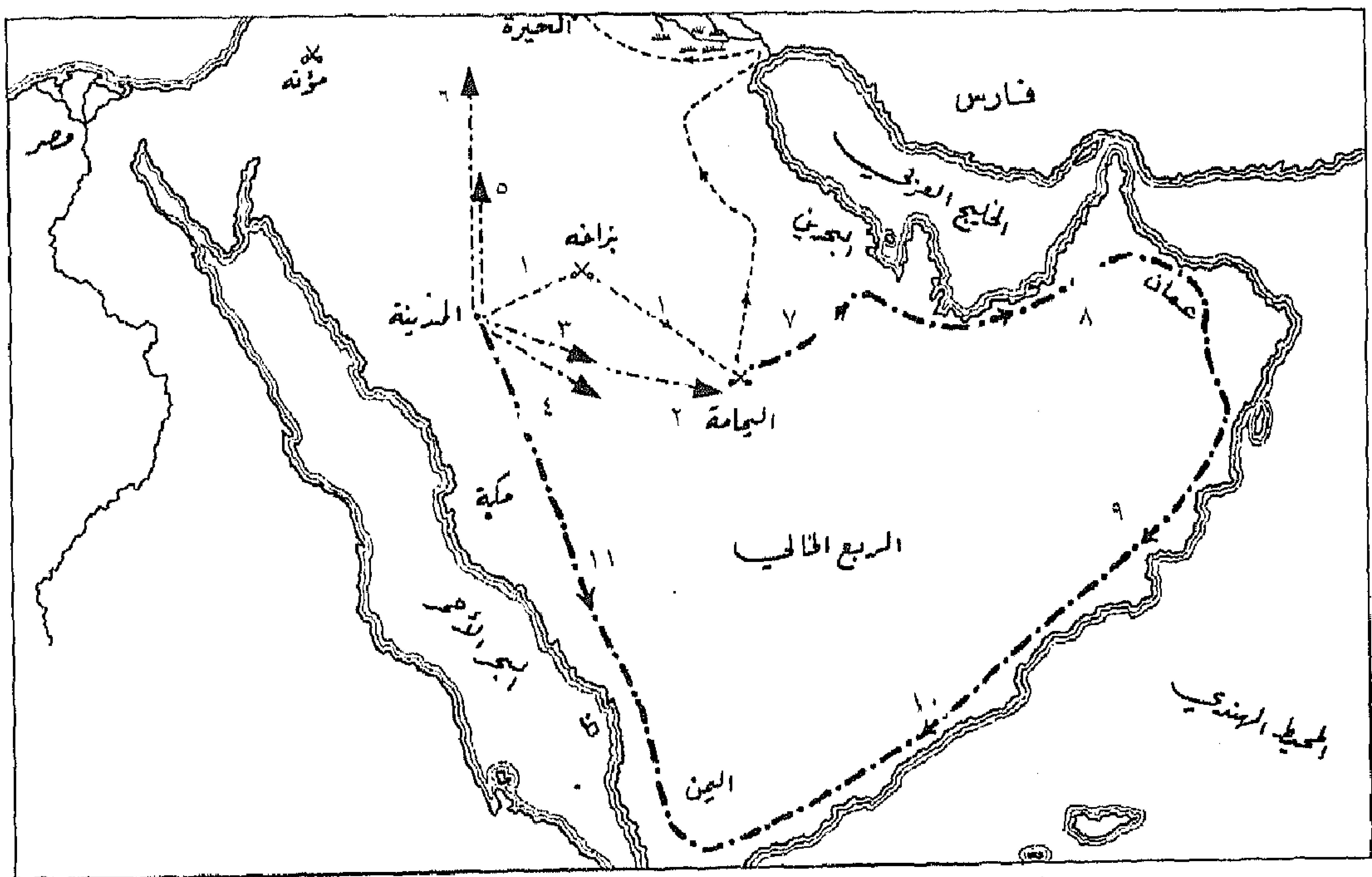
٧- جيش بقيادة **العلاء بن الحضرمي** يتوجه إلى البحرين حيـــث الحطـــم بـــن ضبيعـــة في مرتدي عبد القيس وقبائل ربيعـــة .

٨- جيش بقيادة **حذيفة بن محصن** يتوجه إلى دبـــا بعمـــان .

٩- جيش بقيادة **عرفجة بن هرثمة** يتوجه إلى أهـــل مـــهرة .

١٠- جيش بقيادة **المهاجر بن أمية** يتوجه إلى صنعاء بـــاليمن حيـــث الأســـود العنســـي ثم إلى حضرمـــوت .

١١- جيش بقيادة **سويد بن مقرن** يتوجه إلى تهامـــة بـــاليمن .



خريطه رقم ١: توضح خط سير الجيوش الاسلاميه لقمع المرتدين فى انحاء الجزيره العربيه

ولقد نجح هؤلاء القادة في القضاء عل حركـــة الـــردة ...

فخالد بن الوليد في عشرة آلاف مقاتل تواجه مع طليحة بن خويلد في أربعين ألفا في **معركة تسمى بزاخة** (ماء لطيئ أو بني أسد بأرض نجد) وهُزم طليحة الذي فر هارباً، ثم تاب بعد ذلك واستشهد في نهاوند !!

وكان من أشرس المعارك التي خاضها الصحابة في حياهم **معركة اليمامة** ، وكان قائد المسلمين فيها عكرمة بن أبي جهل ومعه أمر من أبي بكر بأن يتجنب الالتحام حتى يصل إليه مدد شرحبيل بن حسنة ، ولكن عكرمة لم يلتزم بالأمر فهُزم في بادئ الأمر ... فلحق به خالد بن الوليد وانتصر المسلمون وقد قتل من المرتدين عشرين ألفاً منهم مسيلمة . وقتل من المسلمين مائتان وألف منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار حملة القرآن ... وهو عدد من الشهداء لم يسقط من قبل.

وفي معركة اليمامة ظهرت مواقف وبطولات جديرة بالذكر منها :

.**كان الصحابة كي يثبت بعضهم بعضا يتنادون : يا أصحاب البقرة (سورة البقرة)**

وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل لواء الأنصار يومها بعدما تحنط وتكفن ، فلم يزل ثابتا حتى قتل شهيدا رحمه الله .

.وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة : **أتخشى أن نؤتى من قبلك ؟ فقال : بئس حامل القرآن أنا إذن .**

.و وقف أبو حذيفة يذكر أصحابه قائلا :

" يا أهل القرآن ،زينوا القرآن بالفعال " **ثم حمل على المرتدين حتى أصيب رضي الله عنه .**

.و من هذه المشاهد أن المرتدين احتموا بحديقة و أغلقوها عليهم (سميت حديقة الموت لكثرة من قتل بداخلها)، فنادى البراء بن مالك في جند المسلمين : " يا

معشر المسلمين، ألقوني في الحديقة ، فاحتملوه فـــوق الجحــف و رفعوهـــا بالرمـــاح ، حتى ألقوه عليهم من فوق سورها ، فلم يزل يقاتلهم دون بابهـــا حـــتى فتحـــه ..

.و لضراوة المعركة تكسرت في يد خالد بن الوليد يومـــها تســـعة أسـياف ..

.و من لطائف المشاهد يومها أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة و عبـــاد بـــن بشـــر قتـــلا يوم اليمامة شهيدين و كان الرسول ﷺ. قد آخـــى بينـــهما ..

۞ و أما في البحرين فقد كان القائد الرباني العـــلاء بـــن الحضرمـــي يخـــوض بجيشـــه لجج البحار غير هيـــاب .

يقول أبو هريرة و كان مشاركا في هـــذا الجيـــش :

" لما فر جيش المرتدين عابرا البحـــر مســـتخدما الســـفن ، و لم نكـــن نـــدرك عدونـــا بالسفن، دعا العلاء بن الحضرمي ربه و أمر الجيش بالعبور فكـــان مـــن دعائـــه :

يا أرحم الراحمين ، يا حكيم يا كريم ، يا أحد يا صمد ، يا حي يا محـــيي ،يـــا قيـــوم يـــا ذا الجلال و الإكرام ،لا إله إلا أنت يا ربنا أجزنا من هـــذا البحـــر . "

و أمر الجيش أن يقولوا ذلك و يقتحمـــوا ففعلـــوا ..

فمشينا على الماء ،فوالله ما ابتل لنا قـــدم و لا حـــافر ."

و هكذا دارت رحى هذه المعارك التي استغرقت بقية السنة الحاديـــة عشـــرة اســـتنفر فيـــها أصحاب رسول الله ص. في أحد عشر جيشا يتابع ذلك كله غرفـــة عمليـــات بهـــا أبـــو بكر و عمر و على بن أبي طالب و أهل مشورة الخليفة بغـــير كلـــل و لا ملـــل في ســـبيل حفظ الدين فرحمة الله عليهم جميعـــا ..

فائدة :

في مجيء بني حنيفة يعتذرون إلى أبي بكر :

سأل أبو بكر بني حنيفة بعد أن عادوا إلى رشدهم :

" ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل "

قالوا : " يا خليفة رسول الله ، قد كان الذي بلغك مما أصابنا ، كان أمراً لم يبارك الله عز وجل له ولعشيرته فيه .

قال : على ذلك ، ما الذي دعاكم به .

قالوا : كان يقول : " يا ضفدع نقي نقي ، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم يعتدون !!! "

قال أبو بكر : سبحان الله ، ويحكم ، إن هذا الكلام ما خرج من إل (العهد والقرابة) ولا بَرّ ، فأين يذهب بكم !!

ومن هنا يتضح أن الذين ادعوا النبوة إنما دعاهم لذلك حب الزعامة والملك والحقد على قريش وأنه كان من قريش نبي ولم يكن منهم .

بدأ العام الثاني عشر من الهجرة وكان من آثار معارك المرتدين - خاصة وقعة اليمامة- أن استشهد عدد كبير من القراء حملة القرآن مما جعل عمر ينتابه القلق لأن القرآن كان حتى هذه اللحظة مفرقاً بين الصحابة بعضهم يحفظه ولا يكتبه والبعض ممن كلفهم رسول الله ص. بكتابة الوحي كتبوه ولكن لم يتجمع كله عند أحدهم بل كان مفرقاً بينهم . فالأمر متروك بغير جمع كامل واضح ومن ثم نقل عمر قلقه إلى أبي بكر.

جمع القرآن في عهد أبي بكر :

ويروي لنا البخاري القصة بسنده إلى زيد بن ثابت الـذي قـال :

" أرسل إلي أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، وعنده عمر ، فقـال لي أبـو بكـر :

إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامـة بالنـاس ، وإني أخشـى أن يسـتحر القتل بالقراء في المواطن كلها ، فيذهب كثـير مـن القـرآن إلا أن تجمعـوه ، وإني لأرى أن يجمع القـرآن .

قال أبو بكر فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعلـه رسـول الله ﷺ .

فقال : هو والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلـك صـدري ورأيـت الـذي رأى عمـر .

قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لي أبـو بكـر :

إنك لرجل شاب عاقل لا نتـهمك ، كنـت تكتـب الوحـي لرسـول الله ص. فتتبـع القرآن فاجمعـه .

قال زيد : فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني بـه مـن جمـع القـرآن .

قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعلـه رسـول الله ﷺ .!!

فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه ، حتى شـرح الله صـدري للـذي شـرح صدر أبي بكر وعمـر . "

فماذا فعل زيـد ؟!

استعان بالحفظة الكرام من صحابة النبي ﷺ . ، ووضع خطـة مثاليـة دقيقـة ...

فلم يعتمد على حفظه وإنه لحافظ ،ولا على حفظ مـن اسـتعان بهـم ، وإنهـم لحفـاظ

أمناء ولكنه كان لا بد أن يعتمد على أمـــر مـــادي ، يُـــرى بـــالحس لا يحفـــظ بـــالقلب وحده ، فاشترط شـــرطين :

الشرط الأول :أن يرى ما يحفظه الصحابي من القرآن مكتوبـــاً في عصـــر النـــبي ﷺ .

والشرط الثاني :أن يشهد شاهدان بأهما هكـــذا رأوا ذلـــك المكتـــوب في عصـــر النـــبي ص. وبإملائه عليه الســـلام .

وقد تتبع زيد القرآن بهذه الطريقة آية آية يجمعه من العســـب (جريـــد النخـــل) واللخـــاف (صفائح الحجارة) والرقاع (تكون مـــن جلـــد أو ورق) وصـــدور الرجـــال ... ولكنـــه وجد آيتين لم يشهد اثنان بأهما كتبتا في عصر النبي ص. بـــل شـــهد واحـــد فقـــط وهـــو خزيمة بن ثابت الأنصاري ، وكان النبي ص. قـــد قـــال لـــه تكريمـــا شـــهادتك بـــاثنين ، فاستوفت الآيتان الشـــرط .

ولما أتم زيد ما كتب ، تذاكره الناس وأقروه فكان المكتـــوب متواتـــرا بالكتابـــة ومتواتـــرا بالحفظ في الصدور ، وما تم هذا لكتاب في الوجود غـــير القـــرآن ... وحفـــظ الله قرآنـــه من الضياع كما وعد سبحانه وتعالى : (إنا نحن نزلنـــا الذكـــر وإنـــا لـــه لحـــافظون) . ولكنه حفظه على أيدي رجال عاشوا للإسلام و انشغلوا به في كـــل لحظـــة مـــن حيـــاهم فكان هذا الجمْع الأول للقرآن ولله الحمـــد والمنـــة .

بدء غزو العراق (بلاد فارس)

وفي المحرم سنة ١٢ هـــ أمر أبو بكر خالد بن الوليد وعيـــاض بـــن غنـــم أن يســـيروا إلى العراق كل من طريق ، وأيهما يسبق الآخر فهو القائد العـــام .فاســـتطاع خـــالد أن يحقـــق انتصارات متوالية في اثنتي عشرة موقعة ، بينما تعثر جيـــش عيـــاض عنـــد دومـــة الجنـــدل وتوقف عاما كاملا محصورا من الروم ومحاصرا لفئة منهم حتى وصـــل إليـــه خـــالد .

بدء غزو الشام (بلاد الروم)

وفي رجب من نفس العام أرسل أبو بكر أربعة جيوش متفرقة إلى الشام وهي :

١ - جيش بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى دمشق .

٢ - جيش بقيادة شرحبيل بن حسنة إلى الأردن .

٣- جيش بقيادة أبي عبيدة بن الجراح إلى حمص .

٤- جيش بقيادة عمرو بن العاص إلى فلسطين .

ولكن هذه الجيوش الأربعة واجهت متاعب كثيرة في مواجهة الروم وعندئذ قرر أبو بكر أن ينقل خالداً وفئة ممن معه إلى الشام وقال :

والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد وكان ذلك في صفر سنة ١٣ هـ .

فائدة : في جندية أصحاب رسول الله ﷺ .

كان عمرو بن العاص عاملاً على صدقات قضاعة ... فكتب إليه أبو بكر يستنفره إلى غزو بلاد الشام :

" وإني قد رددتك على العمل الذي ولاكه رسول الله ﷺ . وسماه لك أخرى ، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك "

فكتب إليه عمرو بن العاص قائلا :

" إني سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامي بها ، والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بي فيها . "

وهكذا مضت أيام أبي بكر في عمل متواصل من أجل نصـــرة الديـــن ، فلـــولا أن قيـــض الله للأمة أبا بكر لهلك النـــاس ...

إنه عطاء متواصل قبل الخلافة وبعدها ومع ذلك لم يكن أبو بكر يرى نفســـه أهـــلا لهـــذه المكانة وهذه المنزلة . وانظر إلى ما يرويه البخاري في تاريخـــه عـــن ســـفيان عـــن عبيـــدة قـــال:

" جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر رضـــي الله عنـــه فقـــال :

يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضا سبخة ، وليس فيها كـــلأ ولا منفعـــة ، فـــإذا أردت أن تقطعناها ، لعلنا نحرثها أو نزرعـــها ؟

فأقطعهما أبو بكر إياها ، وكتب لهما عليه كتابـــا ، وأشـــهد في ذلـــك عمـــر و لم يكـــن حاضرا ، فقال لهما : انطلقا إلى عمـــر فأشـــهداه .

فلما سمع عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما ، ثم تفل فيه ومحـــاه فتذمـــرا وقـــالا مقالـــة سيئة .

وقال عمر لهما : إن رسول الله ص. كـــان يتألفكمـــا والإســـلام يومئـــذ ذليـــل ، وإن الله قد أعز الإسلام ، فاذهبا جهدكما لا رعى الله عليكمـــا إن رعيتمـــا .

فأقبلا إلى أبي بكر وهما يتذمران ، فقـــالوا : والله لا نـــدري أنـــت الخليفـــة أم عمـــر ؟ !

فقال أبو بكر : بل هو ، ولو شاء كـــان .

فجاء عمر مغضبا حتى وقف على أبي بكـــر فقـــال : أخـــبرني عـــن هـــذه الأرض الـــتي أقطعتها هذين الرجلين ، أرض لك خاصة أم هي بـــين المســـلمين عامـــة ؟ !

قال : بل هي بين المسلمين عامـــة .

قال : فما حملك أن تخص هذين بها دون جماعـــة المســـلمين ؟

قال : استشرت هؤلاء الذين حولي فأشاروا علـــي بذلـــك .

قال : فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك أوكل المسلمين أوسـعت مشـورة ورضـى ؟

فقال له أبو بكر : قد كنت قلت لك : إنك أقوى على هذا مـني ، ولكنـك غلبتـني . "

هكذا كان يرى أبو بكر حقيقة نفسه ، لم يخدعـه المنصـب و لم تغـره إنجازاتـه العظيمـة حتى كان **يوم وفاته في ٢٢ من جمادى الآخرة سـنة ١٣ هجريـة .**

" جاءت عائشة إلى أبي بكر ، وهو يعالج ما يعالج الميت ، فتمثلـت هـذا البيـت :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى — إذا حشرجت يوما وضـاق بها الصـدر

فنظر إليها كالغضبان ، ثم قال : ليس كذلك يا أم المؤمنـين ، ولكـن قـولي :

" وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منـه تحيـد ."

ثم قال لها : إني كنت نحلتك حائطـا ، وإن في نفسـي منـه شـيئا ، فرديـه إلى المـيراث

فقالت : نعم ، فردتـه ...

فقال : أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين ، لم نأكل لهم دينارا ولا درهما ، ولكنـا قـد أكلنـا من جريش طعامهم في بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم علـى ظـهورنا ، وليـس عندنـا من فئ المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي ، وهـذا البعـير النـاضح ، وجـرد هذه القطيفة ، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر ، وارثـي فيـهن ... ففعلـت .

فلما جاء الرسول عمر بكى وهو يقول : رحم الله أبا بكر ، لقـد أتعـب مـن بعـده ... يا غلام ارفعـهن ...

فقال عبد الرحمن بن عوف وكان عنده : سـبحان الله ، تسـلب عيـال أبي بكـر عبـدا حبشيا وبعيرا ناضحا وجرد قطيفة ثمنه خمسـة دراهـم ؟!

قال : فما تـأمر ؟

قال : تردهن على عياله .فقال : لا والله ، لا يكون هـذا في ولايـتي أبـدا ، ولا خـرج أبو بكر منهن وأردهن أنا على عياله ، الموت أقرب مـن ذلـك .

خلافة عمر بن الخطاب
من ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ إلى ٢٦ من ذي الحجة سنة ٢٣هـ فتكون مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام

كيف كان استخلاف عمر؟

حينما أحس أبو بكر أن مرضه هذا هو مرض الوفاة أراد أن يرشح للمسلمين من يحمل التبعة بعده خوفاً عليهم من الاختلاف ، فهداه فكره إلى ترشيح عمر ، وجعل يستشير الصحابة ممن هم أهل الحل والعقد في هذا الترشيح . فاستشار عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وسعيد بن زيد ، وأُسيد بن حضير ، وغيرهم من المهاجرين والأنصار ، وبعد محاورات مع أبي بكر أجمع القوم على الموافقة على هذا الترشيح .. ربما اعترض البعض على عمر من ناحية غلظته وشدته ولكنه في النهاية كان ينشرح صدره بعد أن يقنعه أبو بكر.

فلما اطمأن أبو بكر إلى أن أصحاب الرأي والمشورة قد وافقوا على استخلاف عمر أمر أهله أن يحملوه والناس مجتمعة بالمسجد ، فأشرف عليهم من حجرة مطلة على المسجد وقال :

" أيها الناس ، أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فإني والله ما آلوت من جهد الرأي ، ولا وليت ذا قرابة ، وإني قد وليت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا "

قالوا : سمعنا وأطعنا ...

عندئذ دعا أبو بكر ربه :" اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، فعملت فيهم ما أنت به أعلم واجتهدت لهم رأياً ، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم ، وأحرصهم على ما أرشدهم"

وفي اليوم التالي لوفاة أبي بكر دفن بجوار رسول الله ﷺ . وجعل الناس يتتابعون إلى المسجد يبايعون عمر بن الخطاب وكان ذلك في ٢٣ من جمادى الآخرة سنة١٣هـ.

وهكذا أجمعت الأمة على استخلاف سيدنا عمر بن الخطاب ...

ذلك الرجل الذي قال عنه رسول الله ص. فيما أخرجه البخاري في صحيحه :

" لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون ، فإن يكن في أمتي أحدٌ فإنه عمر "

ومعنى محدَّثون أي ملهمون . وفي رواية أخر ى للطبراني أن الرسول ﷺ . سُئل:"كيف محدَّث ؟ قال : (تتكلم الملائكة على لسانه) ومن ثم رأينا القرآن يوافق عمر في مواضع عديدة .

ولننتقل الآن إلى عهد سيدنا عمر وهو عهدٌ واصل فيه عمر مسيرة سلفه أبي بكر فيما بدأه من فتوحات .

الفتوحات من ناحية الروم (بلاد الشام)

أمر أبو بكر خالداً أن ينتقل من العراق إلى الشام ومعه طائفة من جيش العراق . وفضل خالد أن ينتقل عبر بادية الشام المعروفة ببادية السماوة ، وهو طريق لم يعبره جيش قط قبل خالد ، وذلك لوعورته وقلة الماء فيه ، ولكن خالداً فضله لأنه يريد أن يباغت العدو فيترل من خلفهم .

ووصل خالد إلى الشام بعد طول عناء واجتمع مع قادة الجيوش الأربعة التي بعثها أبو بكر إلى الشام ، فوجد خالد أنه لا بد من توحيد الجيوش كلها تحت قيادة واحدة ،

ولكنه كان هناك حرج فيمن يتولى القيادة العامة لهذه الجيوش فلجأ خالد إلى أسلوب رائع في إقناع القوم وفي نفس الوقت لا يجرح مشاعر أحد القادة الأربعة الذين بعثهم أبو بكر قبله فكان مما قاله لهم :

(**هلموا فلنتداور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غدا ، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ،و دعوني إليكم اليوم** ...) فأمروه وهم يرون أن الأمر أطول مما صاروا إليه ، فاجتمعت بذلك كلمة الجيش على خالد بن الوليد قائدا لهذا اليوم...

فقسم خالد الجيش إلى كراديس (فرق) كل فرقة من ألف رجل يقودهم أشجع القادة ليظهر بذلك أن المسلمين كثرة ...

معركة اليرموك ٤ من رجب سنة ١٣ هجرية :

و كانت مواجهة عند نهر االيرموك

وعدد المسلمين يومها أربعون ألفا (٤٠,٠٠٠)

و عدد الروم مائتان و خمسون ألفا (٢٥٠,٠٠٠)

فكان تفوق الروم في العدد و العتاد بارزا حتى قال رجل من المسلمين مستهولا المنظر: (ما أكثر الروم و أقل المسلمين) فسمعها خالد فغضب و صاح : **بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر و تقل بالخذلان ، و الله لوددت أن الأشقر ــ يعني فرسه ــ براء من توجيه و أنهم أضعفوا في العدد**

و كان فرس خالد قد حفي من مشيه الطويل ببادية الشام ...

إن هذه الكلمات لتنم عن قائد رباني يعلم أنه ليست العبرة بالكثرة وإنما العبرة في الفئة التي يكون معها الله تبارك و تعالى ولو قلَّت ، بل و يقول إن وجود فرسه معه في هذه المعركة أحب إليه من لو كان عدد عدوه الضعف !!!

و أمر خالد بتلاوة سورة الأنفال قبل المعركة .. و قام أبو هريرة يذكر الناس و كذلك فعل أبو سفيان ..فثبت الناس .

و بينما المسلمون كذلك إذ جاء بريد الخليفة يتخطى الناس و يسأل عن خالد و الناس وراءه يريدون أن يعرفوا أخبار المدينة ، و البريد يبشرهم بالخير حتى وصل إلى خالد و أخبره بوفاة أبي بكر الصديق فسُرَّ خالد من حسن تصرف البريد ، و أسر الخبر حتى لا يجزع الجند ..و تواجه الفريقان و نشبت معركة وصفها ابن كثير بقوله : (حامية الوطيس ، مستعرة الأوار، السيوف تخطف الأرواح ، و تزيل الهام ، و تفرى الأجسام).

إسلام قائد من قواد الروم :

و أثناء المعركة خرج أحد أمراء الروم الكبار من الصف و كان اسمه جرجه و استدعى خالد بن الوليد ، فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما فقال جرجه : يا خالد ! أخبرني و لا تكذبني فإن الحر لا يكذب و لا تخادعني فإن الكريم لا يخادع ...هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على أحد إلا هزمتهم ؟

قال : لا ، قال : فَبِم سُميت سيف الله ؟

قال : إن الله بعث فينا نبيه فدعانا و نفرنا منه و نأينا عنه جميعاً ثم إن بعضنا صدقه و بعضنا كذبه و باعده ، فكنت فيمن كذبه و باعده ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا و نواصينا

فهدانا به و بايعناه ، فقال لي : أنت سيف من سيوف الله ، سله الله على المشركين و دعا لي بالنصر ، فسميت بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين .

فقال جرجه : يا خالد ! إلام تدعون ؟

قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله و الإقرار بما جاء من عند الله عز و جل .

قال : فمن لم يجبكم ؟

قال : فالجزية و نمنعهم .

قال : فإن لم يعطها ؟

قال : نؤذنه بالحرب ثم نقاتله .

قال : فما منزلة من يجيبكم و يدخل في هذا الأمر اليوم ؟

قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا و وضيعنا و أولنا و آخرنا .

قال جرجه : فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر و الذخر ؟

قال : نعم و أفضل .

قال : و كيف يساويكم و قد سبقتموه ؟

قال : إنا قبلنا هذا الأمر عنوة و بايعنا نبينا و هو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء يخبرنا بالكتاب و يرينا الآيات ، و حق لمن رأى ما رأينا و سمع ما سمعنا أن يسلم و يبايع ، و إنكم أنتم لم تروا ما رأينا و لم تسمعوا ما سمعنا من العجائب و الحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة و نية كان أفضل منا .

فقال جرجه : بالله لقد صدقتني و لم تخادعني ؟

قال خالد : تالله لقد صدقتك و إن الله ولي ما سألت عنه .

فعند ذلك قلب جرجه الترس و مال مع خالد و قال : علمني الإسلام .

فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين ..

وظنت جنود الروم أن جرجه يحتال على خالد فلما رأوا انقلابه إلى خالد حمّسهم ذلك ظناً أنه نجح في حيلته فهجموا على مواقع المسلمين في هذه الناحية فأزالوهم عن موقفهم و لكن خالداً وجرجه خرجا من الخيمة وجرجه يقاتل في صفوف المسلمين ، فتنادى المسلمون وثابوا وتراجعت الروم ... وجعل خالد وجرجه يعملان بسيوفهما في جند الروم ، واستشهد جرجه في هذه المعركة و لم يُصَلِّ لله سوى هاتين الركعتين !!!

وانتهى يوم اليرموك وكان الظفر فيه للمسلمين ، واستشهد منهم ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) وقتل من الروم اثنا عشر ألفاً (١٢٠٠٠) .

وفرت جيوش الروم إلى دمشق وفرّ هرقل إلى إنطاكية.

هرقل ينسحب الى ما وراء جبال طوروس

جبال طوروس

انسحاب هرقل الى انطاكية

انطاكية

قبرص

حماة

حمص

سوريا

الجيش الرومي الى اجنادين

البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم)

تقدم جيش الروم للمرة الثانية

دمشق

وصول مدد خالد ابن الوليد من العراق قاطعا صحراء الشام

صحراء الشام

اليرموك

درعا

الأردن

اجنادين

١ – جيش يزيد إلي دمشق

٢ – جيش شرحبيل إلى الأردن

٣ – جيش أبي عبيده إلى حمص

٤ – جيش عمرو بن العاص إلى فلسطين

خريطة رقم ٢: توضح تتابع الفتوحات فى بلاد الشام



روي أن هرقل قال وهو على إنطاكية لما قدمت الـــروم منهزمـــة :
ويلكم أخبروني عن هؤلاء الذين يقاتلونكم أليسوا بشـــراً مثلكـــم ؟
قالوا : بلـــى .
قال : فهل أنتم أكثر أم هـــم ؟
قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كـــل موطـــن .
قال : فما بالكم تنـــهزمون ؟
فقال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليـــل ويصومـــون النـــهار ، ويوفـــون بالعهد ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكـــر ، ويتنـــاصفون فيمـــا بينـــهم ، ومـــن أجل أننا نشرب الخمر ونزني ونركـــب الحـــرام وننقـــض العـــهد ، ونغضـــب ونظلـــم ونأمر بالسخط وننهى عما يُرضـــي الله ونفســـد في الأرض . "
فقال هرقل : أنت صدقتـــني !!

عمر يعزل خالد بن الوليد

وكانت هذه البطولات المتتالية والتي بدأت بـــالعراق ثم الرحلـــة المعجـــزة عـــبر الصحـــراء إلى الشام ، ثم انتصار اليرموك كلها بقيادة خالد بـــن الوليـــد ...

ثم مع انتقال أمور الخلافة إلى سيدنا عمر بن الخطـــاب كـــانت أول أعمـــال عمـــر هـــو اتخاذه قرارا بعزل خالد من قيادة الجيش ، وتعيين أبي عبيـــدة بـــن الجـــراح قـــائدا عامـــا لجيوش الشـــام .

ترى لماذا كان العزل وخالد قد تحقق على يديه كل هـــذه الانتصـــارات ؟

والحقيقة أنه حدث قيل وقال في هذه المسألة مـــن أنـــاس لا ينظـــرون إلى الأحـــداث بـــين الصحابة الأجلاء إلا من منظورهم المادي الـــذي يعيشـــونه ...

يقول الأستاذ العقاد عند حديثه عن سبب العزل :

(فقال أناس – أي في سبب العزل – منافسة الند للند ، والشبيه للشبيه ، وقال أناس عزله لغير خطأ أتاه ، وقال أناس ثارة قديمة ولولاها ما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده)

ثم يقول : (فمن شاء أن يخبط بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله ، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته ، وأمسك عن الخوض في أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى ، وكتب إلى الأمصار يبرئه من الخيانة ، ويعلمهم " أنه لم يعزله لسخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فُتِنوا به ...

ثم قال : " فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة "

ولما سأله خالد في ذلك قال له : " إن الناس فتنوا بك فخفت أن تفتتن بالناس . "

والحقيقة أن الموضوع أبسط من ذلك و لم نسمع عن ضجة حدثت في زمن الحادثة ، فلم يتمرد جند خالد و لم يتمرد خالد نفسه ، ذلك لأن خالداً يثق في عمر هذه واحدة، وهو ولي أمر المسلمين وله حق السمع والطاعة في غير معصية وهذه ثانية ، وأن خالداً يعمل لله مخلصاً لا يبغي منصب ولا زعامة ، إن كان في الساقة كان في الساقة ، وإن كان في المقدمة كان في المقدمة . فما عليه أن يكون اليوم أميراً وغداً جندياً ، وهذه هي علامة الإخلاص وابتغاء الآخرة ، ولا يشك أحدٌ أن ذلك ما يحمله قلب خالد وهو الذي يحدث جنده عن أحب شيء إليه في الحياة فيقول :

" ما ليلة يُهدَي إليّ فيها عروس أنا لها محب ، أو أُبَشَّرُ بغلام ، أحبُّ إليّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أُصَبِحُ فيها العدو فعليكم بالجهاد ".

واسمع يا أخي إلى بساطة الأمر في رواية الإمام أحمد عن عبد الملك بن عمير قال :

" استعمل عمر أبا عبيدة بن الجراح على الشام وعزل خالد بن الوليد ، فقال خالد بعث عليكم أمين هذه الأمة ، سمعت رسول الله ص. يقوله ، فقال أبو عبيدة : سمعت رسول الله ص. يقول : " خالد سيف من سيوف الله . فنعم فتى العشيرة ".

ومما يرويه الطبري في تاريخه : (أن أبا عبيدة دفع كتاب توليته وعزل خالد إلى خالد بعد وصول الكتاب بنحو عشرين يوما ، فلما قرأه خالد أعظم ذلك فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة فقال له : يغفر الله لك ، أتاك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك ؟ فقال أبو عبيدة : وأنت يغفر الله لك ، ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وما كنت لأكثر عليك حزنك حتى ينقضي ذلك كله ، ثم قد كنت أعلمك إن شاء الله ، وما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل، وأن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن أخوان وقوام بأمر الله تعإلى ، وما يضير الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ودنياه ، بل يعلم الوالي أنه يكاد يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة لما تعرض من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل ، وقليل ما هم .)

الله الله عليك يا خالد ... الله الله عليك يا أبا عبيدة ...

إن القلب ليهتز وإن العين لتدمع حينما ترى حقائق المواقف ... هؤلاء القمم يريد أعداء الله عز وجل أن يهزوا ثقتنا فيهم ، ويعاونهم للأسف في ذلك كتاب مسلمون لا يمتون إلى العلم بصلة حتى لا يجد المسلمون في تاريخهم شيئا يقتدون به ويفخرون به...

وبعد فإننا نجزم أن دافع عمر الفاروق لعزل خالد سيف الله هو أن عمر خاف على ضعاف الإيمان من المسلمين الفتنة أن يظنوا ولو للحظة أنه لولا وجود خالد في إمارة

الجيش لما كان النصر وهذا ينافي العقيدة السليمة ، وعمر من طبيعتـــه لا يفــوت مــا مــن شأنه أن يفسد قلوب المســـلمين ... ومـــن ثم وبكـــل بســـاطة ، ودون توقـــع حـــدوث مشكلة عزل عمر خالدا ... واستمرت انتصـــارات المســـلمين ... واســـتمر خـــالد قـــائد الفرقة في جيش أبي عبيدة ... لم يصب بإحباط ... لم يفقـــد حماســـته ... بـــل انظـــر إلى صنيعه عند فتح دمشق بعد قليـــل ...

ولنعد الآن إلى سرد أحداث الفتوحات بعد معركـــة الـــيرموك ...

بعد انسحاب جيوش الروم إلى دمشق و انسحاب هرقـــل إلي أنطاكيـــة عـــاودت الجيـــوش الرومية التجمع مرة أخرى فتجمع ثمانون ألفا بمكان يســـمى فحـــل بغـــور الأردن .

فائدة : في شهادة غربية

يقـول أرنولـد في كتـاب (الدعـوة الإسـلامية) : (ولمـا بلـغ الجيـش الإسـلامي وادي الأردن وعسـكر أبـو عبيـدة في فحـل كتـب الأهـالي المسـيحيون في هـذه البـلاد إلي العـرب المسـلمين يقولـون : (يا معشر المسلمين : أنتـم أحـب إلينـا مـن الـروم وإن كـان الـروم علـى ديننـا ، أنتـم أوفـى بنـا ، وأرأف بنـا ، وأكـف عـن ظلمنـا ، وأحسـن ولايـة علينـا ، ولكنهم غلبونا علـى أمرنـا ومنازلنـا ..)

(وغلـق أهـل حمـص أبـواب مدينتـهم دون جيـش هرقـل وأبلغـوا المسـلمين أن ولايتـهم وعدلهم أحب إليهم من ظلـم الإغريـق وتعسـفهم) .

و احتار أبو عبيدة أيبدأ بدمشق و يتركز فيها أم يعـــود إلى فحـــل ؟

فكتب إلي أمير المؤمنين عمـــر يصـــف لـــه الموقـــف فجـــاءه مـــن عمـــر الـــرد التـــالي والذي يدلنا على متابعة واعيـــة مـــن الخليفـــة :

ابدأ بدمشق فإنها حصن الشام و بيت مملكتهم ، فانهد لها ، و اشغلوا عنكم أهل فحل بخيول تكون تلقاءهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب ، وإن فتحت دمشق قبلها فسر أنت ومن معك واستخلف على دمشق ، فإذا فتح الله عليكم فحل* فسر أنت وخالد إلى حمص واترك عمرو بن العاص وشرحبيل على الأردن وفلسطين ...

حقا إنها رسالة تدل على متابعة دقيقة من عمر وأهل مشورته للعمليات الحربية أولا بأول وبوعي دقيق رغم اتساع العمليات ...

فتح دمشق

توجه الجيش المسلم نحو دمشق ووصلوا إليها من ناحية الشرق ، وبدأ الجيش يحيط بالمدينة ويحاصرها ... كانت دمشق مدينة مسورة ، أسوارها شاهقة ، بارتفاع حوالي ستة أمتار وعرض حوالي ثلاثة أمتار ، وكان لأسوارها أبواب ضخمة ، وأحيطت هذه الأسوار بخندق مملوء بالمياه بعرض ثلاثة أمتار وعميق فكانت المدينة محصنة تحصينا شديدا ... لذا استمر الحصار لها عدة أشهر ... حتى جاءت أشهر البرد وبدأت المؤن تقل لدى أهل دمشق ... وكانت عيون المسلمين لا تنام ... وكان لخالد عيونه الخاصة كقائد فرقة ... فجاءه خبر ذات ليلة أنه ولد لأحد كبراء الروم مولود فأولموا لذلك وسكروا ، وغفل الروم عن الحيطة والحذر ... فلم

يضيع خـــالد هـــذه الفرصـــة فاســـتدعى شـــجعان الفرســـان مـــن المســـلمين وكـــان معهم سلالم قد أعدوها لمثـــل هـــذا الاحتمـــال ...

فخاض خالد في ماء الخندق ومن معه وهـــم يحملـــون الســـلالم ، واســـتطاعوا أن يعلقـــوا السلالم على الأسوار واستطاع خالد بذلك أن يفـــاجئ العـــدو ، ونزلـــوا علـــى حـــراس الأبواب فقتلوهم وفتحوا الباب عنوة ،وارتفعت أصواهـــم بالتكبـــير.

ودخلوا المدينة وأعملوا القتل في كل من قاومهم ، حـــتى وصـــل بـــاقي الجيـــش وفتحـــت دمشق في رجب سنة ١٤ هجرية ، أي بعد اليرموك بســـنة كاملـــة .

واســـتمر الفتـــح بعـــد ذلـــك في المنـــاطق الداخليـــة مـــن بـــلاد الشـــام دون المنـــاطق الســـاحلية ، وفتحـــت حمـــص وقنســـرين ... حـــتى كتـــب عمـــر إلى عمـــرو بـــن العاص أن يسير إلى إيليـــاء (بيـــت المقـــدس) .

فتح أجنادين :

سار عمرو بن العاص إلى أجنادين حيث كان على الـــروم أرطبـــون القـــائد الـــذي يلـــي هرقل في المكانة عند الروم و كان من أدهى الـــروم ...فحاصرهـــا عمـــرو و اســـتطاع أن يسيطر عليها و فر أرطبون إلى القدس و تحصن بها و أرســـل أرطبـــون إلى عمـــرو رســـالة يقول فيـــها :

(إنك لن تفتح شيئا من فلسطين بعـــد أجنـــادين)

فتح بيت المقدس (إيلياء) :

حاصر عمرو بيت المقدس و منع عنها الإمدادات و عزلهـــا عـــزلا تامـــا و لكـــن المدينـــة استعصت عليه بما حباها الله من موقع حصين جنوب فلســـطين في منطقـــة جبليـــة فـــهي أشبه بقلعة حصينة ...فبعـــث عمـــرو إلى الخليفـــة يستشـــيره و يدعـــوه إلى الحضـــور إلى

الشام بنفسه فكتب إليـه يقـول : (إني أعـالج حربـا كئـودا و بـلادا ادخـرت لـك فرأيك..)

عندئذ عزم عمر على أن يذهب بنفسه إلى بلاد الشام لـيرى الموقـف علـى الحقيقـة ... فأرسل إلى أمراء الأجناد أن يقابلوه بمكان اسمه الجابيه ليوم محـدد سمـاه لهـم ...

و في اليوم المحدد انتظـر الأمـراء وصـول عمـر خليفـة المسـلمين الـذي ذاع صيتـه في بلاد الروم و بلاد فـارس و هابتـه الأمـم ... و إذا بعمـر يقـدم علـى بعـير لـه و كان في استقباله القائد العـام لجيـوش الشـام أبـو عبيـده بـن الجـراح ... فلمـا اقترب عمـر عرضـت لـه مخاضـة فنـزل عـن بعـيره و نـزع موقيـه (نعليـه) فأمسكها بيده و خاض المـاء و معـه بعـيره ..

فقال له أبو عبيده : قد صنعت اليوم عظيما عنـد أهـل الأرض ..

فصك عمر في صدر أبي عبيده و قـال :

" أولو غيرك يقولها يا أبا عبيده ، إنكم كنتم أذل النـاس ، و أحقـر النـاس ، و أقـل الناس، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة بغـيره يذلكـم الله "

و عند وصول عمر إلى الجابية كان اليأس قد بلغ مـداه بـأهل القـدس ، فعزمـوا علـى طلب الصلح ، فذهب وفد من أهل القدس ليقـابلوا عمـر بالجابيـة ، فصالحـهم عمـر على إيلياء و حيزها و الرملة و حيزها و صارت فلسطين بعد ذلك قسـمين : قسـم مـع أهل إيلياء و قسم مع أهل الرملـة ...

وثيقة تاريخية :

دخل عمر القدس ليتسلم مفاتيحـها

و كتب لهم عمر بن الخطاب كتابا به شروط الصلح و هـذا نصـه :

"بسم الله الرحمن الرحيم ... هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان .. أعطاهم أمانا لأنفسهم و أموالهم ، و لكنائسهم و صلبانهم ، و سقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ...

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبانهم فهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بهم من أهل الأرض ، فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية

عمر بن الخطاب

شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف

كتب وحضر : عبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان سنة (١٥ هـ ٦٣٦م).

وبينما كان عمر يملي هذا العهد حضرت الصلاة ، فدعا البطريق عمر للصلاة حيث هو في كنيسة القيامة، ولكن عمر رفض وقال له : أخشى إن صليت فيها أن يغلبكم المسلمون عليها ويقولون : هنا صلى أمير المؤمنين .

وصارت بيت المقدس بهذا العهد آمنة بمن فيها ،وفرح أهل إلياء بما أعطاهم المسلمون من الأمان ووجد أرطبون والمعارضون للصلح فرصة في الخروج من القدس آمنيين فخرجوا إلى مصر حيث ترابط قوات الروم هناك .

وصارت بيت المقدس ولاية إسلامية يتتابع عليها الولاة ، يرعون مقدساتها ويعاملون الوافدين عليها من النصارى بكل سماحة ورفق ... حتى كانت الحروب الصليبية ودخول نصارى أوروبا بيت المقدس سنة (٤٩٣ هـ ١٠٩٩ م) يذبحون المسلمين في هجمة بربرية وحشية باسم المسيح . واستمر احتلالهم لها حتى يوم حطين سنة (٥٨٣ هـ ١١٨٧ م) يوم أن أعلنها صلاح الدين غضبة لله ويحرر بيت المقدس ، ويدخل بيت المقدس يوم من ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ . يوم الإسراء والمعراج ... وسنرى المزيد من التفصيل في حينه إن شاء الله .

فتح مصر : ربيع أول سنة ٢٠ هـ

لما أتم الله على المسلمين فتح بيت المقدس استأذن عمرو بن العاص سيدنا عمر بن الخطاب في فتح مصر ...وكان عمر مترددا بعض الشيء ، ولكن انشرح صدره لبدء هذا الفتح .

ولقد كان عمر يعلم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مصر ما يشجع على التعجل بفتحها ، فعنه قال : قال رسول الله ﷺ :

" إذا فتح الله عليكم مصر ... فاتخذوا منها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض "

فقال أبو بكر : " و لم يا رسول الله ؟ "

قال : "لأنهم و أزواجهم في رباط إلى يوم القيامة "

و في حديث آخر قـــال ﷺ . . :

" إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لكم فيها ذمـــة و رحمـــا "و الرحـــم إشـــارة لأم إسماعيل هاجر المصريـــة ..

و في رواية ". . . . . فـــإن لكـــم فيـــها ذمـــة و صـــهرا " إشـــارة إلى مارية القبطية التي أهداها المقوقس إلى رســـول الله ﷺ ".

توجه عمرو بن العاص بجيشه البالغ عدده ثمانية آلاف نحـــو مصـــر.

سار عمرو بجيشه من فلسطين إلى رفح وانحدر منـــها إلى العريـــش ومـــن العريـــش انحـــدر عمرو بجيشه نحو الغرب ، حتى بلـــغ حصـــن الفرمـــا ... وفيـــه كـــان أول قتـــال بـــين المسلمين والروم واستمر شهرا ... وكان الظفـــر فيـــه للمســـلمين . وخـــرب المســـلمون الحصن تماما بما فيه السفن الحربية حتى لا يستخدمها الـــروم في فرصـــة قادمـــة .

استمر الزحف نحو مصر حتى وصل المسلمون إلى حصـــن بلبيـــس فوجـــدوا قـــوة كبـــيرة من الروم هناك ومعهم قائدهم أرطبون ، وحاصروا الحصـــن لمـــدة شـــهر حـــتى فتـــح الله على المسلمين وقتل أرطبـــون .

ثم زحف المسلمون إلى حصن أم دنين شمال حصـــن بـــابليون فـــأحدثوا في الـــروم مقتلـــة عظيمة ... وتوقع الروم أن يتجه عمرو نحو حصن بابليون مباشرة ، ولكنـــه اتجـــه بجيشـــه غربا فعبر النيل ، وكأنه يريد أن يوهم عدوه أنـــه منصـــرف عنـــهم إلى غـــيرهم ... ثم زاد في تضليلهم فاتجه جنوبا نحو الفيوم ... فلما أشرف عليـــها جاءتـــه أنبـــاء أن الـــروم قـــد حشدت قوات كبيرة بها ...عندئذ لزم عمرو الصحراء فلـــم يبرحـــها ، فاســـتجم الجيـــش بعض الشيء ، وبعث عمرو يطلب مددا مـــن دار الخلافـــة ...

و بعث عمر بمدد إلى عمرو بن العاص و كتب له كتابـــا : " إني قــد أمددتـك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل يقوم مقـام الألـف ."

وكان هؤلاء الرجال الأربعة هم : المقداد بن الأسود ، وعبـادة بـن الصـامت ، والزبـير بن العوام ، ومسلمة بن مخلد الأنصـاري .

فأما ***المقداد بن الأسود*** فهو القائل لرسول الله ﷺ . يوم بـدر مثبتـا :

" يا رسول الله امض بنا حيث أمرك الله ، فوالله لا نقول لـك كمـا قـال بنـو إسـرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، بل اذهب أنـت وربـك فقـاتلا إنـا معكما مقاتلون " فاستبشر رسـول الله ﷺ . خـيرا .

وأما ***عبادة بن الصامت*** فهو أحد الذين جمعوا القـرآن في عـهد رسـول الله ص.

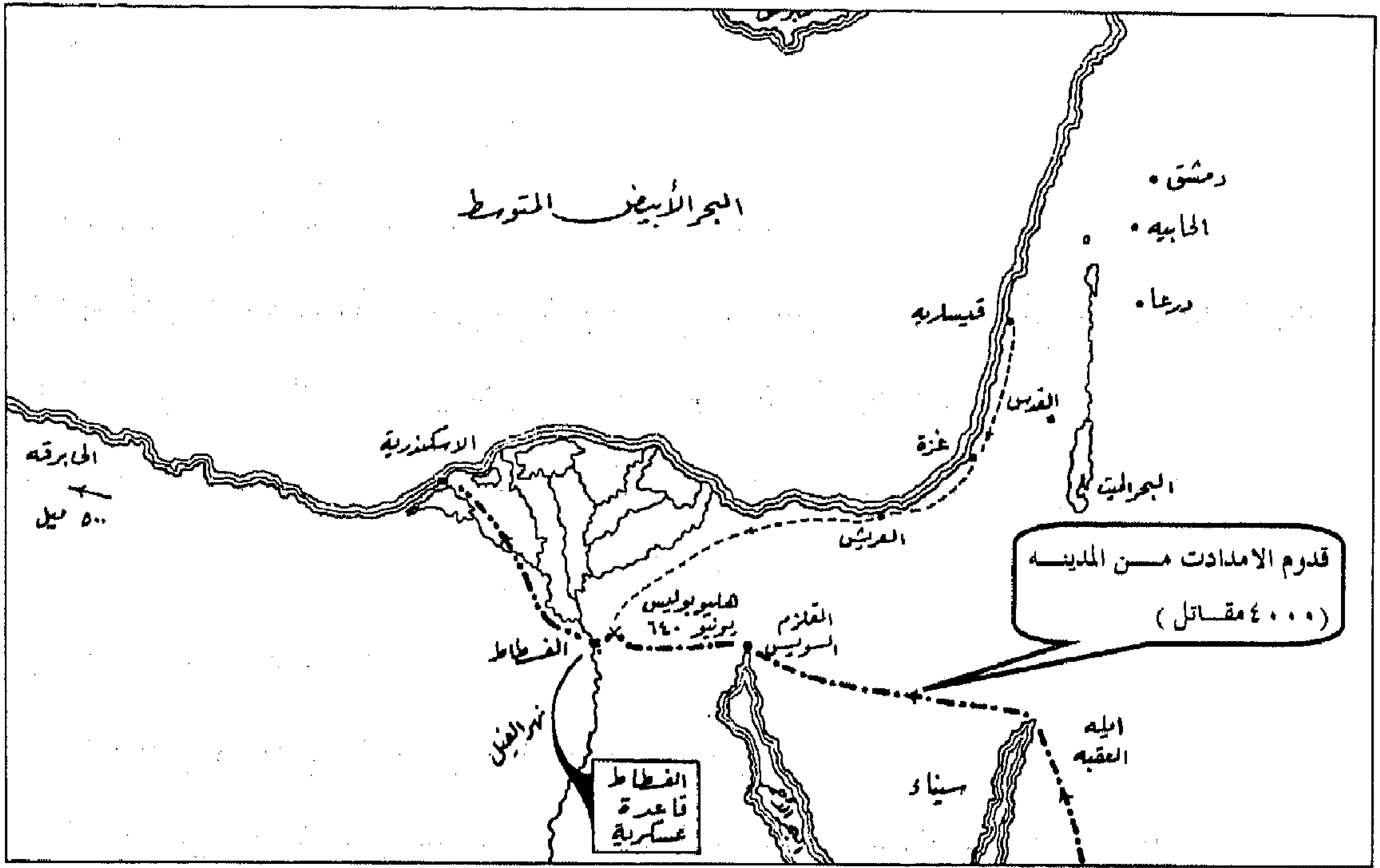
وأما ***الزبير بن العوام*** فهو حـواري النـبي ﷺ .

وأما ***مسلمة بن مخلد*** فقد قال عنه مجاهد إمام التفسـير وقـد عـاصر مسـلمة :" كنـت أرى أني أحفظ الناس بالقرآن حتى صليت خلف مسلمة بن مخلد فقرأ البقـرة كلـها فمـا أخطأ واوا ولا ألفـا " .

هؤلاء يا أخي من أمراء الجند الذين سيفتحون مصـر ، فكلـهم مـن أصحـاب المواقـف ومن حملة القرآن . ولم يكتفوا بالتبرك به ، ولم يكتفـوا بسـابق مواقفـهم المحمـودة مـع رسول الله ﷺ ... ولكنـهم واصلـوا العمـل والعطـاء إلى آخـر رمـق في حيـاتهم ...هؤلاء هم فاتحو مصر وأصحـاب الفضـل علينـا ... فكـم منـا يحفـظ أسمـاءهم ويعرف مناقبـهم؟!

فاحفظ أخي أسماءهم واعرف مآثرهم وأروها لمن حولـك واحكـها لأبنـائك ... لعلـه يخرج من بينهم من يعيد للدين مجده وللإسـلام عـزه .

لقد صار عدد الجيش بذلك أثنى عشـــر ألفـــا ...



خريطة رقم ٣: فتح مصر و الإسكندرية

ودارت معركة سريعة في عين شمس ، ولما وصل المدد توجه عمـــرو نحـــو حصـــن بـــابليون فحاصره شهرا ... ولما طال الحصار وضاق الأقبـــاط أرســـل المقوقـــس إلى عمـــرو بـــن العاص رسالة جاء فيـــها :

(إنكم قوم قد ولجتم بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطـــال مقـــامكم في أرضنـــا ، وإنمـــا أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلكم الروم وجهزوا إليكـــم ومعـــهم مـــن العـــدة والســـلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أســـارى في أيدينـــا ، فـــابعثوا إلينـــا رجـــالا لكـــم نسمع من كلامهم ، فلعله يأتي الأمر بيننا وبينكم على ما تحبـــون ونحـــب ، وينقطـــع عنـــا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقـــدر عليـــه ، ولعلكـــم أن تندموا إذا كان الأمر مخالفا لطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينـــا رجـــالا مـــن أصحـــابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به علـــى شـــيء)

ولما وصلت رسل المقوقس إلى عمرو حبسهم يومين عنده ثم رد على المقوقس برسالة جاء فيها :

(إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال :

إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا،

وإما إن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين) .

فلما عادت الرسل إلى المقوقس وقرأ ما بالرسالة سألهم كيف رأيتم **هؤلاء ؟**

قالوا : (رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، أميرهم كواحد منهم ...)

ثم إن المقوقس ألح على عمرو أن يرسل وفدا للتفاوض معه ، فاختار عمرو عشرة من خيرة رجاله ، على رأسهم عبادة بن الصامت ، وكان رجلا أسمر اللون طويل القامة ، فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة ، فهابه المقوقس لسواده وقال : نحوا عني هذا الأسود .

فقال باقي الوفد : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا ، وعلما ، وقد أمره الأمير دوننا وأمرنا ألا نخالف أمره .

قال المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ؟

قالوا : ليس ينكر السواد فينا .

فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود وكلمني برفق ، فإني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك علي ازددت لذلك هيبة .

قال عبادة : قد سمعت مقالتك ، وإن فيمن خلفت ورائي من أصحابي ألف رجل أشد سوادا مني وأفظع منظرا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي .

ومضى الحوار بين المقوقس وعبادة وانتهى كما سبق إلى الخيارات الثلاثة الحاسمة ... فرفض المقوقس وقومه العرض ، و لم يبق إلا القتال .

ودارت رحى المعركة والقوم يظنون أهم بمأمن داخل حصن بابليون ، فالأسوار عالية والمياه تحيط بالحصن ، وأبوابه محصنة والمؤن كثيرة ...

ولكن المسلمين استطاعوا أن يجتازوا كل هذه الموانع ، واستطاع الزبير بن العوام ومعه نفر من أصحابه أن يسبحوا ويتسلقوا جدران السور إلى داخل الحصن ويفتحوا أبوابه، ودخل المسلمون فظفروا بمن فيه بعد حصار دام سبعة أشهر ...

و لم يجد المقوقس بدا من الاستسلام وطلب الصلح فصالحهم عمرو بن العاص وكتب لهم كتابا جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ... هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان لأنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصليبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ، ولا يساكنهم النوب (أهل النوبة) ، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية ... ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمة المؤمنين.

ونبه المقوقس عمرا أن هذا الصلح لن يعجب هرقل وأنه غير مسئول عما يرتكبه الروم فقال له :(وأنا متمم لك على نفسي ومن معي وأما الروم فأنا برئ منهم ...) فوافقه عمرو .

فتح الإسكندرية محرم سنة ٢١ هـ

ثم أراد عمرو أن يتوجه لفتح الإسكندرية ، فبعث يستأذن الخليفة فأعطاه الإذن ، و لم يكن الطريق إلى الإسكندرية سهلا فحصون الروم منتشرة على طول الطريق ولكن عمرا وجنوده مضوا غير عابئين بهذه العقبات وحاصروا الإسكندرية ثلاثة أشهر ، وقيل أربعة عشر شهرا حتى أن عمر غضب لذلك ،وأرسل إلى عمرو رسالة عنيفة يقول له فيها :

(ما أبطأتم إلا لما أحدثتم من ذنوب فراجعوا أنفسكم ..)

ثم إن المنية وافت هرقل الذي كان يمد الروم بالإمدادات ... فلما مات انقطع المدد عن الإسكندرية ، فوهن عزم المدافعين عنها وتم فتح الإسكندرية .

ومن مشاهد فتح مصر والإسكندرية :

۞ كان عمرو بن العاص قد سلم اللواء لمولاه وردان ، وجعل على المقدمة ابنه عبد الله ، فأصيب عبد الله يومئذ بإصابات بليغة ، حتى أخذ دمه يسيل من أنحاء جسمه ، فلما اشتدت جراحه قال: يا وردان ، لو تقهقرت قليلا نصيب الروح (أي نرتاح) . فقال وردان وهو يتقدم : الروح تريد ؟ الروح أمامك وليس خلفك ...

فاهتز لهذه الكلمات عبد الله ، واندفع يقاتل أعداء الله .. وعلم عمرو بما أصاب ولده، فأرسل يسأل عن جراحه فقال عبد الله :

أقول لها إذا جشأت وجاشت رويدك تحمدي أو تستريحي

فلما رجع الرسول إلى عمرو يحمل له إجابة ابنه فرح عمرو وقال : هو ابني حقا

۞ ولما أتم الله فتح الإسكندرية أرسل عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يبشره بالفتح ، ويروي لنا معاوية بن حديج رسول عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين– قصة قدومه على عمر بن الخطاب فيقول :

۞ " ... فقدمت المدينة في الظهيرة ، فأنخت راحلتي بباب المسجد ، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر ، فرأتني شاحبا علي ثياب السفر ، فأتتني وقالت : من أنت ؟

قلت : أنا معاوية بن حديج رسول عمرو بن العاص ، فانصرفت عني ثم أقبلت تشتد ، أسمع خفيف إزارها على ساقها حتى دنت مني ، فقالت : قم فأجب أمير المؤمنين ... فتبعتها ، فلما دخلت فإذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى ، فقال : ما عندك ؟

قلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الإسكندرية ..

فخرج معي إلى المسجد فقال للمؤذن : أذن في الناس : الصلاة جامعة ... فاجتمع الناس ، ثم قال لي : قم فأخبر أصحابك ، ففعلت ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة ، فدعا بدعوات ثم جلس ، فقال : يا جارية هل من طعام ؟

فأتت بخبز وزيت ، فقال : كل ، فأكلت على حياء . ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟

فقلت : قلت أمير المؤمنين قائل (أي نائم وقت الظهيرة) .

فقال عمر : لبئس ما قلت ... **لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ، ولئن نمت بالليل لأضيعن نفسي** ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟

ولقد لقي أهل مصر – الذين كانوا من طائفة الأرثوذكس – معاملة طيبة من المسلمين بعدما كانوا يسامون سوء العذاب على يد الروم أصحاب المذهب الكاثوليكي حتى أن بطريرك الكرازة المرقسية كان مشردا في تلك الأيام في فيافي الصعيد ومطاردا من بني دينه الأجانب لخلاف مذهبي فرعي ... فأعطاه عمرو بن العاص الأمان .

ومن الشواهد التي تدل على مدى الحرية التي نالها قبط مصر في ظل الإسلام تلك الحادثة التي يرويها المؤرخون ...

يروي أنس : كنا عند عمر بن الخطاب ، إذ جاء رجل من أهل مصر فقال :

يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك فقال : ومالك ؟

قال : أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل ، فأقبلت فرسي (أي سبقت) ، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو بن العاص فقال : فرسي ورب الكعبة .

فلما دنا مني عرفته ، فقلت : فرسي ورب الكعبة . فقام إلي يضربني بالسوط ويقول: خذها وأنا ابن الأكرمين ، وبلغ ذلك عمرا وخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلت منه ، وهذا حين أتيتك ...

فوالله ما زاد عمر على أن قال : اجلس ... ثم كتب إلى عمرو بن العاص :

إذا جاءك كتابي هذا فأقبل ومعك ابنك محمد . وقال للمصري : أقم حتى يأتيك .

فقدم عمرو وابنه على عمر بن الخطاب .

قال أنس : فوالله إنا عند عمر ، إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه ، فإذا هو خلف أبيه .

فقال : أين المصـــري ؟
قال : ها أنـــذا .
قال : دونك والدرة فـــاضرب بهـــا ابـــن الأكرمـــين ، فضربـــه حـــتى أثخنـــه ، ونحـــن نشتهي أن يضربه ، فلم ينـــــزع حـــتى أحببنـــا أن ينـــــزع مـــن كـــثرة مـــا ضربـــه ، وعمر يقول : اضـــرب ابـــن الأكرمـــين .
ثم قال عمر للمصري : اجعلها علـــى صلعـــة عمـــرو ، فـــوالله مـــا ضربـــك إلا بفضـــل سـلطانه.
قال المصري : قد ضربت من ضربني وقـــد اســـتوفيت ...
قال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكـــون أنـــت الـــذي تدعـــه ، ... أيا عمرو **متى استعبدتم الناس وقد ولدهم أمـــهاتهم أحـــرارا .؟!**
ثم التفت عمر إلى المصري وقال : انصرف راشدا فإن رابـــك ريـــب فـــاكتب لي .
ترى ما الذي جعـــل هـــذا المصـــري يقطـــع هـــذه المســـافة الكبـــيرة مـــن مصـــر إلى المدينة يطالب بحقه وقـــد كـــان بـــالأمس القريـــب يســـام ســـوء العـــذاب علـــى يـــد الرومان ولا يرفـــع رأســـه مـــن الذلـــة ؟ لا شـــك أنـــه علـــم يقينـــا أن الخليفـــة ســـينصفه وأن الحريـــة هـــي عطـــاء الإســـلام للبشـــرية ، ويقـــول الدكتـــور عبـــد الصبور شاهين واصفا حال مصـــر في ظـــل الدولـــة الرومانيـــة :
(ولو تتبعنا حال مصر بعد أن صارت ولاية من ولايـــات رومـــا لرأينـــا ظلمـــا وشـــقاء عاني منهما المصريون ، فقد اعتبر القيصر مصر المخزن الـــذي يمـــد رومـــا بحاجتـــها مـــن الغـلال)

ويقول د . حسن إبراهيم :

(وبذلك انحطت درجة العلم والعرفان فيها ، وأغلقت أبواب المناصب العالية أمام المصريين ، وزادت الضرائب في عهد الرومان زيادة كبيرة ، ... حتى أنه كان لا يسمح بدفن الميت إلا بعد دفع ضريبة معينة ...)

ويتعجب المؤرخ الغربي جوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة الغرب من أثر الفاتحين المسلمين في الشعب المصري فيقول :

(... ومهما بعدنا في الرجوع إلى عصور التاريخ وجدنا المصريين أصحاب حضارة تاريخية لم يسهل على الفاتحين أن يؤثروا في أمة تلك حضارتها ، فلقد تتابع غزو الأجنبي لمصر فظلت ثابتة على قدميها ، واستولى الأغارقة والرومان على مصر من غير أن يؤثروا فيها ، ونرى في المباني التي شادها البطالمة والقياصرة على طراز فن العمارة المصري القديم من الأدلة ما يكفي لإثبات الحضارة المصرية القديمة بتوالي القرون).

ثم يقول :

(ولا شيء يستوقف النظر كحفدة قدماء المصريين الذين قاوموا نفوذ الأغارقة والرومان على الخصوص ، ثم اعتنقوا دين العرب ،ولغة العرب ، وحضارة العرب الغالبين وصاروا عربا خالصي العروبة وفي فارس والهند امتزجت حضارة العرب بالحضارة السابقة وفي مصر توارت أمام حضارة أتباع محمد الجديدة حضارة الفراعنة القديمة ، وحضارة اليونان والرومان) .

وهكذا صارت مصر إسلامية خالصة بغير قهر ولا إكراه بل دخل المصريون في دين الله أفواجا لما رأوا من سماحة الفاتحين وأخلاق الأمراء ولله الفضل و المنة..

الفتوحات من ناحية بلاد الفرس ..

ما سبق كان حديثا عن الفتوحات في عهد عمر من ناحية بلاد الشام ولكن على الجانب الآخر كان ملك الفرس قد أوشك على الزوال تماما في سلسلة أحداث متلاحقة فلنعد إلى ذكر الفتوحات في بلاد فارس.

كان بدء الفتوحات بالعراق في محرم سنة ١٢هـ في زمن أبي بكر الصديق وتوقفنا عند أمر أبي بكر لخالد بن الوليد أن يتحول عن العراق إلى بلاد الشام فغادر خالد العراق مستخلفا **المثنى بن حارثة الشيباني** ، والمثنى من قبيلة بكر بن وائل التي تستوطن التجويف الزراعي بين دجلة والفرات والمسمى بالسواد فهو من أعلم الناس بالفرس وطباعهم وأساليبهم في الحرب وهو من حكماء بني شيبان ومن أشجع الناس وهو أشبه بخالد قد قدراته العسكرية ..

رحل خالد ومعه نصف الجيش ولم يبق مع المثنى سوى تسعة آلاف (٩٠٠٠) فبعث يطلب مددا من المدينة ولكن المدد تأخر فقرر المثنى أن يذهب بنفسه إلى المدينة يستعجل المدد واستخلف وراءه بشير بن الخصاصية

عمر يندب الناس لقتال الفرس ولا يجد استجابة

وصل المثنى المدينة قبل وفاة الصديق بيوم .. فلما آلت الخلافة إلى عمر عرض الأمر عليه فندب عمر المسلمين إلى الجهاد في أرض العراق ولكن الاستجابة كانت معدومة وكان الأمر ثقيلا على النفوس يقول الطبري :

(إن قتال الفرس كان من أكره الوجوه عند العرب ، لما عرفوا به من عناد وصبر في القتال ، ولشدة سلطانهم وعزهم وقوة شوكتهم وقهرهم الأمم) ووقف المثنى في الناس خطيبا يهون لهم شأن الفرس ولكن دون فائدة ومرت أربعة أيام ومازال

المسلمون محجمين حتى وقف عمر فوعظ الناس بكلام مؤثر ، وكـــان مـــن آخـــر كلامـــه (فأين عباد الله الصـــالحون ؟) .

فقام رجل من عامة الصحابة اسمـــه **أبـــو عبيـــد بـــن مســـعود الثقفـــي** وقـــال : (أنـــا لها) فحمس ذلـــك النـــاس .. فتتـــابعوا بعـــده حـــتى وصـــل العـــدد إلى ألـــف فقـــط وأنه لأمر مثير للدهشة أن تكـــون هـــذه اســـتجابة المســـلمين .. ولكـــن حـــين نحقـــق في الأمر نلاحـــظ ملاحظتـــين :

الأولى: أن وجهاء القوم وخيارهم قد خرجـــوا في مقدمـــة الجيـــوش إلى الشـــام والعـــراق وهو عدد لا يستهان به يصل إلى خمسين ألفـــاً.

الثانية : أن أبا بكر قد حظر علـــى الذيـــن ارتـــدوا ثم تـــابوا أن يشـــاركوا في الجـــهاد ثم استمر الحظر في زمن عمر .. وهؤلاء كانوا عدداً كبيرا وكـــانوا يشـــعرون بـــالندم علـــى فعلتهم ويتمنون لو تتاح لهم الفرصة ليعلنوا صدق توبتـــهم ويشـــاركوا في الجـــهاد

نقول لقد قرر عمر أن يكون أبو عبيد بن مســـعود الثقفـــي قـــائدا عامـــا علـــى جيـــوش العراق واعترض بعض شيوخ الصحابة بأن أبا عبيـــد ليـــس لـــه خـــبرة كبـــيرة بـــالخطط الحربية والشئون العسكرية ولكن عمر كان يرى أنه كـــان أســـبق المتطوعـــين إلى الجـــهاد في وقت لم يتقدم فيه أحد فهو الأولى بهـــا ثم قـــال لأبي عبيـــد موصيـــا :(إن في جيشـــك أصحاب النبي ﷺ أشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً حـــتى تتبـــين)

كما قرر عمر رفع الحظر الذي فرض على مـــن ارتـــد ثم تـــاب .. فـــاندفعوا ليشـــاركوا جيوش المسلمين المتوجهين إلى بلاد فـــارس

فـائدة:

ولاحـظ أن المثنـى أصبح مـن جنـود أبـي عبيـد بعـد أن كـان قـائدا ولا حـرج فـي ذلـك بالنسبة للنفـوس المخلصـة .

معركة النمارق

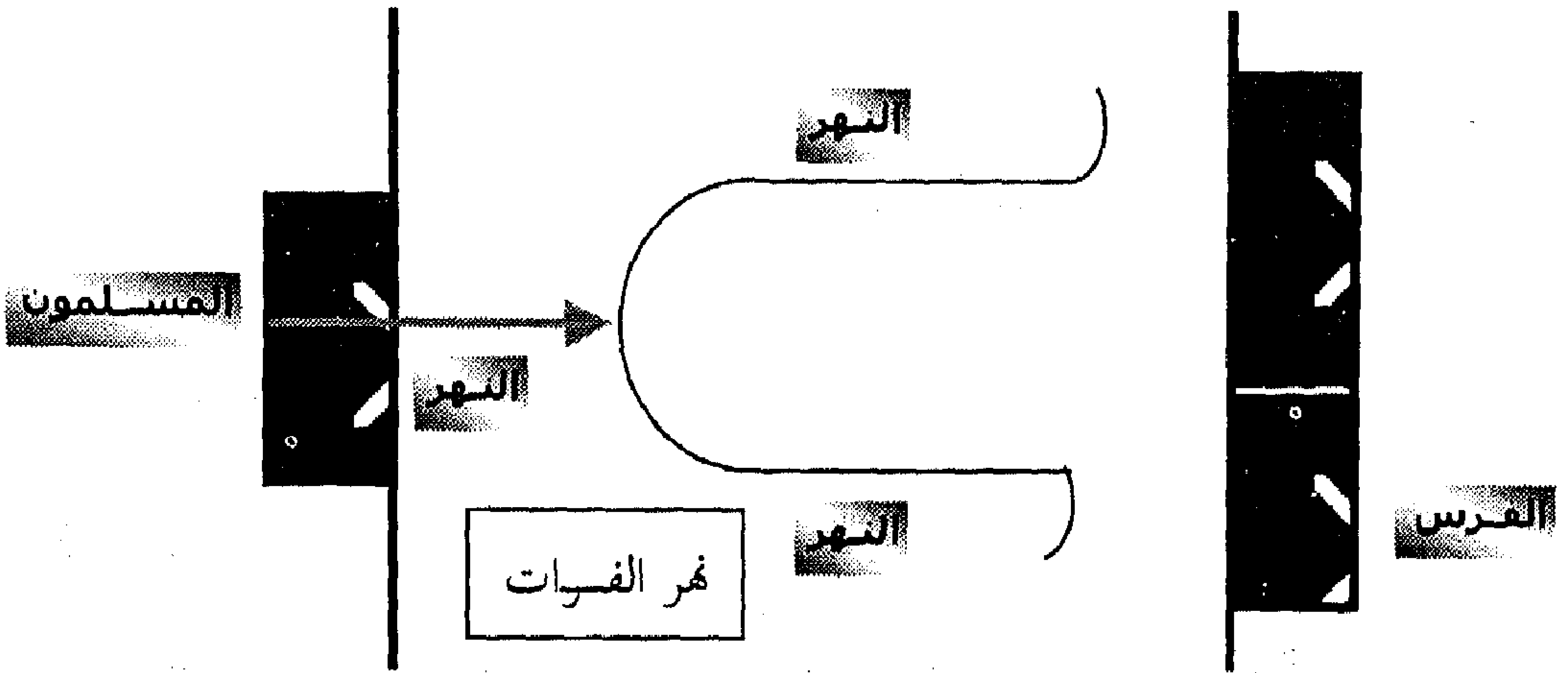
تقدمت جيوش أبي عبيد وعددهم حوالي عشرة آلاف وحققت أول انتصار لها على مائة ألف من الفرس في معركة تسمى النمارق من ناحية العراق وذلك في ٨ من شعبان سنة ١٣هـ

معركة الجسر وأول هزيمة للمسلمين بعد أحد .

وواصل الجيش تقدمه .. ولكن الفرس نظموا أنفسهم وعين عليهم قائد داهية اسمه بهمن ، وجاء الفرس بجيش عظيم ومعهم الفيلة وعسكروا بالناحية الشرقية من نهر الفرات وعسكر المسلمون من الناحية الغربية للنهر وراءهم الصحراء أرض مفتوحة لبلادهم حيث بالإمكان أن تصل الأمداد من جزيرة العرب.

أرسل بهمن رسالة إلى أبي عبيد ... (إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا والعبور إليكم) فاستشار أبو عبيد مستشاريه .. فأجمعوا على عدم العبور وكان فيما قالوه :

(لقد نزلت مترلا لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة وكرة) ولكن أبا عبيد أصر على العبور قائلا: (لا يكونون أجرأ منا على الموت بل نعبر إليهم) فقرر أبو عبيد إقامة جسر يعبر عليه جيشه .. وفرح بهمن باستجابة المسلمين بالعبور فهي التي يريد .. و لم يكتف بهمن بذلك بل حدد المكان الذي يريد أن يلاقي فيه المسلمين فترك لهم على الشاطئ الشرقي رقعة ضيقة من الأرض مكان ضيق يكتنفه رافدان كبيران من روافد نهر الفرات على شكل حرف U فإذا عبر المسلمون فستكتنفهم المياه من ثلاثة جهات ...



رسم كروكي يوضح شكل موقع المعركة

وفي ٢٣ من شعبان سنة ١٣هـ دارت المعركة بدأ الفرس الهجوم بمجرد انتهاء المسلمين من العبور وارتعبت خيول المسلمين من منظر الفيلة ولم تكن تألفه فبطل بذلك مفعول سلاح الفرسان الإسلامي ، ونزل الفرسان من على الخيول يحاربون على أقدامهم .. وأراد أبو عبيد أن يبطل مفعول الفيلة فأمر المسلمين أن يحيطوا بالفيلة ويقطعوا الأحزمة التي تربط التوابيت فوق الفيلة وتوجه هو نحو زعيم الفيلة ليقتله ، ولكن الفيل دهسه وقُتِل رحمه الله .. وكان قد حدد بعده إن هو قتل سبعة قادة من ثقيف (قبيلته) يتولون القيادة على التوالي ، فحاول كلهم قتل الفيل الكبير ولكنهم قتلوا جميعا .. حتى حمل الراية المثنى بن حارثة .

وأمر المثنى الجيش بالفرار عبر الجسر فالجولة خاسرة بكل المقاييس والمسلمون محاصرون... ولكن واحداً من ثقيف لم يعجبه الأمر وأخذته الحماسة وقطع الجسر ، ونادى في الناس : (موتوا على ما مات عليه أميركم أو تظفروا) .. فتأزم الموقف، والناظر إلى الميدان يقول : إن الجيش المسلم سيباد حتماً فلقد بدأ المسلمون يقفزون

في النهر حتى مات ألفان غرقا ... حاول المثنى وفرقة من الصحابة ان يعيدوا إصلاح الجسر .. فرقة تصلح وفرقة تدفع الفرس حتى يتمكنوا من الإصلاح ، خاصة أن الفرس انتبهت لهذه المحاولة فتجمعت عند الجسر . ونجح المسلمون أن يعيدوا بناء الجسر ووقف المثنى ومعه هذه الفرقة يحمون فرار المسلمين حتى لم يبق الا المثنى الذي جرح جرحا مميتا (مات منه بعد شهرين) ولكنه استطاع ان يعبر الجسر ويلحق برفاقه .. وبلغ عدد شهداء المسلمين في هذه المعركة أربعة الاف (٤٠٠٠)

فكانت الهزيمة الأولى والأخيرة على أيدي الفرس

عاد جمع من المسلمين إلى المدينة وقد انهزم نفسيا وأعياه التعب وبقي مع المثنى ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) فقط لم تؤثر فيهم الهزيمة وقد عزموا على الثأر ..

استقبل أهل المدينة العائدين وهم ناقمون عليهم وجعلوا ينادونهم بالفرار وكأنه يوم مؤته .. ولكن عمر نادى في المسلمين : (عباد الله لا تجزعوا ، اللهم إن كل مسلم في حل مني ، أنا فئة كل مسلم ، من لقى العدو فقطع بشيء من أمره فأنا له فئة)

ثم قال: (يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز لنا ولم يستقتل ، لكنا له فئة) ومن فضل الله تعالى أنه لم يلهم الفرس في معركة الجسر أن يلاحقوا المسلمين على الجهة الأخرى حتى يبيدوهم ـ وقد كان هذا سهلا ميسورا في ظل التفوق العددي الملحوظ ـ واكتفوا بذلك فرحا بأول نصر لهم على المسلمين فكأنهم كانوا في حاجة إلى نصر يرفع معنوياتهم المنخفضة

انتقام الأسد الجريح

لم يهدأ المثنى الجريح ولم تهدأ عيونه عن تتبع أخبار الفرس ولم يستسلم المسلمون لجراحاتهم .. وما أن رأت العيون قائدين من قواد الفرس قد خرجا في نزهة على الخيل مع مجموعة من حرسهم في منطقة أليس غربي

النهر حتى خرج المثنى ومعه عدد من المسلمين واستطاع أن يأسرهما ثم يقتلهما .. ليبث بذلك الرعب من جديد في نفوس الفرس .

بدأ عمر بن الخطاب في حشد قوات إضافية لغزو بلاد فارس وجعل التجنيد إجباريا ليدفع بذلك بإمدادات غزيرة إلى العراق وعلمت الفرس ذلك فقرروا إبادة المثنى قبل أن يصل إليه المدد ، وعينوا لذلك قائدا جديدا اسمه : مهران بن باذان على مائة ألف فارس وخمسين ألفا من المشاة ليقضوا نهائيا على المثنى ومن معه .

معركة البويب : رمضان سنة ١٣ هـ

علم بذلك المثنى وكان معسكرا بالحيرة فقرر الانتقال إلى منطقة تسمى البويب غرب الفرات على أطراف الصحراء (مكان واسع المطرد) ليفرض هو هذه المرة على الفرس مكان المواجهة .. كما أرسل المثنى يستعجل المدد ويخبرهم انه غير موقعه .. فلما وصل الخبر إلى المدد تركوا نساءهم وأثقالهم ومعهم مجموعة لحراسته وأسرعوا للحاق بالمثنى قبل المواجهة وفعلا نجحوا في الوصول قبل المعركة وصار بذلك عدد جيش المثنى إثنى عشر ألفا (١٢٠٠٠) ووقف جيش فارس على الناحية الشرقية من النهر وبعث قائدهم بنفس الرسالة التي بعث بها سلفه إلى أبي عبيد وهى ..(إما أن تعبروا الينا وإما أن نعبر اليكم) فأرسل اليهم المثنى (اعبروا) .. كانت هذه المعركة في رمضان سنة ١٣هـ وأمر المثنى جنده أن يفطروا في ذلك اليوم وبدأت المعركة وزحف الفرس ولهم أصوات وصيحات مزعجة ليخيفوا المسلمين .. ولكن المسلمين ثبتوا يومهم هذا وركز المثنى على قلب الجيش الفارسي وفيه قائدهم .. واستطاع أن يقتل قائد الفرس .. فانفرط عقد الجيش .. وأرادوا الفرار .. وكان المثنى قد كلف فرقة تقطع على الفرس خط الرجعة في الوقت المناسب .. فقطع الجسر فلم ينج يومها من الفرس أحد فإما أن يقتل وإما أن يفر تائها في الصحراء .. وبعد المعركة

استمر المثنى يشن غارات متتالية على أسواق الفرس بشمال العراق وكأنها حرب استنزاف .. أرعبت العدو مما دعاهم إلى إعادة النظر في أحوالهم الداخلية والتجمع على ملكهم الشاب يزدجرد .. وإعداد العدة من جديد للمسلمين .

ووصلت تطورات الاوضاع إلى الخليفة عمر فأمر المثنى بالانسحاب من العراق كلها .. وأن يكتفي بالمرابطة على حدود العراق ... ذلك لأن عمر كان يريد أن ينظم جنده ويحشد كل قواه لبدء حملة حاسمة يقضى بها على ملك الفرس تماما ..

فكتب عمر إلى الأمراء في البدو والحضر كتابا جاء فيه .. (لاتدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا إنتخبتموه ثم وجهتموه إلي .. العجل العجل)

وجعل يستشير أصحابه فيمن يعين قائدا لهذه الجولة الحاسمة فاقترحوا عليه **سعد بن أبي وقاص** فوافقهم عمر .. وقد كان اختيارا موفقا فسعد ... أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو الملقب بالأسد في براثنه ، وهو الذي دعا له النبي ص (اللهم سدد رميته وأجب دعوته) وهو سابع سبعة في الإسلام ، أسلم وعمره تسعة عشر عاما .. وهو خال النبي ﷺ .

واستدعى عمر سعدا وأخذ يهيئه للأمر الجلل الذي سيقبل عليه فأوصاه وصية طويلة جاء فيها :

(يا سعد لا يغرنك أن قيل خال رسول الله ﷺ ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، فإن الله تعالى ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة .

هذه عظتي إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين) .

واستطاع عمر أن يحشد عشرين ألفا من المسلمين بالإضافة إلى قوات المثنى أي أن عدد جيش المسلمين سيصير اثنين وثلاثين ألفا (٣٢٠٠٠) كما أصدر عمر أمرا إلى أمراء جيوش الشام أن يرسلوا من كان بالعراق قبل انتقاله إلى الشام مع خالد بن الوليد .

وكان في جيش سعد بضعة وسبعون بدريا (أي من شهدوا بدرا) وربما يقول قائل: لماذا تاخر هؤلاء البدريون في الخروج للفتوحات حتى الآن ؟

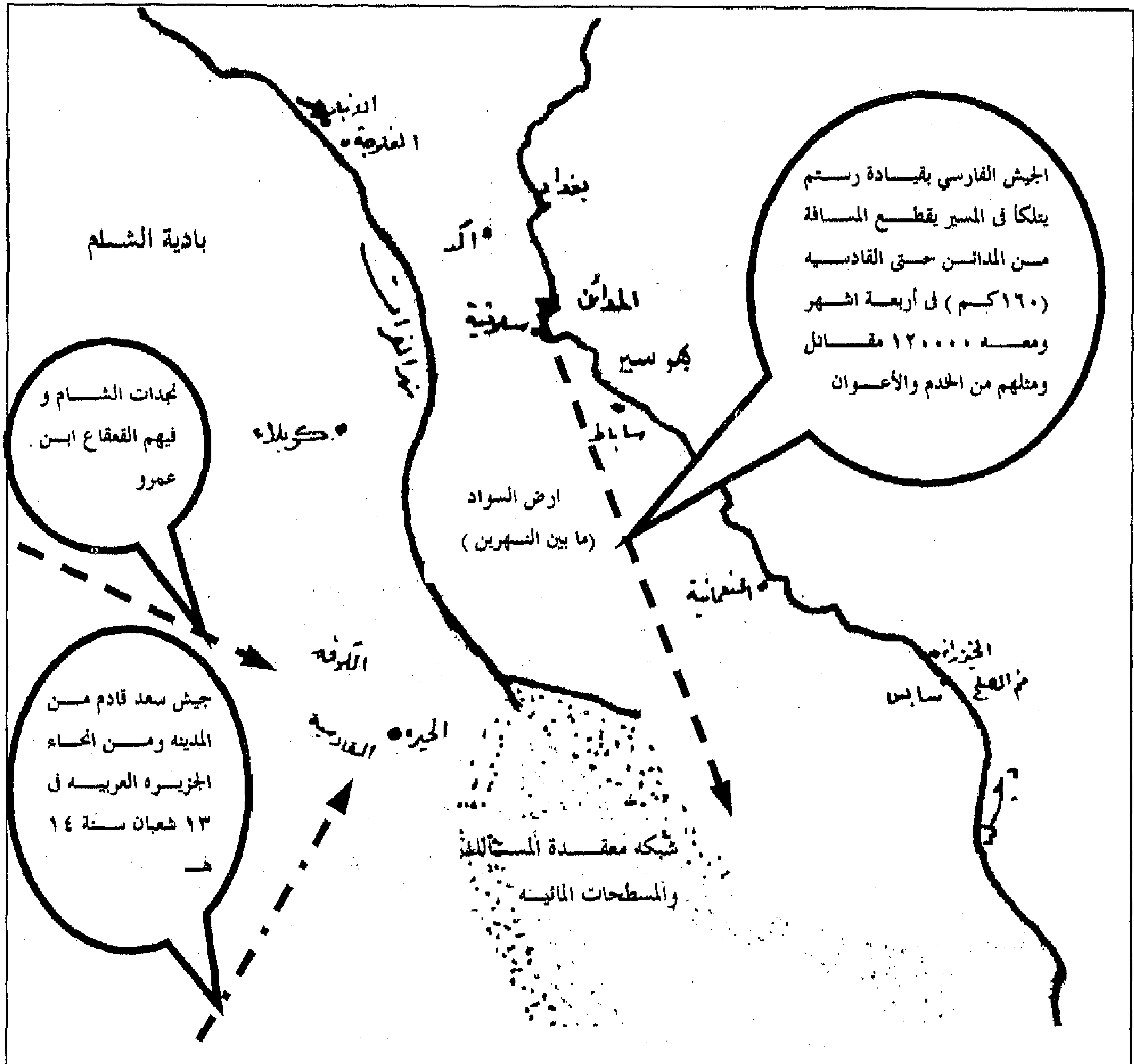
نقول : ان عمر كان يستبقى هذه الفئة وغيرهم من خيار الصحابة للرأى والمشورة وقد كان اذا حزبه أمر جمع له أهل بدر ومنهم بصفة خاصة على بن أبي طالب وعثمان بن عفان وغيرهم .. فلما أراد أن يكون الفتح حاسما أذن لهم في الخروج للجهاد وهو يعلم أنهم قد لايعودون ويخسر خبرتهم وبركتهم ولكن لابد من وجودهم في هذه المرحلة بالجيش ليثبتوا الناس ويكونوا لهم قدوة .. وقد كان المسلمون يتباركون بدعائهم في المعارك ويقولون: (وهل ننصر الا بدعائهم)

خطة جديدة

وحدد عمر لسعد المكان الذي يعسكر فيه بدقة وهو القادسية .. وأوقفه على مميزات المكان .. وأمره أن يلزم هذا المكان ولايبرحه مهما كانت الظروف حتى يصل اليه العدو .. وجعل عمر يحدد الخطة لسعد وبمشاورة أصحابه.

كانت الخطة القديمة تقتضي أن يحتل المسلمون غربي الفرات فيحتلوا الحيرة ومنها إلى المدائن .. ولكنهم رأوا تغيير الخطة باختيار موقع جديد هو القادسية وأن يستدرج المسلمون العدو إلى القتال في هذه المنطقة وبذا تكون الصحراء – ملعب العرب – من ورائهم وبينهم وبين عدوهم شبكة معقدة من المسالك والمسطحات المائية .. لابد أن يعبرها فإذا عبرها صارت نقطة ضعف من وراءه .. فإذا تم النصر في القادسية

فسيتخذ الجيش المسلم طريقه الرئيسي إلى المدائن شـــرقي الفـــرات وغـــربي دجلـــة وهـــى المنطقة المسماة ما بين النهرين (السواد) أخصب أريـــاف العـــراق



خريطة رقم ٤: رسم مبسط يوضح موقعة القادسيه وأشهر الأماكن التي حسمت موقف المسلمين

وخرج جيش سعد تجلجل تكبيراته أسماع الوجـــود وقـــد عزمـــوا ألا يعـــودوا إلا ومعـــهم تيجان كسرى وكنوزه وكان بدء خروج الجيش في ١٣من شـــعبان ســـنة ١٤هـــــ وفي هذه الأثناء استشهد القائد المثنى بن حارثة متأثراً بجراحـــه يـــوم الجســـر

اصطفاف المسلمين

كندة	النخع	بجيلة	أسد	تميم	

الهرمزان	جالينوس	بهمن	البيرزان	مهران

قوات الفرس

شكل كروكي يوضح اصطفاف جيوش القادسية

القادسية معركة فاصلة

لم تنل معركة في التاريخ الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ من الاهتمام مثل هذه المعركة .. فلقد فصل المؤرخون في سرد أحداثها ذلك لأن هذه المعركة كانت فاصلة في حروب المسلمين في بلاد فارس

يقول الطبرى : (إن العرب في جميع أنحاء الجزيرة العربية كانوا متعلقين بأخبار هذه المعركة ليعرفوا نتيجتها حتى إن الرجل كان يريد الأمر فيقول : لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية)

هذا بخلاف معارك الشام ضد الروم التي لم يفصل فيها المؤرخون مثل ما فصلوا للقادسية ذلك لأن المعارك مع الروم لم تحسم في هذا الزمان وإنما بقيت عاصمتهم القسطنطينية صامدة طيلة ستة قرون حتى سقطت على يد محمد الفاتح ..

أقام سعد بالقادسية شهرا دون أي بادرة هجوم من الفرس فكتب إلى عمر كتابا : (لم يوجه إلينا القوم أحدا و لم يسندوا حربا إلى أحد علمناه ...) ، وسيطول مقام سعد عاما كاملا ستتخلله مناوشات ومفاوضات كما سنرى إن شاء الله ... ولكن عمر في هذه الفترة كان يتابع سعدا وجنده أولا بأول ويرسل إليه الوصايا .. ومن هذه الوصايا: .

(أما بعد، فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة ، ومن غفل فليحدثهما ، والصبر فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية ، وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله .. واكتب إلي أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ، فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به قلة علمي بما هجمتهم عليه والذي استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذي بينكم وبين المدائن ، صفه كأني أنظر اليها ، واجعلني من أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ، وأعلم ان الله وعدكم ، وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له ، فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم

ووصية أخرى جاء فيها :

أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو في الحرب . وآمرك ومن معك أن تكون أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة

رستم يتثاقل عن مواجهة المسلمين

وعلى الطرف الآخر في بلاد فارس وقد حكمهم الشاب يزدجرد وهو قليل الخبرة مغرور لم يتجاوز العشرين من عمره .. يأمر قائد قواته رستم الخبير العسكري العجوز أن يتجهز للمسلمين وأن يقضي عليهم بأسرع ما يمكن ..

وكان رستم قد خبر المسلمين وعلم أن هزيمتهم ليست سهلة بل قد تكون مهمة مستحيلة في ظل الظروف الراهنة .. فجعل يؤخر طلب الملك فترة ولكن الأحداث لم تساعده .. لأن المسلمين في أثناء فترة إقامتهم بالقادسية أخذوا يشنون غارات سريعة على المناطق الخصبة في العراق للحصول على التموين اللازم للجند .. ولاستفزاز الفرس للدخول في المعركة .. وكثرت شكوى التجار ومزارعي الريف المرفوعة إلى يزدجرد .. وبالتالي يلح يزدجرد على رستم ويستعجله للنفير .. فلما ضاق الأمر على رستم لم يجد بدا من الاستعداد لمواجهة المسلمين فحشد مائة وعشرين ألف مقاتل

نصفهم من الفرسان ومائة وعشرون ألفا مثلهم من الأتباع والحاشية وعددا من الفيلة .. وخرج متثاقلا حتى إنه قطع المسافة من المدائن العاصمة إلى القادسية في حوالي أربعة أشهر وهى مسافة لا تزيد عن مائة وستين كيلو مترا .؟؟

وفد المسلمين الأول إلى رستم

طلب رستم التفاوض مع المسلمين فأرسل إليه سعد **ربعى بن عامر** وحده .. وأمر رستم أن يعد مكان الاستقبال فعلقت الزينة وأظهرت مظاهر الأبهه والعظمة وفرشت أغلى البسط وأثمن النمارق ، ولبس رستم زينته الكاملة .. لعل ذلك يؤثر في الوفد القادم عليه .. وكانت المفاجأة .

إذا بربعى بن عامر يدخل متوكئا على رمحه ، ويزج به النمارق والبسط ، فما ترك نمرقا ولابساطا إلا أفسده وتركه مفسدا منتهكا ، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس فجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط ..

فقالوا : ما حملك على هذا ؟

قال ربعى : إنا لا نستحب الجلوس على زينتكم هذه

فقال له رستم : وما جاء بكم ؟

قال ربعى: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ،ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله .

قال رستم : وما موعود الله ؟

قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى .

فقال رستم : سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

قال : نعم ، كم أحب إليكم يوما أو يومين ؟

قال رستم : لا ، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا .

فقال ربعي : إن مما سن لنا رسولنا ص وعمل به أئمتنا أن لا نؤجل الأعداء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثا فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل :

الإسلام وندعك وأرضك .

أو الجزية فنقبل ونكف عنك ، وإن كنت عن نصرنا لغنيا تركناك منه وإن كنت إلينا محتاجا منعناك .

أو المنابذة في اليوم الرابع .

ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، وأنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع ما ترى .

قال رستم : أسيدهم أنت ؟

قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم.

فالتفت رستم إلى خاصته ومستشاريه قائلا : ما ترون ؟ هل رأيتم كلاما قط أوضح أو أعز من كلام هذا الرجل ؟

قالوا : معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب أما ترى من ثيابه؟

قال : ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الكلام والرأى والسيرة ، إن العرب تستخف باللباس والمأكل ويصونون الأحساب .

ولم يستطع رستم إقناع قومه بوجهة نظره في عدم الدخول في مواجهة غير محسوبة مع المسلمين

ثم طلب رستم وفدا آخر للتفاوض فأرسل إليه سعد **حذيفة بن محصن** فكان منه مثل ما كان من ربعى بن عامر ثم تكرر الطلب ثالثا فأرسل سعد **المغيرة بن شعبة** وكان من أدهى العرب وأحسنهم منطقا وكان ضخم الهيئة وكان يجيد لغتهم ... فلما دخل على فسطاط رستم ..تقدم ومازال يمشى حتى جلس مع رستم على سريره ووسادته ، فنخرت الفرس ووثبوا عليه وجذبوه ..

فقال المغيرة : **لا تنخروا ، قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم انا معشر العرب سواء ، لا يستبعد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه فظننت أنكم تواسون كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لايستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتموني ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وإنكم مغلوبون ، وإن ملكا لا يقوم على هذه العقول .**

فقالت العامة : صدق والله العربي

وقال كبراء المجلس : والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه ..

كانت هذه المفاوضات محاولة أخيرة من رستم لتأخير المعركة ولكن لم يكن عنده من الحيل أكثر من هذا فلا بد من مواجهة عسكرية مع المسلمين.

أصيب سعد بن أبي وقاص بعرق النساء وبالحبوب والدمامل فلم يعد يستطيع الركوب أو الجلوس .. فاعتلى رأس قلعة تسمى قديس .. وأكب فوقها وصدره على وسادة يشرف على الناس وعين خالد بن عرفطة نائبا عنه كقائد ميداني

أيام القادسية

يوم أرماث ١٣من شعبان سنة ١٥ هـ

أرسل رستم كالعادة يدعو المسلمين أما أن يعبروا إليهم أو العكس فجاءه الجواب : بل اعبروا إلينا.

وكان سعد قد أعطى أوامره لجنده قائلا: (**الزموا مواقفكم ، ولاتحركوا شيئا حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة ، فكبروا وشدوا شسع نعالكم واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم ، واعلموا أنما أعطيتموه تأييدا لكم، فإذا كبرت الثانية فكبروا وهيئوا ولتستتم عدتكم ، فاذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم ليبرزوا ويطاردوا ، فاذا كبرت الرابعة فشدوا النواجذ على الأضراس واحملوا وازحفوا جميعا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا (لا حول ولا قوة إلا بالله)** .

وانطلقت التكبيرات تدوي في الأفق .. حتى كانت التكبيرة الثالثة فخرج غالب بن عبد الله الأسدي يدعو للمبارزة ، فخرج إليه هرمز أحد أمراء الفرس ، فلم يمهله غالب حتى انقض عليه واحتضنه وعاد به إلى صفوف المسلمين أسيرا ..

وانتظر المسلمون التكبيرة الرابعة ولكن الفرس فاجئوا المسلمين بالهجوم على قلب الجيش المسلم الذي فيه قبيلة بجيلة – أقوى قطاع في جيش المسلمين – والتي تجاورها كندة وهاتان القبيلتان تمثلان ربع جيش المسلمين (٨٠٠٠)[1] .. وكان هجوما شرسا من الفرس .. وكان للفيلة دور كبير في إخافة الخيول ونزل المسلمون يحاربون على أقدامهم هنالك أمر سعد من موقعه قبيلة أسد (تقع على ميمنة بجيلة وهم قوم طليحة

---

[1] – انظر الشكل صفحة (٥٢)

بن خويلد) أن يذبوا عن بجيلة وكان عددهم ثلاثة الاف .. فأبلى بنو أسد بلاء حسنا وأظهروا شجاعة فائقة في الدفاع عن إخوانهم حتى استحر القتل بين بني أسد ففقدت أسد وحدها يوم أغواث خمسمائة شهيد ..

ولم تتحرك باقي مواقع الجيش الإسلامي حتى كبر سعد التكبيرة الرابعة فانطلقت جنود الله تزأر دفاعا عن إخوانهم واستطاعت فرقة من المسلمين أن تنقض على أحزمة التوابيت المربوطة حول بطون الفيلة فتقطعها وتقلب التوابيت وتقتل من فيها ..

وانقضى اليوم الأول من أيام القادسية والحرب سجال بين الطرفين .

وصية الخنساء لأبنائها ليلة يوم أرماث :

جمعت أبناءها الأربعة ووعظتهم قائلة : (إنكم أسلمتم طائعين وجاهدتم مختارين ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية .. فإن أصبحتم غدا –إن شاء الله – سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وتحللت – أي تفجرت – نارا على أوراقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة).

فوا عجبا على ما يصنعه الايمان في النفوس فهذه الخنساء كانت في جاهليتها قد فقدت أخا لها هو صخر فرثته رثاء فريدا حفظه الشعراء لبلاغته .. ها هي بعد إسلامها تدعو أبناءها الأربعة أن يضحوا بأرواحهم في سبيل الله ...

اليوم الثاني يوم أغواث وصول طليعة المدد الإسلامي من الشام :

لقد اقترب المدد العائد من بلاد الشام من إدراك المسلمين بالقادسية وكان في مقدمة هذا المدد **القعقاع بن عمرو** ومعه طليعة من ألف فارس فوصل إلى ميدان المعركة مع بزوغ شمس يوم أغواث .

ولجأ القعقاع إلى أسلوب خادع يدخل به الفزع في قلوب أعداء الله ، فقسم الألف الذين معه إلى مائة مجموعة كل مجموعة عشرة من الفرسان وأمر كل فرقة انهم إذا اقتربوا من معسكر المسلمين بمقدار مد البصر دخلت فرقة ، فإذا اجتازت تتبعها الأخرى فكان الغبار الذي تثيره كل مجموعة يتصاعد تباعاً حتى حجب ضوء الشمس فيظهرون في عيون العدو أكبر من حجمهم .

ولما بدأ اليوم خرج القعقاع يطلب المبارزة ... فخرج اليه بهمن جاذويه قائد معركة الجسر السابق ذكرها ولم يكن القعقاع يعرفه فسأله من أنت فلما عرفه صرخ القعقاع: (يا لثارات أبي عبيد) وفى الحال قتله القعقاع فكانت بداية حسنة لجيش المسلمين .. والحقيقة أنه توفر لجيش المسلمين في هذا اليوم ثلاث مميزات :

الأول : تواجد القعقاع في الجيش وقد قال عنه عمر : **(لا يُهزم جيش فيه القعقاع)**

وقال عنه أيضا : **(لصوت القعقاع في المعركة يقوم مقام ألف فارس)**

الثانية : اختفاء الفيلة لتمكن المسلمين من تحطيم توابيتها في اليوم الأول فانشغل بإصلاحها الفرس .

الثالثة : الحيلة التي لجأ إليها القعقعاع وهى برقعة الجمال ، فقد عمد القعقعاع ومعه بنوعمه يبرقعون الجمال حتى صار منظرها مخيفا .. يقول الطبرى :

(فجعلت تلك الإبل لا تصمد لقليل ولا لكثير إلا نفرت بهم خيلهم ، فلما رأى المسلمون ذلك عملوا مثلهم فلقيت فارس من الإبل المبرقعة يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث)

وخسر الفرس في هذا اليوم عشرة آلاف قتيل ، ومن المسلمين ألفان وفيهم أبناء الخنساء الأربعة ، فلما وصلها الخبر قالت : (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجعلهم في مستقر رحمته)

اليوم الثالث : يوم عماس

لم تصل بعد باقي الإمداد من الشام و التي كان معها القعقاع والحقيقة أن القعقاع لم ينم ليلته واتفق مع قيادته على تدبير حيلة جديدة يرفع بها معنويات المسلمين ويرعب بها أعداء الله ، ففي ظلمة الليل أمر القعقاع الألف فارس الذين كانوا معه أن يتسربوا إلى ما وراء خطوط القتال من الناحية التي يتوقع أن يأتي منها المدد دون أن يشعر بهم أحد ، وقسمهم عشر مجموعات ، كل مجموعة مائة فارس . ومع طلوع الشمس تتوارد إلى الميدان فرقة تلو الأخرى ... وفي الصباح شرع الفرسان في تنفيذ ما اتفق عليه ، وصادف ذلك وصول باقي مدد الشام بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وعلم هاشم بحيلة القعقاع فقلدها بمن معه من الجند ... فكان لذلك أثره العظيم في إدخال الرعب في نفوس الفرس ...

وفي هذا اليوم عادت الفيلة إلى ساحة القتال ، ولكن الفرس أضافوا حول كل فيل مجموعة من المشاة كحماية ... فلما رأى سعد خطورة عودة الفيلة استدعى بعضا من الفرس الذين أسلموا فسألهم : هل للفيلة مقاتل يمكن عن طريق إصابتها إخراج الفيلة من المعركة ؟

قالوا : نعم . المشافر والعيون لا ينتفع بها بعدها ... فأرسل سعد إلى القعقاع وأخيه عاصم : اكفياني الفيل الأبيض قائد الفيلة ، وبعث إلى حمال بن مالك قائد المشاة والربيل بن عمرو أن اكفياني الفيل الأجرب وهو أحد قادة الفيلة ...

ونجح الفريقان أن يضعوا الرماح في عيون الفيلة ، وأن يقطعوا الخرطوم منها ، فثارت وألقت بمن عليها وهربت وكان هذان الفيلان يدربان بقية الفيلة فاحتارت وهربت كما هرب الفيلان .

واستمر قتال يوم عماس يوما وليلة أربع وعشرين ساعة دون انقطاع ..

اليوم الرابع – يوم القادسية ١٦من شعبان سنة ١٥ هـ

رأت قيادة الجيش ضرورة مواصلة القتال خاصة أن قوى الفرس قد بدأت تنهار .. وأخذ القعقاع يعمل على بث العزيمة في نفوس المسلمين . وفي هذا اليوم عزم القعقاع ومن معه على أن يعملوا على قتل رستم ونجحوا في ذلك ، وبقتل رستم انهارت معنويات الفرس تماما .. حتى يصف الطبري الأحداث فيقول :

(إن رجلا من بني عبس قال : أصاب أهل فارس يوم القادسية بعد ما انهزموا ما أصاب الناس قبلهم ، قتلوا حتى كان الرجل من المسلمين ليدعو الرجل منهم فيأتيه حتى يقوم بين يديه فيضرب عنقه ، حتى أنه ليأخذ سلاحه فيقتله به ، وحتى أنه ليأمر الرجلين أحدهما بصاحبه – يعني فيقتله – وكذلك يأمر العدد منهم فيقتل العدد)

ولم يأت عصر يوم القادسية إلا والنصر حليف المسلمين . وبلغ عدد شهداء المسلمين خمسمائة وثمانية آلاف . وأما قتلى الفرس فكان عددا كبيرا غير محصور

وأرسل سعد إلى عمر كتابا يتضمن تفاصيل النصر

أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهـــل دينهم ، بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسـلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج ، وأصيـــب من المسلمين سعيد بن عبيد القارئ ، وفلان وفلان ورجال من المســـلمين لا نعلمهم الله بهم عالم ، كانوا يدوّنون بالقرآن إذا جن الليل دوي النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود

ووزعت الغنائم وفـــاضت ...

تحرك بعد ذلك المسلمون في اتجـــاه الشـــمال فدخلـــوا **الكوفـــة** دون مقاومـــة تذكـــر ، واستمر الزحف حتى وصل المسلمون إلى مدينة **بهرســـير** وهـــي مدينـــة محصنـــة تحصينـــا شديدا وهي آخر الحصون قبل المدائـــن .

فحاصرها المسلمون حصارا طويلا حوالي ستة أشـــهر ، ولأول مـــرة يســـتخدم المســـلمون أسلحة الفرس فضربوها بالمجـــانيق .

رواية طريفة :

يروي الطبري عن أنيس بن الحليس قال : بينما نحن محاصرون بهرسير ، أشرف علينا رسول من الفرس فقال : إن الملك يقول لكم .. هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم ؟

أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم ؟ !

فبدر الناس (أي سبقهم في الرد على الرسول) **أبو مفرز الأسود بن قطبة** وقد أنطقه الله بما لا يدري ما هو ولا نحن .. فرجع الرسول .. ثم رأيناهم يقطعون النهر إلى المدائن .فقلنا : يا أبا مفرز ! ما قلت للرسول ؟ فقال : والله ما أدري ما هو إلا إن علي سكينة وأنا أرجو أن أكون قد أنطقت بالذي هو خير ، وانتاب الناس يسألونه في تعجب : كيف إن كلمة واحدة قالها جعلت حامية بهرسير تترك المدينة خالية وتهرب إلى المدائن ؟

وفوجئ المسلمون برجل من الفرس ينادي بالأمان وإنه لم يبق بالمدينة أحد ، فما يمنعكم من الدخول ؟ !

فسألوه لأي شيء هربت الفرس ؟

فقال الرجل : بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح فأجبتموه بأن لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدا حتى نأكل أفريذين بأترج كوثي ، فقال الملك : ووايله ،إلا إن الملائكة تكلم على ألسنتهم ترد علينا وتجيبنا عن العرب ، والله لئن لم يكن كذلك ما هذا إلا شيء ألقي علي في هذا الرجل لننتهي ، فهربوا)

وتمت السيطرة على بهرسير في صفر سنة ١٦ هـ .

عبور دجلة بالخيول

لم يعد بين المسلمين والوصول إلى المدائن سوى عبور نهر دجلة وهو نهر عريض بعمق ستة أمتار .. ولكن سعد بن أبي وقاص ظل مترددا عن عبور النهر رغم حماسة المسلمين لذلك ... وجاءه جماعة ممن أسلم من الفرس فدلوه على مخاضة تخاض إلى صلب النهر .. ولكنه ظل مترددا ..

وأخيرا شرح الله صدره للعبور وأراد أن يتقدم القوم فرقة ..

فقال : (فمن يبدأ ويحمي لنا الفراض (الشاطئ) حتى تتلاحق به الناس لكي لا يمنعوهم من الخروج)

فبادر عاصم بن عمرو أخو القعقاع وتبعه ستمائة من ذوي البأس والنجدة وخاض عاصم ومن معه على طهور الخيل للنهر في مغامرة فريدة وكان دجلة في موسم فيضان.

وفوجئ الفرس بخيول المسلمين تقتحم دجلة وتقترب من الشاطئ الآخر ... حاولوا منعهم ولكنهم هزموا واستولى المسلمون على الساحل الشرقي تماما دون خسائر !!!

هنالك أمر سعد عامة الجيوش أن يقتحموا دجلة وقال لهم :

(قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)

فتلاحق الناس يعبرون ويتحدثون أثناء عبورهم ما يكترثون ... وقد أمرهم سعد أن يسيروا اثنين اثنين فعبروا فما غرق منهم إنسان ولا ذهب لهم متاع !!

وجعل جنود الفرس يقولون : (والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن)

وكان مجاورا لسعد بن أبي وقاص وهو يعبر النهر سلمان الفارسي وكان لهما حديث والخيل تعوم بهما :

يقول سعد : (وذلك تقدير العزيز العليم ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه وليظهرن الله دينه وليهزمن الله عدوه ، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات .)

ويقول له سلمان : (الإسلام جديد ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر ، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه (أي البحر) أفواجاً كما دخلوه أفواجاً)

وفر كبراء الفرس من المدائن ، ومن بقي من السكان فقد لزم بيته ودخل المسلمون المدينة وهي خالية .. فلما انتهى سعد إلى إيوان كسرى تلا قوله تعالى : (**كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك أورثناها قوماً آخرين**)

وكان دخول المدائن في صفر سنة ١٦ هـ

وبعث سعد سلمان الفارسي إلى الفرس يدعوهم إلى الله فقرر أغلبهم دفع الجزية وفاضت الغنائم ولم يفكر أحد أن يغُلَّ درهماً منها رغم عظم هذه الغنائم ، يروى المؤرخون:

(لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض (غنائم الحرب) أقبل رجل بحق معه ، فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال والذي معه : (ما رأينا مثل هذا قط ، وما يعدله عندنا ولا يقاربه) . فقالوا : من أنت ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل شأناً ، فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ، ولا غيركم ليقرظوني ، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه ، فإذا هو عامر بن عبد قيس).

وروي أيضا أن سعدا كان يقول عن جيش القادسية :

(والله إن الجيش لذو أمانة ، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت : وأيم الله - على فضل أهل بدر - لقد تتبعت من أقوام هنات وهنات فيما أحرزوا ما أحسبها ولا أسمعها من القوم) يعني أهل القادسية الذين دخلوا المدائن .

لقد كانت كنوزا عظيمة تلك التي وجدها المسلمون في إيوان كسرى ولكنهم أدّوها إلى بيت مال المسلمين وهذه وربي معجزة أعظم من معجزة عبور نهر دجلة ، فلم تغير الدنيا وكنوزها قلوب هؤلاء الفاتحين ، فما عند الله خير وأبقى ولله الحمد والمنة.

ولما وصلت خمس هذه الغنائم إلى عمر ، ويزاد المال في بيت المال وإذا بعمر يبكي ... فيقول له عبد الرحمن بن عوف : (ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، فوالله إن هذا لموطن شكر ؟ !!)

فيقول عمر : (والله ما ذاك يبكيني ، وتالله ما أعطى الله هذا قوما إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم)

أرسل سعد بعد ذلك فرقة من اثنى عشر ألفا من المسلمين ليتبعوا الفرس الذين تجمعوا في **جلولاء** وانتصر عليهم في ذي القعدة سنة ١٦ هـ

وكانت قوات أخرى للمسلمين تفتح تكريت والموصل ونينوى على نهر دجلة ، وقوات تفتح هيث وقرقيسياء على نهر الفرات ، وقوات تفتح الأبلة وشط العرب والأهواز ... **وأقام المسلمون مدينة الكوفة سنة ١٧ هـ** . بعد أربعة عشر شهرا من معركة جلولاء وجعلوها قاعدتهم الحربية واكتفوا بإقامة حاميات في المناطق المفتوحة ، وسكنت كل قبيلة من قبائل العرب حيا من أحياء الكوفة ...

وفي سنة ١٧ هـ تم فتح الجزيرة

أهل الكوفة يشتكون سعداً

يروى المؤرخون : (أن سعداً اتخذ قصراً وجعل له باباً وغلق ، لأنه كان في السوق، وكانت الغوغاء تمنع سعداً الحديث وبلغ ذلك عمر ، وأن الناس يسمونه قصر الأمير سعد فاستاء عمر لذلك .. فاستدعى **الصحابي محمد بن مسلمة** فسرّحه إلى الكوفة وقال له: اعمد إلى قصر سعد حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على بدئك.

فخرج بن مسلمة من المدينة حتى قدم الكوفة ودون أن يتصل بالأمير سعد اشتري حطباً ثم أتي القصر فأحرق الباب ، وبلغ سعداً الخبر فقال : رسول أرسل لهذا الشأن، وبعث لينظر من هو ؟ فإذا هو محمد بن مسلمه ، فأرسل إليه رسولاً بأن ادخل فأبى ، فخرج إليه سعد بنفسه ، فأراده على الدخول والنزول فأبى ، وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ، فدفع ابن مسلمه إلى سعد كتاب عمر فيه :

بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً ، فليس بقصرك ، ولكنه قصر الخبال ، انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه ، ولا تجعل على القصر بابا تمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت

فحلف له سعد : ما قال الذي قالوا ، ورجع محمد بن مسلمة من فوره إلى المدينة ، حتى إذا فني زاده ، فتبلغ بلحاء الشجر ، فقدم على عمر وقد سنق (أي تأذى من أكل لحاء الشجر) فأخبره عمر خبره كله ، فقال عمر : إن أكمل الرجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به و لم ينكل (يمدح ابن مسلمة) وأخبره بيمين سعد وقوله فصدّق عمر سعداً وقال : هو أصدق ممن روى عليه ومن أبلغني ، وكان أهل الكوفة قد شكوا سعداً إلى عمر.

عزل سعد

ولكن يبدو أن عمر – على طريقته – آثر عـزل سـعد وأن يستبقيه عنده بالمدينة ...
وجاء بعده **عبد الله بن عبد الله ابن عتبان**.

ثم إن ابن عتبان كتب إلى عمر يستأذنه في الزحف إلى نهاوند حيث تحصن عدد كبير من الفرس وكان من ضمن الرسالة :(إنه قد تجمع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل فان جاءونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة ، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك عليهم).

معركة نهاوند

ومن ثم أذن عمر بفتح نهاوند ولكنه أراد أن يختار لها قائدا جديدا فجعل يتداول المشورة مع أصحابه حتى وقع اختياره على **النعمان بن مقرن المزني** وقال عندما اختاره:

(والله لأولين أمرهم رجلا ليكونن أول الأسنة إذا لقيتها غدا ، إنه الرجل المكيث النعمان بن مقرن) والمكيث أي المتأني مع الإرادة ، أو المصمم على بلوغ الغرض .

فلما تولى النعمان أخذ يستطلع آخر أخبار الفرس فوجد أنهم لجئوا إلى حيلة جديدة فقد طرحوا (حسك الحديد) حول مدينة نهاوند نثروها كالألغام بكثرة و خططوا بينها ممرات يعرفونها فيصعب على المسلمين اقتحام المدينة كما اعتصموا بالخنادق والحصون...فأصبح من المستحيل أن يقتحم جيش المسلمين مدينة نهاوند.

فأشار بعض المسلمين بخطة خادعة للفرس تتلخص في :

- أن تتقدم فرقة من فرسان المسلمين للتحرش بالفرس وتغريهم على الالتحام في مبارزة بالكر والفر.

- تتظاهر الفرقة المشتبكة بالانكسار وتتراجع أمام ضغـــط الفـــرس.
- يتراجع أيضا صلب جيش المسلمين تضليلا للفرس ويتخــذ مواقـــع ترصديـــة.
- تصل الفرقة المشتبكة في تراجعها وهي تسحب وراءها جيـــش الفـــرس إلى مواقـــع يستطيع جيش المسلمين أن يطبق عليه فيـــها..

وبالفعل نجحت الحيلة حتى أن الفرس لما رأوا تراجع الفرقـــة المشـــتبكة ثم تراجـــع صلـــب الجيش نادى بعضهم بعضا : هي هي ، هزيمـــة المســـلمين ، فتـــابعوهم وكنســـوا حســـك الحديد حتى انقطع القوم عن حصوفم وخنادقـــهم بعـــض الانقطـــاع وكـــان ذلـــك أول النهار فأمر النعمان جنده أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوهم حـــتى يـــأذن لهـــم ، ففعلـــوا واستتروا بالجحف (الترس من الجلد) من الرمي ، وأقبل الفرس علـــى المســـلمين يرموهـــم حتى أفشوا فيهم الجراحات ، وشكا بعضهم إلى بعض ذلـــك ، وقـــالوا للنعمـــان:

ألا ترى ما نحن فيه .؟! فما تنتظر بهم ؟ فيجيب النعمـــان :رويـــدا ، رويـــدا .!!

فلما اقتربت ساعة الزوال (موعد صلاة الظـــهر) ركـــب النعمـــان فرســـه وســـار في الناس وجعل يقول لهم : (**ما منعني أن أنـــاجزهم إلا شـــيئ شـــهدته مـــن رســـول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ ، كان إذا غزا فلـــم يقـــاتل أول النـــهار ، لم يعجـــل حـــتى تحضر الصلاة وتهب الأرواح** (الرياح) **ويطيب القتال ، فمـــا منعـــني إلا ذلـــك**)

ثم قال للناس (فإذا قضيتم صلاتكم فاستعدوا ، فإني مكـــبر ثلاثـــا ، فـــإذا كـــبرت الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ ، ويشد الرجل شسعه ويصلح مـــن شـــأنه ، فـــإذا كـــبرت الثانية فليشد الرجل إزاره ويتهيأ لوجه حملته وليتأهب للنـــهوض ، فـــإذا كـــبرت الثالثـــة ، فإني حامل إن شاء الله فاحملوا معا ، وان قتلت فالأمـــير بعـــدي حذيفـــة وإن قتـــل فـــلان ففلان وعد سبعة نواب آخرهم المغيرة بـــن شـــعبه)

وصلى النعمان بجنده وكبر التكبيرة الأولى ثم الثانية ثم رفع يـــده بالدعـــاء:

(اللهم أعزز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك ، اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام ، أمِّنوا يرحمكم الله).

ثم كبر الثالثة ودارت المعركة وفيها حدثت مقتلة عظيمة في الفريقين وأصيب النعمان وسقط من على فرسه وتلقف منه الراية أخوه نعيم بن مقرن وناولها إلى حذيفة بن اليمان ولم ينقض اليوم حتى انتصر المسلمون نصراً مظفراً.

وجاء معقل بن يسار وقد لمح النعمان تزلق به فرسه ونشابة قد ركزت في جنبه وفي النعمان رمق .. فأخذ يمسح عن وجه النعمان التراب

فقال النعمان : من أنت ؟

قال : معقل بن يسار .

قال : ما فعل الناس.

قال : فتح الله عليهم.

قال : الحمد لله ، اكتبوا بذلك إلى عمر وفاضت روحه رحمه الله.

وما يعلم جنود ربك ألا هو

وكان القعقاع بن عمرو عينه على الفيرزان قائد الفرس فأحس أنه يحاول الهرب فتبعه هو ونعيم بن مقرن فأدركاه في (ثنية همدان) في واد ضيق ، فإذا بقافلة كبيرة من بغال وحمير محملة عسلا ذاهبة إلى يزدجرد ، فعرقلت القافلة هروب الفيرزان فلم يجد طريقا ، فأدركه القعقاع فقتله ، فقيل بعدها : (ان لله جنودا من عسل).

واستاق البطلان العسل إلى جند المسلمين وسميت ثنية همدان ثنية العسل.

يقول أحد المؤرخين من أصحاب الخبرة العسكرية :

(كانت هذه الخطة في معركة نهاوند من اقتراح لطليحة بن خويلد الأسدي درسا كبيرا في التاريخ الحربي ، نسج على منواله قادة جاءوا من بعد ، لقد كانت هذه هي الخطة المفضلة لدى جنكيز خان قائد التتار المغول في عمليات اكتساح آسيا من شرقها إلى غربها:

كان يقوم بهجوم كبير على عدوه يقصد به هز صفوفه وزلزلة أقدامه ، فإذا لم يتحقق له هذا الهدف تراجع منهزما إلى كمين أعده فيستدرج عدوه إلى حيث يطبق عليه في حركة مفاجئة تحدث الأثر المطلوب ، وأيضا هذه هي نفس الخطة التي اتبعها قاهر التتار قطز في عين جالوت فأوقع بهم لأول مرة الهزيمة مستخدما أسلوبهم الذي لم يتصوروا أن يفعله غيرهم بهم **إن هذه الخطة تعرف في علم الحرب بالكمين** والكمين مناورة هجومية دفاعية).

كانت معركة نهاوند من المعارك الفاصلة فقد أزالت نهائيا الإمبراطورية الفارسية بل إن عمر الخطاب عزم على استئصال أدنى تهديد من جهة فارس ، فأعد تسعة جيوش في وقت واحد لفتح المقطاعات الفارسية ، من خراسان في أقصى الشمال الشرقي إلى إقليم فارس في الجنوب الغربي ومن أذريبجان في الشمال الغربي إلى مكران في الجنوب الشرقي ولم يمض عام ٢٢ هـ ، حتى كانت هذه المقاطعات كلها تحت السيادة الإسلامية.



خريطة رقم ٥: فتوحات المسلمين ببلاد فارس حتى سنة ٢٢هـ

نهاية كسرى يزدجرد وإذلال الله للطغاة في الأرض

وفي سنة ٢٢ هـ اقترح **الأحنف بن قيس** على أمير المؤمنين عمر أن يغزو بلاد خراسان وهي بلاد واسعة شرق فارس حتى يضيقوا على كسرى يزدجرد ، فإنه هو الذي يستحث الفرس والجنود على قتال المسلمين .

فلما علم يزدجرد بقدوم المسلمين كتب إلى ملك الصغد يستمده ، وكتب إلى ملك الصين يستعينه ، وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده ، فلم يحفلوا برسائله .

ودخل الأحنف خراسان وأخذ يفتح البلد تلو البلد ويزدجرد يفر من أمامه إلى بلد آخر ، حتى اضطر يزدجرد أن يعبر النهر

وتمكن الأحنف مـــن خراســـان ، واســـتخلف في كـــل بلـــدة أمـــيرا وكتـــب بذلـــك إلى عمر ، فكتب إليه عمـــر ينـــهاه عـــن العبـــور إلى مـــا وراء النـــهر وقـــال : احفـــظ ما بيدك من بـــلاد خراســـان .

دخل يزدجرد بلاد ما وراء النهر وكان قد استغاث بملوكـــها فلـــم يـــهتموا ، ولكـــن لمـــا لجأ إلى بلادهم تعين عليهم إنجاده في شرع الملوك فســـار معـــه خاقـــان الأعظـــم ملـــك الترك ، ورجع يزدجرد بجنود عظيمة فيها ملك الترك واســـتردوا بعـــض مـــدن خراســـان ثم قصدوا إلى حيث يقيم الأحنف بن قيس وكان جميـــع مـــن عنـــده عشـــرين ألفـــا مـــن الجند فقام الأحنف في الناس خطبـــا :

(إنكم قليل وعدوكم كثير فلا يهولنكم فكم من فئة قليلة غلبـــت فئـــة كثـــيرة بـــإذن الله والله مع الصـــابرين) .

وكان من عادة الترك أنهم لايخرجون للقتال من أماكنهم التي يكمنـــون فيـــها حـــتى يخـــرج ثلاثة من كهولهم بين أيديهم ، يضـــرب الأول بطبلـــة ثم يخـــرج الثـــاني بطبلـــة ثم يخـــرج الثالث بطبلة ثم يخرجون بعد الثـــالث

وكان الأحنف بن قيس قد خرج مـــع بعـــض أصحابـــه ليـــلا يســـتطلعون أيـــن يبيـــت عدوهم فلما كان قرب الصبح خرج الثلاثة الذين يضربـــون الطبـــل فقتلـــهم الأحنـــف الواحد تلو الآخر ، فلما خرجت الترك ووجدوهـــم مقتولـــين ، تشـــاءم بذلـــك ملكـــهم وتطير وقال : مالنا في قتال هؤلاء القوم من خير ، فـــانصرفوا بنـــا

ورجع كسرى خاســـرا الصفقـــة ، وتخلـــى عنـــه مـــن كـــان يرجـــو النصـــر منـــه ، وتحير إلى أين يذهـــب ؟

وأشار عليه بعض أولى النهى من قومه : إنا نرى أن نصالح هؤلاء القوم فان لهم ذمة ودينا يرجعون إليه ، فنكون في بعض هذه البلاد وهم مجاورونا ، فهم خير لنا من غيرهم . فأبى عليهم كسرى ذلك .

ثم بعث إلى ملك الصين يستغيث به فجعل ملك الصين يسأل رسول يزدجرد عن هؤلاء المسلمين الذين فتحوا البلاد وقهروا العباد فجعل الرسول يصفهم له : كيف يصلون ؟ وكيف يقاتلون ؟ فكتب إلى يزدجرد : إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق لك علي ، ولكن هؤلاء الذين وصفهم لي رسولك ، لو يحاولون الجبال لهدوها فسالمهم وارض منهم المسالمة

هرب يزدجرد في جماعة يسيرة إلى مرو فسأل من بعض أهلها مالا فمنعوه وخافوه على أنفسهم فبعثوا إلى الترك يستفزونهم عليه ، فأتوه فقتلوا أصحابه وهرب هو حتى أتىمنزل رجل ينقش الطواحين على شط ، فأوى إليه ليلا ، فلما نام قتله وأخذ ما عليه من ملبس وتيجان ، وجاءت الترك في طلبه فوجدوه قد قتله هذا الرجل فقتلوا ذلك الرجل وأهل بيته وأخذوا ما كان مع كسرى ، ووضعوا كسرى في تابوت وحملوه إلى اصطخر ، وهو آخر ملوك فارس في الدنيا على الإطلاق ، لقول رسول الله ﷺ ، في حديث البخاري : " **إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله** " قتل بعد سنتين إمارة عثمان.

مواقف لعمر ينبغي أن تذكر:

حدث أسلم خادم عمر قال : خرجت مع عمر ليلة وبعدنا عن المدينة ونحن نتفقد أهل المنازل النائية ، فبصرنا بنار من بعيد فقال عمر إني أرى هاهنا ركبانا قصر هم الليل والبرد ، انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار ، وصبياها يتضاغون ، فسلم عمر ثم سأل المرأة ما بالكم؟

قالت : قصر بنا الليل والبرد.

قال: وما بال الصبية يتضاغون ؟

قالت: الجوع.

قال وأي شئ في القدر ؟

قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر.

فقال : أي رحمك الله وما يدري عمر بكم؟

فقالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟

فأقبل على فقال : انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلا من دقيق ، وكبة من شحم ، وقال : احمله على ، قلت : أنا أحمله عنك.

قال : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك ؟

فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول ، فألقي ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا فجعل يقول لها: ذري على وأنا أحر لك ، وجعل ينفخ تحت القدر وكانت لحيته عظيمة ، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ لهم ، ثم أنزلها وقال:ابغني شيئا ، فأتته بصفحة فأفرغها فيها ، فجعل يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم (أي أبسطه حتى برد) ، فلم يزل حتى شبعوا ، وترك عندها فضل ذلك

وقام وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك الله خيرا ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين!

فيقول : قولي خيرا ، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله !

ثم تنحى ناحية عنها ، ثم استقبلها فربض مربضا ، فقلت له : لك شأن غير هذا ، فلا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ، ثم ناموا وهدءوا.

فقام يحمد الله ، ثم أقبل على فقال : يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

موقف آخر

ومر ذات ليلة ببيت ينبعث منه أنين امرأة وعلى بابه رجل قاعد ، فسلم عليه عمر وسأله من هو فأجابه بأنه رجل من البادية جاء يصيب فضل أمير المؤمنين ، فقال عمر ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت؟

قال الرجل وهو لا يدري أنه عمر : انطلق رحمك الله لحاجتك ولا تسأل عما لا يعنيك ، فألح عليه عمر .. فأجابه : امرأة تمخض (على وشك الولادة) وليس عندها أحد ، فعاد عمر مسرعا إلى منزله وقال لامرأته أم كلثوم بنت على رضى الله عنه:هل لك في أجر ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو؟

فأخبرها الخبر وأمرها أن تأخذ معها ما يحتاج إليه الوليد الجديد من ثياب ، وما تحتاج إليه المرأة ، وأن تحمل معها قدرا وتضع فيه حبوبا وسمنا فحمل عمر القدر ومشت خلفه ، حتى انتهى إلى البيت وقال لامرأته:ادخلي إلى المرأة وجلس هو مع الرجل وأوقد النار وطبخ ما جاء به ، والرجل جالس لا يعلم من هو.

وولدت المرأة فقالت زوجة عمر من داخل البيت : بشر يا أمير المؤمنين صاحبك بغلام ، فلما سمع الأعرابي ذلك علم أنه أمير المؤمنين ، فكأنه هابه فأخذ يبتعد عنه

وعمر يقول له : مكانك كما أنت ، ثم حمل القـــدر وأمـــر زوجتـــه أن تـــأخذه لتطعـــم المرأة فلما خرجت أم كلثوم قال عمر للرجل : إذا كـــان غـــدا فأتنـــا نـــأمر لـــك بما يصلحـــك.

رسالة من عمر إلى قاضى مصــر :

عين عمر بن الخطاب للقضاء بمصر **قيس بـــن أبي العـــاص الســـهمى** فكـــان أول قـــاض بمصر فى الإسلام . فبعث إليه عمر بوصية تبين لنا شيئا من نظـــام القضـــاء وأصولـــه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك .البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا .

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة،

ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق .

واجعل لمن ادعى حقا غائبا أمدا ينتهي إليه فإن أحضر بينة وإلا استحالت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا في حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنيا في ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان.

وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بين الناس ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام . عمر بن الخطاب.

مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه في ٤ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ

أخرج البخاري بسنده عن عمرو بن ميمون قال :

(إني لقائم ما بيني وبين عمر إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب . وكان إذا مر بين الصفين قال : استووا ، حتى إذا لم يرَ فيهم خللاً تقدم فكبّر ، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس - فما هو إلا أن كبر فسمعتُهُ يقول : قتلني أو أكلني الكلب ، حين طعنه، فطار العلجُ بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر يد عبد الرحمن عوف فقدّمه ، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى ، وأما نواحي المسجد فالهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله فصلى عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال: يابن عباس ، انظر من قتلني .

فجال ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة قال : الصنع؟

قال : نعم

قال : قاتله الله ، لقد أمرت به معروفا ، الحمد الله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعى الإسلام، قد كنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة ، وكان العباس أكثرهم رقيقا.

فقال : إن شئت فعلت (أي ان شئت قتلنا).

قال : كذبت ، (أهل الحجاز يستعملون كلمة كذبت في موضع (أخطأت) بعدما تكلموا بلسانكم ، وصلوا قبلتكم وحجوا حجكم .

فاحتمل إلى بيته ، فانطلقنا معه ، وكأن الناس لم يصبهم مصيبة قبل يومئذ : فقائل يقول : لا بأس وقائل يقول : أخاف عليه ، فأتي بنبيذ (المراد بالنبيذ هنا : تمرات نبذت في ماء أي نقعت فيه كانوا يصنعون ذلك لاستعذاب الماء) فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أتي بلبن فشربه ، فخرج من جرحه ، فعلموا أنه ميت ، فدخلنا عليه ، وجاء الناس فجعلوا يثنون عليه.

وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ وقدمت في الإسلام ما قد عملت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال عمر : وددت أن ذلك كفاف لا علي ولالي .

فلما أدبر هذا الشاب إذا إزاره يمس الأرض ، فقال عمر : رد علي الغلام.

قال : يا بن أخي ، ارفع ثوبك ، فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك. يا عبد الله بن عمر، انظر ما على من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه.

قال : إن وفي له مال آل عمر فأده من أموالهم ، وإلا فسل في بني عدي بن كعب ، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم ، فأد عني هذا المال.

انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل : يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين ، فإني لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فسلم واستأذن ، ثم دخل عليها فوجدها تبكي . فقال : يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه.

فقالت : كنت أريده لنفسي ، ولأآثرنه به اليوم على نفسي.

فلما أقبل قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، قال : ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك ؟ قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين ، أذنت ، قال الحمد لله ، ما كان من شئ أهم إلى من ذلك ، فإذا أنا قضيت فاحملوني ، ثم سلم فقل : يستأذن عمر بن

الخطاب ، (خوفا أن تكون عائشه قد أذنت له في حياته حياء منه) ، فإن أذنت لي فأدخلني وان ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين .

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها ، فلما رأيناها قمنا ، فولجت عليه فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال ، فولجت داخلا لهم ، فسمعنا بكاءها من الداخل .

فقالوا : أوص يا أمير المؤمنين ، استخلف .

قال : ما أجد أحق بهذا من هؤلاء النفر - أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ ، وهو عنهم راض : فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن بن عوف، وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شئ ، - كهيئة التسرية له - فإن أصابت الإمرة سعدا فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر ، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة .

وقال أوصى الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين ، أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيرا ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفي عن مسيئهم .

وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فإنهم ردء الإسلام ، وجباة المال وغيظ العدو (أي يغيظون العدو بكثرتهم وقوتهم) ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم (أي ما فضل عنهم) عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيرا ، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يؤخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله ﷺ ، أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا إلا طاقتهم .

فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي ، فسلم عبد الله بن عمر قال : يستأذن عمر بن الخطاب .

قالت عائشة : أدخلوه ، فأُدخِل ، فوُضع مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن بن عوف : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم (ليقل الخلاف) .

فقال الزبير : قد جعلت أمري إلى عليّ .

فقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان.

وقال سعد : قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف.

فقال عبد الرحمن : أيكما تبرأ من هذا الأمر فَنَجَلهُ إليه ، والله عليه والإسلام لينظُرن أفضلهم في نفسه؟

فأُسكت الشيخان (على وعثمان) .

فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إليّ والله عليّ أن لا آلو عن أفضلكم؟

قالا : نعم ، فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت فالله عليك لئن أمَّرتك لتعدلن ، ولئن أمَّرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ، ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان، فبايعه ، فبايع له عليّ ، وولج أهل الدار فبايعوه).

وجاء في روايات أخرى أن عبد الرحمن بن عوف دار تلك الليالي الثلاث - التي حدَّد عمر ألا يزيد فترة التشاور عنها - على الصحابة ومن وافي المدينة من أشراف الناس لا يخلو برجل منهم إلا أمره بعثمان.

فوائد مستفادة من رواية البخاري

. شفقة الإمام على رعيته ونصيحته لهم .

. الحرص على إقامه السنة فيهم.

. شدة خوف عمر من ربه .

. واهتمامه بأمر الدين أكثر من اهتمامه بأمر نفسه.

. وأن النهي عن المدح في الوجه مخصوص بما إذا كان غلواً مفرطاً أو كذباً ظاهراً ولذا لم ينه عمر الشاب من مدحه.

. ومع كونه مدحه لم يمنعه ذلك من نصحه بتشمير إزاره.

. الوصية بأداء الدَّين.

. جواز اختيار المرء مكان دفنه بجوار الصالحين أو بالبقاع الشريفة.

. وفيها أدب عمر في استئذانه حياً و ميتاً من عائشة مع أنه الحاكم وفيها من الدروس للخلفاء والحكام من بعده الكثير فرحمك الله يا عمر .

. المشورة في نصب الأمام.

. انعقاد الإمامة بالبيعة.

خلافة عثمان بن عفان

من ٢٩من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ إلى١٨ من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ

فتكون مدة خلافته اثنتى عشرة سنة

من مناقبه :

۞ أنه المسمى بذي النورين لزواجه من ابنتي رسول الله ﷺ (رقيـــة وتوفيـــت يـــوم انتصار بدر ، وأم كلثوم وتوفيت ســنة ٩ هـــــ).

۞ أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن أنس رضى الله عنه قـــال : (صعـــد النـــبي ﷺ أُحُد ومعه أبو بكر وعمر وعثمـــان ، فرجــف الجبــل فقــال ﷺ : اســكن أُحُد – أظنه ضربه برجله – فليس عليك إلا نبي وصديـــق وشـــهيدان) .

۞ وأخرج البخاري كذلك عن أبي موسى الأشعري رضـــي الله عنــه : " أن النـــبي ﷺدخل حائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط ، فجاء رجل يســتأذن فقــال : ائــذن لــه وبشره بالجنة فإذا أبو بكر ، ثم جاء آخر يستأذن فقــال : ائــذن لــه وبشــره بالجنــة فإذا عمر ثم جاء آخر يستأذن ، فسكت هنيهة ثم قــال : ائــذن لــه وبشــره بالجنــة على بلوى ستصيبه ، فإذا عثمان بن عفـــان ".

۞ وأخرج مسلم في صحيحة بسنده عن عائشة رضـــى الله عنـــها قـــالت :

كان رسول الله ﷺ مضجعاً في بيتي كاشفاً عن فخذيه أو ســـاقيه فاســتأذن أبــو بكر فأذن له وهو كذلك فتحدث ، ثم اســـتأذن عمــر فــأذن لــه وهــو كذلــك

فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولما تباله ثم دخل عمر فلم تهتش له و لم تباله ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ، فقال : (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة) .

بدأ عثمان عهده بخطاب وجهه إلى المسلمين فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس إن أول المركب صعب ، وإن بعد اليوم أياماً وإن أعش تأتكم الخطبة (لم يكن خطيباً) على وجهها وما كنا خطباء وسيعلمنا الله وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى أمام قائل)

وكتب عثمان كتباً أربعة الأول إلى الولاة والثاني إلى عمال الخراج والثالث إلى الرعية وكتب إلى أمراء الجيش رسائل حدد فيها سياسته الداخلية وإنه سائر على هدي نبيه ﷺ وطريقة سلفه في إقامة الحق والعدل.

و لم يكن عثمان في شدة عمر ولا عيب في ذلك فلكلٍ شخصيته ، فقد كان يُقَدَّم لعثمان في طعامه صغار الضأن ، والدقيق الأبيض المنخول ، ولما قيل له كان عمر لا يأكل من الضأن إلا مسانها ، قال : يرحم الله عمر ومن يطيق مثل عمر ؟

وبدأ يوسع على الناس وهو أمر طبيعي مع كثرة الخير والفيء والغنائم.

يروي البخاري في التاريخ : يروي عن الحسن أنه قال :

" أدركت عثمان على ما نقموا عليه ، قلّ ما يأتي على النـــاس يـــوم إلا وهـــم يقتســـمون خيراً ، يقال لهم : يا معشر المسلمين اغـــدوا علـــى أعطيـــاتكم ، فيأخذونها وافـــرة ، ثم يقال لهم : اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة ، ثم يقـــال لهـــم اغـــدوا علـــى الســـمن والعسل ، والأعطيات جاريـــة والأرزاق دارة ، والعـــدو متقـــي ، وذات البـــين حســـن ، والخير كثير ، وما من مؤمن يخاف مؤمناً ، ومن لقيه فهو أخـــوه ، قـــد كـــان مـــن إلفتـــه ونصيحته ومودته قد عهد إليهم أنها ستكون أثره فإذا كـــانت فاصـــبروا "

وما أن علمت الفرس والروم بمقتل عمـــر حـــتى نقضـــت معظـــم المقاطعـــات الفارســـية عهودها مع المسلمين وحاول الروم طرد المســـلمين فـــهاجموا الشـــام وحـــاولوا كذلـــك استرداد مصـــر .

فواجه عثمان محنة عظيمة كتلك المحنة التي واجهها أبو بكـــر في حـــروب المرتديـــن.

ولكن المسلمين استطاعوا أن يلقنوا أعداءهـــم دروســـاً لا ينســـوها واســـتعادوا الســـيطرة على مقاطعات فارس ، ومع ذلك لم ينكلوا بأهلـــها بـــل قبلـــوا اعتذارهـــم وعاشـــوا في كنف الإسلام آمنين مطمئنين ، وكذلك استطاعوا أن يهزموا الـــروم ويســـتعيدوا مـــا قـــد احتلوه من أرض الشـــام.

وفي عام ٢٨ هـــ

استطاع معاوية بن أبي ســـفيان والى الشـــام أن ينشـــئ أول أســـطول بحـــري للمســـلمين وكان قد عرض الفكرة على عمر ولكنـــه رفـــض خوفـــاً علـــى المســـلمين ، ثم عـــرض الفكرة على عثمان وألح فوافق عثمـــان.

وغزا معاوية قبرص عابراً البحر وصالح أهلها على الجزية وتعـــبر معـــه **أم حـــرام** (زوجـــة عبادة بن الصامت) لتحقق نبؤة النبي ﷺ أنها أول من تغزو البحـــر وتمـــوت هنـــاك.

فتح قبرص :

روى البخاري في كتاب الجهاد في صحيحه في كتـــاب الإمــارة :

" **عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ ، نـــام عندهـــا القيلولـــة ثم اســـتيقظ وهـــو يضحــك فسألته أم حرام عن سبب ضحكه فقال لها : رأى ناساً مـــن أمتـــه غـــزاة في ســـبيل الله يركبون ثبج البحر أي وسطه ومعظمه ملوكـــاً علـــى الأســـرة ، ثم وضـــع رأســـه فنام ثانية واستيقظ وقد رأى مثـــل الرؤيـــا الأولى .**

فقالت أم حرام : أدع الله أن يجعلني منهم ، فقال لها : أنـــت مـــن الأولـــين .

أي من الجيش الأول الذي سيغزو البحر وهو جيش معاوية حـــين غـــزا قـــبرص ففتحـــها سنة ٢٧ هـــ . أيام عثمان بن عفان وكانت معـــهم أم حـــرام بنـــت ملحـــان في صحبـــة زوجها عبادة بن الصامت وماتت أم حـــرام في ســـبيل الله وقبرهـــا بقـــبرص إلى اليـــوم .

قال ابن كثير : ثم كان أمير الجيش الثـــاني يزيـــد بـــن معاويـــة في غـــزوة القســـطنطينية..

ثم قال : وهذا من أعظم دلائل النبـــوة .

وفي عام ٣١ هـــ

استطاع المسلمون بقيادة **عبد الله بـــن أبي الســـرح** أن يفتحـــوا بـــلاد النوبـــة (تشـــمل السودان) وكانت من أصعب الفتوحات حيث واجه المســـلمون طريقـــة غريبـــة في الرمـــي لم يتدربوا على مواجهتها وهي الرمي بالنبال في أعـــين المحـــاربين حـــتى فقـــد الســـلمون ١٥٠ عيناً في أول المعركـــة.

واستطاع عبد الله أن يـــبرم معـــهم اتفاقيـــة تســـمى (**بـــالبقط**) اســـتمر العمـــل بهـــا ٦ قرون تنص علـــى :

أن تتبادل مصر وبلاد النوبة المحاصيل وأن توقف الحـــروب بينـــهما.

وفي سنة ٣١ هـ قرر الروم القضاء على الأسطول الإسلامي الناشئ فقد سيطر الأسطول الاسلامي على سواحل البحر المتوسط من رودس حتى برقه ، أخذ الأسطول الإسلامي يهدد سواحل الروم فقرر قسطنطين بن هرقل أن يخرج بألف سفينة لضرب المسلمين ضربه قاصمة.

وخرج المسلمون يقودهم **بُسر بن أرطاة** بمراكب الشام واجتمع عبد الله بن أبي سرح في مراكب مصر ثم صارت كلها تحت إمرة بُسر ومجموعها مائتا سفينة.

ودارت **معركة ذات الصواري** (أغلب الظن قرب ثغر يقع غرب الإسكندرية بالقرب من مدينة مرسى مطروح) وحاول المسلمون استدراج الروم إلى معركة برية. ولكن الروم كانوا يصرون على مواجهة المسلمين في البحر فهدى الله قادة المسلمين أن يحولوا المعركة البحرية إلى معركة برية حيث أمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ✿جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم ، فاقتربوا حتى لا مست سفنهم سفن عدوهم ، فنزل نفر من المسلمين إلى الماء وربطوا السفن الإسلامية بسفن الروم بحبال متينة ، فصار ١٢٠٠ سفينة في عرض البحر كل عشرة أو عشرين منها ، متصلة مع بعضها فكأنها قطعة أرض ستجري عليها المعركة.

وصمد المسلمون كعادتهم في مواجهة أعداء الله .. واشتد القتال واستمر القتل حتى قال الطبري : (إن الدم كان غالبا على الماء في هذه المعركة) ، ولكن الله نصر جنده وهرب قسطنطين وتأكدت سيطرة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم).

✿ [أسلم عام الفتح ،وكان ممن ارتدوا ولكنه أسلم ثانية وحسن إسلامه كان دعاؤه "اللهم اجعل خاتمة عملي الصلاة" فصلى الصبح ثم توفى] إنما ذكرنا جزءاً من ترجمة هذا الرجل لأنه من المآخذ التي أخذت على عثمان استعانته بهذا الصحابي التائب

وفي سنة ٣٣ هـ كان الجمع الثاني للقرآن

روى البخاري بسنده عن ابن شهاب ، أن أنس بن مالك حدثه " أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي مع أهل الشام في فتح أرمنية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة .

فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن هشام ، فنسخوها في المصاحف .

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

من هذه الرواية نستنتج أن هذا الجمع كان لعدة أسباب:-

- انتساع الفتوحات ودخول قدر كبير من الأعاجم في الإسلام وكان عمر رضى الله عنه آخذا بحجزات الصحابة يمنعهم من مغادرة الحرمين إلا قليلا منهم ، فاختلف الناس في القراءة وكادت تحدث فتنة.

- أراد عثمان أن يكتب المصحف على حرف واحد من الحروف السبعة (أي اللهجات السبع) فكتب بلغة قريش وهو الحرف الذي نزل به القرآن ، وإنما كان الترخيص بالقراءة بالحروف الأخرى مؤقتا حتى تطوع الألسنة لحرف قريش.

ومن أمثلة ذلك

عندما اختلفت اللجنة في كيفية رسم كلمة " التابوت" هكذا تنطق في قوله تعالى (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم) ٢٤٨ - البقرة.

قال زيد (التابوه) ،وقال القريشيون (التابوت) وترافعوا إلى عثمان فقال :
" اكتبوا (التابوت) فإنما أنزل القرآن على لسان قريش "
ولاشك أن هذا الذي صنعه عثمان يعد من أعظم إنجازاته وقد لقي قبول جميع من بقى من أصحاب رسول الله ﷺ .
قال على رضي الله عنه: " يا معشر الناس اتقوا الله ، وإياكم والغلو في عثمان وقولكم حرق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا على ملأ منا أصحاب محمد ﷺ "
وأغاظ هذا الإنجاز مثيري الفتنة الذين مازال الحقد يملأ صدورهم ولا يهدءون حتى يروا الفرقة تسود مجتمعات المسلمين ولنر مزيدا من مكرهم.

وفي سنة ٣٤ هـ ظهرت بوادر الفتنة

أصابع اليهود

أشعلها عبد الله بن سبأ من يهود صنعاء والمعروف بابن السوداء أظهر الإسلام ووقف موقف العلماء حاول التأثير في الأعراب والبداة والذين دانوا حديثا بالإسلام من سكان الأمصار .
فكان يقول للرجل : أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا ؟
فيقول الرجل : نعم ! فيقول له : فرسول الله أفضل منه فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى بن مريم عليه السلام ، ثم يقول : وقد كان أوصى إلى على بن على بن أبي طالب فمحمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ، ثم يقول :

فهو أحق بالإمرة من عثمان وصار عبد الله بن سبأ إلى مصر فافتتن به بشر كثير من أهل مصر ، وكتبوا إلى جماعات من عوام أهل الكوفة والبصرة ، فتمالئوا على ذلك وتكاتبوا فيه وانضم إليهم الناقمون على ولاة الأمر بتلك البلاد
وجعل يطعن في الخليفة عثمان وأنه عين من الولاة لقرابتهم به وأنه حرق المصاحف ويردد شبهاً أخرى واهية يعرف ردها أصحاب البصيرة والعلم

مثال ذلك ما أخرجه البخاري عن عثمان بن موهب قال :

(جاء رجل من أهل مصر وحج البيت، فرأى قوماً جلوساً فقال : مَن هؤلاء القوم ، فقالوا : هؤلاء قريش ، قال : فمن الشيخ فيهم ، فقالوا : عبد الله بن عمر قال: يابن عمر ، إني سائلك عن شئ فحدثني عنه :

هل تعلم أن عثمان فرَّ يوم أحد ؟

قال : نعم

فقال : تعلم انه تغيب عن بدر ولم يشهد؟

قال : نعم

قال الرجل : هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟

قال : نعم

قال : الله أكبر

قال ابن عمر : تعال أبين لك. أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ (رقية) وكانت مريضة ، فقال له رسول الله ﷺ : إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه ، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله

ﷺ عثمان ، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمـــان إلى مكـــة فقـــال رســـول الله ﷺ بيده اليمنى : هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال : هذه لعثمـــان ، فقـــال لـــه ابن عمر : اذهب بها الآن معـــك".

وأصبح لابن السوداء أتباع ووصل الأمر إلى الخليفة عثمـــان فجمـــع أمـــراء الأمصـــار في موسم الحج سنة ٣٤ هـــ وتشاور معهم وكان غالبيتهم يـــرون نفـــي هـــؤلاء إلى الثغـــور وحرمـــانهم مـــن الأعطيـــات ولكـــن عثمـــان رأى أن يلـــين لهـــم ويؤلـــف قلوبهـــم فوافقوه.ولكن ذلك لم يحل دون استمرارهم في إثـــارة الفـــتن .

وجاء وفد من مصر مـــن دعـــاه الفـــتن إلى الحجـــاز ســـنة ٣٥ هـــ يُظـــهرون أنهـــم يريـــدون العمـــرة ولكنـــهم تحولـــوا إلى منـــاظرة الخليفـــة الـــذي أفحمـــهم الحجـــة فانصرفوا راجعـــين إلى بلادهـــم.

وكثر الكلام وأثيرت الشبهات حول عثمان لأتفه الأســـباب بـــدون تحـــرٍّ ولا تدقيـــق ولا تقدير للخليفة إنما جرّأهم على ذلك رحمة عثمان ورقـــة قلبـــه ولـــو كـــان عمـــر الـــذي يفعل ذلك - وقد فعل ما هو أعظم من ذلك - ما تجرأ عليـــه أحـــد.

وتأمل في هذه الرواية التي خرجها البخاري في صحيحه لتجد مصـــداق مـــا نقـــول .

روى البخاري بسنده عن عبيد الله بن عدي بن الخيـــار قـــال :

" إن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بـــن يغـــوث (وهـــؤلاء مـــن كبـــار الفقـــهاء والعلماء يومها)قالا : ما يمنعك أن تكلم عثمان لأخيه الوليد (هو الوليـــد بـــن عقبـــة ✿أخـــو

✿ الوليد بن عقبة " صحابي جليل ، مجاهد فاتح استعان به أبو بكـــر واســـتعمله عمـــر بـــن الخطـــاب ولكن مثيري الشبهات عابوا على عثمان استعانته به لأنه قريبه ولفّقوا له تهمـــة شـــرب الخمـــر فقـــد=

عثمان لأمه ولاه الكوفة بوصية من عمر بعد عزل سعد بن أبي وقاص) فقد أكثر الناس فيه ؟

قال : فقصدت لعثمان حتى خرج إلى الصلاة ، قلت : إن لي إليك حاجة ، وهي نصيحة لك .

قال عثمان : أعوذ بالله منك ، فانصرفت فرجعت إليهما ، إذ جاء رسول عثمان ، فأتيته

فقال : ما نصيحتك؟

فقلت : إن الله سبحانه بعث محمدا ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ، وكنت ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ ، فهاجرت الهجرتين وصحبت سول الله ﷺ ، ورأيت هديه ، وقد أكثر الناس في شأن الوليد (تأخر إقامة الحد عليه لاتهامه بشرب الخمر)

قال عثمان : أدركت رسول الله ﷺ ؟ قلت : لا ، ولكن خلص إلى من علمه ما يخلص إلى العذراء في سترها (أي انتشر علمه فوصلني) .

قال عثمان : أما بعد فإن الله بعث محمدا ﷺ بالحق ، فكنت ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ ، وآمنت بما بعث به وهاجرت الهجرتين – كما قلت –

=شهد عليها اثنان من الحانقين على الوليد ولما تحقق عثمان وجيء بالوليد من الكوفة حلف لعثمان وأخبره بحقيقة الأمر فقال عثمان : (نقيم الحدود ، ويبوء شاهد الزور بالنار)
مما ينبغي أن يضاف أيضا أن تولية الأقارب ليس فيه إثم ولا لوم ماداموا أكفاء مخلصين ، فقد ولى رسول ﷺ ابن عمه عليا على الأخماس باليمن والقضاء بها كما ولى الرسول ﷺ كذلك كثيرا من رجال بني أمية المناصب الهامة وهم يمتون إليه بقرابة.

وصحبت رسول الله ﷺ ثم أبو بكر مثله ثم عمر مثله ثم استخلفت ، أفليس لي من الحق مثل الذي لهم ؟

قلت : بلى

قال : فما هذه الأحاديث التي تبلغني عنكم ؟ أما ما ذكرت من شأن الوليد فسنأخذ فيه الحق إن شاء الله ثم نادى عليا فأمره أن يجلد الوليد فجلده ثمانين جلده.

أحسب أن هذه الرواية توضح كيف أن المجتمع قد تأثر بالشائعات حتى أن الفضلاء منهم والمؤدبون في النصح ذهبوا إلى عثمان ناصحين .. ويبدو كذلك أن كثرة الأحاديث عن عثمان بدون تدقيق أتعبت عثمان وأرهقته .. ولكن ..

زعماء الفتنة لا يهدءون فعادوا يحرضون الأمصار على التوجه إلى المدينة وإظهار الشكوى من الولاة .. واتفقوا على أن يكون مسيرهم مع الحجاج حتى لا ينكشف أمرهم .. وفي ذي الحجة سنة ٣٥ هـ أي بعد عام كامل تقريبا توجه هؤلاء النفر وعددهم ألف إلى موسم الحج وقد قسموا أنفسهم مجموعات.

مجموعة أهل مصر وعليهم الغافقي بن حرب وعبد الله بن سبأ.

مجموعة أهل الكوفة وعليهم عمرو بن الأصم ،زيد بن صوحان العبدي .

مجموعة أهل البصرة وعليهم حرقوص بن زهير السعدي وحكيم بن جبلة العبدي.

وواجههم عثمان في موسم الحج وأوضح لهم كذب افتراءاتهم .. فتظاهروا له بالطاعة خاصة أنهم رأوا أن الصحابة قد تحفزوا لهم ... وتظاهروا بالرجوع إلى بلادهم .. وظن الصحابة أن المحنة قد زالت.

وفجأة عادوا يريدون محاصرة بيت عثمان ... فسألهم على بن أبي طالب عن سبب عودتهم فقالوا: إن الخليفة قد أرسل كتابا فيه قتل بعضهم !!؟

فقال على : إذا كان ذلك في مصر فما بال أهل الكوفة والبصرة قد عادوا؟

قالوا : نمنع إخواننا وننصرهــــم!

فقال لهم على : ومن الذي أخبر كـــل فريـــق بمـــا حـــدث مـــع الآخـــر ؟ وقـــد ســـرتم مراحل؟؟! هذا أمر قد دبر وأبرم بالمدينـــــة.

فثبت أن هذه الرسالة مزورة كما زورت رسالة على بـــن أبي طـــالب نفســـه أنـــه دعـــا القوم إلى القدوم وزورت رسائل على طلحة والزبير أنهما دعـــوا أهـــل الكوفـــة والبصـــرة إلى القدوم ..وجعل أهل المدينة يمنعونهم من الدخـــول إليـــها

ولكن الأمر قد تفاقم بالداخل واجترأ البعـــض علـــى عثمـــان ألجئـــوه إلى داره وضيقـــوا عليه وأحاطوا بها محاصرين له ، وسار جماعة من أبنـــاء الصحابـــة – عـــن أمـــر إبائـــهم – ليدافعوا عن عثمان منهم الحسن والحسين وعبـــد الله بـــن الزبـــير وعبـــد الله بـــن عمـــر واستطاع باقي الثوار أن ينضموا للمحـــــاصرين .

فحاصروا دار عثمان ومنعوا وصول الماء إليـــــه.

ودخل على عثمان ابن عمر متقلدا سيفه فقال له عثمـــــان : انظـــر مـــا يقـــول هـــؤلاء ، يقولون: اخلع نفسك أو نقتلك ، فقال له ابن عمر : أمخلد أنـــت في الدنيـــا ؟ قـــال : لا.

قال : يزيدون على أن يقتلوك ؟ قـــــال : لا .

قال هل يملكون لك جنة أو نارا ؟ قـــــال : لا .

قال : فـــلا تخلـــع قميـــص الله عنـــك ، فتكـــون ســـنة كلمـــا كـــره قـــوم خليفتـــهم خلعوه أو قتلـــوه.

ودخل عليه أبو هريرة : اليوم طـــاب الضـــرب معـــك فقـــال لـــه عثمـــان : عزمـــت عليك لتخرجـــن.

ودخل على عثمان زيد بن ثابت فقال : إن هذه الأنصـــار بالبـــاب وتقـــول " لـــو شـــئت كنا أنصار الله مرتين" وكان عنده من المهاجرين والأنصـــار ســـبعمائة.

ولكنه قال: لا حاجة لي ، كفوا ، وأعزم علـــى مـــن رأى أن لي عليــه سمعــا وطاعــة أن يكف يده ويلقي سلاحه فألقى القـــوم أســـلحتهم.

أشرف عثمان على تلك الفئة واعظــا : " أنـــه لا يحـــل ســـفك دم امـــرئ مســـلم إلا في ثلاث: كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفـــس ، فـــهل أنـــا واحـــد منهم؟ فما وجد القوم جوابـــا .

ثم عزم عثمان على من عنده بـــالخروج

لقد رفض الخليفة إراقة الدماء ولو كانت في نصرتـــه والدفـــاع عنـــه وحـــاول أن يردهـــم بالحوار والموعظة الحسنة ولكن القوم تجرئوا ودخلـــوا داره بعـــد حصـــار دام أربعـــين يوما وقتله بعضهم وهـــو يتلـــو القـــرآن عنـــد قولـــه تعـــالى (فسيكفيكهم الله) فسالت أول قطرة من دمائه عليها وكان صائما رحمـــه الله وفـــاضت روحـــه شـــهيدا إلى الله لتتحقق نبوءة محمـــد ﷺ .

قال معبد الخزاعي لعلى بن أبي طـــالب :

أخبرني أي مترلة وسعتك إذ قتل عثمـــان و لم تنصـــره ؟

قال : إن عثمان كان إماما وإنه نهى عن القتال وقال : من سل ســـيفه فليـــس مـــني ، فلـــو قاتلنا دو نه عصينـــاه .

قال : فأي مترلة وسعت عثمان ، إذ استسلم حـــتى قتـــل ؟

قال : المترلة التي وسعت ابن أدم اذ قال لأخيـــه.

(لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين)

وكان مقتله رضي الله عنه يوم الجمعة ١٨من ذي الحجة ســـنة ٣٥ هـــ.

فائدة: إن قال قائل كيف وقع لعثمان ما وقع وبالمدينة جماعة من كبار الصحابة رضوان الله عليهم فجوابه:

١- أن أكثرهم لم يكن يظن أن الأمر قد يبلغ حد القتل.

٢- أن الصحابة مانعوا دونه أشد الممانعة ولكن لما وقع التضييق الشديد، عزم عثمان على الناس أن يكفوا أيديهم ويغمدوا أسلحتهم ففعلوا

٣- انتهز هؤلاء غياب كثير من الصحابة في أيام الحج و علموا بقرب وصول الجيوش من الأفاق للنصرة فتعجلوا قتل عثمان

٤- كان عدد هؤلاء قريباً من ألفي مقاتل من الأبطال، وربما لم يكن في أهل المدينة هذه العدة من المقاتلة لأن الناس كانوا في الثغور، وفي الأقاليم في كل جهة..

٥- اعتزل كثير الصحابة هذه الفتنة ولزموا بيوتهم، ومن كان يحضر منهم المسجد لا يجئ إلا ومعه السيف.

أما ما يزعمه البعض من أن بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله، فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة أنه رضي بقتل عثمان ﷺ، بل كلهم كرهه، ومقته، وسب من فعله، ولكن بعضهم كان يود لو خلع عثمان نفسه من الأمر كعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر وغيرهم وليحذر المسلم من الروايات المدسوسة في هذه المسألة لتشويه صورة السلف الصالح من أصحاب رسول ﷺ.

فائدة: اختلف العلماء فيمن نزل به محنة كمحنة عثمان: هل يلقي بيده أم يستنصر؟

-فأجاز بعضهم أن يستسلم ويلقي بيده إقتداءً بفعل عثمان وبتوصية النبي ﷺ، بذلك في الفتنة: (سيكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومن يشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به) رواه البخاري.

خلافة علي بن أبي طالب
١٨من ذي الحجة ٣٥ هـ إلى ١٦من رمضان سنة ٤٠ هـ
فتكون مدة خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر

ذكر مناقبه

كانت بيعة علي بالخلافة عقب مقتل عثمان ، فبايعه المهاجرون والأنصار وكل من حضر ، وكتب بيعته إلى الآفاق فأذعنوا كلهم إلا معاوية في أهل الشام فكان بينهم ما كان

خرج البخاري بسنده عن سلمة بن الأكوع قال :

" كان عليّ قد تخلف عن النبي ﷺ في خيبر وكان به رمد فقال : أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ ؟ فخرج عليّ فلحق بالنبي ﷺ فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها قال رسول الله ﷺ :

" لأعطين الراية . أو ليأخذن الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله أو قال يحب الله ورسوله يفتح الله عليه ، فإذا نحن بعليّ وما نرجوه، فقالوا : هذا عليّ فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح عليه"

يقول الحافظ بن حجر في معنى الحديث:

(وقوله "أن علياً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله " أراد بذلك وجود حقيقة المحبة، وإلا فكل مسلم يشترك مع عليّ في مطلق هذه الصفة ، وفي الحديث تلميح

بقوله تعـــالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) .

فكأنـــه أشـــار إلى أن علياً تـــام الاتبـــاع لرســـول الله ﷺ حـــتى اتصـــف بصفـــة محبةالله له ، ولهذا كانت محبتـــه (أي علـــيّ) علامـــة الإيمـــان وبغضـــه علامـــة نفـــاق كما جاء في أحـــاديث أخـــرى).

وروي عن الامام أحمد قال : ما بلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنـــا عـــن علـــيّ بـــن أبي طالب (أي من المناقب وحسن الســـيرة)

الفتنة من جديد

حـــوّل المتـــآمرون الثـــائرون علـــى عثمـــان بالمدينـــة الدفـــة بعـــد مقتـــل عثمـــان إلى المطالبة بثأر عثمـــان.

وأصبح المطالبة بثأر عثمان حديث أهل المدينة يســـتعجلون علياً في ذلـــك حـــتى أن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام حملا مطالب أهل المدينـــة بإقامـــة الحـــد علـــى قتلـــة عثمان تحركهما العاطفة الصادقة .. ولم يفطنا إلى ما وراء المطـــالب مـــن مؤامـــرة.

فتحرك معهما المئات من أهل مكة والمدينة متجهين نحـــو البصـــرة وفي القـــوم عائشـــة مطالبين بالثأر لعثمـــان.

تصدى لهم والي البصـــرة عثمـــان بـــن حنيـــف فأحـــاط بـــه الثـــائرون وســـجنوه فأصبحت البصرة تحت سيطرة طلحة والزبـــير وعائشـــة.

توجه علي بن أبي طالب بجنوده إلى البصرة يريد الإصـــلاح وبـــالفعل لاحـــت بشـــائر الإصلاح والتفاهم ، وذكّر الزبير بقول النبي ﷺ : " ولكنـــك ســـتقاتله وأنـــت لـــه ظالم " فقال الزبير تذكرت ذلك ، ولو كنت ذكـــرت مـــا خرجـــت وأراد الاعـــتزال

ولكنه قتل رحمـــه الله.

علم المتآمرون ببوادر الصلح فقرروا الاختلاط بالنـــاس في المعســكرين ، معســكر طلحــة ومعسكر عليّ ويهيجوا الناس على القتال قبــــل أن يصطلحـــوا.

موقعة الجمل:

وفي جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـــ نجح المتـــآمرون في إثـــارة الجيـــش ، والتحـــم الطرفـــان واشتدت المعركة أمام الجمل الذي عليه هودج عائشة رضى الله عنـــــها حـــتى قُتـــل أمامـــه سبعون رجلاً كلٌ قد أخذ بخطامـــــه

تنبه عليّ فأمر بعقر الجمل ونجت عائشة وأمـــــر بحراســـتها حـــتى تعـــود إلى المدينـــة ، ومات من جيش البصرة عشرة آلاف ومن جيش علــــيّ خمســـة آلاف.

وانتهت الفتنة جزئياً وخضعت الأمصار لأمير المؤمنـــين وبقيـــت مشـــكلة الشـــام وتمـــرد معاوية بن أبي سفيان وامتناعه عن بيعة علـــيّ حـــتى يقتـــص لعثمـــان رضـــي الله عنـــهم جميعـاً

موقعة صفين:

وفي محرم سنة ٣٧ هـــ أراد عليّ أن يعزل معاوية من على الشـــام ولكـــن معاويـــة رفـــض الانصياع لأوامر الخليفة فخرج إليه عليّ بجيش مـــن المســـلمين وكذلـــك معاويـــة وفي جيشه نفر من المتـــآمزين.

بعث علي إلى معاوية يبين حجته ورأيه ولكن هـــــذه المحـــاولات لم تجـــد ، فـــدار القتـــال عند صفين وقتل عمار بن ياسر على يد جيش معاوية وقد قـــال لـــه النبي ﷺ :

(تقتلك الفئة الباغية) وكاد معاوية أن يهزم فلجـــأ عمـــرو بـــن العـــاص وكـــان في جيش معاوية إلى طلب التحكيم ، فرفع جيش معاوية المصـــاحف وطلـــب التحكيـــم.

شعر عليّ أنها خديعة ولكن غالبية الصحابة من جيش عليّ أصروا على قبول التحكيم فقبل مرغماً.

التحكيم:

كثر الكلام على التحكيم ونتيجة التحكيم وأن عمرو بن العاص خدع أبا موسى الأشعري- وحاشاه أن يفعل ذلك- فجعله يعلن عزل أمير المؤمنين عليّ من الخلافة، بينما وقف عمرو بعده وأعلن تأييده لأبي موسى في عزل عليّ ثم أعلن تثبيت الخلافة لمعاوية ... وكله كذب وافتراء وروايات لم تثبت ... مع أن هؤلاء الكتاب جميعاً في القديم والحديث يثبتون أن معاوية لم ينازع علياً في الخلافة و لم يطلبها لنفسه بل كان يطلب القصاص من قتله عثمان ويظن أن الحق معه لأنه ولى الدم ، وهو مخطئ في ذلك لأنه لا ينكر أحد أن علياً لم يكن ليتوانى في إقامة الحدود ولكن المشكلة كانت أكبر من ذلك ، فالمدينة كانت تحت سيطرة الثوار ، ولهذا قال علي بن أبي طالب لطلحة والزبير: (كيف أصنع بأقوام يملكوننا ولا نملكهم) ثم قال :
(إن هذا الأمر أي الثأر أمر جاهلية فاهدءوا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق).
وأُعلنت نتيجة التحكيم وهي عزل عليّ عن الخلافة ورد الأمر إلى الأمة تختار من تشاء، أما التصرف العملي في إدارة البلاد التي كانت تحت يد كل من الرجلين المتحاربين فيبقى كما كان : فعليٌّ يتصرف في البلاد التي تحت حكمه ما عدا الشام فكانت تحت حكم معاوية .
لم يقبل عليّ نتيجة التحكيم واعتبر أن المُحكمين تجاوزا حدودهما لأن الخلاف لم يكن حول اختيار الخليفة وانما كان على القصاص من قتلة عثمان.
حاول عليّ أن يدعو أنصاره إلى حرب معاوية من جديد لكنهم لم يميلوا معه بل

حدث انقسام عجيـــب.

بدء ظهور الخوارج:

انشق مجموعة من جيش عليّ (١٢٠٠٠) يرفضون التحكيم من أساســه ، مــع أهم هــم الذين فرضوه عليه ، بل وكفّروا عليــاً .

ولما عاد الجيش إلى الكوفة لحقوا بقرية من قرى الكوفة تعــرف باســم (حــروراء) ومــن هنا جاءت تسميتهم **الحرورية** وهم الخــــوارج .

ناظرهم عليّ وفقهاء الصحابــة ولكنــهم كــانوا بــدواً أجلافــاً لا يقتنعــون إلا بمــا في رءوسهم ... فكانوا يعترضون الناس ويســألونهم في التحكيــم فمــن رضــى بــه قتلــوه زاعمين أنه ارتد وكفــر.

وفي سنة ٣٨ هـــ قاتلهم علي بعد ما فشلت معهم الحجة فقتل منهم الكثـــير وفــر منــهم طائفة وانقسموا بعد ذلك إلى عشرين فرقـــة ✿.

وفي سنة ٣٩ هـــ تصالح علي ومعاوية علي وقف القتال علـــى أن يكــون معاويــة علــى الشام لا يتدخل فيها أمير المؤمنــين.

وفي سنة ٤٠ هـــ رصد الخوارج ثلاثة منهم ليقتلوا معاوية وعليـــا وعمــرو بــن العــاص بيد أنهم لم ينجحوا إلا في قتل علـــي.

ففي يوم ١٦ رمضان ســـنة ٤٠ هـــ تربــص اثنــان مــن الخــوارج عنــد خروجــه كعادته ليوقظ الناس قبيـــل الفجــر للصــلاة ، فقتلــوه عنــد بــاب المســجد فصــاح قائلا " **فـــزت ورب الكعبـــة**" .

وتجمع الناس سريعا على الرجلين وسألوه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة مـــا يصنعــون بهمـــا؟

✿ انظر فصل الفـــرق

فقال : " **إن أعش فالأمر إليّ ، وإن أُصِبت فالأمر لكم فان آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة وأن تعفوا أقرب للتقوى** "

وفي شوال سنة ٤٠ هـ بايع أهل المدينة الحسن بن علي على الخلافة .

وفي ٢٥ ربيع أول سنة ٤١ هـ تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية من اجل وحدة الأمة وذلك بعد ستة أشهر فسمى هذا العام (عام الجماعة) وتحققت فيه نبوءة النبي ﷺ .

الذي قال عنه " إن ابني هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين".

فائدة: كلام نفيس للقرطبي حول الخلاف الذي دار بين أصحاب رسول الله ﷺ ذكره عند قوله تعالى:
(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما)

هذه الآية أصل في قتال المسلمين ، والعمدة في حرب المتأولين وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله " تقتل عماراً الفئة الباغية" وقوله عليه السلام في شأن الخوارج : (يخرجون على خير فرقة أو على حين فرقة) ، والرواية الأولى أصح ، لقوله عليه السلام : (تقتلهم أَوْلى الطائفتين إلى الحق) ، وكان الذي قتلهم عليّ بن أبي طالب ومن كان معه ، فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن علياً رضى الله عنه كان إماماً وأن كل من خرج عليه كان باغٍ وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح ، لأن عثمان رضى الله عنه قُتل والصحابة بُرآء من دمه ، لأنه منع من قتال من ثار عليه وقال : لا أكون أول من خَلَف رسول الله ﷺ في أمته بالقتل ، فصبر على البلاء ، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة ، ثم لم يمكن ترك الناس سدى ، فعرضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم عمر في الشورى ، وتدافعوها ، وكان عليّ كرم الله وجهه أحق بها

وأهلها ، فقبلها حوطة على الأمة أن تسفك دماءها بالتهارج والباطل ، أو يتمزق أمرها إلى ما لا يتحصل فربما تغير الدين وانتقض عمود الإسلام فلما بويع له طلب أهل الشام في شريط البيعة التمكن من قتلة عثمان وأخذ القود منهم ، فقال لهم علي رضى الله عنه : ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه فقالوا : لا تستحق بيعة وقتلة عثمان معك تراهم صباحاً ومساءً فكان عليّ في ذلك أَسَدّ رأياً وأصوب قيلاً ، لأن علياً لو تعاطى القود منهم لتعصبت لهم قبائل وصارت حرباً ثالثة ، فانتظر بهم يستوثق الأمر وتنعقد البيعة ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم ، فيجري القضاء بالحق .

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثاره الفتنة أو تشتيت الكلمة ، وكذلك جرى لطلحة والزبير ، فإنهما ما خلعا علياً من ولاية ولا اعترضا عليه في ديانة ، وانما رأيا أن البُداءه بقتل أصحاب عثمان أولى.

قلت : فهذا قول في سبب الحرب الواقع بينهم ، وقال جلة من أهل العلم : إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة لأن الأمر كان قد انتظم بينهم ، وتم الصلح والتفرق على الرضا ، فخاف قتلة عثمان رضى الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا ، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا

فريقين ، ويبدءوا بالحرب سحرة في العسكرين ، وتختلف السهام بينهم ، ويصيح الفريق الذي في عسكر عليّ : غدر طلحة والزبير ، والفريق الذي في عسكر طلحة والزبير : غدر عليّ ، فتم لهم ما دبروه ، ونشبت الحرب ، فكان كل فريق دافعاً لمكرته عند نفسه، ومانعاً من الإشاطة بدمه وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى ، إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل وهذا هو الصحيح المشهور والله أعلم)

ثم قال :

(ولا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأراد الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم ، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ، لحرمة الصحبة ولنهى النبي ﷺ عن سبهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم ، هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ أن طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض ، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً لم يكن بالقتل شهيداً.

وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ في التأويل وتقصيراً في الواجب عليه، لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة ، فوجب حمل أمرهم على ما

بينله.

وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم وإبطال فضائلهم وجهادهم وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال : (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون).

وسئل بعضهم عنها أيضاً فقال : تلك الدماء طهر الله منها يدي ، فلا أخضِّب بها لساني يعني في التحرز من الوقوع في خطأ ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيباً فيه ، وسئل الحسن البصري عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب النبي ﷺ وغبنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا.

قال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عند ما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل ، إذ كانوا غير متهمين في الدين ونسأل الله التوفيق).

الباب الثاني
الخلافة الأموية

الفصل الأول : خلفاء بنى أمية

الفصل الثانى : الفتوحات فى عهد بنى أمية

روى البخارى ومسلم أن رسول ﷺ قال:

{ خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم}

الفصل الأول

خلفاء بني أمية

يقول ابن خلدون :

" إن دولة معاوية وأخباره كان ينبغي أن تلحق بدول الخلفاء الراشدين وأخبارهم فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة "

ويقول الخضري بك :

(والعجيب في أمر هذه الدولة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن والثورات أنها لم تظهر أمام الأمم الأخرى بمظهر الضعف إلا في فترة وجيزة جداً)

شجرة قريش

قصي

عبد مناف

هاشم | عبد شمس

عبد المطلب

العباس | عبد الله | أبو طالب

عبد الله | محمد ﷺ | علي | عقيل

الحسن | الحسين | مسلم

أمية

حرب | أبو العاص

أبو سفيان | عفان | الحكم

١ -معاوية | عثمان

٢ - يزيد

٣ -معاوية

٤ - مروان

٥- عبد الملك | عبد العزيز | محمد

٦ - الوليد | ٧ - سليمان | ٩ - يزيد | ١٠ - هشام | ٨ - عمر | ١٣ - مروان

١٢ يزيد الثالث | ١١ - الوليد | معاوية

عبد الرحمن الداخل

الأمويون في الأندلس

مخطط يوضح نسب وتسلسل خلفاء بنى أمية

خلافة معاوية بن أبى سفيان
من ربيع أول سنه ٤١ هـ حتى أول رجب سنة ٦٠ هـ
فتكون مدة خلافته تسع عشرة سنة وأربعة أشهر

ذكر مناقبه وفضله ...

أسلم قبل الفتح ، وأسلم أبواه بعده ، وصحب النبي ﷺ ، وكتب له ، وولى إمرة دمشق عن عمر بعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان سنة ١٩ هـ واستمر عليها بعد ذلك إلى خلافة عثمان ،ثم زمان محاربته لعلى وللحسن ، ثم اجتمع عليه الناس في سنه٤١ هـ ، فكانت ولايته بين إمارة ومحاربة ومملكة أكثر من أربعين سنة متوالية .

و هو صاحب مشروع إنشاء الأسطول البحري الإسلامي لأول مرة في عهد عثمان بن عفان .

أخرج البخاري بسنده عن ابن أبي مليكة قال :(أوتر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ، فأتى ابن عباس ، فقال: دعه فإنه صحب رسول الله ﷺ).

وفي رواية أخرى خرجها البخاري أيضاً قال ابن عباس : (إنه فقيه) .

استتب الأمر لمعاوية وعاد الأمن لدولة الإسلام من جديد وبايع المعارضون معاوية وأجمعت الأمة عليه . . ولا ينكر أحد حتى معاوية نفسه وجود من هو أفضل منه من أكابر الصحابة وأهل السبق أمثال : سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وغيرهما

ولكن كان لمعاوية وجهة نظر واجتهاد ظهر لنا في خطبته التي قال فيها :

(أيها الناس ما أنا بخيركم ،وإن منكم لمن هو خير مني :عبد الله بن عمر وعبد الله

بن عمرو وغيرهما . . ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية وأنكاكم في عدوكم .)

وجمهور العلماء يوافقون على جواز إمامة المفضول مع وجود من هو أفضل منه وتصح بيعته ، ولا يكون وجود الأفضل مانعاً من إمامة المفضول إذا لم يكن مقصراً عن شروط الإمامة ولأن زيادة الفضل مبالغة في الاختيار وليست معتبرة في شروط الاستحقاق .

ومعاوية صحابي جليل كما رأينا اجتمعت فيه خصال وهي :

-أن عمر جمع له الشامات كلها وأفرده بها ، لما رأى من حسن سيرته ، وقيامه بحماية البيض وسد الثغور ، وإصلاح الجند والظهور على العدو وسياسة الخلق .

- قال ابن تيمية في منهاج السنة :

(لم يكن من ملوك الإسلام ملكٌ خيراً من معاوية ، وكانت سيرته مع رعيته من خيار سيرة الولاة ، وقد كانت رعيته يحبونه وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال:

" خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم")

- وقال بن خلدون في تاريخه :

(إن دولة معاوية وأخباره كان ينبغي أن تلحق بدول الخلفاء الراشدين وأخبارهم فهو تاليهم في الفضل و العدالة والصحبة).

- ولقد شهد له ابن عباس في صحيح الحديث بالفقه كما سبق .

و شهد بخلافته في حديث أم حرام أن ناساً من أمته يركبون ثبج البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة ، وكان ذلك في ولايته .

وانعقدت البيعة لمعاوية بالصفة التي شاءها الله على الوجه الذي وعد به رسول الله

ﷺ مادحاً له راضياً عنه راجياً هدنة الحال فيه ، لقول النبي ﷺ : (ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين).
هذا خلاصة قول أهل السنة في خلافة معاوية لقد هدأت النفوس وانعقدت البيعة بالإجماع لمعاوية.

عودة الأمن للمجتمع:

وعاش الناس في عصر معاوية آمنين مطمئنين وزادت قوة المسلمين العسكرية وتوسعت الفتوحات ... ولكن بقى المصر العراقي والذي يضم الكوفة والبصرة وما حولهما كثير القلاقل ، وأهله يجيدون إثارة القلاقل والفتن وخرق وحدة الجماعة المسلمة ، إذا جاءهم الوالي الرحيم استضعفوه وقاموا بالحركات ، وإذا جاءهم الوالي القوي استهابوه وخافوا منه وسمعوا منه وأطاعوا... ولذا لما كان المغيرة بن شعبة والياً على هذا المصر منذ عام ٤١ هـ حتى سنة ٤٩ هـ استطاع أن يسوس أهله بحكمته ودهاه وشدته إذا تطلب الأمر ذلك... فلما مات عين معاوية بعده زياد بن أبيه سنة ٥٠ هـ وكان شديداً يعلم طبيعة أهل العراق فوقف فيهم أول ولايته وخطب فيهم خطبته الشهيرة **بالبتراء** والتي جاء في بعض فقراتها:

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أولـه ، لـين في غير ضعف وشدة في غير جبرية وعنف ، وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالولي والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي قناتكم.

وإياي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي خبر الكوفة ويرجع إليّ وإياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً دعاها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرّق قوماً غرّقته ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبت قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف يدي وأذاي ، ولا يظهر من أحد منك خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه.

أيها الناس ، قد أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذاده ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة . فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولّينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم ، واعلموا أني مهما قصرت عنه فإني لا أقصّر عن ثلاث ، لست محتجباً عن طالب حاجه منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولاحابساً رزقاً ولا عطاءً عن إبانه ، ولا مجمراً (حابساً لجند في أرض العدو) لكم بعثاً ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم لكان شراً لكم.

اسأل الله أن يعين كلاً على كل ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فانفذوه على إذلاله، وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي.

واستطاع زياد بهذه الشدة وربما أحياناً القسوة أن يسيطر على مقاليد الأمور بالبصرة والعراق وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ✿.

نقول ثانية أن اتحاد الأمة واجتماع كلمتهما وعدل الحاكم وقوته كان من أهم عوامل استقرار الأوضاع وعودة الفتوحات من جديد ولنتجول سريعاً مع الفتوحات في عهد معاوية.

كانت الفتوحات تسير في ثلاثة اتجاهات من ناحية أفريقية والمغرب في اتجاه فتح الأندلس ...من ناحية البحر ومحاولات فتح بعض الجزر ... ومن ناحية العراق (الشرق) وصولاً إلى بلاد ما وراء النهر...

وفي عهد معاوية :

بلغ عدد الأساطيل في البحر (١٧٠٠) ألف وسبعمائة كاملة العدة والعدد ، وقد رتب معاوية لغزو الروم في البر نظام الشواتي✿ والصوائف ✿

وكانت أولى المحاولات لفتح القسطنطينية:

في سنة ٤٨ هـ وقيل إنها كانت في سنة ٥٢ هـ أمر معاوية ابنه يزيد بالخروج لفتح القسطنطينية فخرج وهو كاره ومعه جيش يتكون من أسطول بحري بقيادة **بُسر بن أرطأة** وجيش البر قائده **سفيان بن عوف الأزدي** وضم في هذا الجيش مجموعة من

✿ نحسب أن هذه السياسة الشديدة لا تصلح القلوب وإنما تخفف الألم عن الأمة تخفيفاً وقتياً.

✿ الشواتي : جمع شاتية وهي الجيش الذي يغز في الشتاء .

✿ الصوائف : جمع صائفة ، وهي الجيش الذي يغزو في الصيف.

كبار الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري (خالد بن يزيد) الذي استشـــهد ودفـــن بجـــوار القسطنطينية ... ولم تنجح المحاولـــة.

روى البخاري عن أم حرام بنت ملحان أن رســـول الله ﷺ قـــال :

" أول جيش من أمتي يركبون البحر قد أوجبـــوا ، وأول جيـــش مـــن أمـــتي يغـــزون مدينة قيصر مغفور لـــه"

ومدينة قيصر عاصمته وهي القســـطنطينية.

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي ظبيان قال : غزا أبو أيوب مع يزيد بـــن معاويـــة قـــال: فقال إذا مت فأدخلوني في أرض العدو فادفنوني تحت أقدامكـــم حيـــث تلقـــون العـــدو ، قال : ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من مات لا يشـــرك بـــالله شـــيئاً دخـــل الجنـــة).

وفي سنة ٥٣ هـــ أعيدت محاولة فتح القســـطنطينية بجيـــش بقيـــادة **فضالـــة بـــن عبيـــد الأنصاري** واستمر الحصار خمس سنوات حتى سنة ٥٧ هـــ ولكنـــها أيضـــاً لم تفلـــح.

أما من الناحية البحرية فقد أغار المســـلمون علـــى بعـــض الجـــزر مثـــل صقليـــة وجربـــا ورودس وكريت وأسس معاوية داراً لصناعة الســـفن البحريـــة في عكـــا وكذلـــك أقـــام مثلها في جزيرة الروضة بمصر سنة ٥٤ هـــــــ.

وأحدث معاوية **نظام البريد** ومعنى ذلك أن تقســـم الـــطرق منـــازل ، في كـــل منـــــزل دواب مهيأة معدة لحمل كتب الخليفة إلى البلدان المختلفـــة ، فتســـلم الكتـــب بالحـــاضرة (العاصمة) فيأخذها صاحب الـــبريد ويمـــر مســـرعاً حـــتى إذا وصـــل إلى أول منـــزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها كالأول وبذلك كـــانت تصـــل الكتـــب إلى الأمـــراء والعمال في أسرع وقت ممكن وكان بين كل منـــزلتين اثنا عشـــر ميـــلاً وتســـمى هـــذه

المسافة بريداً ، وهي فكرة منقولة عن الفـــرس.

وكان كاتب معاوية **سرجون الرومي** لأن ديوان الشام كـــان لعـــهده بالروميـــة ويظـــهر أنه كاتب الخراج ، وكان سرجون صاحب أمره ومدبـــره ومشـــيره...

وهكذا مضت أيام معاوية قريباً من عشرين عاماً فلما أحس معاويـــة بدنـــو أجلـــه رتـــب معاوية الأمر لاستخلاف ابنه يزيد وجعل يدعو الناس لبيعتـــه فبـــايعوا وعندمـــا حضرتـــه المنية جذر معاوية يزيد من أربعة نفر (الحسين بن علي ، عبـــد الله بـــن عمـــر ، عبـــد الله بن الزبير ، عبد الرحمن بن أبي بكـــر)

وتوفى معاوية في رجب سنة ٦٠ هـــ وقد بايع يزيـــداً أغلـــب الأمصـــار فبويـــع في حيـــاة معاوية وهذا ما رفضه رجال بالمدينة الذين كانوا يســـتنكرون أن يبـــايع النـــاس لاثنـــين في وقت واحد... وأن يعهد لابنه بالخلافة...فلما مات معاوية بايع النـــاس مـــن جديـــد يزيـــد عدا النفر الأربعة السابق ذكرهم... ثم بايع عبد الله بن عمـــر ووصـــى النـــاس بالاجتمـــاع على يزيد قـــائلاً :

(تقولون إن يزيد بن معاوية ليس بخير أمـــة محمـــد ﷺ ، لا أفقهـــها فيـــها فقـــها ولا أعظمها فيها شرفا ، وأنا أقول ذلك ، ولكن والله لأن تجتمـــع أمـــة محمـــد ﷺ أحـــب إلى من أن تفـــترق)

وقال ابن عمر لما بويع يزيد (إن كان خيرا رضينا وإن كـــان شـــرا صبرنـــا).

وروى البخاري في كتاب الفـــتن:

(إن أهل المدينة لما خلعوا يزيد بن معاوية جمـــع ابـــن عمـــر حشـــمه وولـــده وقـــال إني سمعت رسول الله ﷺ : يقول : (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامـــة ، وإنـــا قـــد بايعنـــا هذا الرجل أي (الزبير) على بيع الله ورسوله وإني لا أعلم أعظـــم مـــن أن نبـــايع رجـــلا

على بيع الله ورسوله ثم ننصب له القتال، وإني لا أعلم أحـــداً منكـــم خلعـــه ولا بـــايع في هذا الأمر إلا كنت الفيصل بيني وبينـــــه).

لقد بايع عبد الله بن عمر وبايع عبد الرحمن بن أبي بكر يزيد بـــن معاويـــة وبقـــى الحســـين وعبد الله بن الزبـــير.

فهل كان معاوية موفقاً في هذه الطريقة في تحديد الخليفة من بعده واختيـــار ابنـــه يزيـــد؟

وننقل هنا أراء بعض المؤرخين ترد هـــذا التســـاؤل...

تأويل حسن للشيخ الخضري:

(إن هذه الطريقة كانت لازمة في هذه المرحلة لصـــلاح أمرالمســـلمين و لم شـــعثهم ، فـــإن الطامعين في الخلافة كثيرون وكلـــهم جديـــرون بهـــا ... بالإضافـــة إلى اتســـاع المملكـــة الإسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعـــدم وجـــود قـــوم معينـــين يرجـــع إليـــهم الانتخاب فإن الاختلاف لابد واقع ، ونحن نشاهد أنه مع تفوق بـــني عبـــد منـــاف علـــى سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريـــش فـــإنهم تنافســـوا الأمـــر وأهلكوا الأمة بينهم ، فلو رضى النـــاس عـــن أســـرة ودانـــوا لهـــا بالطاعـــة واعـــترفوا باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المســـلمين... إن أعظـــم مـــن ينتقـــد معاوية في تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يـــرون انحصـــار الأمـــر في آل علـــيّ ويســـوقون الخلافة في بنيه يتركها الأب منهم للابن ، وبنـــو العبـــاس أنفســـهم ســـاروا علـــى هـــذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتـــهم لا يعدوهـــم إلى غـــيرهم ، والنتيجـــة أن مـــا فعله معاوية كان أمراً لابد منه مع الحال التي كانت عليـــها الأمـــة الإســـلامية) .

قال الإمام بن خلدون:

(والذي دعا معاوية رضي الله عنه لإيثار ابنـــه يزيـــد بالعـــهد دون ســـواه إنمـــا هـــو مراعاة المصلحة في اجتماع واتفاق أهوائهم باتفاق أهـــل الحـــل والعقـــد عليـــه حينئـــذ

من بني أمية ، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواه وهم عصابـــة قريـــش وأهـــل الغلـــب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها وعـــدل عـــن الفـــاضل إلى المفضـــول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهـــم عنـــد الشـــارع ، وإن كـــان لا يظن بمعاوية غير هذا لعدالته وصحبتـــه مانعـــة مـــن ســـوى ذلـــك وحضـــور أكـــابر الصحابة وسكوتهم عنه دليل على انتقـــاء الريـــب فليســـوا ممـــن يـــأخذهم في الحـــق هـــوادة).

خلافة يزيد بن معاوية

من رجب سنة ٦٠ هـ إلى ١٤ من ربيع أول ٦٤ هـ

فتكون مدة خلافته ثلاثة سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً وكان عمره يوم تولى أربعة وثلاثين عاماً

ما إن تولى يزيد الحكم حتى أرسل إلى والي الحجاز يـــأمره أن يـــأخذ الحســـين بـــن علـــي وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيـــه رخصـــة.

وفي ذلك الوقت كتب أهل الكوفة إلى الحسين (إنا قد جيشـــنا أنفســـنا عليـــك فـــأقدم) فبعث الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليستوثق مـــن خـــبر الكوفـــة.

فمكث مسلم بن عقيل بالكوفة مدة من الزمان ثم حـــاول أن يخـــرج في الكوفـــة ونـــادى بشعار (البيعة للحسين) فتجمع له أربعة آلاف سرعان ما انفضـــوا مـــن حولـــه ، وأُعـــدِم على يد النعمان بن بشير والي الكوفـــة.

قبل إعدام مسلم بيوم واحد كان خروج الحسين مـــن مكـــة إلى الكوفـــة ونصحـــه كثـــير

من الصحابة بعدم الخروج لما قد يجر ذلك من التفرق ولكنه أصـــر علـــى اجتـــهاده.
وفي ١٠ من المحرم سنة ٦١ هـــ (يوم عاشوراء) قُتِل الحســـين بجـــوار **كربـــلاء** علـــى يـــد عبيد الله بن زياد في جيش كله من العراق .. لم يعطـــوا فرصـــة للحســـين للعـــدول عـــن رأيه... وحُملت رأس الحسين إلى الخليفة يزيد الذي بكى لمقتلـــه وأكـــرم مـــن بقـــى مـــن أهل البيت فلم يكن يزيد يريد قتل الحســـين.

يقول الشيخ الخضري بك معلقاً على الحادثة:

(... بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة الـــتي أثارهـــا عـــدم الأنـــاة والتبصـــر في عواقب الأمور ، فإن الحسين ضرب بقول مشيريه جميعاً عـــرض الحـــائط وظـــن بـــأهل العراق خيراً فاغتر ببعض كتب كتبـــها دعـــاة الفـــتن ومحبـــو الشـــر ، فحمـــل أهلـــه وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد ، وانظروا كيف تـــألف الجيـــش الـــذي حاربـــه ؟ هل كان إلا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شـــيعة علـــيّ بـــن أبي طالب ، وعلى الجملة فان الحسين أخطأ في خروجه هذا الذي جـــر علـــى الأمـــة وبـــال الفرقة والاختلاف إلى يومنا هذا ، وقد أكثر الناس مـــن الكتابـــة في هـــذه الحادثـــة لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران في القلوب فيشـــتد تباعدهـــا.

غاية ما في الأمر أن الحسين طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يُعِد له عدتـــه فحيـــل بينـــه وبـــين ما يشتهي وقتل دونه .. لقد ذهـــب الجميـــع إلى ربهـــم يحاسـبهم علـــى مـــا فعلـــوا والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهـــي :

إنه لا ينبغي لمن يريد عظائم الأمور أن يسير إليـــها بغـــير عدتهـــا الطبيعيـــة فـــلا يرفـــع سيفه إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب مـــن ذلـــك ، كمـــا أنـــه لابد أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة بأن يكـــون هنـــاك جـــور لا يحتمـــل

وعسف شديد ينوء الناس بحمله، أما الحسين فإنه خرج على يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار الخلاف)

وكان من الذين نصحوا الحسين بالعدول : عبد الله بن عباس الذي قال له:

" إن أهل العراق قوم غدر ، فلا تقربنهم ، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ، ثم أقدم عليهم ، فإن أبيت إلا السير فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً ، وهي أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن الناس في عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتثبت دعاتك، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية...)

وقال له عبد الله بن مطيع :

(أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك ! أنشدك الله في حرمة رسول الله ﷺ ؟؟! أنشدك الله في حرمة العرب ! فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك ، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً. والله إنها لحرمة الإسلام تنتهك ، فلا تفعل ، ولا تأت الكوفة ...) فأبى الحسين إلا أن يمضي .

ومازال الناصحون من أهل الرأي والعلم ينصحونه ولكنه لم يأخذ باجتهادهم ، واجتهد رأيه ، ويبدو فيما بعد أنهم أصابوا في اجتهادهم وقد أخطأ الحسين رضي الله عنه في اجتهاده..

يقول ابن تيمية في منهاج السنة :

(... لم يكن في خروجه رضي الله عنه مصلحة لا في دين ولا في دنيا وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد في بلده ، فكان قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شئ بل زاد الشر بخروجه وقتله)

ويقول الشيخ محب الدين الخطيب:

(... لا أدري سبباً معقولاً لتضخيم هذه المصيبة – على الرغم من فداحتها بعد – زوال الأمويين وملكهم ؟!!

فهي مهما كان من أمرها لا تعد شيئاً مذكوراً بجانب المصيبة باستشهاد الخلفاء عمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم.

فلماذا لا يقيمون عليهم كل عام مأتماً وعويلاً .. كما يفعلون في ذكرى مقتل الحسين يوم عاشوراء...؟؟!!)

بدء الصراع بين عبد الله بن الزبير وبني أمية سنة ٦٣ هـ:

وما إن وصل خبر مقتل الحسين إلى عبد الله بن الزبير حتى أعلن خلع يزيد وأخذ البيعة لنفسه من الناس،فأرسل يزيد جيشاً لمحاصرة المدينة فلم يستسلم أهلها وأصروا على القتال.. فقتل أكثر سادة المدينة يومها في وقعة **سميت الحرة** في ذي الحجة سنة ٦٣ هـ ثم توجه جيش الخليفة إلى مكة ليحاصرها وبها عبد الله بن الزبير... ولكن وفاة يزيد بن معاوية جعلت الجيش يعود.

معاوية الثاني سنة ٦٤ هـ

وفي سنة ٦٤ هـ عهد يزيد إلى ولده معاوية الثاني بالخلافة ولكنه كان رجلاً صالحاً ضعيفاً في الإمارة فتنحى عن الخلافة ومات بعد ثلاثة أشهر من خلافته واجتمع أغلب أمراء الشام على مبايعة عبد الله بن الزبير ... وتوجه مروان بن الحكم لمبايعة ابن الزبير ولكنه التقى بعبيد الله بن زياد صاحب مذبحة الحسين في كربلاء فصرفه عن المبايعة لابن الزبير ومناه بالخلافة فرجع مروان ... ويبدو أن عبيد الله خاف القصاص منه إذا تولى أمر الأمة عبد الله بن الزبير .

عبد الله بن الزبير

وبايع أغلب الأمصار عبد الله بن الزبـــير.

ولكن القلاقل لم تهدأ وحدث اقتتال بالشام عند **مرج راهــط** بـين المؤيديـن والمعـارضين لمبايعة مروان أو ابن الزبير ۞ واستطاع مروان أن يفـرض سـيطرته علـى الشـام وكـان ذلك سنة ٦٥ هــ ، ثم توفي مروان بن الحكم وبايع أهل الشــام ابنــه عبــد الملـك بـن مروان وقام صراع طويل بين أهل الشام وعبد الله بن الزبير حـتى كـان عـام ٧١ هــ استطاع عبد الملك بن مروان أن يخضع معه العـراق كلـها و لم يبـق لـه إلا الحجـاز... فأمر عبد الملك **الحجاج بن يوسف الثقفـي والي العـراق** يومـها أن يخـرج في جيـش كثيف إلى مكة لمحاصرة عبد الله بن الزبـير ، فحاصرهـا ومنـع عنـها المـؤن وضربهـا بالمنجنيق ، وبدأ الناس يتخاذلون عن ابـن الزبـير و لم يبـق معـه إلا أمـه **أسمـاء ذات النطاقين** ودعته أن يثبت على الحق ولو كـان وحـده

وأثناء الحصار أكمل عبد الله بن الزبير بناء الكعبة على الطريقة الـتي كـان يتمناهـا النـبي ﷺ كما جاء في الحديث الصحيـح أن الرسـول ﷺ قـال لعائشـة " **لـولا قومـك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل وجعلـت لهـا بـابين** "

وكان جدارها قد مال بسبب رمي المنجنيـق .

ثم دخل عبد الله على أمه قبل قتله بعشرة أيام فقـال لهـا:

۞ اقتتال أهل الشام يومها كان بين قيس ويقودهم الضحاك بن قيـس حـاكم دمشـق يومـها وهـم يدعون لابن الزبير بالخلافة وبين الكلبية الذين يدعون إلى بني أميـة وسـيكون لهـذا اليـوم أثـره العميق في الصدور سيظهر في بدايات عـهد الأندلـس

يا أماه .. خذلني الناس ، حتى ولداي وأهلي ، فلم يبق إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فماذا ترين ؟

قالت أسماء : أنت والله يا بني أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيلعبون بها، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت من قتل معك ، وإن قلت : كنت فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟؟! .. القتل أحسن.

قال : إني أخاف أن يُمثل بي أهل الشام.

قالت : إن الكبش لا يؤلمه سلخه بعد ذبحه.

فدنا ابن الزبير من أمه فقبل رأسها وقال : هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعيا، إلى يومي هذا ، ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حُرمه ، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه فإني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتد حزنك وتسلّمي لأمر الله. فدعت له مودعة :

اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك الظمأ في هواجر المدينة ومكة ، وبره بأبيه وبي ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين...

فقاتل عبد الله قتال الأبطال وهو ينشد :

أسماء يا أسماء لا تبكيني لم يبق إلا حسبي وديني
وصارم لانت به يميني

فلما قتل كبَّر أهل الشام لمقتله ، فبلغ ذلك ابن عمر فقال : (الذين كبروا لمولده

خير من الذين كبروا لموتـــه) ✡.

وصلب الحجاج عبد الله بن الزبير مبالغـــة في التشـــفي ، ثم أرســـل إلى أمـــه فـــأبت أن تأتيه فذهب إليها فلما دخل عليـــها

قال: أرأيت كيف نصر الله الحق وأظـــهره؟

قالت : ربما أديل الباطل على الحق وأهلـــه.

قال : كيف رأيتني صنعت بعـــدو الله؟

قالت : أراك أفسدت على ابني دنياه ، وأفسد عليـــك آخرتـــك.

وبلغ عبد الملك بن مروان ، ما صنع الحجاج مع أسمـــاء فكتـــب إليـــه يســـتنكر فعلـــه ويقول: مالك ولابنة الرجل الصالح ؟ وأوصاه بهـــا خـــيراً.

فدخل عليها الحجاج فقال : يا أماه ، إن أمير المؤمنين أوصـــاني بـــك فـــهل لـــك مـــن حاجـة؟

قالت : لست لك بأم ، إنما أنا أم المصلوب على الثنية ، ومـــالي مـــن حاجـــة

وبالقضاء علىعبد الله بن الزبير بن العوام استتب الأمر لعبـــد الملـــك بـــن مـــروان وذلـــك سنة ٧٣هـــ.

✡ ظل المسلمون مدة بعد الهجرة لا يولد لهم ولد وأشـــاع اليـــهود أنهـــم ســـحروهم فلـــن ينجبـــوا ، فولدت أسماء (عبد الله) فكان أول مولود في المدينة فكبر أهلها يـــوم مولـــده فرحـــاً.

أهم الثورات فى عهد بنى أمية:

ولقد شهدت الفترة من وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ وحتى قرب نهاية حكم عبد الملك بن مروان تقريباً سنة ٨٤ هـ ثورات عديدة منها:

١ **ثورة التوابين** في ربيع أول سنة ٦٤ هـ وهم الجماعة الذين شجعوا الحسين على القدوم إلى الكوفة ثم خذلوه ، ثم ندموا على ما فعلوا ، واجتمعوا بجيش وأطلقوا على أنفسهم اسم التوابين ، وكان قائدهم سليمان بن صرد الخزرجي صحابي عابد زاهد شهد صفين مع عليّ وكانت داره مقر اجتماع التوابين وقضى عليه وعلى أتباعه سنة ٦٥ هـ.

٢- **ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي...** (ويسمونه رجل الفتنة الكبرى) في ربيع أول سنة ٦٦ هـ تمكن من الوثوب إلى ولاية الكوفة مدعياً أن محمد بن الحنفية (هو أحد أبناء علي بن أبي طالب) أرسله للأخذ بثأر الحسين ولم يكن محمد يعلم بذلك ولا يرضى به ، فحقق بالفعل انتصارات متتابعة ولكنه قتل سنة ٦٧ هـ وانتهت حركته على يد مصعب بن الزبير.

٣- **ثورة الخوارج** لقد قام الخوارج بثورات هائلة وكان الفضل الأكبر في القضاء عليهم لرجل اسمه : **المهلب بن أبي صفرة** : وكانت أشد معارك الخوارج سنة ٧٧ هـ عندما تولى (شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيباني ، أبو الضحاك) قيادة جيش الخوارج وهو أحد أبطال العالم بايعه الخوارج بالخلافة فأرهب ملك بني أمية ، فلا يزال الضحاك ينزل ببني أمية هزيمة تلو هزيمة وجيشه لا يزيد عن ألف رجل وبنو أمية ألوف مؤلفة حتى مات غرقاً وقد ماتت قبله أيضا في هذه المعارك زوجته غزال الحرورية (أشهر النساء في الشجاعة والفروسية).

٤- **ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أمير سجستان سنة ٨٢ هـ** ثار ابن الأشعث على الحجاج وخلعه ودارت بينهما معارك منها :

- **معركة الزاوية** في محرم سنة ٨٢ هـ بالبصرة ، وكان في جيش ابن الأشعث نفر من العلماء منهم سعيد بن جبير والشعبي وغيرهم...

ولكن ابن الأشعث انهزم وفر إلى الكوفة فاستقبله أهلها استقبالاً حسناً وبايعوه على خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان....

- **معركة دير الجماجم** في شعبان سنة ٨٢ هـ ، خرج الحجاج بجيشه ليواجه هذا الثائر بدير قرة وقدمت إلى الحجاج أمداد كبيرة من الشام وخرج ابن الأشع عند دير الجماجم فتقاتل الناس عندها قتالاً شديداً واستمر مدة طويلة...

حتى أن عبد الملك بن مروان دعا أهل مشورته فقالوا له :

إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم... فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك ومعهما جنود كثيرة جداً وكتب معهما كتاباً إلى أهل العراق يقول لهم فيه :

(... إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم عزلته عنكم ، وبعثت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت ، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان...)

وقال في عهده : فإن لم تجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج على ما هو عليه وإليه إمرة الحرب ، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعة الحجاج وتحت أمره لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره...

فلما بلغ ابن الأشعث ذلك جمع الأمراء وندبهم إلى قبول ما عرض عليهم ولكنهم

صاحوا به : لا والله لا نقبل ذلك ، نحن أكثر عدداً ، وقد ذلـــوا لنـــا ، والله لا نجيـــب إلى ذلك أبداً... فلما تأكد رفض العرض انضم جيش الشـــام إلى جيـــش الحجـــاج ودارت رحى الحرب وطالت حتى انسلخت هذه السنة وهـــم علـــى حـــالهم وقتـــالهم في كل يوم أو يوم بعد يوم ، والدائرة على أهل الشام في أكـــثر الأيـــام...

حتى كان يوم أمر الحجاج فيه بالهجوم علـــى كتيبـــة القـــراء (العلمـــاء) لأن النـــاس كانوا تبعاً لهم وهم الذين يحرضونهم على القتال والناس يقتـــدون بهـــم...

ونجحت الهجمة وقتل من القراء خلق كثير وانهزم أصحـــاب ابـــن الأشـــعث وذهبـــوا في كل وجه ولجأ ابن الأشعث إلى بلاد رتبيل ملـــك الـــترك...

فأرسل الحجاج إلى رتبيل يتهدده بقتاله بجيش لا قبـــل لـــه بـــه... فقتـــل رتبيـــل ابـــن الأشعث وبعث برأسه إلى الحجـــاج...

ولما قدمت الأسارى على الحجاج قتل أكثرهم منهم ســـعيد بـــن جبـــير وعفـــا عـــن بعضـــهم...

ويعلق الشيخ الخضري على هذه الأحـــداث قـــائلاً:

(وهكذا مضى على الأمة ما يقرب مـــن عشـــرين عامـــاً وهـــي مصابـــة بـــالفتن والاضطرابات في معظم الجهات الإسلامية يقتل بعضهم بعضـــاً... ولم يكـــن زمـــن الفتن يسمح للمسلمين بمـــد فتوحـــاتهم وإنقـــاص أرض عدوهـــم لأن الأمـــة إذا كان بأسها بينها شديداً فحسبها أن تحافظ على ما بأيديـــها مـــن البـــلاد)

ففي سنة ٧٠ هـــ اضطر عبد الملك إلى مصالحة الروم على إتاوة يدفعها سنوياً .

وفي سنة ٧١ هـــ تراجع المسلمون المجاهدون في بلاد المغرب وتركوا القيروان .

هذه أمثلة ولكن العجيب في أمر هذه الأمة وهـــذه الدولـــة القويـــة مـــع مـــا نالهـــا مـــن المصائب والفتن أنهـــا لم تظـــهر أمـــام الأمـــم الأخـــرى بمظـــهر الضعـــف إلا في فـــترة

وجيزة جداً.

وفي سنة ٨٤ هـ يبني الحجاج مدينة وسط قاعدة العراق.

وفي شوال سنة ٨٦ هـ يتوفى عبد الملك ين مروان عن مدة خلافة إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصف .

من مناقب مروان بن الحكم وابنه عبد الملك:

ولا يفوتنا هنا أن نلفت النظر إلى مكانة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك.

كان مروان من الطبقة الأولى من التابعين وقد روى الحديث عن عمر وعثمان وزيد بن ثابت وغيرهم وروى البخاري عنه في صحيحه وكان أثناء ولايته يجمع أصحاب رسول الله ﷺ ويستشيرهم ويعمل ما يجمعون عليه ، وكان يوم مات عثمان ، يدافع عنه ، وشهد الجمل مع عائشة ، ثم بايع علياً.

كما كان ابنه عبد الملك من أهل العلم وقد سمع من عثمان وأبي هريرة وأبي سعيد وأم سلمة... وحدَّث عن جمع من العلماء.

قال أبو الزناد: (فقهاء المدينة : سعيد بن المسيب ، وعبد الملك (قبل الخلافة) وعروة ، وقبيصة بن ذؤيب).

ولعله مما ينبغي أن يذكر من أعمال عبد الملك بن مروان .

١- إصدار العملة:

في سنة ٧٦ هـ ضرب عبد الملك العملة وهو أول من أحدث ضربها في الإسلام فانتفع الناس بذلك ،وكان سبب ضربها ، أنه كتب في صدور الكتاب إلى الروم : (قل هو الله أحد)، وذكر النبي ﷺ مع التاريخ ، فكتب ملك الروم إلى عبد الملك: (... إنكم قد أحدثتم كذا وكذا ... فاتركوه وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم

ما تكرهــون...)

فعظم ذلك على عبد الملك وأحضر خالد بن يزيد بن معاويـــة فاستشـــاره في ذلـــك فقـــال له :(حرِّم دنانيرهم واضرب للناس سكة فيها ذكــــر الله تعـــالى...)

ففعل عبد الملك... كما ضرب الحجاج الدراهم ونقـــش فيـــها (قــل هـــو الله أحـــد) ثم تطورت الدراهم والدنانير الإسلامية بعد ذلـــك ، وبذلـــك حقـــق عبـــد الملـــك للدولـــة الإسلامية استقلالها المـــالي .

٢– تعريب الدواويــــن:

الدواوين : جمع ديوان ، والديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقـــوق الســـلطة مـــن الأعمـــال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمــــــال .

وديوان الخراج : هو بيت المال مختص بـــالدخل وبـــالخرج .

بقيت أهم دواوين الدولة الإسلامية– ديوان الخراج– تســـتعمل اللغـــات الأجنبيـــة كمـــا كانت حالها في عهود الدولة السابقة قبـــل ظـــهور الإســـلام ، فـــهي فارســـية في بـــلاد ويونانية في بلاد وقبطية في بلاد واستمر الحال على ذلك منـــذ دوّن عمـــر بـــن الخطـــاب الديوان لأول مرة في الإسلام حتى عهد عبد الملك ، فكـــان مـــن نتـــائج ذلـــك احتفـــاظ الدولة بطوائف من الموظفين الذين يعتبرون أجانب من غـــير العـــرب والمســـلمين ، ومـــن نتائج ذلك أيضاً بقاء تلك اللغات سائدة حية معترفاً بها كلغـــات رسميـــة ، يقبـــل النـــاس على تعلمها وإتقانها لحاجة الدولة إليـــــها...

فأصدر عبد الملك أمراً بتعريب الدواويـــن جميعـــها...

فمثلاً كان رئيس ديوان الخراج بدمشق هو (ســـرجون بـــن منصـــور الرومـــي) وكـــان محتكراً لهذا العمل منذ عهد معاوية ، فأمر عبد الملك رجلاً عربياً هو ســـليمان بـــن ســـعد الخشني الملقب : أبا ثابت ، أن يقوم بتحويل الديوان مـــن الروميـــة إلى العربيـــة ، فكـــان

ذلك سنة ٨١ هـ ، وتم عزل سرجون... وكان رئيس ديوان العراق : (زاذان فروخ) وهو فارسي وكان محتكراً لهذا العمل من أيام يزيد وقتل أيام ثورة الأشعث فعين صالح بن عبد الرحمن بدلاً منه وأمره بتحويل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية وتخرج على يد صالح هذا أكثر كتاب العراق...

وهكذا حتى تم تحويل جميع دواوين الدولة .. الذي كان سبيلاً إلى تعريب الجاليات الأجنبية فكان لهذا العمل أكبر الأثر في انتشار اللغة العربية.

خلافة الوليد بن عبد الملك

من شوال سنة ٨٦ هـ حتى ١٥ من جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ

فتكون مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر

وكان عمره يوم تولى سنة وثلاثون سنة

قام الوليد بإصلاحات عظيمة وكانت مدة خلافته غرة في جبين بني أمية.

بنى جامع دمشق (الجامع الأموي) ولم يزل في عمرانه مدة خلافته وقد بناه مكان كنيسة يوحنا وعوض النصارى عنها بكنيسة مريم.وبنى صخرة المقدس ووسع مسجد رسول الله ﷺ .وأعطى المجذومين وبنى لهم مشفي خاصاً بهم في ضواحي دمشق (مشفى الوليد) ، وأعطى كل مُقعد خادماً وكل ضرير قائداً.

فائدة: (رجل اختلف فيه الرأي)

وفي سنة ٩٥ هـ توفي الحجاج بن يوسف الثقفي .

يقول ابن كثير : (وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم وعصيانهم ومخالفتهم والافتيات عليهم) ويقول : (وقد تقدم قول أسماء عندما دخل عليها الحجاج بعد مقتل أبنها عبد الله في تفسير حديث النبي ﷺ (إن في ثقيف كذاباً ومبيراً) أن الكذاب هو المختار والمبير (المهلك) هو الحجاج بن يوسف ، وقد كان ناصبياً يبغض علياً وشيعته في هوى آل مروان بني أمية ، وكان جباراً عنيداً ، مقدماً على سفك الدماء بأدنى شبهه ، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر ، فان كان قد تاب منها وأقلع عنها ، وإلا فهو باق في عهدتها ، ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه ، فان الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوه، ربما حرفوا عليه بعض الكلم وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات)

ويقول: (قلت : الحجاج أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله عز وجل ، وقد كان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد ، وكان فيه سماحة بإعطاء المال لأهل القرآن فكان يعطي على القرآن كثيراً ، ولما مات لم يترك فيما قيل إلا ثلاثمائة درهم والله أعلم)

وعن عمر بن عبد العزيز قال :(ماحسدت الحجاج عدو الله على شئ حسدي إياه على حبه القرآن ، وإعطائه أهله عليه، وقوله حين حضرته الوفاة:

اللهم اغفر لي فان الناس يزعمون أنك لا تفعل)

وأنشد الحجاج عند موته:

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا   بأنني رجلٌ من ساكني النار

أيحلفون على عمياء ويحهم   ما علمهم بعظيم العفو غفار

فأخبر بذلك الحسن فقال: بالله إن نجا لينجون بهما.

وخرج الإمام أحمد بسنده عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك نشكو إليه ما نلقى من الحجاج فقال: اصبروا فإنه لا يأتي عليكم عام أو زمان أو يوم إلا والذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم عز وجل، سمعته من نبيكم ﷺ).

قال الشعبي: والله لئن بقيتم لتمنُّون الحجاج.

وقال الأصمعي: قيل للحسن إنك تقول الآخر شر من الأول، وهذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج ؟؟! فقال الحسن: لابد للناس من تنفيسات.

قال رجل لسفيان الثوري: أتشهد على الحجاج وعلى أبي مسلم الخراساني أنهما في النار؟ قال: لا! إن أقرا بالتوحيد.

وفي سنة ٩٦ تكامل بناء المسجد الأموي (مسجد دمشق):

(.. فكان حين تكامل بناؤه ليس له في الدنيا مثيل في حسنه وبهجته، قال الفرزدق: أهل دمشق في بلادهم في قصر من قصور الجنة يعني الجامع .

قالوا: ولما دخل أمير المؤمنين المهدي العباس دمشق يريد زيارة القدس نظر إلى جامع دمشق فقال لكاتبه أبي عبيد الله الأشعري: سبقنا بنو أمية بثلاث، هذا المسجد الذي لا أعلم على وجه الأرض مثله، وبنبل الموالي، وبعمر بن عبد العزيز،

لا يكون والله فينا مثله أبدا ، ثم لما أتى بيت المقدس فنظـــــر إلى الصخـــرة وكـــان عبـــد الملك بن مروان هو الذي بناها قال لكاتبه وهـــذه رابعـــة).

ثم توفى الوليد بن الملك وعهد من بعده لأخيـــه ســـليمان.

سليمان بن عبد الملك

١٥ من جمادى الآخر سنة ٩٦ هـ حتى ١٠ من صفر سنة ٩٩ هـ

فتكون مدة خلافته سنتين وخمسة أيام

وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك وبايعه الناس بيد أن قتيبـــة بـــن مســـلم خافـــه وعـــزم على ألا يبايعه ، فعزله سليمان وولى يزيد بن المهلب أمير العـــراق بـــدلا منـــه...

فجمع قتيبة الجند وعزم على خلع سليمان بن عبد الملـــك مـــن الخلافـــة وتـــرك طاعتـــه ، فلم يجبه أحد من الجند في ذلك ، فشرع قتيبة في ذمهم وتأنيبـــهم قبيلـــة قبيلـــة ، وطائفـــة طائفة، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وعملوا على مخالفتـــه ، وســـعوا في قتلـــه...

واستطاعوا ذلك في ذي الحجة سنة ٩٦ هـــ وقتلوا معه أحد عشـــر رجـــلاً مـــن إخوتـــه وأبناء إخوتـــه.

فائدة

يقول ابن كثير :

(وقد كان قتيبة بن مسلم الباهلي من سادات الأمراء وخيارهم ، وكان من القادة النجباء الكبراء ، والشجعان وذوي الحروب والفتوحات السعيدة ، والآراء الحميدة وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، فأسلموا ودانوا لله عز وجل ، والله سبحانه لا يضيع سعيه ولا يخيب تعبه وجهده .

ولكن زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنفه ، وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية ، لكن سبق له من الأعمال ما قد يكفر الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه...) .

عزل سليمان ولاة الحجاج الذي توفى سنة ٩٥ هـ فعمل رجال سليمان على التنكيل بهؤلاء الولاة ومنهم خيرة القادة مثل محمد بن القاسم صاحب الفتوحات من ناحية الهند كما سيأتي ذكره وقتيبة بن مسلم الذي حاول أن يخلع سليمان فقتل ، وموسى بن نصذير الذي حُبِس وكذلك قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير وهما أصحاب الفتوحات ببلاد المغرب.

وفي سنة ٩٨ هـ ٩٩ هـ محاولة ثانية لفتح القسطنطينية :

جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية يقودهم أخوه (مسلمة بن عبد الملك) فحاصرها عاماً كاملاً ولكنها استعصت عليه وكان عدد جيشه ١٢٠ ألف ومزوداً بنحو ١٢٠ ألف في البحر وثمانمائة سفينة حربية

وكان سليمان يتابع بنفسه المحاولة فاتخذ مدينة دابق شمالي الشام مركزاً له ، وأقسم ألا يعود حتى تفتح القسطنطينية أو يتوفاه الله.

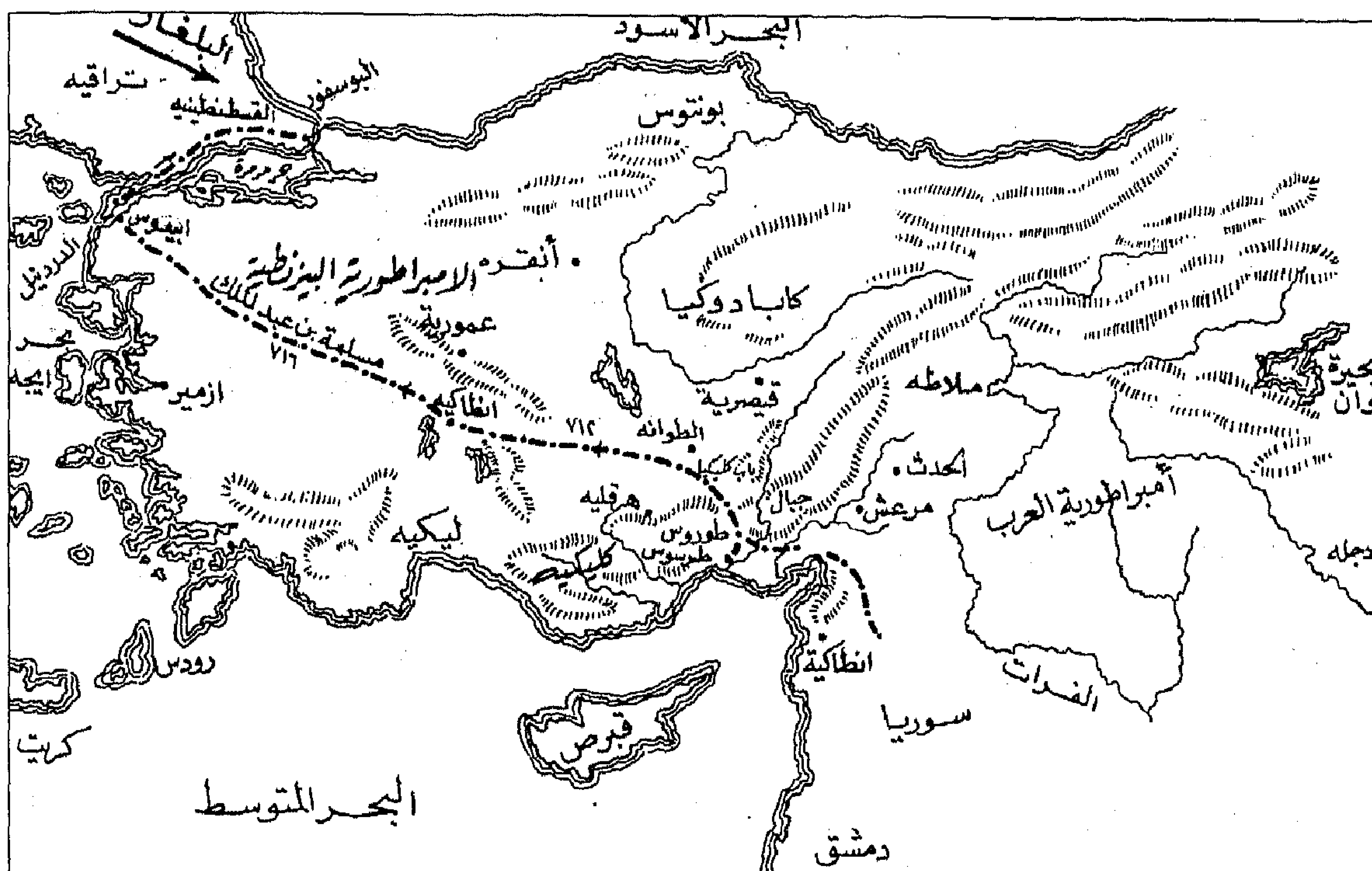
وتعرض الجيش المسلم في هذه المحاولة لضنك شديد حتى أكلوا كل شئ إلا التراب فلم يزل ذلك دأبهم حتى جاءهم وفاة سليمان بن عبد الملك وتولية عمر بن عبد العزيز ، فكروا راجعين إلى الشام ، وقد جهدوا جَهداً شديداً ، ولكن لم يرجع مسلمة حتى صالح الروم على بناء مسجد بالقسطنطينية...

تسامر جيش القسطنطينية:

وروي القرطبي حكاية عن الشيباني قال :

(كنا على قسطنطينية في عسكر مسلمة بن عبد الملك ، فجلسنا يوماً في جماعة من أهل العلم فيهم **ابن الديلمي** ، فتذكروا ما يكون من أهوال آخر الزمان ، فقلت له : يا أبا بشر ودي ألا يكون لي ولد .

فقال لي : ما عليك ما من نسمة قضى الله بخروجها من رجل إلا خرجت أحب أو كره ، ولكن إذا أردت أن تأمن عليهم فاتق الله في غيرهم ثم تلا الآية (**وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً**) .



خريطة رقم ٦: توضح خط سير الجيوش الإسلامية لحصار القسطنطينية أيام الدولة الأموية

فتأمل أخي القارئ مدى الجهد الذي حاوله المسلمون لفتح عاصمة الروم حتى أن الخليفة سليمان بن عبد الملك يخرج لذلك بنفسه ويموت بجوار القسطنطينية. كما مات خيرة الصحابة والتابعين وهم يشاركون في هذه المحاولات منهم أبو أيوب الأنصاري رضى الله عنه.

مشهد من مشاهد الفتوحات يصور لنا النفوس العالية لجند الفتح :

وغزا يزيد بن المهلب جرجان في مائة ألف وعشرين ألفاً ، منهم ستون ألفاً من جيش الشام أثابهم الله ، وقد تمهدت تلك البلاد بفتح جرجان وسُلِكَت الطرق وكانت قبل ذلك مخوفة جداً...

وأصاب يزيد غنائم كثيرة فكان من جملتها تاج فيه جواهر نفيسة ، فقال : أترون أحداً يزهد في هذا ؟ قالوا : لا نعلمه ، فقال : والله إني لأعلم رجلاً لو عرض عليه هذا وأمثاله لزهد فيه ثم دعا **بمحمد بن واسع** وكان في الجيش غازياً... فعرض عليه أَخْذ التاج فقال : لا حاجة لي فيه ، فقال : أقسمت عليك لتأخذنه ، فأخذه وخرج

به من عنده ، فأمر يزيد رجلاً أن يتبعه فينظر ماذا يصنع بالتـــاج ، فمـــر بســـائل فطلـــب منه شيئاً فأعطاه التاج بكماله وانصرف ، فبعـــث يزيـــد إلى ذلـــك الســـائل فـــأخذ منـــه التاج وعوضه مالاً كثـــيراً

استخلاف سليمان لعمر بن عبد العزيز

روى ابن جرير عن رجاء بن حيوه وكان وزير صدق لبـــني أميـــة قـــال : استشـــاربي سليمان بن عبد الملك وهو مريض أن يولي له ابنا صغيراً لم يبلـــغ الحُلُـــم .

فقلت : إن مما يحفظ الخليفة في قبره أن يولي على المســـلمين الرجـــل الصـــالح .

ثم شاورني في ولاية ابنه داود .فقال : مـــن تـــرى ؟

فقلت : رأيك يا أمير المؤمنـــين.

قال : فكيف ترى في عمر بن عبد العزيـــز .

فقلت : أعلمه والله خيراً فاضلاً مســـلماً يحـــب الخـــير وأهلـــه ، ولكـــن أتخـــوف عليـــه إخوتك ألا يرضوا بذلـــك .

فقال : هو والله على ذلـــك .

وأشار رجاء أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولى العهد مـــن بعـــد عمـــر بـــن عبـــد العزيـــز ليرضى بذلك بنو مروان.فكتـــب :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ،

إني قد وليته الخلافة من بعدي ومن بعده يزيد بن عبد الملك ،

فاسمعوا له وأطيعوه ، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم .

وختم الكتاب وأرسل إلى كعب بن حامد العبسي صـــاحب الشـــرطة ،
فقال له :(اجمع أهل بيتي فمرهم أن يبايعوا على مـــا هـــذا الكتـــاب مختومـــاً ، فمـــن أبى منهم فاضرب عنقه... ففعـــل...)
فلما مات سليمان أخذ رجاء الأمر بحزم فجمع النـــاس في مسـجد دابـــق حيـــث دفـــن سليمان فبايع بنو مروان ونهض الناس إلى عمر بن عبد العزيـــز وهـــو في مؤخـــرة المســـجد فلما تحقق ذلك قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولم تحمله رجـــلاه حـــتى أصعـــدوه المنـــبر فخطب خطبة بليغة ثم أتوا إليـــه بمراكـــب الخلافـــة فـــأبى أن يركبـــها وركـــب دابتـــه وانصرف مع الناس حتى أتوا دمشـــق.

خلافة عمر بن عبد العزيز

١٠ من صفر سنة ٩٩ هـ وحتى ٢٥ من رجب سنة ١٠١

فتكون مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام

لقد كان عمر بن عبد العزيز مقرباً إلى قلب سليمان وكان ســـليمان يعـــرف لعمـــر قـــدره ومن ثم اختـــاره...
ولقد كان سليمان يحج ومعه عمر بن عبد العزيز فلما وقفا بعرفـــة ورأى ســـليمان كـــثرة الناس قال له عمـــر :
هؤلاء رعيتك اليوم وأنت مسئول عنهم غداً ، وفي رواية وهـــم خصمـــاؤك يـــوم القيامـــة، فبكى سليمان وقال : بالله نســـتعين .
ولما أصابهم يوماً مطر ورعد فزع سليمان وضحك عمر فقـــال لـــه : أتضحـــك ؟ فقـــال : نعم هذه آثار رحمته ونحن في هذه الحال فكيف بآثـــار غضبـــه وعقابـــه ونحـــن في تلـــك

الحلل؟

وذكر الإمام مالك أن سليمان وعمر تقاولا مرة فقال سليمان في جملة الكلام : كذبت ، فقال عمر : تقول كذبت !!؟ والله ما كذبت منذ أن عرفت أن الكذب يضر أهله ، ثم هجره وعزم على الرحيل إلى مصر ، فلم يمكنه سليمان ، ثم بعث إليه فصالحه وقال : ما عرض لي أمر يهمني إلا خطرت على بالي.

لقد كان عمر بن عبد العزيز نبوءة تحققت وذلك فيما يروى أن عبد الله بن عمر قال: (يا عجباً ! يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر بوجه أثر).وكانوا يظنونه بلال بن عبد الله بن عمر ولم يكن بوجهه أثر ، فلم يكن هو ، وإذا هو عمر بن عبد العزيز ، وأمه ابنة عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وخرّج الترمزي بسنده أن عمر بن الخطاب قال : (إن من ولدي رجلاً بوجهه شجان (علامة أو جرح) يلي فيملأ الأرض عدلاً).

أخرج أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قال : " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها "

فقال الجماعة منّ أهل العلم منهم الإمام أحمد بن حنبل : إن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى.

لما رجع عمر من جنازة سليمان وقد بايعه الناس واستقرت الخلافة باسمه ، انقلب وهو مغتم مهموم ، فقال له مولاه : مالك هكذا ؟

فقال : ويحك ومالي لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه أن أؤديه إليه ، كتب إليّ في ذلك أو لم يكتب...

ثم خيرّ عمر زوجته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها ، وبين أن تلحق

بأهلها ، فبكت وبكى جواريها لبكائها ، فسمعت ضجة في داره ، ثم اختارت مقامها معه على كل حال رحمها الله.وخطب عمر في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا :

يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها.

ويعيننا على الخير بجهده .

ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه.

ولا يغتابن عندنا أحداً .

ولا يعرضن فيما لا يعنيه .

فانصرف عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الفقهاء والزهاد .

وأخذ عمر الناس بالفقه والعلم والموعظة وكان قدوة حسنة فتأثر به الناس وانصلح حالهم.

وكان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز - بعد أن حمد الله وأثنى عليه أن قال:

أما بعد فإنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى ، وحرم جنة عرضها السماوات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر اليوم الآخر وخافه ، وباع فانياً بباق ، ونافداً بما لا نفاد له ، وقليلاً بكثير ، خوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيكون من بعدكم للباقين، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً رائحاً إلى الله لا يرجع ، قد قضى نحبه حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير موسد ولا ممهد ، قد فارق الأحباب ، وواجه التراب والحساب ، فهو مرتهن بعمله غني عما ترك فقير لما قدم ، فاتقوا الله قبل القضاء ، راقبوه قبل نزول الموت بكم، أما إني أقول هذا

ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله

وقد اجتهد رحمه الله في مدة ولايته – مع قصرها – حتى رد المظالم وصرف إلى كل ذي حق بحقه ، وكان مناديه في كل يوم ينادي أين الغارمون ؟ أين الناكحون ؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟ حتى أغنى كلاً من هؤلاء ..

- ودخل على امرأته يوماً فسألها أن تقرضه درهماً يشتري عنباً فلم يجد عندها شيئاً... فقالت له : أنت أمير المؤمنين وليس في خزانتك ما تشتري به عنباً ؟

فقال هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غداً في نار جهنم .

كان له سراج يكتب عليه حوائجه وسراجاً لبيت المال يكتب عليه مصالح

المسلمين ولا يكتب على ضوئه لنفسه حرفاً...

وكان يوسع على عماله في النفقة ويقول : إنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين .

قال رجاء بن حيوة : سَمَرْتُ عند عمر بن عبد العزيز ليلة فأطفئ السراج...

فقلت : يا أمير المؤمنين ألا أنبه هذا الغلام يصلحه ؟

فقال : لا ! دعه ينام ، لا أحب أن أجمع عليه عملين !!

فقلت : أفلا أقوم أصلحه ؟

فقال : لا . ليس من المروءة استخدام الضيف . ثم قام بنفسه فأصلحه ، وصب فيه زيتاً ثم جاء وقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز .

● وبلغه أن رجلاً من أصحابه تُوفي... فجاء إلى أهله يعزيهم فيه ، فصرخوا في وجهه بالبكاء عليه فقال :

(مه إن صاحبكم لم يكن يرزقكم ، وإن الذي يرزقكم حي لا يموت... وإن صاحبكم هذا لم يسد شيئاً من حفركم... إنما سد حفرة نفسه... ألا وإن لكل امرئ منكم حفرةً لابد والله أن يسدها . فمن كان منكم باكياً فليبكِ على نفسه... فإن الذي صار إليه صاحبكم كل الناس يصيرون إليه غداً)

● كان يكتب إلى عماله :

اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلاة... فإن من أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعاً ..

● وقد كان يكتب الموعظة إلى العامل من عماله فينخلع منها... وربما عزل بعضهم نفسه عن العمالة ، وطوى البلاد من شدة ما تقع موعظته منه . وذلك أن الموعظة

إذا خرجت من قلب الواعظ دخلت قلب الموعوظ ومن أمثلة ذلك:

وقد كتب إلى أحد عماله يقول :أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك ،وانقطاع الرجاء منك. قالوا : فخلع هذا العامل نفسه من على العمالة وقدم على عمر فقال له : مالك؟

قال : خلعت قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين... والله لا أعود إلى ولاية أبداً .

- وقال له رجل جزاك الله عن الإسلام خيراً . فقال : بل جزى الله الإسلام عني خيراً.

فائدة

وقد اختلف العلماء أيهما أفضل هو أم معاوية بن أبي سفيان ؟ .. ففضّل بعضهم عمر لسيرته وعدله وزهده .. وفضّل آخرون معاوية لسابقته وصحبته ، حتى قال بعضهم ليوم شهده معاوية مع رسول الله ﷺ . خير من عمر بن عبد العزيز وأيامه .

وقالوا في سبب وفاته أن له مولى سمه في طعام أو شراب كيدا من بني أمية الذين أرهقهم شدة عمر عليهم واسترداده مظالم العباد منهم....

وقيل لعمر حال وفاته : هؤلاء بنوك – وكانوا اثنى عشر – ألا توصي لهم بشيء فإنهم فقراء ؟

فقال : (إن وليى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين)

والله لا أعطيهم حق أحد ، وهم بين رجلين إما صالح فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه .

ثم استدعى بأولاده فودعهم وعزاهم بهذا ، وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال :

انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم .

يقول الرواة : فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرساً في سبيل الله ، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك – مع كثرة ما ترك لهم من الأموال – يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز ، لأن عمر وكل ولده إلى الله عز وجل فأغناهم الله ، وسليمان وغيره إنما يكلون ولدهم إلى ما يدّعون لهم ، فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم .

ثم قال لأهله اخرجوا ، فخرجوا وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة، فسمعوه يقول :

مرحباً بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان ثم قرأ :

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين)

ثم هدأ الصوت فدخلوا عليه فوجدوه قد غمض وسوى إلى القبلة وقبض .

وكانت وفاته بدير سمعان من أرض حمص لخمس مضين من رجب سنة ١٠١ هـ .

خلافة يزيد بن عبد الملك
٢٥ من رجب سنة ١٠١ هـ إلى ٢٥ من شعبان سنة ١٠٥ هـ
فتكون مدة خلافته أربع سنين وشهراً
وتولى وعمره ٢٩ سنة

كان يزيد يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة ، فلما تولى عزم على أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز ، فما تركه قرناء السوء حتى حسَّنوا له الظلم .

ثورة يزيد بن المهلب سنة ١٠١ هـ

كان يزيد بن المهلب أحد الرجال العظام المخلصين في الدولة الأموية عزله الحجاج فجأة عن أعماله مع أنه كان يحبه ثم أعيد في زمن سليمان بن عبد الملك والياً على العراق ثم عُزِل ثانية في أيام عمر بن عبد العزيز لقسوته وسجَنه عمر حتى يؤدي ما عليه من المال وكان قد أخذ مالاً كثيراً من بيت المال ، ظل سجيناً حتى نجح في الهرب في عهد يزيد بن عبد الملك ، ليقود ثورة عظيمة ضد الأمويين بالعراق...

بايع أهل البصرة ابن المهلب على السمع والطاعة ، وعلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلى ألا يطأ الجنود بلادهم وعلى ألا تعاد فيهم سيرة الفاسق الحجاج

الحسن البصري يعترض:

وكان الحسن البصري في هذه الأيام يحرض الناس على الكف وترك الدخول في الفتنة ، وينهاهم أشد النهي ، وذلك لما وقع من القتال الطويل العريض في أيام ابن الأشعث ، وما قتل بسبب ذلك من النفوس العديدة ، وجعل الحسن يخطب في الناس

ويعظم لهم ذلك ، ويأمرهم بالكف...

ولكن أهل العراق كعادتهم يتحمسون مع الثائر ثم سرعان إذا رأوا قوة منافسيهم انفضوا - وهذا ما حدث بالضبط...

فقد أرسلت دولة الخلافة مسلمة بن عبد الملك في جند من الشام عظيمة بلغت مائة وعشرين ألف مقاتل فلما دارت رحى الحرب... صمد يزيد وتحقق له النصر في أول اللقاء ولكن سرعان وما تحولت الدفة لصالح مسلمة... وفر أهل العراق سريعاً وبلغهم أن الجسر الذي جاءوا عليه حُرق فانهزموا ، فقال يزيد : ما بال الناس ؟ و لم يكن منا لأمر ما يُفَرُّ من مثله فقيل له : إنه بلغهم أن الجسر الذي جاءوا عليه قد حرق ، فقال: قبَّحهم الله ! وثبت يزيد في عصابة من أصحابه ، وجعل بعضهم يتسللون منه حتى بقي معه شرذمة قليلة وهو مع ذلك يسير قُدُماً لا يمر بخيل إلا هزمهم ولكنه قتل في النهاية على يد جند مسلمة وحملت رأسه إلى الخليفة .

توفي يزيد بن عبد الملك ويعتبر أهم إنجاز له هو القضاء على ثورة يزيد بن المهلب...

خلافة هشام بن عبد الملك

٢٥ من شعبان سنة ١٠٥ هـ إلى ٦ من ربيع آخر سنة ١٢٥ هـ

مدة خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً

عهد يزيد بالخلافة من بعده إلى أخيه هشام بن عبد الملك بن مروان .

قال ابن كثير عنه : (تولى الخلافة فقام بأمر الخلافة أتم قيام)

(كان يولي أبناءه أمر الجهاد في أرض الروم وخاصة معاوية وسليمان ، وأخاه مسلمة بن عبد الملك (الذي كان له صولات وجولات تحاكي أيام خالد بن الوليد) وابن

عمه مروان بن محمد، و لم يكن هشام ليعطي أحداً من بني مروان عطاء حتى يغزو...

قال عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس :

(**جمعت دواوين بني أمية فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة من ديوان هشام**)، وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض ، والمراد بالديوان ديوان الخراج أو هو بعبارة جديدة الميزانية التي بها يُعرف ما يرد على الدولة وما يصرف ، ولعل هذا هو الذي جعل الناس يصفون هشاماً بالبخيل لأن ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفاً .

وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ في ربيع الآخر

نظر إلى أولاده حوله يبكون فقال :

(جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء ، وترك لكم ما جمع وتركتم له ما كسب ، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له).

وكان نقش خاتمه الحكم للحكم الحكيم .

قال ابن كثير : (لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية ، وتولى وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله واضطرب أمرهم جداً ، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحواً من سبع سنين..)

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

٦ من ربيع أول سنة ١٢٥ هـ حتى ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ

فكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر

أسرف في شهواته ولم يكن له هم إلا أن ينتقم من كل من أعان هشاماً عليه من سادة وأفراد البيت الأموي ، فنفرت منه قلوب العامة والخاصة...

وكانت قد حدثت بين هشام وبينه وحشة عظيمة بسبب تعاطي الوليد الفواحش والمنكرات ، فتنكر له هشام وعزم على خلعه وتولية ولده مسلمة ولاية العهد ، ففر منه الوليد إلى الصحراء وجعلا يتراسلان بأقبح المراسلات... ويتوعده هشام وعيداً شديداً...

وزادته الخلافة فسقاً ، وكرهته الرعية كرهاً شديداً ، وانتهى أمره بأن قتله ابن عمه يزيد بن الوليد .

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك (الناقص)

من ٢٨ جمادى الآخر سنة ١٢٦ هـ ٧ ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ

كان صالحاً ولكن الأمور اضطربت عليه، وانتشرت الفتن ، واختلفت كلمة بني مروان ، وانتهى الأمر بوفاته بالطاعون في ٧من ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ

ويقال في المثل الأشج والناقص أعدلا بني أمية ، والمراد عمر بن عبد العزيز وهذا .

ومما يروى عنه قوله : (يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة... وإنه لينوب عن الخمر ، ويفعل ما يفعل المسكر ، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فإنه داعية الزنا)

واستخلف بعده ابراهيم بن الوليد سنة ١٢٧ هـ

بقي في الحكم ٧٠ يوماً ثم عُزل ، ولا يعتبره المؤرخون من الخلفاء لأن الأمر لم يتم له .

خلافة مروان بن محمد

واستخلف من بعده مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (سنة ١٢٧ هـ : ١٣٢ هـ) .

ويلقب بالحمَّار لجرأته في الحروب .

رفض مبايعة يزيد بن الوليد ولا خلفه إبراهيم بن الوليد ، وظلت الدولة في عهده تعاني من الاضطرابات ، حتى قتل على يد العباسيين كما سيأتي ذكره إن شاء الله .

فائدة كثرت محاولات الخروج على الخلفاء في عهد بني أمية ولخطورة هذه القضية نذكر أقوال العلماء في حكم الخروج على ولي الأمر

أخرج مسلم عن سعيد بن جنادة بن أبي أمية قال : (دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا : حدثنا – أصلحك الله – بحديث ينفع الله به سمعته من رسول الله ﷺ .

فقال : (دعانا رسول الله ﷺ . فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، قال: إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان) .

أخرج مسلم عن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ .قال :

(خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، ويصلون عليكم وتصلون عليهم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم ،قيل : يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف ؟ فقال : لا. ما أقاموا فيكم الصلاة ، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدا من طاعة) .

وأخرج مسلم كذلك في كتاب الإمارة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن:(... من رأى من إمامه شيئا يكرهه فليصبر ، فإن من فارق الجماعة شبرا فمات فميتة جاهلية)

قال النووي :(أجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق ، وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه هو ما يترتب على ذلك من الفتنة وإراقة الدماء ، وفساد ذات البين ، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه) .

قال القاضي عياض : (أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل ، وكذلك لو ترك الصلوات والدعاء إليها ، فلو طرأ عليه كفر ،وتغيير للشرع أو

بدعة خرج عن حكم الولاية ، سقطت طاعته ووجب على المسلمين الخروج عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك ، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر ولا يجب الخلع في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه ، فإن تحققوا العجز لم يجب القيام)
قالوا : (وفي هذا حفظ لقوة الأمة من أن تبدد في غير ميدانها ، فيطمئن الحاكم المسلط من جانب الأمة بما يحملها عليه دينها من طاعته ، فلا ينشغل عن حمايتها بحماية نفسه منها ، وتنصرف الأمة صابرة على أمر الله راضية بقضائه فيها ، شغلها دينها وهدفها وحدة كلمتها أمام عدوها ولو تحملت هي الغرم كله .)

والخلاصة :

أ – أن الخروج على ولي الأمر يكون بسبب كفر بواح الدليل عليه واضح .

ب – أن فسق ولي الأمر ومعصيته وظلمه ليست سببا في الخروج عليه ولكن يجب في حقه كلمة حق عند سلطان جائر ،ويبقى الدين هو النصيحة .

ج – أنه في حالة ظهور الكفر البواح يكون الخروج جائزا بشرط الاستطاعة ، فيكون عن قدرة مدروسة فلا يؤدي الخروج إلى فتن أعظم منه .

د – أنه لا يطاع في معصية ولا يعان على ظلم .

أخرج مسلم في باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع ، وأحمد وأبو داود عن عرفجة بن شريح قال : سمعت رسول الله ﷺ . يقول : (**إنه ستكون هنات وهنات ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان .**)

والحديث يدل على أنه يجوز قتال الخارج على الإمام العادل أو من يريد تفريق كلمة المسلمين، فإن لم ينته وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتل كان هدرا .

الفصل الثاني
الفتوحات في عهد بني أمية

يقول ابن كثير :

(وكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك ، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبحرها ، وقد أذلوا الكفر وأهله ، وكان في جيوشهم الصالحون والأولياء والعلماء وكبار التابعين ، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه ..

أولاً : الفتوحات من ناحية إفريقية والمغرب وصولاً إلى الأندلس:

بدء فتح إفريقية منذ عهد عمر ثم عثمان:

وإفريقية بمعنى المغرب عند البعض ويقصد بها خاصة الأجزاء الشرقية من المغرب ...

والتركيبة السكانية لهذه البلاد تتكون أساساً من قبائل البربر وهم ينقسمون إلى قسمين كبيرين:

١- **قبائل البرانس** و تضم عشرة قبائل منها :

(أزداجة ، مصمودة ، أوربة ، كتامة ، صنهاجة ، ...) وهم البربر المتحضرون .

٢- **قبائل البُتر** ومن قبائلها :

(أداسة ، نفوسة ، نفزاوة ، لواتة ، .....) وهم البربر المقيمون بالصحراء.

وكان عمرو بن العاص قد غزا برقه سنة ٢١ هـ واستطاع أن يستميل قبيلة لواتة إلى جانب المسلمين ودخل بعضهم في الإسلام ...كما بعث أحد قواده وهو **عقبة بن نافع الفهري** ففتح زويلة وفزّان وودّان ...وقد أقام عقبة بهذه المناطق الصحراوية المنعزلة عشرين سنة يدعوا إلى الإسلام فأسلم على يديه عدد كبير من قبائل البُتر (نفوسة ولواتة ونفزاوة) ومن لم يسلم فقد رأى في عقبة ومن معه من المسلمين معاملة أكرم من تلك التي يعاملهم بها الروم .

وفي سنة ٢٥ هـ أمر عثمان بن عفان **عبد الله بن سعد بن أبي السرح** أن يغزو بلاد إفريقية فلما غزاها واجهه ملك الروم هناك واسمه جرجير في مائة وعشرين ألف مقاتل فتواجه الفريقان بالقرب من سبيطلة ودار قتال شرس وطال بالمسلمين القتال وكان في الجيش عبد الله بن الزبير وكان القتال يبدأ من الصباح ويستمر حتى الظهر ثم يعود كل فريق إلى خيامه إلى اليوم التالي فاقترح عبد الله بن الزبير اقتراحاً على

ابن أبي سرح فقال : " ان أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبـــلاد هـــي لهـــم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نـــترك غـــداً جماعـــة صالحـــة مـــن المسلمين في خيامهم متأهبين ونقـــاتل نحـــن الـــروم في بـــاقي العســـكر إلى أن يضجـــروا ويملوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المســـلمون ، ركـــب مـــن كـــان في الخيـــام مـــن المسلمين وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعـــل الله أن ينصرنـــا عليـــهم "

فوافق عامة الصحابة على الفكرة والخدع لها الروم فلما حان وقت الظهيرة رجعوا إلى خيامـهم ولكن عبد الله بن الزبير ومعه الفرقة التي كانت قد استراحت هجموا عليهم وقد كانوا وضعوا أسلحتهم فأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة وقُتِل جرجير قائد الروم وغنم المسلمون غنائم عظيمـة ، فلما رأى ذلك عظماء إفريقية اجتمعوا وطلبوا من ابن أبي السرح أن يأخذ منهم ثلاث مائـــة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك .

ومن يومها انكسرت شوكة الروم في هذه البلاد و لم تفلح أي محاولات لهم لبسط نفوذهم وكانت فرصة الهدنة مناسبة لأن ينتشر الإسلام في أهل إفريقية .

وفي سنة ٣٣ هـــ نقض أهل إفريقية العهد فأعاد عبد الله بن أبي السرح فتحـــها ، ثم كـــانت الفتنة الكبرى بين على ومعاوية فتوقف الفتح الإسلامي عموماً وبلاد المغـــرب حـــتى ســـنة ٤٥ هـــ.

ثانياً : فتوحات المغرب في عهد الدولة الأموية:

استطاع المسلمون بقيادة **معاوية بن حُديج** وعقبة بـــن نـــافع أن يمـــهدوا الطريـــق أمـــام الفتوحات في هذا الجانب ، وفي سنة ٥٠ هـــ ظـــهرت فكـــرة إنشـــاء **مدينـــة القـــيروان** كمعسكر دائم للمسلمين داخل بلاد إفريقية وكان الباعث على إنشـــائها مـــا قالـــه عقبـــة لرجالـــه :

(إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام ، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لديـــن الله

إلى الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر).
وهذه حقيقة فلقد فتحت مناطق كثيرة من قبل في إفريقية وعقدوا معاهدات مع أهلها ولكن إذا رجع المسلمون عنها إلى ثغورهم نقضوا العهود ومن هنا نشأت فكرة عقبة فخطط للقيروان مكاناً جيداً من الناحية العسكرية ولقد اختارها على الطريقة العربية تكون بعيدة عن البحر لتأمين تهديد الأساطيل ، وقريبة من الصحراء لتصعب محاصرتهم.
وكان موقعاً كثير الأشجار مأوى للوحوش والحيات فأمر بقطع ذلك وإحراقه فقال له أصحابه : (إنك أمرتنا بالبناء في شعار وغياض لا ترام ، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض) وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعا الله عز وجل هم والناس تؤمن على دعائه :
ثم نادى : (**أيتها الحيات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله فارحلوا عنا فإنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه**).
فإذا بالسباع تخرج من الشعار تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه ، والحيات تحمل أولادها فنادى في الناس : (كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا) .
فلما خرج ما فيها من الوحوش والهوام وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشجر.
كان مع عقبة عشرة آلاف وانضم إليهم من أسلم من البربر فكثر جمعه وأنجز بناء القيروان في خمس سنوات سنة ٥٥ هـ وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساكنهم فأصبحت المدينة معسكراً للمسلمين وأهلهم يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد وأصبحت القيروان قاعدة أمينة للمسلمين في إفريقية وعاصمة الإسلام في المغرب.
وفي سنة ٥٥ هـ عزل معاوية عقبة بن نافع ، ليحل محله **أبو المهاجر بن دينار** الذي سلك طريق دعوة البربر واستمالتهم ليضرب بهم العدو الأول وهو الروم ، فضم إليه زعيم البربر

واسمه **كسيلة** الذي اعتنق الإسلام واعتنقته قبيلته أوربة ثم بزحف أبو المهاجر وكسيلة إلى تلمسان ففتحها غير أن يزيد بن معاوية يقرر عودة عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية مرة ثانية سنة ٦٠ هـ. فيسئ إلى المهاجر بن دينار ويسجنه* ، ويقبض على كسيلة ويهينه ، ويفر كسيلة الذي سيكون عاملاً حاسماً في القضاء على عقبة وجيشه فيما بعد ، وينطلق عقبة فاتحاً قاهراً للروم ويرسل جيوشه هنا وهناك حتى يصل إلى المحيط الأطلسي ثم يقرر عقبة العودة إلى القيروان ...

غير أنه افتقد الحيطة والحذر هذه المرة فقد كان عدده قليلاً ...فيتصدى له الروم في جنوب تونس ويحصره كسيلة بجموع البربر من خلفه فتقع **معركة تاهودة** سنة ٦٣ هـ حيث يُقضى على عقبة وجيشه قضاءً تاماً وفي الجيش أبو المهاجر بن دينار ثم زحف كسيلة إلى القيروان فانتزعها من المسلمين سنة ٦٤هـ ولى بعد ذلك **زهير بن قيس البلوي** فظل مرابطاً في برقة مدة طويلة وانتشرت الردة في البربر ،حتى إذا استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة وقضى على الفتن الداخلية فأنفذ الأمداد إلى إفريقية فحارب زهير كسيلة وقضى عليه في **وقعة ممس** وأراد زهير أن يعود إلى المشرق ، لكن نجدة رومية اعترضت سبيله وقضت عليه سنة ٧٨ هـ .

وتولي بعد زهير رجل عظيم الأثر في تاريخ **المغرب** وهو **حسان بن النعمان الغساني** ولاه عبد الملك بن مروان سنة ٧٨ حتى ٨٦ هـ.

استطاع حسان أن ينشر الإسلام ويضم إليه البربر البرانس مرة أخرى ويزحف بهم على قرطاجنة فخربها حتى لا تكون مرفأ لسفن الروم ، ولكن خطراً جديداً يواجه حسان من عدو صعب المراس يتمثل في زعيمة للبربر تدعى **الكاهنة** وكانت امرأة لها قوة ونفوذ روحي كبير

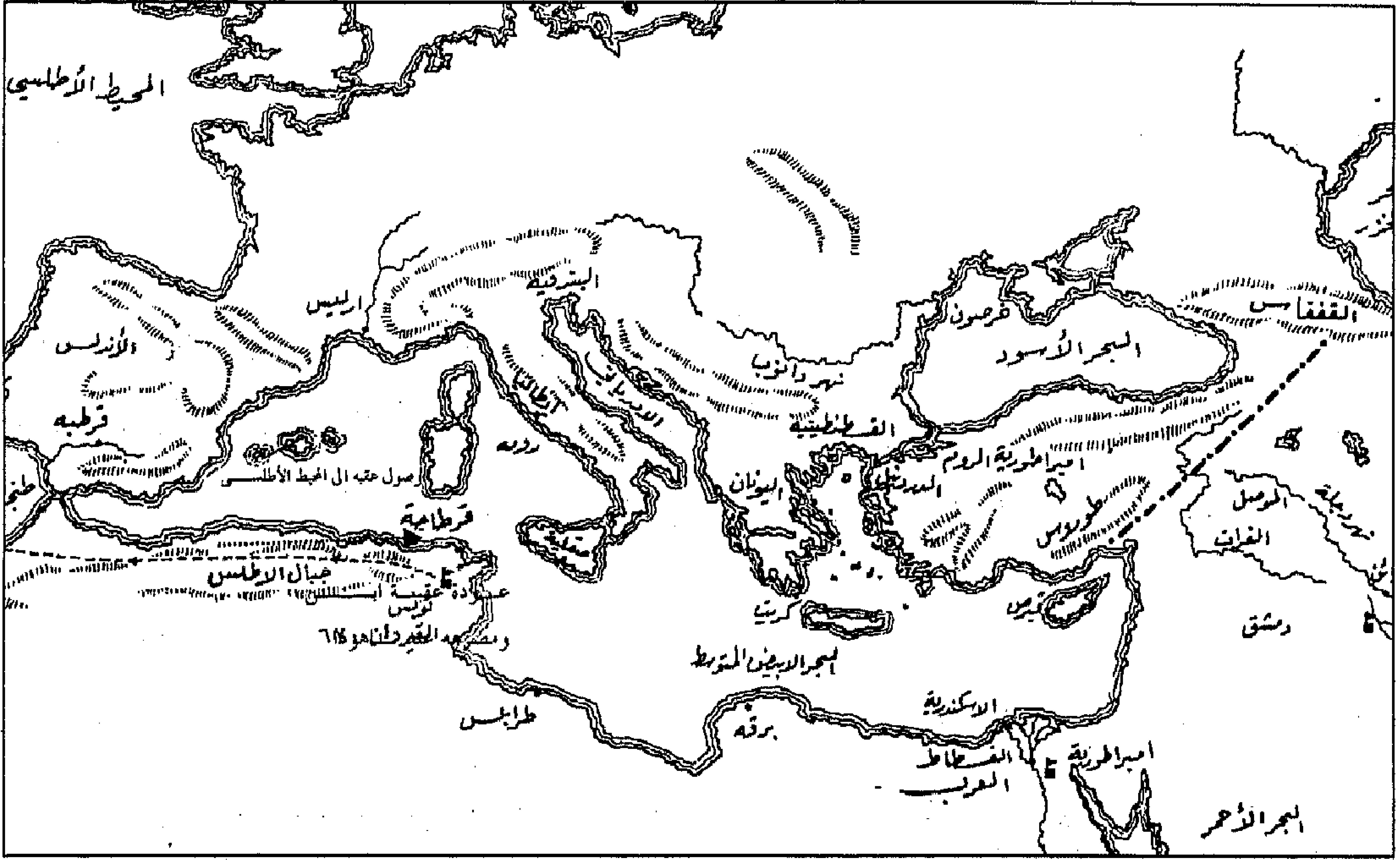
* كان المهاجر بن دينار يفضل أن يكسب البربر إليه كي لا يفتح عدة جبهات دفعة واحدة وليركز على القضاء على الروم نهائياً ولكن عقبة كان عنيفاً يرى أنه ليس في حاجة لسلوك هذا المسلك فأهان كسيلة فاشتعلت حمية البربر فخسر عقبة بذلك كثيراً ...

على البربر (البتر)...ولم يستطع حسان القضاء عليها بسهولة لولا أن القدر أوقع هذه الكاهنة في غبائها فهيأت لحسان النصر ذلك أنها قالت لقومها: (إن العرب لا يريدون بلادنا ، وانما يريدون هذه المدن الغنية ، فلو خربناها وقطعنا أشجار الكروم والزيتون لما كان لهم أرب ولا مقام عندنا) ، فانطلقت القبائل الهمجية تحطم كل شئ وتخرب العمران وتقطع الأشجار ، فهرع البربر البرانس إلى حسان يستعدونه عليها انتهازاً للفرصة ، وبالفعل استطاع حسان أن يقضي على الكاهنة ...وأنشأ حسان **ميناء تونس** على مقربة من قرطاجنة ليشرف منه على البحر ويحول بين الروم والاقتراب ، وبهذا **نشأت تونس** ، ولم يغادر حسان بلاد المغرب إلا وقد تركها ولاية إسلامية هادئة ، ثم تم عزله سنة ٨٦ هـ وعين مكانه **موسى بن نصير** .

أخضع موسى قبائل البربر التي شقت عصا الطاعة بعد مسير حسان بن النعمان إلى المشرق ، وكذلك أخضع القبائل التي لم تكن قد خضعت بعد للمسلمين فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم ومعه مولاه **طارق بن زياد** من البربر في المقدمة حتى بلغ مدينة طنجة وهي قصبة بلادهم وأم مدائنهم ففتحها واستعمل عليها طارق بن زياد وترك تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك موسى عندهم بعض العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام.

ولم يبق في إفريقية من ينازع المسلمين غير منطقة **سبتة** الحصينة.

وسبتة هذه بلدة كان يحكمها من قبل القوط في أسبانيا **جوليان** ويسميه العرب (يوليان).



خريطة رقم ٧: مواقع الفتوحات من ناحية المغرب

مقدمات فتح الأندلس

أسبانيا في ذلك الحين

كان ملك أسبانيا اسمه (غيطشه) وكان يوليان حليفاً له .

خُلِع غيطشه من على العرش على إثر ثورة قام بها نفر من أنصار (لذريق)✿ فأثار ذلك أنصار غيطشه وأبنائه ، فهبوا ضد المغتصب ...وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد استمرت حتى دخول المسلمين أرض الأندلس.

. فر ابن غيطشة (وقلة) الذي تولى العرش بعد أبيه إلى إفريقية وأقام عند يوليان حاكم سبتة الذي كان لا يزال على ولائه للملك (غيطشه) وأولاده.

✿ لذريق : أحد أفراد حاشية الملك .

ساءت حال البلاد في عهد لذريق ، وأرهق شعبه بالضرائب الفادحة .

بعث يوليان رسالة إلى طارق بن زياد والي طنجة يعرض عليه فيها تسليم سبتة ويدعوه إلى فتح أسبانيا ، وجرت بينهما مفاوضات حول هذا القرار الخطير .

اقتراح خطير لابد فيه من الرجوع إلى الخليفة

استجاب موسى لدعوة يوليان فكتب موسى إلى الوليد بن عبد الملك الخليفة يخبره بأمر هذا المشروع ، فكتب إليه الوليد : (بأن يختبرها بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين)

دورية استطلاعية

وفي رمضان سنة ٩١ هـ بعث موسى رجلاً من البربر يسمى **طريف بن مالك المعافيري ويكنى بأبي زرعة** في مائة فارس وأربعمائة راجل ، فجاز في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر بالأندلس فيما يحاذي (طنجة) وهو المعروف اليوم بـ **جزيرة طريف** سميت باسمه لنزوله هناك ، فأغار منها على ما يليها إلى جهة (الجزيرة الخضراء) وأصاب مالاً وسبياً كثيراً ورجع سالماً.

وفي رجب سنة ٩٢ هـ جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ عددهم ٧٠٠٠ مقاتل بقيادة طارق بن زياد فعبر البحر من سبتة في سفن يوليان ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم (جبل طارق).

توالت انتصارات طارق ففتح مدينة قرطاجنة الخلفاء (مدينة بالأندلس) ، ثم زحف غرباً واستولى على المدن المحيطة بقرطاجنة وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل الجزيرة الخضراء.

زحف لذريق لصد المسلمين بعدد عظيم ، فكتب طارق إلى موسى بأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به، فأرسل موسى مدداً من (٥٠٠٠) على رأسهم طريف بن مالك وأغلبهم من الفرسان وبهم كملت عدة طارق أثني عشر ألفاً .

وقعة وادي لكة

وفي يوم الأحد من ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ التقى الجيشان على وادي (بَربَاط) أو (وادي لكة) قرب مدينة (شذونة) واستمرت المعركة ثمانية أيام وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة ، وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين.

واستمر زحف طارق ففتح المدن مدينة تلو الأخرى كما هو موضح بالخريطة حتى وصل **طُليطلة** فعبر طارق الوادي الكبير فدخل طليطلة سنة ٩٣هـ دون مقاومة تذكر...

ولما وصل طليطلة بعث بأولاد (غيطشة) إلى مولاه موسى وقد سألوه : أنت أمير نفسك أم على رأسك أمير ؟

فقال طارق : **بل على رأسي أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم.**

وكانت أوامر موسى لطارق ألا يتجاوز الحد في التوغل في بلاد الأندلس خوفاً على الجند ولكن يبدو أن سهولة الفتح أغرت طارقاً وأطمعته في دخول بلد تلو الأخر ولكنه وجد نفسه محاصَراً وقد قل عدد جنده بسبب ما يتركه من حاميات في كل بلد يفتحها .. فبعث برسالة إلى موسى:**إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث ..الغوث** فقرر موسى أن يعبر بنفسه إلى الأندلس لنصرة طارق وكان ذلك في رمضان سنه ٩٣ هـ في جيش قوامه ١٨٠٠٠، فلما عبر انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح ، وذلك لحماية جيش طارق من الناحية اليسرى ، ولشغل قوات العدو فلما تم لموسى ما أراد سار إلى طارق و لم يزل طارق وموسى يفتحان بلاد الأندلس وبعث موسى بأخبار الفتح إلى الوليد بن عبد الملك فلما وصل الكتاب إلى الوليد وقرأه **خر ساجداً.**

واتجه موسى بعدها نحو شمال الأندلس وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح الله عليهما ، و لم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح ...حتى بلغوا **سرقسطة** التي رعب أسقفها **بنسيو** ومن معه من الرهبان ، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الفرار بها ،

ولكن موسى أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده ، فعدلوا عن مغادرة المدينة..

ومازال موسى يتوغل حتى وصل إلى مناطق يسكنها قوم كالبهائم ويتحدثون بلاتينية لا يفهمها الأسبان الآخرون الملازمون لموسى فاشتد ذلك على جند المسلمين فقالوا:

أين تذهب بنا ، حسبنا ما في أيدينا.

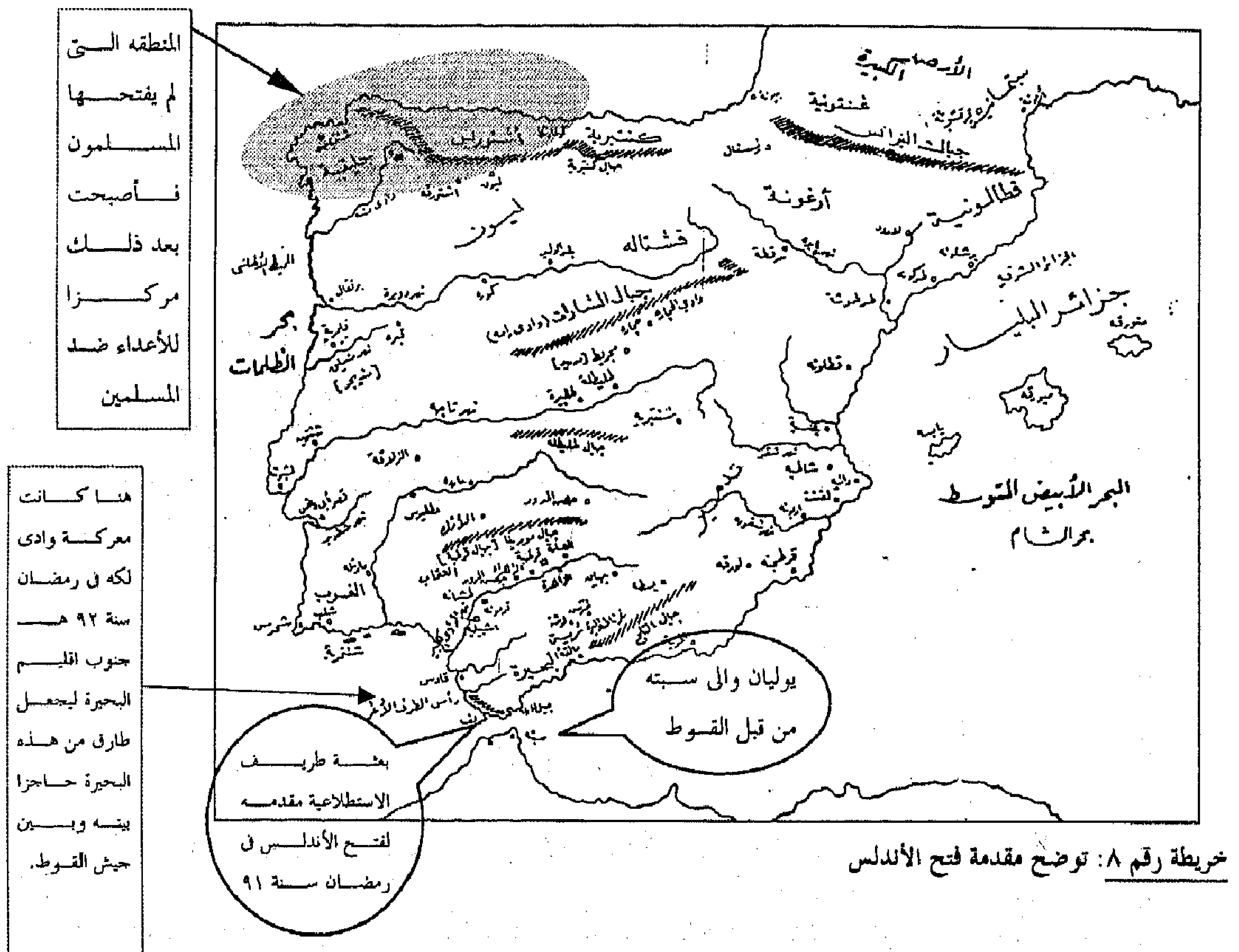
ونصحه **حنش بن عبد الله الصنعاني** وهو تابعي جليل وقال له :

إني سمعت من الناس ما لم تسمع وقد ملئوا أيديهم وأحبوا الدعة

فضحك موسى ثم قال : **أرشدك الله وكثر في المسلمين أمثالك.**

ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس وهو يقول **أما والله لو انقادوا إلى لقد همم إلى رومية ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله.**

استطاع موسى أن يحفز جنده ثانية ويستعيد حماستهم للفتح وبينما كان يعد العدة لفتح **جليقية** إذ أتاه رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس والكف عن التوسع في البلاد، وأن يشخص إلى دمشق ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته فلم يبق بلد في الأندلس لم يدخله إلى وقته غير **جليقية** لم تفتح ولاذ إليها من بقى من القوط ....وهذه البقعة في الجهة الشمالية الغربية ستكون في المستقبل بؤرة حرب الاسترداد ضد المسلمين في الأندلس.



خريطة رقم ٨: توضح مقدمة فتح الأندلس

فـائدة :

إن بنود الصلح الذي كان يعقده الفاتحون مع أمراء وملوك المدن الأسبانية لأكبر دليل علـى تسامحهم ورحمتهم...

وتحفظ لنا المراجع صلحا تم بين عبد العزيز بن موسى ، وتدمير بن غبدوش جاء فيه حرفيا

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز إلى تدمير

أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عن ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تقيد (أي ما تقيد ببنود الصلح) وما نصح...

كتب في رجب سنة ٩٤ هـ

يقول صـاحب قصـة الحضـارة (بـول دويرانـت):(لم تشـهد بـلاد الأندلـس في تاريخـها كلـها أكثر حزما وعدالـة وحرية مما شهدته في أيـام فاتحيـها العـرب)

ويقـول تومـاس أرنولـد في كتابـه (الدعـوة إلى الإسـلام):

(وفي الحـق أن سياسـة التسـامح الديـني الـتي أظـهرها هـؤلاء الفـاتحون نحـو الديانـة المسيحية ، كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم علـى هـذه البـلاد).

فائدة :وصف حالة أسبانيا السياسية والاجتماعية قبل الفتح الإسلامي:

اجتاحت أسبانيا ثورات إثر ثورات ...حتى استقر بها القوط الغربيون وأسسوا مملكتهم المشهورة في تاريخ أوربا...حتى قضى عليهم المسلمون سنة ٧١١ م سنة ٩١ هـ وفي هذه الفترة كانت العلامات والأشراط التي تظهر في الدول عند قرب سقوطها واضحة في أسبانيا.

فالأسرة المالكة ، كان تولى الحكم فيها انتخابيا محصورا في أسرة معينة وكان النبلاء ورجال الكنيسة هم الطبقة التي تختار الملوك ، ونظام كهذا لابد أن يحدث قلاقل وفتنا وإضرابات ودسائس عند موت ملك وتولي أخر.

أما من الناحية الاجتماعية فقد كان المجتمع فاسدا ، يقوم على نظام الطبقات فانقسم أهل أسبانيا إلى :

١ طبقة النبلاء ، وهم سلالة القوط الفاتحين ، التي استولت على اكثر الأرض الخصبة الزراعية مع إعفائها من الضرائب ، وكانت لهم مناصب الجيش ، والرياسة في الشئون الدينية.

٢ طبقة رجال الدين ، وهذه الطبقة بدورها كانت تمتلك قسطا كبيرا من الأراضي الزراعية معافى من الضرائب ، وكانت تشارك النبلاء في حكم البلاد ، ولم يكن الحكم إلا للبحث في وسائل جباية الأموال وزيادة ثروة الحاكمين حتى أنه يقال :إن ثلثي الأراضي الزراعية كان ملكا للنبلاء والكنيسة وكان معافى من الضرائب.

٣ طبقة التجار والزراع وصغار الملاك، ويقع على عاتقهم عبء دفع الضرائب وإشباع نهمة الحاكمين.

٤ وهناك طبقة رابعة هي طبقة الأقنان ، أو عبيد الأرض ، وهؤلاء كانوا يفلحون الأرض لكبار الملاك ويدخلون بأنفسهم وعائلاتهم في عداد ثروة المالك ، ولم تكن لهم حقوق ...وكانوا ينتقلون مع ملكية الأرض من سيد إلى آخر.

٥ وطبقة خامسة هم العبيد أسرى الحروب ، كان يتصرف فيهم بالبيع والشراء وليس لهم أي حقوق

ومن ذلك نرى أن الطبقات العاملة في المجتمع كانت محرومة من الحقوق العامة وهذا من أفسد النظم ، فليس عند هؤلاء المحرومين أية اعتبارات وطنية أو أية روح انتماء.

٦ وكانت تسكن أسبانيا طبقة أخرى لعبت دوراً كبيراً في حياة أسبانيا وهي طبقة اليهود فقد تمكنوا كعادتهم من الاستحواذ على مرافق البلاد الاقتصادية وأحس الحكام بوطأتهم فراحوا يناصبونهم العداء وأرغموهم على ترك اليهودية إلى النصرانية.

موقعة بلاط الشهداء

لقد كانت خطة موسى بن نصير أن يعبر جبال البرانس (أو جبال البرينيه) ليصل بالإسلام إلى فرنسا (غاليا) ثم الاتجاه شرقاً لفتح القسطنطينية عاصمة الروم ، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك خشي هذه المغامرة وبفعل وشايات ودسائس من بعض كارهي موسى بن نصير وطارق بن زياد استدعاهما الخليفة وتوقف الزحف مدة من الزمان حتى كانت ولاية **السمح بن مالك الخولاني** سنة ١٠٠ هـ ، والذي اختاره عمر بن عبد العزيز لتقواه وخلقه فعاد الحماس إلى الجند لمعاودة غزو فرنسا ، فنقل السمح مركز الخلافة في الأندلس من أشبيلية إلى قرطبة (واستمرت قرطبة عاصمة الأندلس حتى نهاية الدولة الأموية في الأندلس) .

سار السمح إلى أرض فرنسا **وفتح** إقليم سبتمانيا الرفييرا جنوب فرنسا واتخذ اربونة (إلى اليوم في المدينة شارع اسمه السمح) قاعدة لعملياته العسكرية في فرنسا ، ثم اتجه غرباً حتى وصل طولوشى عاصمة اكويتانيا ، التي قاومت حتى وصلتها الإمدادات ولكن السمح يستشهد في هذه المعركة سنة ١٠٢ هـ فارتد المسلمون عن طولوشية إلى الجنوب ...وكان بعده قائداً **عبد الرحمن الغافقي** ، أحد جنود السمح في المعركة وكانت هذه ولاية عبد الرحمن الأولى و لم

تدم إلا شهوراً قليلة ...ثم عين عامل أفريقية حينئذ يزيد بن أبي مسلم **عنبسة بن سحيم الكلبي** سنة ١٠٣ هـ أميراً على الأندلس فقضى عنبسة أربع سنوات في تنظيم أمور الأندلس وإنهاء الخلافات العصبية بين العرب والبربر ، ثم واصل حروبه في فرنسا وسار على الساحل حتى وصل نهر الرون وفتح مدن : فالنس ، فيني ، ليون ، شالون ، حيث سار قسم من الجيش شمالاً باتجاه ديجون ، ولانجر ، وقسم باتجاه أوتون ووصل مدينة سانس .

كل ذلك و لم يتصد أحد للمسلمين إلا لطلب الأمان إلا في مدينة سانس ونجح أهلها في وقف الزحف الإسلامي .

وأحس عنبسة أنه قد توغل أكثر مما ينبغي في ضواحي فرنسا فخشي أن يقطع عليه خطوط الإمدادات فقرر العودة ولكن داهمته جموع كبيرة من الفرنجة سنة ١٠٧ هـ واستشهد في هذه المعركة فعادة بقية الجيش إلى أربونة .

خلف **عذرة الفهري** عنبسة في حكم الأندلس فعاود الكَرة مرة أخرى حتى وصل إلى حوض الرون حتى سنة ١١٠ هـ .

ثم كان من بعده **عبد الرحمن الغافقي مرة ثانية** فاستعد استعداداً كبيراً لغزو فرنسا ، وفتح باب التطوع من أفريقيا والأندلس فتجمع عليه جيش ضخم بلغ حوالي سبعين إلى مائة ألف ، وبدأ تحركه بعبور جبال البرانس سنة ١١٤ هـ . من ممرات رونسفال واتجه شرقاً في جنوب فرنسا ليضلل الفرنجة عن وجهته الحقيقية ، فأخضع مدينة أرل التي خرجت على طاعة المسلمين ، ثم اتجه إلى أقطانيا فانتصر المسلمون ومضى زحفه حتى وصل إلى مدينة **بواتييه** .

استصرخ قائد الفرنجة **الدوق أودو** ، **شارل مارتل** ، **وكارلة** صاحب الأمر والنهي في دولة الفرنجة .

لبى شارل النداء وكان قبلها لا يحفل بحركات المسلمين في جنوب فرنسا ، بسبب الخلاف بينه وبين دوق أقطانيا الذي كان سببه طمع شارل بالدوقية ، وبذلك توحدت قوى النصرانية في

فرنسا في وجه المسلمين ....

اجتمعت الفرنجة إلى شارل مارتل وقالت له :

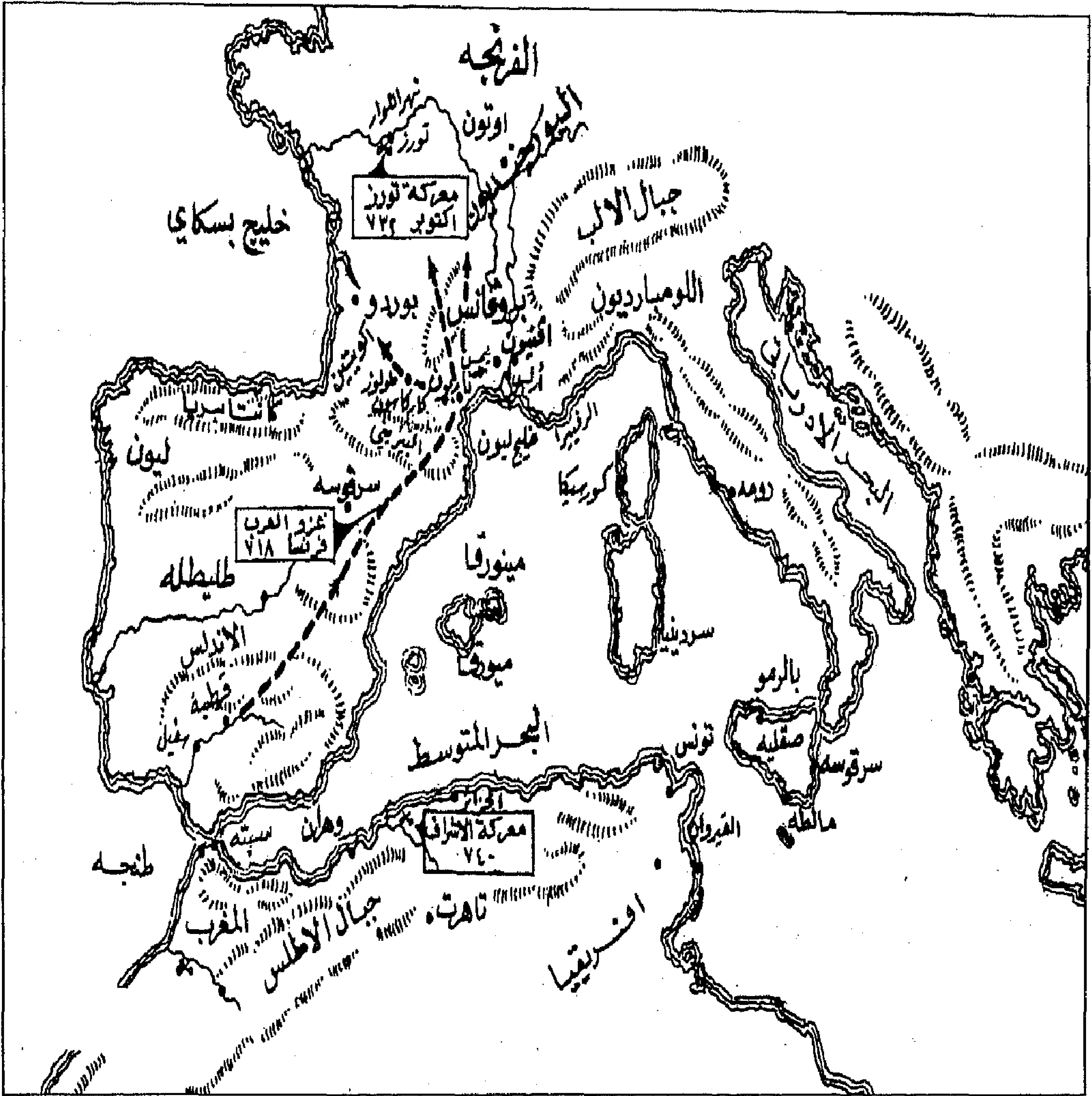
ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب ، كنا نسمع بالعرب ومخافهم من مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم ما فيها من العدد والعدة بجمعهم القليل وكونهم لا دروع لهم . فأجابهم :

الرأي عندي ألا تعترضوهم في خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل ما يصادفه وهم في إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرئاسة ، ويستعين بعضهم على بعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر منهم .

قال صاحب نفح الطيب : **فكان والله ذلك ، بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين (العرب القدماء الذين جاءوا من الحجاز ، وأسهموا في الفتح الأول ، واستقروا في جنوب أسبانيا وعرفوا بذلك تمييزاً لهم عن الهجرات التي طرأت على الأندلس بعد ذلك .) والبربر والعرب والمضرية ،واليمنية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن جاورهم من الأعداء .)**

- كان معظم جيش عبد الرحمن من البربر لأن كثيرين من عرب إفريقية والأندلس انشغل بالمنازعات العصبية فيما بينهم ، والبعض انشغل بالزرع والفلاحة ، ومعظم العرب الذين كانوا معه كانوا يمنيون لأنه كان يمنياً ..
- وإذا نظرنا إلى موازين القوى بين الفريقين لوجدنا أن موقف الفرنجة كان أفضل من الناحية المادية فهم الأكثر عدداً ، وهم الأخبر بمسالك وطرق فرنسا ، وهم قريبون من مصدر التموين والإمداد ، عكس المسلمين فهم قد بعدوا كثيراً عن مركز الدولة الأموية .
- دارت رحى المعركة قرب ثور أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ سنة ٧٣٣ م .

- وبعد ثمانية أيام من المواجهة دون قتال بدأ المسلمون القتال وتلاحم الفريقان في اليوم الأول وثبت كل فريق للآخر ، وفي اليوم الثاني كذلك ولكن بدأ يظهر تفوق المســـلمين فلجـأ الفرنجة إلى حيلة حيث اخترقت فرقة منهم صفوف المسلمين في موضـــع ، وأفضـــت إلى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم ، وكان شيئاً عظيمـــاً جـــداً ، فالتفت المسلمون إليهم يخافون على غنائمهم ، واضطربت صفوفهم ، وحاول عبد الرحمـن أن يثبت جنده أو يصرفه عن الهلع على الغنائم فلم يوفق ، وأصابه سهم فأودى بحياته ..
- وصبر المسلمون حتى أقبل الليل ، فانتهزوا فرصة الظلام وتسللوا متراجعين إلى الجنوب على عجل ، وكان ذلك في أوائل رمضان سنة ١١٤ هـــ .
- وحين أسفر الصباح لم يجد الفرنجة من المسلمين أحداً فتقدموا على حذرٍ مـــن مضـــارب المسلمين ، فإذا هي خالية منهم وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات ، وظنـــوا أن في الأمر خدعة ، وتريثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينهبوا ما فيه ، ولم يفكر أحد منهم في تتبع المسلمين ، لأنهم خافوا أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركاً ...
- اندفع المسلمون في تراجعهم نحو الجنوب مسرعين واتجهت جموعهم نحو أربونة .



خريطة رقم ٩: توضح دخول الجيوش الإسلامية إلى فرنسا

- يقول جيبون : **لو انتصر العرب في تور – بواتييه لتلي القرآن وفسر في أكسفورد وكمبريدج**
- أسرع والي أفريقية حينئذ عبيدة بن عبد الرحمن وأرسل مدداً بقيادة **عبد الملك بن قطن الفهري** ، خلفاً لعبد الرحمن الغافقي ، ثم بعث بخبر الفجيعة إلى الخليفة هشام بن عبد الملك فأمره بغزو فرنسا وأخذها بالسيوف من كل جانب .
- توجه عبد الملك بن قطن الفهري أول الأمر إلى نواحي شمال الأندلس فحصَّن المعاقل التي

مازالت بأيدي المسلمين ، وكانت سبتمانية في ذلك الوقت في فوضى واضطراب بعـــد أن تلاشى أمر الدوق أودو ، فتنازعها الناس مما دعا بعض الفرنجـــة ومنـــهم **مـــورون** دوق مارسيليا أن يتحالف مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري والي أربونة ضد شارل مـــارتل . وزحفا وعبرا نهر الرون واستوليا عل آرل وواصلوا الزحف حتى اســـتولوا علـــى مدينـــة **بروفانس** .وظلوا يتحكمون فيها أربعة سنوات لا ينازعهم فيها أحد ...

- عزل الخليفة عبد الملك بن قطن الفهري وولى مكانه **عقبة بن الحجاج السلولي** الذي كان صاحب بأس ونجدة ونكاية للعدو سنة ١١٦ هـــ
- ومن فضائله (أن الرجل كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يدعوه إلى الإسلام ويبين لـــه فضائله ، فأسلم على يديه ألف رجل)

واستعان بالقائد السابق المعزول عبد الملك بن قطن الفهري في قيادة الخيالة . وجـــال عقبـــة السلولي في شرق فرنسا ولكنها ظلت محاولات تقدم ثم تأخر حتى استشهد سنه ١٢٣ هـــ

الفتوحات من ناحية الشرق بلاد ما وراء النهر وبلاد الترك:

أول غزو الترك سنة ٢٢ هـ

كتب عمر بن الخطاب إلى **عبد الرحمن بن ربيعة** يأمره بغــــزو الــترك فسار حتى قطع مدينة الباب قاصداً بلاد الترك ... فقال له شهربراز ملك الباب وكــــان قــد وادع المسلمين : أين تريد ؟

قال : أريد ملك الترك بُلَنجر.

فقال له : إنا لنرضى منهم بالموادعة ونحن من وراء الباب ...

فقال عبد الرحمن : إن الله بعث إلينا رسولاً ، ووعدنا على لسانه بالنصر والظفر ، ونحــــن لا نــزال منصورين.

فقاتل عبد الرحمن الترك ، وسار في بلاد بلنجر مائتي فرسخ ... ثم غزا بعدها مرات عديــدة فى أيام عثمان.

والعجيب أن الله قذف الرعب في قلوب الترك من المسلمين وكانوا يقولون : ما اجترأ علينـــا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه الموت !!

وظلوا يعتقدون أن المسلمين لا يموتون حتى كان سهم طائش قُتل به مسلم فعلموا حينئـــذ أن المسلمين يموتون فاجترءوا عليهم ...

فلما عاد عبد الرحمن بن ربيعة لغزوهم ثبتوا ... وقتل عبد الرحمن بن ربيعة وكان يقال لــه ذو النون وهو يغزو الترك وانهزم يومها المسلمون ... وأخذت الترك جسد عبــد الرحمــن فدفنوه في بلادهم وجعلوا يستسقون عنده زمناً طويلاً ...

ثم هدأت محاولات غزو الترك وحتى سنة ٧٩ هـــ

غزا **عبيد الله بن أبي بكرة** رتبيل ملك الترك الأعظم وقد كان يصانع المسلمين تارة ويتمــرد

تارة فكتب الحجاج إلى ابن أبي بكرة يأمره بقتاله ...

ومازال ابن أبي بكرة يتقدم منتصراً عليه مستحوذاً على كثير من المدن والأمصار ورتبيل يتراجع والترك تخاف المسلمين حتى وصلوا إلى مدينتهم العظمى على مسافة ثمانية عشر فرسخاً، عندئذ أخذت عليهم الترك الطرق والشعاب وضيقوا المسالك حتى ظن المسلمين أنهم هالكون لا محالة وأراد ابن أبي بكرة المصالحة ولكن **شريح بن هانيء** وكان صحابياً ندب الناس إلى القتال والمصابرة فنهاه بن أبي بكرة فلم ينته ، وأجابه شرذمة من الشجعان فما زال يقاتل الترك حتى فني أكثر المسلمين ﷺ وقتل شريح وقتل معه ثلاثون ألفاً من المسلمين وقد قتلوا من الترك أضعافهم ثم خرج من خرج من الناس صحبة عبيد الله بن أبي بكرة من أرض رتبيل وهم قليل وبلغ ذلك الحجاج فكتب إلى الخليفة عبد الملك يعلمه بذلك ويستشيره في بعث جيش كثيف إلى بلاد رتبيل لينتقموا منه فوافق عبد الملك ... وكان عبد الله بن أبي بكرة قد توفى في نفس العام سنة ٨٠ هـ فجهز الحجاج جيشاً قوامه أربعون ألفاً بقيادة **عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث** مع أن الحجاج كان يبغضه جداً ولكنه يراه كفئاً.

ولما علم رتبيل بمسير المسلمين إليه بعث إلى ابن الأشعث يعتذر إليه عما حدث لجيش بن أبي بكرة فلم يقبل اعتذاره وأصر على قتاله ...

واستطاع بن الأشعث أن يستولي على أمصار كثيرة وكان يستعمل على كل مصر نائباً من جهته يحفظها وغنم اموالاً كثيرة وسبى خلقاً كثيرة ، ثم منع الناس من التوغل في بلاد رتبيل حتى يصلحوا ما بأيديهم من البلاد وأرجأ مواصلة الزحف إلى العام المقبل وكتب إلى الحجاج بذلك ... فلم يعجب ذلك الحجاج ووصمه بالجبن والنكول عن الحرب ... وأرسل له بريداً ثانياً ثم ثالثاً فيه كلمات لاذعة ...

فغضب ابن الأشعث ... وهو يعلم أن الحجاج يبغضه ويتمنى الخلاص منه فقام في الناس خطيباً إن مثل الحجاج ومثلنا كما قال الأول لأخيه : احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك،

وان نجا فلك . أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادة في سلطانه وان هلكتم كنتم الأعداء البغضـــاء، ثم قال : اخلعوا الحجاج عدو الله ولم يذكر خلع عبد الملك وبايعوا لأميركم عبد الرحمـن بن الأشعث وإني أشهدكم أني أول خالع للحجاج ...

فصاح الناس : خلعنا الحجاج عدو الله ... وصالح ابن الشعث رتبيل على أنه إن ظفروا بالحجاج فلا خراج على رتبيل أبداً وتوجهوا لمحاربة الحجاج ...

وتوقف الفتح في هذه الناحية وكانت ثورة ابن الأشعث.

ثم كان **قتيبة بن مسلم الباهلي** وكان يقود الفتح من ناحية الشرق بلاد ما وراء النهر.

وفي سنة ٨٧هـ غزا قتيبة بيكند وهي من أعمال بخارى وواجهه جمع عظيم من جند العـــدو وحاصروا قتيبة شهرين وأخذوا عليه الطرق والمضايق وأبطأ خبره على الحجاج حتى خـــاف عليه وأشفق على من معه من المسلمين من كثرة الأعداء من الترك ، فأمر الناس بالدعاء لهـم في المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار ، وقد كان قتيبة ومن معه من المسلمين يقتتلون مع الـــترك في كل يوم ، وكان لقتيبة عين من العجم اسمه (تندر) فأعطاه أهل بخاري مالاً جزيلاً علـى أن يأتي قتيبة فيخذله عنهم ، فجاء تندر إلى قتيبة فقال له : أخلني ، فأخلاه فلم يبق عنده ســوى رجل يقال له ضرار بن حصين ، فقال له تندر : هذا عامل يقدم عليك سريعاً بعزل الحجـاج ، فلو انصرفت بالناس إلى مرو ، فقال قتيبة لمولاه : اضرب عنقه فقتله ، ثم قال لضرار : لم يبـق أحد سمع هذا غيري وغيرك وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا حتى ينقضي حربنا ألحقتك بـه ، فأملك عليك لسانك ، فان انتشار هذا في مثل هذا الحال ضعف في أعضاء النـــاس ونصـرة للأعداء، ثم نهض قتيبة فحرض الناس على الحرب ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً وهُزِمت الـــترك هزيمة عظيمة فسألوا قتيبة الصلح فصالحهم على مال عظيم وجعل عليهم رجلاً من المســلمين وعنده طائفة من الجيش فلما انصرف على خمس مراحل نقضوا العهد وقتلوا الأمير وجدعـــوا أنوف من كان معه ، فعاد قتيبة ثانية ، وحاصرهم شهراً ... فسألوه الصلح فأبى ، ولم يـــزل

حتى افتتحها فقتل المقاتلة وسبى الذرية وغنم الأموال ، وكان الذي حرّض الترك على نقض العهد مع المسلمين رجل أعور منهم ، فأُسِر فقال لقتيبة : أنا أفتدي نفسي بخمسة أثواب صينية قيمتها ألف ألف، فأشار الأمراء على قتيبة بقبول ذلك ، فقال قتيبة :

(لا والله لا أروع بك مسلماً مرة ثانية) وأمر به فضربت عنقه ، وهذا من الزهد في الدنيا ، فان المسلمين قد غنموا من بيكند شيئاً كثيراً من آنية الذهب والفضة ، والأصنام من الذهب ، وكان من جملتها صنم سبك فخرج منه مائة ألف وخمسون ألف دينار من الذهب ، ووجدوا في خزائن الملوك أموالاً كثيرة وسلاحاً كثيراً وأخذوا من السبي شيئاً كثيراً ، فكتب قتيبة إلى الحجاج يسأله أن يعطي ذلك للجند فأذن له فتمول المسلمون وتقووا على قتال الأعداء وصلر لكل واحد منهم سلاح ومال كثير فقووا بذلك قوة عظيمة ولله الحمد والمنة.

وفي سنة ٨٩ هـ وقف قتيبة على حدود بخاري يقاتل أهلها قتالاً شديداً و لم يستطع قتيبة أن يدخلها ، فرجع إلى مرو ، فجاءه البريد بكتاب الحجاج يعنفه على الفرار والنكول عن أعداء الإسلام ، وكتب إليه أن يبعث بصورة هذا البلد يعني بخاري ، فبعث إليه بصورتها فكتب إليه أن ارجع إليها وتب إلى الله من ذنبك وائتها من مكان كذا وكذا وإياك والغدر...

فتح بخاري

وفي سنة ٩٠ هـ فتح قتيبة مدينة بخاري وهزم جموع العدو من الترك بها وصالح من حولها على مال يدفعونه ... ولكن القوم خانوا عهودهم وحرض صاحب بخاري - وكان اسمه وردان - الملوك للمدن حولها على نقض العهد مع قتيبة ومقاتلته قائلاً لهم :

(إن العرب بمنزلة اللصوص فان أُعطُوا شيئاً ذهبوا ، وإن قتيبة هكذا يقصد الملوك ، فان أعطوه شيئاً أخذه ورجع عنهم ، وإن قتيبة ليس بملك ولا يطلب ملكاً)

فاجتمعت هذه الملوك اجتماعاً هائلاً ، لم يجتمعوا مثلة في موقف ، فكسرهم قتيبة وقتل منهم أمماً كثيرة ، ورد الأمور إلى ما كانت عليه ...

ثم لا يزال يتبع نيزك خان ملك الترك الأعظم من إقليم لإقليم حتى حاصروه في قلعة لمدة شهرين حتى أشرف على الهلاك ، ثم قتله قتيبة ومن معه بعد مشورة أصحابه.

وتوالت بعد ذلك فتوح المدن على يد قتيبة حتى وصل إلى سجستان يريد رتبيل ملك الترك الأعظم ، فلما انتهى إلى أول مملكة رتبيل تلقته رسله يريدون منه الصلح على أموال عظيمة فصالحه.

فتح سمرقند

وفي سنة ٩٣ هـ فتح قتيبة سمرقند ودار قتال عنيف فصالحه أهلها وبنى بها قتيبة مسجداً فصلى وخطب ... ثم أتى بأصنام القوم وألقيت فوق بعضها حتى صارت كالقصر العظيم ، ثم أمر بتمزيقها ، فتصارخوا وتباكوا وقال المجوس : إن فيها أصناماً قديمة من أحرقها هلك ، وجاء الملك غورك فنهى عن ذلك وقال لقتيبة : إني لك ناصح ، فقام قتيبة وأخذ في يده شعلة نار وقال : أنا أحرقها بيدي فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ، ثم قام إليها وهو يكبر الله عز وجل وألقى فيها النار فاحترقت.

أرض الصين

وفي سنة ٩٦ هـ فتح قتيبة بن مسلم كاشغر من أرض الصين وبعث إلى ملك الصين رسلاً يتهدده ويتوعده ... إما أن يدفع الجزية أو يدخل في الإسلام ...

فكان مما دار بين هذه الرسل وملك الصين:

قال ملك الصين للرسل : (قد رأيتم عظم ملكي ، وليس أحد يمنعكم مني ، وأنتم بمنزلة البيضة في كفي ... فانصرفوا إلى صاحبكم يعني قتيبة وقولوا له ينصرف راجعاً عن بلادي ، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت إليكم من يهلككم عن آخركم.

فقال له الرسول: تقول لقتيبة هذا ؟!! فكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك

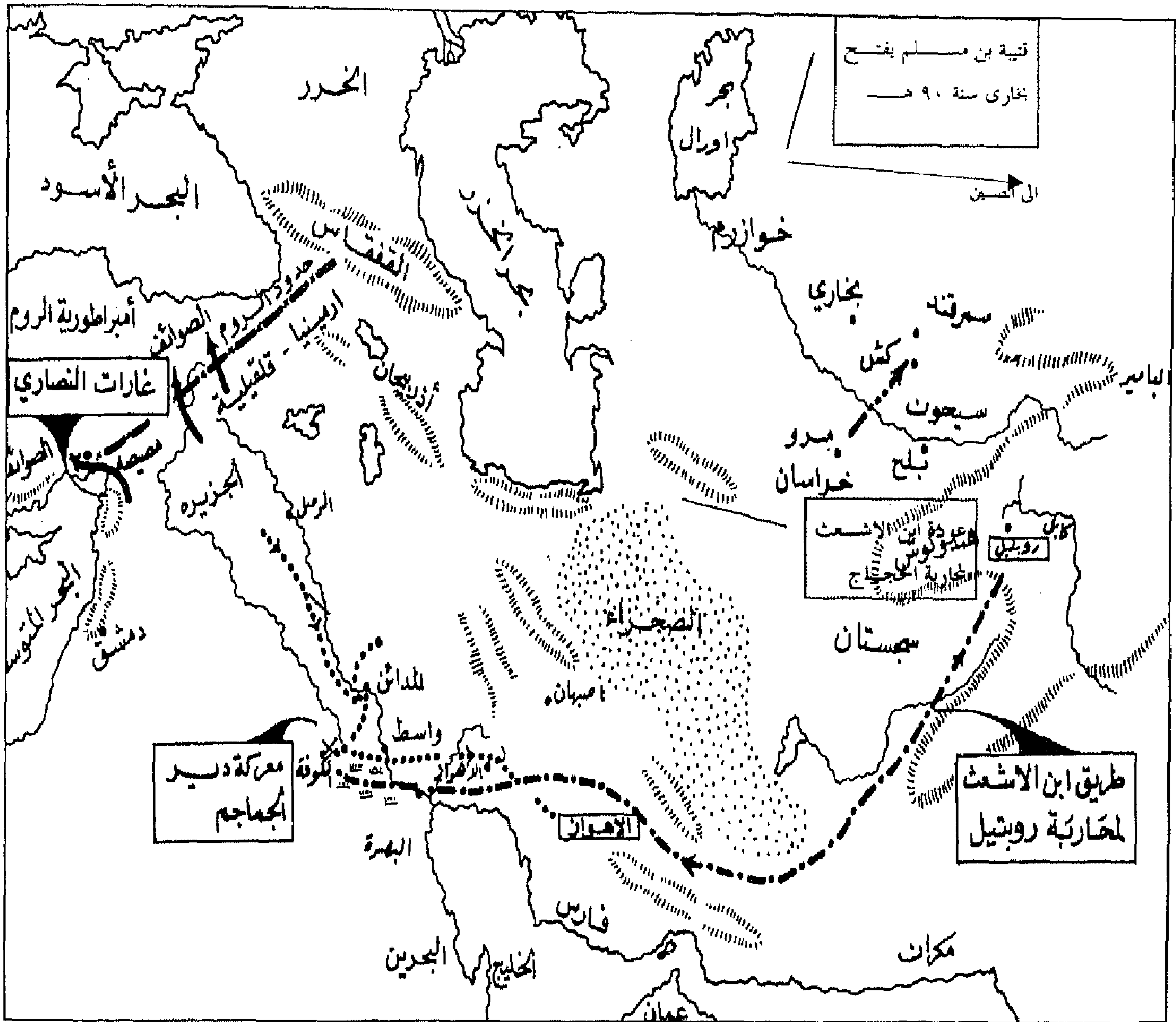
وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها، وغـــزاك في بلادك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإنا نعلم أن لنا أجلاً إذا حضر فأكرمها عند القتل ، فلسنا نخافه ولا نكرهه.

فقال الملك : فما الذي يرضي صـــاحبكم ؟

فقال : قد حلف أنه لا ينصرف حتى يطأ أرضك ويختم ملوكك ويجبي الجزية من بلادك.

فقال الملك : أنا أبر يمينه وأخرجه منها ، أرسل إليه بتراب من أرضي ، وأربع غلمان من أبناء الملوك ، وأرسل إليه ذهباً كثيراً وحريراً وثياباً لا تقوم ولا يدري قدرها...

وقد كان ... فقبل ذلك قتيبة ، فقد بلغه موت الوليد عبد الملك فانكسرت همته لذلك.



خريطة رقم ١٠: توضح مواقع الفتوحات من ناحية بلاد الترك وما وراء النهر كما توضح الصراع بين ابن الأشعث والحجاج

في عام ١١٠ هـ :

(فيها قاتل مسلمة بن عبد الملك ملك الترك الأعظم خاقان ، فزحف إلى مسلمة في جموع عظيمة فتواقعوا نحواً من شهر ... ثم هزم الله خاقان زمن الشتاء ،ورجع مسلمة سالماً غانماً ، فسلك على مسلك ذي القرنين في رجوعه إلى الشام ، وتسمى هذه الغزاة **غزاة الطين** ، وذلك أنهم سلكوا على مغارق ومواضع غرق فيها دواب كثيرة ، وتوحل فيها خلق كثيرون، فما نجوا حتى قاسوا شدائد وأهوالاً صعاباً وشدائد عظاماً)

وفي جولة أخرى سنة ١١٢ هـ

يقول ابن كثير (... وحملت الترك على ميمنة المسلمين وفيها بنو تميم والأزد فقتل منهم ومن غيرهم خلق كثير ممن أراد الله كرامته بالشهادة ، وقد برز أحد شجعان المسلمين لجماعة من شجعان الترك فقتلهم ، فناداه منادي خاقان :

إن صرت إلينا جعلناك ممن يرقص الصنم الأعظم فنعبدك ، فقال : ويحكم ، إنما أقاتلكم على أن لا تعبدوا إلا الله وحده لا شريك له ، ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله.

ثم تنافى المسلمون وتداعت الأبطال والشجعان من كل مكان ، وصبروا وصابروا ، وحملوا على الترك حملة رجل واحد ، فهزمهم الله عز وجل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم عطفت الترك عليهم فقتلوا من المسلمين خلقاً حتى لم يبق سوى ألفين ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وأُسر عدد كبير من المسلمين فحملوهم إلى الملك خاقان فأمر بقتلهم عن آخرهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون وهذه الوقعة يقال لها **وقعة الشعب** .

وفي سنة ١١٩ هـ قتل أسد بن عبد الله القسري ملك الترك الأعظم خاقان ،وذلك أن خاقان أعد جيشاً عظيماً للقضاء على المسلمين ، وأشاع خاقان أن أسد قد قتل ليحصل بذلك على خذلان لأصحابه ... فرد الله كيدهم في نحورهم ، وجعل تدميرهم في تدبيرهم ، وذلك لأن المسلمين لما سمعوا ذلك أخذتهم حمية الإسلام وازدادوا حنقاً على عدوهم ، وعزموا على الأخذ بالثأر ، فقصدوا الموضع الذي فيه أسد ، فإذا هو حي ... فسار أسد نحو خاقان حتى أتى جبل الملح ، وأراد أن يخوض نهر بلخ ، وكان معهم أغنام كثيرة ، فكره أسد أن يتركها وراء ظهره ، فأمر كل فارس أن يحمل بين يديه شاة ، وعلى عنقه شاة ، وتوعد من لم يفعل ذلك بقطع اليد، وحمل هو معه شاة وخاضوا النهر ...

فما خلصوا منه جيداً حتى دهمهم خاقان من ورائهم فقتلوا من وجدوه لم يقطع النهر ... وتابعوا المسلمين فعبروا النهر إلى المسلمين. فثبت المسلمون وكانوا قد خندقوا حولهم خندقاً

لا يخلصون إليهم منه ، فبات الجيشان تتراءى ناراهما. . فلما أصبح الجيشان مال خاقان علـــى بعض جيش المسلمين ، فقتل منهم خلقاً ،وأسر أمماً وإبلاً موقرة.

ثم استمر زحف أسد بمن معه حتى نزل مرج بلخ ، حتى انقضى الشتاء ، فلما كان يوم عيـــد الأضحى ، خطب أسد الناس واستشارهم في الذهاب إلى مرو أو في لقـــاء خاقـــان ، أو في التحصن في بلخ ... فأشار الناس بملاقاة الخاقان ، فصلى أسد بالناس ركعتين أطال فيـهما ، ثم دعا بدعاء طويل ، ثم انصرف وهو يقول : نصرتم إن شاء الله. وانتصر المسلمون وقتل خاقان) ولم تأت سنة ١٢٣ هــ إلا وقد تفرق شمل الأتراك ، وجعل بعضهم يغير على بعض ، حتى كادت أن تخرب بلادهم ، وانشغلوا عن المسلمين.

أولى محاولات فتح الهند

وأما من ناحية بلاد الهند

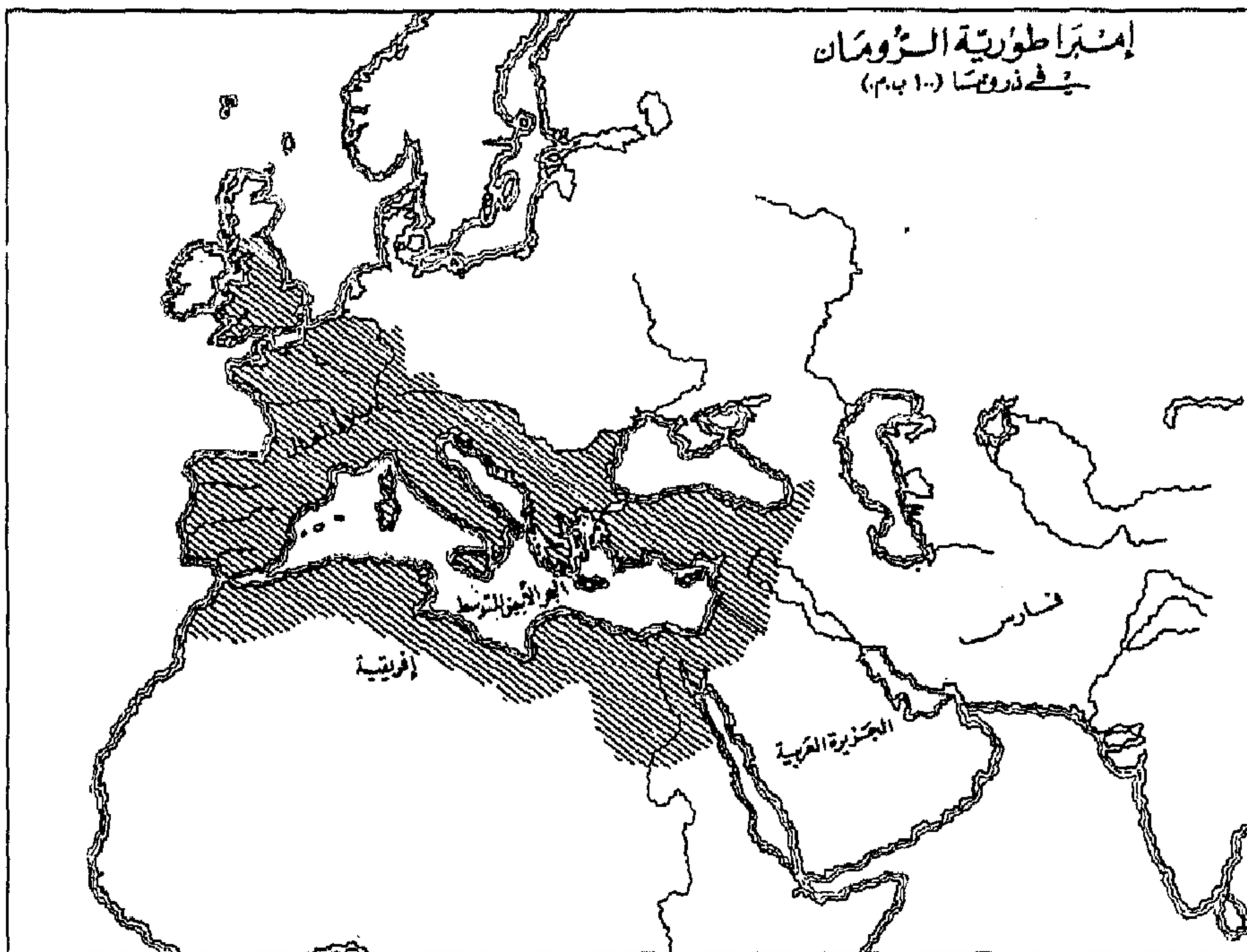
في سنة ٩٣ افتتح محمد بن القاسم (ابن عم الحجاج) مدينـــة الدبيـــل وغيرهـــا مـــن بـــلاد الهند ، وكان قد ولاه الحجاج غزو الهند وعمره سبع عشـــرة ســـنة ، فســـار في الجيـــوش فلقوا الملك داهر وهو ملك الهند في جمـــع عظيـــم ومعـــه ســـبعة وعشـــرون فيـــلاً، فاقتتلوا فهزمهم الله وهرب الملك داهر ، فلما كان الليل أقبل الملـــك ومعـــه خلـــق كثـــير جداً فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل الملك داهر وغالب من معه ، وتبـــع المســـلمون مـــن انهـــزم من الهنود فقتلوه ثم سار محمد بـــن القاســـم فـــافتتح مدينـــة الكـــبرج وغنـــم أمـــوالاً لا تحصى...

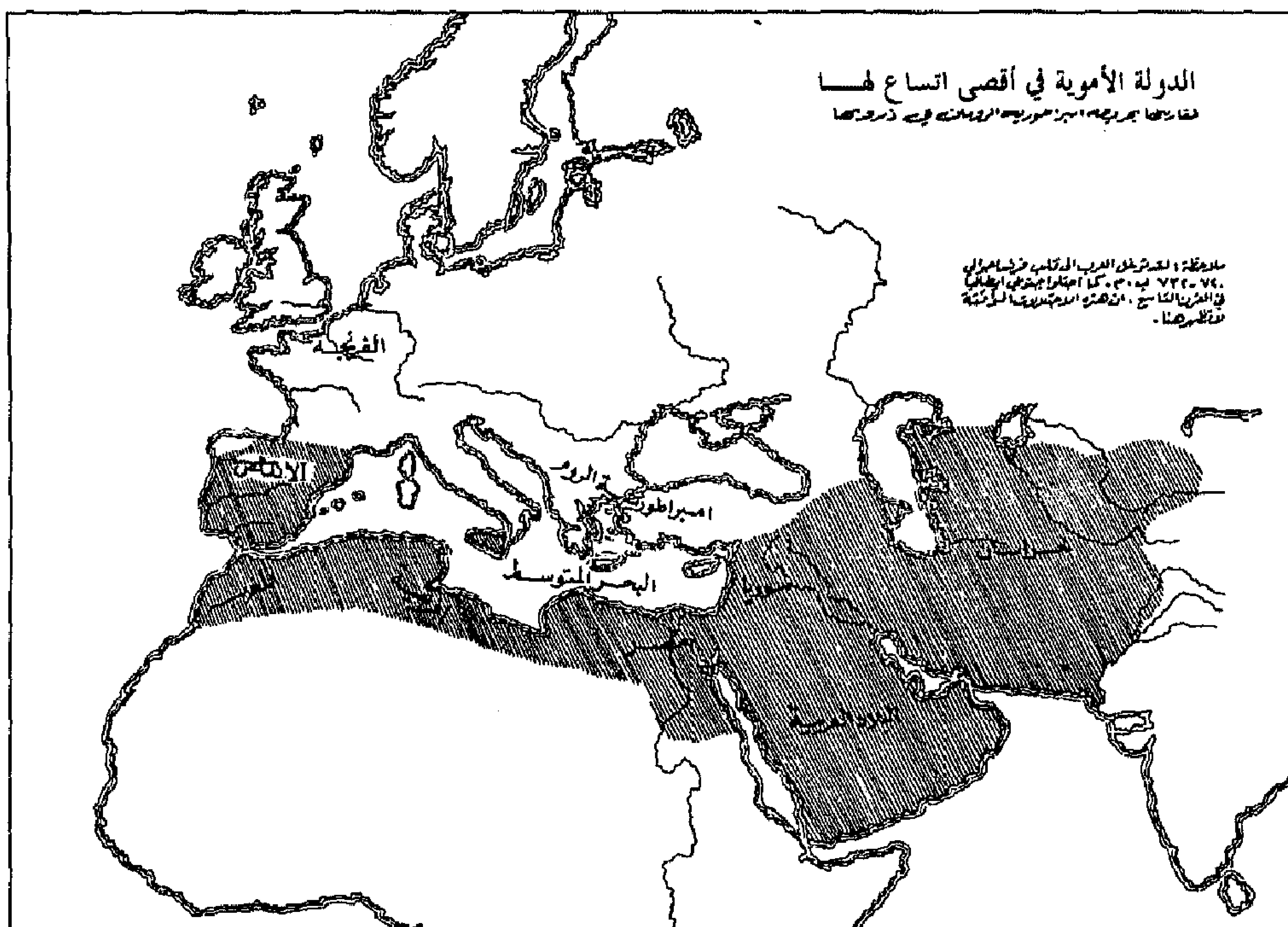
وبعد ...فإليك وصف ابن كثير لحال الفتوحات في عهد بـــني أميـــة:

كانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهـــم شـغل إلا ذلـك قـد علـت كلمـة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبحرهـــا ، وقـد أذلـوا الكفـر وأهلـه ، وامتلأت قلوب المشركين مـن المسـلمين رعبـاً ، لا يتوجـه المسـلمون إلى قطـر إلا أخذوه ، وكان في عسـاكرهم وجيوشـهم في الغـزو الصـالحون الأوليـاء والعلمـاء وكبار التابعين ، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهـم دينـه ، فقتيبـة بـن مسلم يفتح في بلاد الترك ، يقتل ويسـبي ويغنـم ، حـتى وصـل إلى تخـوم الصـين ، وأرسل إلى ملكه يدعوه ، فخاف منه وأرسل له هدايا وتحفـاً وأمـوالاً كثـيرة هديـة ، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده ، بحيث أن ملوك تلـك النواحـي كلـها تـؤدي إليه الخراج خوفا منه ، ولو عاش الحجاج لما أقلع عـن بـلاد الصـين ، ولم يبـق إلا أن يلتقي بملكها ، فلما مات الحجاج رجع الجيش ، ثم ان قتيبة بعـد ذلـك ، قتلـه بعـض المسلمين ، ومسلمة بن عبد الملك بن مروان وابن أمير المؤمنـين الوليـد وأخـوه الآخـر يفتحون في بلاد الروم ويجاهدون بعساكر الشام حـتى وصلـوا إلى القسـطنطينية وبـنى بها مسلمة جامعا يعبد الله فيه ، وامتلأت قلوب بالفرنجه منـهم رعبـا

ومحمد بن القاسم ابن أخي الحجاج يجاهد في بلاد الهند ويفتـح مدنهـا في طائفـة مـن جيش العراق وغيرهم ، وموسى بن نصـير يجـاهد في بـلاد المغـرب ويفتـح مدنهـا وأقاليمها في جيوش الديار المصرية وغـيرهم

وكل هذه النواحي إنما دخل أهلها في الإسلام وتركوا عبـادة الأوثـان..





خريطة رقم ١٢،١١ توضح اكتساح المد الإسلامي لإمبراطورية الروم في خلال قرن من الزمان

الباب الثالث
الخلافة العباسية

الفصل الأول: خلفاء بني العباس

الفصل الثاني: الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية

الفصل الثالث: الدولة الأندلسية

الفصل الرابع: الدولة الفاطمية

الفصل الخامس: الحروب الصليبية وجهاد آل زنكي وصلاح الدين الأيوبي ضدها

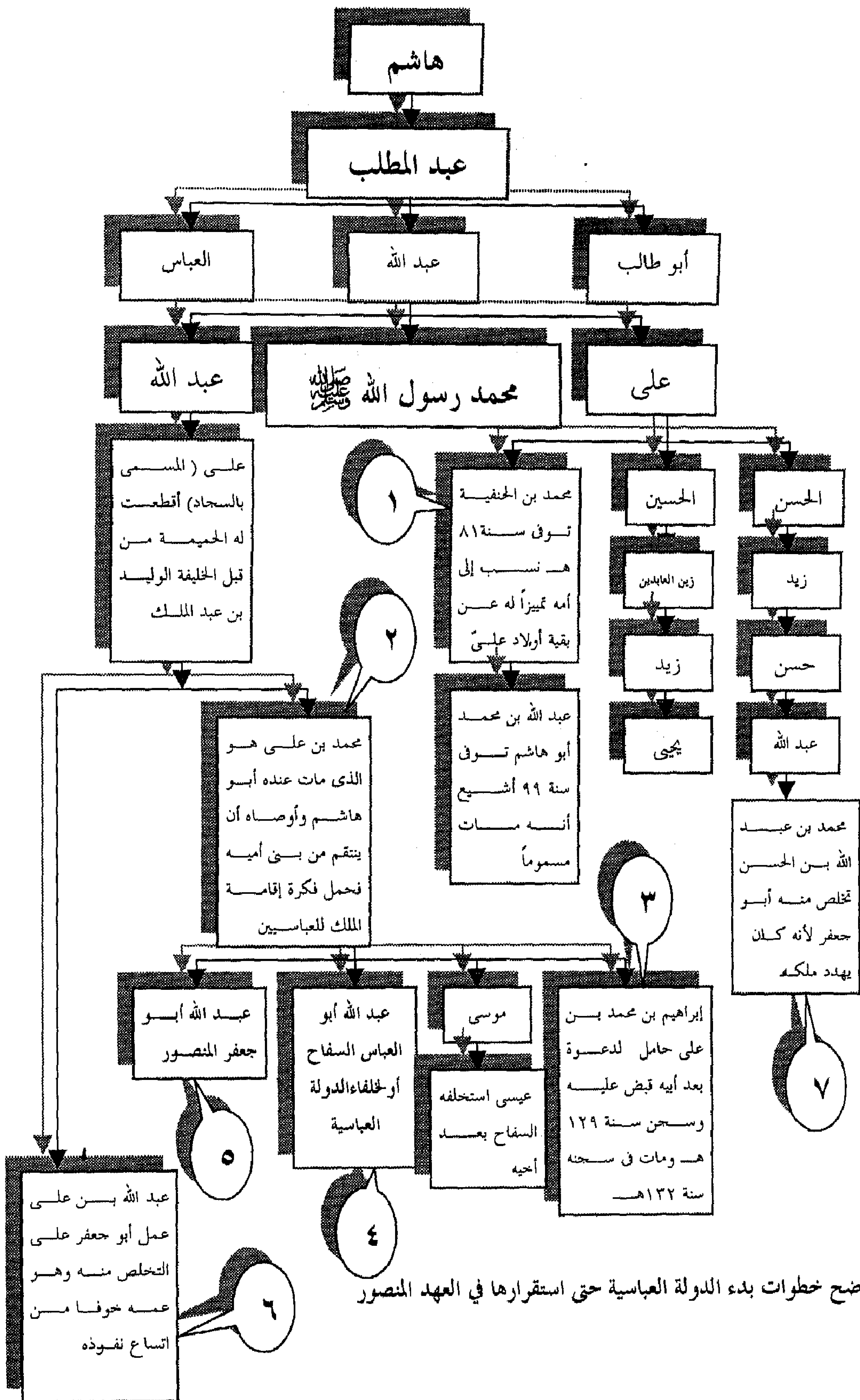
الفصل السادس: دولة المماليك

الفصل الأول

خلفاء بني العباس

لقد مرت هذه الخلافة بأدوار

- الدور الأول : خلفاء عصر القوة
- الدور الثانى : خلفاء عصر سيطرة العسكر الأتراك
- الدور الثالث : خلفاء عصر سيطرة البويهيين الشيعة
- الدور الرابع : خلفاء عصر سيطرة السلاجقه الأتراك
- الدور الخامس : سقوط بغداد ودخول التتار وانتقال الخلافة العباسية إلى مصر



كروكي يوضح خطوات بدء الدولة العباسية حتى استقرارها في العهد المنصور

كيف بدأت الدعوة العباسية

الحميمة. . .

كان بنو أمية يجلون آل البيت ولكن تجاوزات بعض الولاة أساءت في بعض الأحيان إليهم .

كان الوليد بن عبد الملك الخليفة يومئذ قد أقطع الحميمة (بلدة في الأردن) لعلى بن عبد الله بن عباس فأقام واستقر بها .

بداية الحركة إشاعة . ..

بعد زيارة قام بها عبد الله بن محمد (أبو هاشم) إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك ، الذي رحب به وأكرمه ، شعر أبو هاشم بالمرض وأحس بدنو أجله ، وأشاع الناس أن سليمان قد سمه فعرج أبو هاشم على (الحميمة) ونقل ذلك إلى ابن عمه محمدبن على بن عبد الله بن عباس وطلب منه أن يقتص من بنى أمية وذلك عام ٩٩هـ.

لقي كلام أبو هاشم لابن عمه محمد موقعا من نفسه وكان رجلا طموحا وكان له أكثر من عشرين أخا يدعمونه بالإضافة إلى أبنائه فحمل محمد بن علي الفكرة وهى: إزالة ملك بنى أمية، وبدأ يعمل على تنفيذها .

اختيار المكان

اختار الكوفة وخراسان نقطتي انطلاق للدعوة وهو اختيار دقيق لأسباب منها:

١ - أكثر الناقمين على بني أمية من الكوفة.

٢ أن خراسان تقع في مشرق الدولة وإذا اضطرت الظروف يمكن أن يفر إلى بلاد الترك المجاورة.

٣ – وفي خراسان صراعات عصبية بين العرب (القيسية واليمانية) يمكن الاستفادة من

هذا الصراع لصالحـه.

٤ وخراسان دولة حديثة عهد بالإسلام فيمكن التأثير في نفـوس أهلـها مـن منطلـق العاطفة والحب لآل البيـت.

٥ اختار الكوفة مركزاً للدعوة ويقيم فيـها مـا يسـمى (**بكبـير الدعـاة أو داعـي الدعاة**) وتكون خراسان هي مجال انتشـار الدعـوة.

عمد كذلك إلى السرية التامة وكان حريصاً عليها تنتقـل المعلومـات مـن خراسـان إلى الكوفة إلى الحميمة ، ويتحرك الدعاة على شكل تجـار أو حجـاج .

أول كبير للدعاة في خراسان هو أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصـادق) الـذي اختـار اثني عشر نقيباً كلهم من قبائل عربية .. وهذا يرد علـى الادعـاء بـأن الدولـة العباسـية قامت علي أكتاف الفـرس....

فكان كبير الدعاة يختار اثني عشر نقيبا يأتمرون بأمره ولا يعرفـون الإمـام ولكـل نقيـب سبعون عـاملا.

بدأت الدعوة تؤتي ثمارها في خراسان وبـدأ يظـهر رجالهـا مما جعـل والي خراسـان يومئذ وهو أسد بن عبد الله القسري يقبـض علـى أبي عكرمـة السـراج وعـدد مـن أصحابه فيقتلهم سنة ١٠٧ هـ.

وحتى سنة ١١٨ هـ استطاع أسد بن عبد الله (كـان قـد عـزل ثم أعيـد) بخبرتـه أن يكشف بعض قادة التنظيم العباسي واشتد عليهم فلجـأت الدعـوة العباسـية إلى السـرية التامة مـن جديـد .

أثر عدم التدقيق في اختيار من يمثل الدعوة

ولأن رجال الدعوة قد عرفوا هناك كان لابد من تغيـير فتـم اختيـار عمـار بـن يزيـد (خداش) داعية جديدا في خراسان ولكن لم يكن اختيـارا موفقـا إذ أظـهر بعـد ذلـك

الكفر وانكشف أمره وقتل على يد أسد بن عبد الله أيضاً سنة ١١٨ هـ .

الدعوة العباسية في مأزق:

شوهت أفعال خداش صورة الدعوة العباسية في أذهان الناس و لم يثقوا في الداعية الجديد بالإضافة إلى شدة بن عبد الله عليهم ..

وحتى سنة ١٢٢ هـ كانت الدعوة تسير ببطء فلقد ظهر عائق جديد وهو ثورة زيد بن علي بن زين العابدين بالكوفة .. وكان لابد أثناءها وبعدها من الهدوء ليعود الجو إلى حالته الطبيعية.

وفى سنة ١٢٥ هـ توفى محمد بن علي وأوصى من بعده لابنه إبراهيم ليقوم بمتابعة أمور الدعوة.

وجاء الفرج في سنة ١٢٥ هـ بعد وفاة هشام بن عبد الملك وانشغال الدولة الأموية بصراعاتها الداخلية .. بالإضافة إلى أن الدعوة العباسية بتوجيه من إمامها قررت استغلال الصراع القبلي القائم بخراسان وذلك لأن والي خراسان يومئذ كان (نصر ابن سيار) مضرياً وأكثرية العرب هناك من اليمانية فكرهوه فاتجهت الدعوة العباسية إلى اليمانية وأثر هذا الصراع القبلي على أحوال الناس ومصالحهم بكافة فصائلهم (اليمانيون ، المضريون ، أهل العلم ، الفرس ، الترك) كل هذه الأحداث ساعدت الدعوة العباسية على الانتشاط من جديد ...

وفي سنة ١٢٨ هـ ظهرت شخصية قوية هو أبو مسلم الخراساني (فارسي الأصل) أحد دعاة بني العباس منذ سنوات ، لمح فيه إبراهيم بن محمد الذكاء والكفاءة فقرر أن يرسله إلى خراسان حيث أمر الدعوة في نمو مطرد..

وفي سنة ١٢٩ هـ جاء إلى أبي مسلم رسالة من الأمام تأمره بالظهور بالدعوة ففعل ووالي خراسان يومها مشغول بصراعات الدولة الداخلية ولما كان يوم عيد الفطر

صلى أبو مسلم بالنـــاس ..

أول اشتباك مسلح بين بني أمية وبني العباس

وقع أول اشتباك بين قوة بني أمية وقوة بني العباس في خراسان وانتصـــر فيـــها أبـــو مســـلم على قوات نصر بن سيار وكثر أتباع أبي مسلم فقـــد احتـــال حيـــلا لطيفـــة في الســـيطرة على الأمر فكان يرسل إلى اليمانية يستميلهم ويكتـــب إلى المضريـــة يســـتميلهم بقولـــه (إن الإمام أوصاني بك خيرا ، ولست أعدو رأيـــه فيـــك) .

توترت الأحداث وبعث مروان بن محمد في طلـــب إبراهيـــم بـــن محمـــد الإمـــام المقيـــم بالحميمة فقيدوه وأرسلوه إلى الخليفة بدمشـــق فســـجن ..

وفي سنة ١٣١ هـــ ازداد تمكن أبي مسلم من الأمر وفر نصر بـــن يســـار وتـــوفى فدانـــت خراسان كلها لأبي مســـلم ..

وفي سنة ١٣٢ هـــ انتصرت قوات أبي مسلم على قـــوات العـــراق ثم توجـــه إلى الكوفـــة والتي كان قد خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري داعيـــا لبـــني العبـــاس ..

وفي سنة ١٣٢ هـــ مات إبراهيم بـــن محمـــد في ســـجن مـــروان بـــن محمـــد وأوصـــى بالخلافة بعده لأخيه عبد الله بن محمد (السفاح)، وبـــالفعل اختـــير الســـفاح أول خليفـــة لبني العباس في ربيع آخر سنة ١٣٢ هـــ

وفي ١١من جمادى الآخرة أرسل السفاح الجيوش لمنازلـــة الأمويـــين فســـحقهم واســـتتب الوضع لبني العباس عدا الأندلـــس ..

خلافة عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس
١٣ من ربيع أول سنة ١٣٢ هـ حتى ١٣ من ذي الحجة ١٣٦ هـ
وعمره ٢٨ عام فتكون مدة خلافته : أربع سنوات وثمانية أشهر

أول خلفاء بني العباس

ولد السفاح بالحميمة ونشأ بها ثم لما أخذ مروان أخاه إبراهيم انتقل أهله إلى الكوفة فانتقل معهم ... ويقال له أيضا : المرتضى والقاسم .. آلت إليه الخلافة كما رأينا واستقر بالكوفة .. بيد أنه واجه محاولات عديدة للخروج عليه ولكنه استطاع أن يقضي عليها جميعا مستعينا بأبي مسلم الخراساني وفئة من أهله وعشيرته وكانوا كثرة وكان شديد البطش والتنكيل بخصومه فكان جل اعتماده على :

١ – أبو مسلم الخراساني بالمشرق.

٢ أخوه أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق.

٣ عمه عبد الله بن علي بالشام ومصر.

وكان معظم ولاة السفاح من أعمامه وبنى أعمامه .. وعهد السفاح من بعده إلى أخيه أبي جعفر المنصور ومن بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي . و لم تطل أيامه فقد أصيب بالجدري فمات و لم تستقر له الأمور بصورة تامة...

خلافة أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي
١٣من ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ حتى ٧من ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ
تولى الخلافة وعمره ٣٦ سنة فتكون مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة

لما تولى المنصور الخلافة وضع نصب عينيه مخاطر ثلاث لابد أن يقضي عليها :

١) منافسة عمه عبد الله بن علي له في الأمر وقد كان موكلا بتدبير جيوش الدولة من أهل خراسان والشام والجزيرة والموصل ليغزو بهم الروم (وكان رغم جلالة قدره عند بني العباس لكنه كان قليل الحزم).

٢) اتساع نفوذ أبي مسلم الخراساني أحد أعمدة الدولة العباسية فكان أبو جعفر شديد الحنق عليه لا يرضيه أن يكون له في الأمر شريك ذو سطوة وسلطان .

٣) بنو عمومته من آل علي بن أبي طالب الذين لا يزال لهم في قلوب الناس مكان،خاصة **محمد بن عبد الله بن حسن بن زيد الحسن بن علي بن أبي طالب** فخاف أبو جعفر أن يحاول الخروج عليه .

فأما الخطر الأول: إزالة عمه

(يضرب عمه بأبي مسلم وأيهما زال فقد زال من طريقه).

كان عبد الله بن علي ينتظر أن تئول إليه الخلافة لما كان له من يد طولي في القضاء على ملك بني أمية فلما جاء الخبر باستخلاف أبي جعفر المنصور خلعه وأعلن البيعة لنفسه .. فأرسل إليه أبو جعفر جيشا بقيادة أبي مسلم الخراساني فالتقوا عند حران ودارت معركة بين الفريقين لمدة ستة أشهر وظلت المعركة سجالا ثم تحولت إلى أبي مسلم الذي انتصر وفر عبد الله بن علي إلى البصرة عند أخيه سليمان فعلم بذلك أبو

جعفر فبعث إلى أبي سليمان يأمره بإحضار عبد الله بن علي إليـــه وأعطـــاه الأمـــان لعبـــد الله ما جعله يثق به فجئ به إلى المنصور سنة ١٣٩ هـــ فأمر بحبســـه وحبـــس مـــن كـــان معه وظل في حبسه حتى مات سنة ١٤٧ هـــ وكانت هذه غـــدرة مـــن المنصـــور.

وأما الخطر الثاني : أبو مسلم الخراساني

أراد أبو جعفر أن يصطاد أبا مسلم قبل أن يعود إلى خراســـان بعـــد هـــذه المعركـــة ، ولم يكن يريد أن يظهر لأبي مسلم مـــراده .

فكتب إلى أبي مسلم (إني قد وليتك مصر والشـــام فـــهي خـــير لـــك مـــن خراســـان .. تكون بقرب أمير المؤمنين فان أحب لقاءك أتيته مـــن قريـــب).

فغضب أبو مسلم وقال (يوليني الشام ومصـــر وخراســـان لي) .

وعزم على عدم تنفيذ الأمر والعـــودة إلى خراســـان.

قرر أبو جعفر استعمال الدهاء مع أبي مسلم وبـــدأت بينـــهما حـــرب مراســـلات حـــتى أرسل أبو جعفر رسالة مع عيسى بن موسى ووجه معـــه أبـــا حميـــد المـــروري وأمـــره أن يكلم أبا مسلم بألين ما يكلم به أحدا وأن يمنيه فـــإن أبى قـــال لـــه :(يقـــول لـــك أمـــير المؤمنين لست للعباس وأنا برئ من محمـــد أن مضيـــت مشـــاقا ولم تـــأتني ، إن وكلـــت أمرك لأحد سواي ، وان آل طلبك وقتالك بنفســـي ولـــو خضـــت البحـــر لخضتـــه ول اقتحمت النار لاقتحمتها وراءك حتى أقتلك أو أموت قبـــل ذلـــك) .

وبالفعل يقابل الوفد أبا مسلم فيـــأبى أن يطيـــع أو أن يـــأتي لمقابلـــة أبي جعفـــر فيبلغـــاه الرسالة الأخيرة وسبحان الله فهذه الكلمات جعلت الجبـــار أبـــا مســـلم يخنـــع ويجـــبن ويزداد ترددا وحـــيرة.

كما كتب أبو جعفر إلى خليفته أبي مسلم على جند خراسان يعطيه إمامـــه خراســـان مـــا عـــلش ..

كل هذه الضغوط جعلت أبي مسلم يقرر الذهـــاب لمقابلـة أبي جعفـر المنصـور الـذي تمادى في المكر فأعطاه الأمان وأظهر له عند دخوله المدائـن الاحـترام والتقديـر ومراسـم الاستقبال ولكنه كان عازما على قتل أبي مسلم غدرا بـالفعل قتلـة وهـو يكلمـه آمنـا على يد بعض حراسـه.

روى البيهقي عن الحاكم بسنده أن عبد الله بن المبارك سئل عـن أبي مسـلم أهـو خـير أم الحجـاج ؟

فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيرا من أحد ، ولكن كان الحجـاج أشـر منـه ، قـد اتهمه بعضهم على الإسلام ، ورموه بالزندقة ، ولم أر فيما ذكـروه عـن أبي مسـلم مـا يدل على ذلك ، بل على أنه كان ممن يخاف الله من ذنوبـه ، وقـد أدعـي التوبـة فيمـا كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة العباسية والله أعلـم بـأمره.

الخطر الثالث: محمد بن عبد الله بن الحسن بن زيد

فقد زعموا أن بني هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها في أواخر عهد بني أمية وكذلك بايعه أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يف أبو جعفر ببيعته له ولذلك لم يبايع محمد لأبي العباس ولا لأبي جعفر . . واستخفى في زمن أبن جعفر وظل أبو جعفر يجري تحرياته عن محمد فلما لم يعثر عليه اعتقل المنصور أباه وصادر أمواله..

ولا يزال المنصور يبحث عنه وأنفق كثيرا من المال في هذه السبيل فلم يصل إلى شئ .. فاعتقل بني الحسن كلهم فلما علم محمد بذلك قال لأمه هند: (إني قد حملت أبي وعمومتي ما لاطاقـة لهم به ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم فعسى أن يخلي عنهم)، فتنكرت هند ثم جـاءت السجن كهيئة الرسول فأذن لها فلما رآها عبد الله أبو محمد عرفها فنهض إليها فأخبرته بما قـال محمد فقال:(كلا بل نصبر فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيرا ، قولي له فليـدع إلى أمـره وليجد فيه فإن فرجنا بيد الله) فانصرفت واستمر محمد على اختفائه.

فاستعمل معهم المنصور أشد أنواع العذاب ونقلهم إلى سجن بالعراق ومات أكثرهم في الحبس.

نتيجة هذه الفظائع قرر محمد الظهور بالمدينة وكان ذلك أول يوم من رجب سنة ١٤٥ هـ أعانه أهل المدينة وصعد منبر الحرم وخطب فيهم

والحقيقة أنه كان من مكر أبي جعفر الخليفة أنه كتب إلى محمد على ألسنة قواده يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه .. مما جعل محمد يتوهم أن أغلب الأمصار معه، كما أن الحسن كان قد اتفق مع أخيه إبراهيم أن يظهر في نفس اليوم بالبصرة ليعظم ذلك على أبي جعفر ولكن أخاه مرض و لم يخرج ..

كما أنه حصر نفسه بالمدينة وهي ليست بمركز حربي يمكن للقائد أن يبقى فيه للدفاع طويلا فحياة المدينة من خارجها فلا تحتمل الحصار إلا قليلا.. وقد كان فحوصرت المدينة ودبر أبو جعفر أمره تدبيرا محكما...

وتكررت تجربة ابن الزبير فقد انتقض الناس من حول محمد الذي قتل بعد أن أظهر شجاعة فائقة وذلك في رمضان سنة ١٤٥ هـ .

وبمقتل محمد استتب الأمر لأبي جعفر وتوطدت أركان الدولة الناشئة فلم يعد هناك في الأفق مخاطر داخلية.

بناء بغداد

شرع المنصور في بناء بغداد كمقر للخلافة العباسية وأتم بناءها سنة ١٤٦ هـ.

وقالوا : إنه أنفق على بغداد ثمانية عشر ألف ألف دينار، قال الخطيب البغدادي :

(لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها)

وحشر إليها المنصور العلماء من كل بلد وإقليم حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد

ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية وأربى سكانها على مليونين.

ذكر ما جاء في وصف المنصور وخصائصه وأخلاقه :

(كان المنصور أعظم رجل من آل العباس شدة وبأسا ويقظة وثباتا كان شغله في صدر النهار بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية .. فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره فإذا صلى العشاء نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والآفاق وشاور سماره من ذلك فيما أرب ، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلى بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه).

كان المنصور في شبابه يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه فنال جانبا جيدا وطرفا صالحا ، وقد قيل له يوما :

يا أمير المؤمنين هل بقى شئ من اللذات لم تنله ؟

قال : شئ واحد ، قالوا : وما هو ؟

قال : قول المحدث للشيخ : من ذكرت رحمك الله.

فاجتمع وزراؤه وكتابه وجلسوا حوله وقالوا : ليمل علينا أمير المؤمنين شيئا من الحديث، فقال: لستم بهم ، إنما هم الدنسة ثيابهم ، المشققة أرجلهم ، الطويلة شعورهم ، رواد الآفاق وقطاع المسافات ، تارة بالعراق وتارة بالحجاز ، وتارة بالشام ، وتارة باليمن .فهؤلاء نقلة الحديث .

وقد ذكروا في مآثره وحمله وعفوه وحسن تدبيره وتعهده ابنه المهدي وإعداده للخلافة مآثر طيبة ولكن يؤخذ عليه غدره بأبي مسلم الخراساني وعمه عبد الله بن على بعد أن أعطى كل واحد منهما الأمان ..

ذكر الفتوحات

لم تكن هناك فتوحات حاسمة في عهده بل هي غزوات متكـــررة بـــل ربمـــا تجـــرأ الـــروم على المسلمين لانشغالهم بالصراعات الداخليـــة فـــهجموا علـــى بعـــض الثغـــور و دخـــل مَلِكَهم قسطنطين ملاطية عنوة وهدم سورها وتقـــدم في بـــلاد المســـلمين ..

ولكن لما انتبه المنصور وانتهت إلى حد كبير الصراعات الداخلية عـــاد الغـــزو مـــن جديـــد واستعاد المسلمون سيطرتهم من ناحية بـــلاد الـــروم.

كما بعث أبو جعفر ابنه المهدي لغزو طبرستان ســـنة ١٤١ هـــ.

وفى سنة ١٥١ هـــ شرع أبو جعفر في بناء **الرصافة** لابنـــه المـــهدي بعـــد مقدمـــه مـــن خراسان وهي في الجانب الشرقي من بغداد وجعـــل لهـــا ســـوراً وخندقـــاً وفيـــها جـــدَّد المنصور البيعة لنفسه ثم لولده المهدي من بعده ثم لعيسى بن موســـى مـــن بعدهمـــا.

مات أبو جعفر سنة ١٥٨ هـــ في طريقـــه إلى الحـــج ودفـــن بمكـــة وقـــد كتـــم الربيـــع الحاجب موته حتى أخذ البيعة للمهدي من قادة بنى هاشـــم ثم دفـــن.

قالوا وكان آخر ما تكلم به المنصور أن قال : (اللـــهم بـــارك لي في لقـــاءك).

فائدة:

لاحظ أخي القارئ أن دولة للمسلمين قد قامت في الأندلس من عام ١٣٨ هـ .

ولأنها فترة وخطيرة في تاريخ المسلمين وكانت مستقلة عن الدولة العباسية سيأتي ذكر أحوال الأندلس من منشئها وحتى سقوطها بعد الكلام على الخلافة العباسية حتى لا يتشتت ذهن القارئ.

خلافة محمد المهدي بن المنصور
٦من ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ حتى ٢٢من محرم سنة ١٦٩ هـ
فتكون مدة خلافته عشر سنوات وشهرا ونصف
تولى الخلافة وعمره ٣٣ سنة

كانت خلافته مرفهة عن الناس فأمر بإطلاق من كان في سجن المنصور من المعارضين و كان يجلس للمظالم بنفسه فسارت الأمور في عهده طبيعية مع توسع في العمران .. ومن آثاره زيادته في المسجد الحرام فأدخل فيه دورا كثيرة مما يحيط به وأمر بمحو اسم الوليد بن الملك من حائط المسجد النبوي وكتابة اسمه ..

والحق أن المنصور وطد للمهدي الأوضاع ، وأخضع له الرقاب فأراح من بعده وكان المهدي يرسل أبناءه للغزو.

وفي سنة ١٦٣ هـ بعث ابنه هارون الرشيد على رأس قوة من بلاد خراسان ومعه خالد بن برمك ، ونال من الأعداء نيلا عظيما وأصبح بعد ذلك واليا على الشطر الغربي من المملكة الإسلامية ..

ولم تحدث في عهده فتوح واسعة ولم تضم مدن كبيرة إلى بلاد الإسلام إلا أن الانتصارات كانت كبيرة والغنائم كثيرة ..

وفى سنة ١٦٥ هـ جهز المهدي ولده الرشيد لغزو بلاد الروم وأنفذ معه من الجيوش عددا كبيرا فلما عاد سنة ١٦٦ هـ من بلاد الروم دخل الرشيد بغداد في أبهة عظيمة ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره ..

وفي سنة ١٦٧ هـ وجه المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان في جيش كثيف لم

ير مثله ..

ذكروا أنه هاجت ريح شديدة فدخل المهدي بيتا في دار فألصق خده بالتراب وقال : **اللهم إن كنت أنا المطلوب بهذه العقوبة دون الناس فها أنا ذا بين يديك ، اللهم لا تشمت بي الأعداء من أهل الأديان ، فلم يزل كذلك حتى انجلت ..**

حسن السياسة :

ودخل عليه رجل يوما ومعه نعل فقال : هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها لك فقال : هاتها فناوله إياها ، فقبلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما انصرف ،قال المهدي : والله إني لأعلم أن رسول الله ﷺ لم ير هذا النعل ، فضلا عن أن يلبسها ولكن لو رددته لذهب يقول للناس : أهديت إليه نعل رسول الله ﷺ فردها علي ، فتصدقه الناس ، لأن العامة تميل إلى أمثالها ، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوى وإن كان ظالما ، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ورأينا هذا أرجح وأصلح ..

وكان يتتبع الزنادقة (المارقين عن الدين) ويعاقبهم بالقتل .

وبالجملة فان للمهدي مآثر ومحاسن كثيرة يقصر المقام عن ذكرها ثم توفى رحمه الله وكان قد استخلف من بعده ابنه موسى الهادي.

خلافة موسى الهادى بن محمد بن جعفر المنصور
٢٢من محرم سنة ١٦٩ هـ حتى ١٣من ربيع سنة ١٧٠ هـ
فكانت مدة خلافته سنة وشهرين واثنتان وعشرين يوما
تولى الحكم وعمره ٢٥ سنة

كان الهادي يسير على هدى أبيه في محاربة الزنادقة ..

وقعة فخ:

وقامت في عهده محاولة للخروج عليه من قبل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكتان بالمدينة ولكنه قتل على يد جيش الهادي بعد تسعة أشهر وثمانية عشر يوما وسميت هذه المعركة معركة فخ وأفلت من هذه المعركة إدريس بن عبد اله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب واتجه إلى مصر ومنها انطلق إلى المغرب حيث أسس دولة الأدراسة[1].

كان الهادي شديد الغيرة على حرمه وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد أن كان لها نفوذ في عهد المهدي .. ولذا يقولون إنها سمته لعزلها عن أمر الملك ولأنه ضيق على الرشيد (الخليفة من بعده) لأنه أراد أن يعدل عن استخلافه إلى استخلاف ابنه جعفر وفعل والنمامون وأصحاب النفوس الدنيئة فعلتهم في الإيقاع بينه وبين أخيه الرشيد...

وكان الهادي شهما خبيرا بالملك كريما وكان من كلامه :

(ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني ، والعفو عن الزلات ليقل الطمع عن

[1] سيأتى ذكرها

الملك)... كان الهادي يرى أن الناس إنما يصلحهم عدم احتجــــاب خليفتـــهم عنـــهم بـــل معايشتهم ومعايشة مشكلاقم فكان يـــأمر حاجبـــه الفضـــل بـــن الربيـــع قـــائلاً : (لا تحجب عني الناس فإن ذلك يزيل عني البركـــــة).

وكان قوى البأس يثب على الدابة وعليـــه درعـــان .

فـائدة:

كـان الهـادي يشـرب النبيـذ ويسـمع الغنـاء وهـو أول مـن فعـل ذلـك مـن خلفـاء بـني العباس وسيأتي مزيـد توضيـح لذلـك إن شـاء الله ..

توفى الهادي في ربيع أول سنة ١٧٠ هـــ وصلى عليه أخـــوه هـــارون .

خلافة هارون الرشيد بن محمد المهدي

٤من ربيع أول سنة ١٧٠ هـ حتى ٣ من جمادى الآخر سنة ١٩٤ هـ

فتكون مدة خلافته ٢٣ سنة وشهرين و١٨ يوما

وتولى الحكم وعمره ٢٥ سنة

- **من مناقبه:**
- كان هارون يصلي في اليوم مائة ركعة نفلا .
- حج تسع مرات خلال فترة حكمه سنة ١٧٠ هـ ، ١٧٣ هـ ، ١٧٤ هـ ، ١٧٥ هـ ، ١٧٧ هـ ، ١٨٠ هـ ، ١٨١ هـ ،١٨٦ هـ ، ١٨٨ هـ .
- وكان إذا حج حج معه من الفقهاء وأبنائهم جمع كبير وإذا لم يحج يحج عنه ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة .
- ومما اشتهر عنه أنه كان يحج عاما ويغزو عاما.

قال الطبري : غزا سبع مرات وجهز عشرين حملة للجهاد في البر والبحر .

وفضائل الرشيد ومكارمه كثيرة جدا وقد كان الفضيل بن عياض يقول : (ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد ، لما أتخوف بعده من الحوادث ، وإني لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمري .

قالوا : فلما مات الرشيد وظهرت تلك الفتن والحوادث والاختلافات وظهر القول بخلق القرآن فعرفنا ما كان تخوفه الفضيل من ذلك).

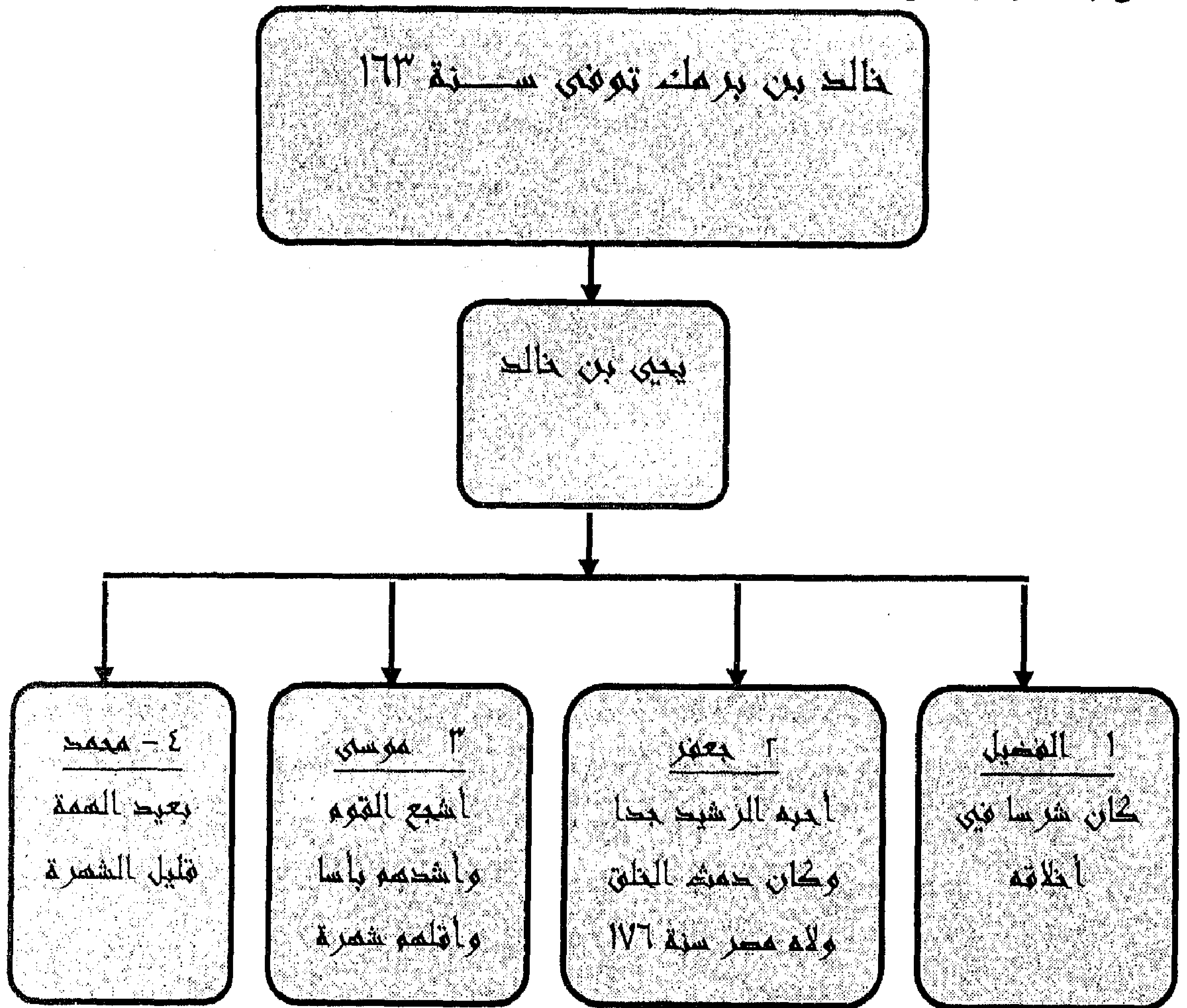
محنة البرامكة في عهد هارون الرشيد:

لما جاءت الدعوة العباسية إلى خراسان كان خالد بن برمك من أكبر دعاتها فاستوزره

العباس السفاح ..فمازال خالد بن برمك يتقلب في المناصب بحسن السيرة وكان ممدوح الولاية حتى مات سنة ١٦٣ هـ .

وكان ابنه يحي بن خالد بن برمك من أرفع الناس أدبا وفضلا ونبلا تولى المناصب منذ عام ١٥٨ هـ وكان محبوبا وهو الذي ربى هارون الرشيد الذي بدوره كان لا يناديه إلا بيا أبي ، ويحي هو الذي مكن هارون من الخلافة على غير رغبة الهادي .

فلما تولى الرشيد الخلافة أمر يحي وزارته فكانت وزارة تفويض وقال له : (قلدتك أمر الرعية وأخرجته من حقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت..) وإليك ثبت أسرة البرامكة ..



في سنة ١٨٤ هـ بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين وضمه إلى جعفر بن يحي ..

لقد كانت هذه الأسرة مقربة إلى الرشيد تساعده في القيام بمهام الدولة خير قيام .

سماهم المؤرخون (زهرة الدولة العباسية كلها).. قادوا الجيوش وسدوا الثغور و دافعوا عن حياض الدولة ..

ولكن لماذا أوقع بهم الرشيد ، وما الذي غير قلبه عليهم ؟؟!!

الحقيقة في هذه المسألة غير أكيدة واختلف فيها المؤرخون والأرجح أن هذه الأسرة الفاضلة قد بلغت من العز مبلغا عظيما .. وهناك دائما الحاقدون وأصحاب القلوب المريضة الذين لا يحبون أن يروا الأمة مجتمعة إلى حين ويغيظهم أن يصل غيرهم إلى تلك المنازل بجهد وبذل وتضحية وهم متفرجون فيلجئون إلى الوشاية والوقيعة بحيلة ومكر .. لقد تغير قلب الرشيد تجاههم بفعل فاعل.

ولعل أرجح ما قيل في ذلك ما ذكره بعض المؤرخين أن سبب ذلك قيام جعفر بن يحي بتهريب يحي بن عبد الله بن الحسن (أخو إدريس[1]) من سجن الرشيد سرا لأنه تعاطف معه لأنه من نسل آل البيت وقد اهم البرامكة بالتشيع من قبل بعض المؤرخين وبلغ الخبر الفضل بن الربيع[1] من عين كانت له حيث كان يتحين فرصة يؤلب بها

[1] مؤسس دولة الأدارسة .

[1] الفضل بن الربيع : أبوه الربيع بن يونس كان الرشيد مقتنعا بقدراته ولكن أمه واسمها الخيزران كانت تمنعه أن يوليه شيئا حتى ماتت سنة ١٧٤ هـ فجعل له الرشيد ولاية وكان يكره يحى بن عبد الله بن الحسن وكان دائما ما يعمل على تحذير الرشيد منه أنه سيدعو إلى نفسه إذا سنحت له الفرصة .

الرشيد على البرامكة فأخبر الرشيد فقال له الرشيد : (مالك وهذا لا أم لك فلعل ذلك عن أمري) فانكسر الفضل، فلما جاء جعفر (حبيب الرشيد) دعا بالغداء فأكلا وتحادثا إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال الرشيد :

ما فعل يحي بن عبد الله؟

قال جعفر : بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس والأكبال .

قال الرشيد : بحياتي ؟

فأحجم جعفر وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره .

فقال : لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده ،

فقال الرشيد : نعما فعلت ما عدوت ما كان في نفسي فلما خرج اتبعه بصره ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان.

كانت هذه الحادثة سببا للوشاية بالبرامكة في أخص صفات الوزراء وهي الإخلاص لملوكهم وذلك طعن مؤثر...

ووقر في نفس الرشيد شئ من ذلك أن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي وانفرط عقد الثقة بين الخليفة الرشيد والبرامكة وهم أحباؤه وخلصاؤه فتحمست أمامه عيوبهم وجعلته يستريب فيهم لأدنى شبهة.

حتى كانت سنة ١٨٧ هـ وفيها كان مهلك البرامكة على يدي الرشيد قتل جعفر بن يحي بن خالد البر مكي بطريقة بشعة ، ودمر ديارهم وذهب صغارهم وكبارهم.

ويبدو أن الرشيد قد ندم بعدها ...

فقد كان يقول : لعن الله من أعزائي بالبرامكة ، فما وجـــدت بعدهـــم لـــذة ولا رجــاء ، وددت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأني تركتـــهم علـــى حـــالهم.

وفي عهده حكم الروم نقفور إلى الرشــــيد:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فإن الملكـــة الـــتي كـــانت قبلـــي[1] أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك أموالهـــا مـــا كنـــت حقيقيـــا بحمل أمثاله لها لكن ذلك ضعف النساء وجمعتهن ، فإذا قرأت كتـــابي فـــاردد مـــا حصـــل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالســـيف بيننـــا وبينـــك).

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب فكتب على ظهر الكتـــاب الـــذي جـــاءه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمع.

فاجتاحت جيوش المسلمين بلاد الروم فاضطر نقفور إلى المســالمة علـــى خـــراج يؤديـــه ... فمكث نقفور يؤدي جزية قدرها ٣٠٠ ألف دينار سنويا إلى بيـــت مـــال المســـلمين.

وعلى الجملة كانت قوة المسلمين في عهد الرشيد ظـــاهرة ظـــهورا بينـــا علـــى الـــروم .. لأن الرشيد كان يغزو ومعه عظماء القـــواد.

وفي عهده قامت دولة **الأدارسة** سنة ١٧٢ هـــ بالمغرب ومؤسســـها هـــو : إدريـــس بـــن

---

[1] ملكة الروم هى أغسطه وقد عزلها الروم واختاروا مكانهـــا نقفـــور .

عبد الله بن الحسن الذي فر من وقعة الفخ أيام الهـــادي فأقـام دولتـه في بـلاد المغـرب الأقصى وهي أول دولة للعلويين .. وكان هارون في بدايـة خلافتـه يحسـن إلى العلويـين ولكنه بعد هذه الحادثة خافهم وعاقب من مال إليهم أشـد العقوبـات .

وفاة الرشيد:

وقد رأى رؤيا فيها موته وصدقها الواقـع.

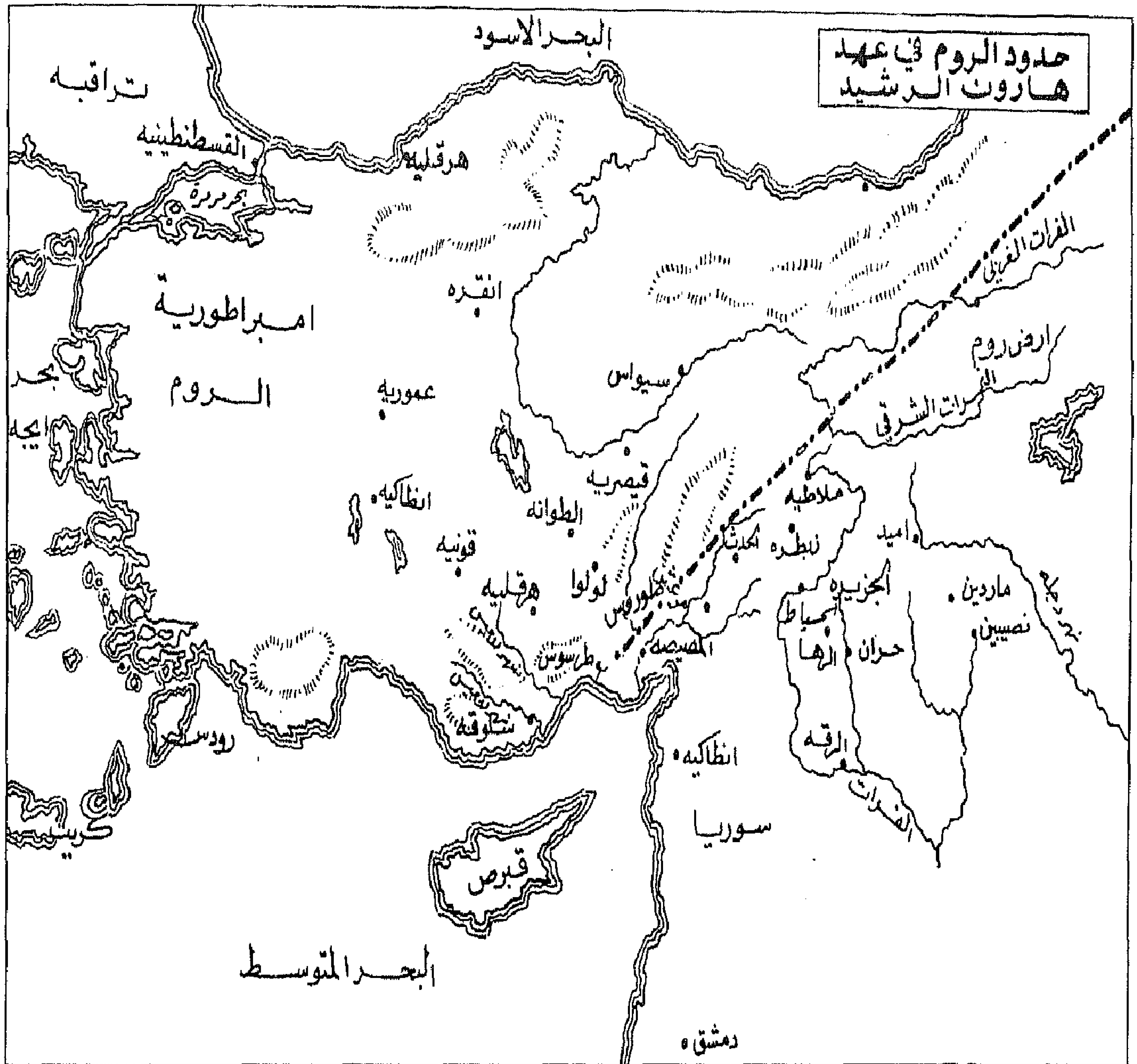
رأى كفاً به تربة حمراء وقائل يقول : هـذه تربـة أمـير المؤمنـين ، فلمـا سـار يريـد خراسان مَرّ بـ (طوس) فمرض بها ، فقـال لخادمـه : ائتـني بشـيء مـن تربـة هـذه الأرض، فجاءه بتربة حمراء في يده ، فلما رآها قال : والله هـذه الكـف الـتي رأيـت ، والتربة التي كانت فيها! فأمر بحفر قبره في حياته و أن تُقـرأ فيـه ختمـة للقـرآن تامـة ، وحُمِل حتى نظر إلى قبره فجعل يقول : إلى هنا تصير يا ابـن آدم ويبكـي ثم قبـض بعـد ثلاث ليـال..

الرخاء في عهد الرشيد:

كان الرشيد ينظر إلى السـحابة المـارة ويقـول (أمطـري حيـث شـئت فسـيأتيني خراجـك)

وقد بلغت إيرادات الدولة العباسية في عهده (٧٠ مليـون و ١٥٠ ألـف دينـار) وقـد زادت في عصر المأمون عن ذلك بكثـير.

وفي عهده قامت دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ (وسيأتي مزيـد مـن ذكرهـا).


حدود الروم في عهد
هارون الرشيد
البحر الاسود
تراقبه
القسطنطينيه
بحر مرمرة
هرقليه
انقره
امبراطورية
الروم
عموريه
سيواس
قيصريه
انطاكيه
الطوانه
قونيه
هرقليه
لؤلؤا
طرسوس
المصيصه
سلوقية
رودس
كريت
قبرص
البحر المتوسط
انطاكيه
سوريا
دمشق
ملاطيه
زبطره
الحدث
اميد
الجزيره
ماردين
نصيبين
حران
الرها
الرقه
الفرات
الفرات الغربي
الفرات الشرقي
ارض روم

خريطة رقم ١٣

فائدة: شبهة والرد عليها

اتهم خلفاء الدولة العباسية وخاصة الرشيد بشرب النبيذ وبمجالس الغناء والطرب والجواري ... والرد على ذلك يكون من جوانب

إن المؤرخين ذكروا أن هارون الرشيد كان يشرب نبيذ التمر .

بل وذكروا أن أبا حنيفة كذلك كان يفعل .. وفي مذهب الإمام أبي حنيفة المعمول به في العراق أيام الرشيد أنه ..

يحل شرب عصير التمر في حالتين:

الحالة الأولى : إذا نقع أو طبخ طبخاً وشرب منه قبل أن يغلي ويشتد عصير التمر فهو في هذه الحالة حلال بإجماع العلماء.

الحالة الثانية : إذا طبخ طبخاً حتى غلا واشتد وشرب منه مقدار قليل يغلب على ظن الشارب أنه لا يسكره وكان شربه له لغرض التقوي لا بقصد اللهو والطرب، وهنا خلاف بين العلماء من مذهب أبي حنيفة . فإذا شرب من هذا العصير المطبوخ مقداراً كبيراً يسكر عادة فإنه يكون حراماً بإجماع فقهاء المذهب وهذا كله في حالة الطبخ.

أما إذا نقع وترك حتى غلا واشتد فإنه يكون حراماً على الإطلاق بإجماعهم .

والسؤال الآن ماذا كان يشرب الرشيد ؟ الأنواع المسكرة أم الأخرى؟

يقول ابن خلدون : (.. من ذلك ما يحكى من معاقرة الرشيد الخمر ،اقتران سكره بالندمان ، فحاشا لله ، ما علمنا عليه من سوء ، وأن هذا حال الرشيد ، وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة ، وما كان عليه من صحبة العلماء والأولياء ، ومحاورته الفضيل بن عياض وابن السماك ومكاتبته سفيان الثوري ، وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه .. وعبادته وتنفله..)

حتى قال (.. وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيها معروفة أما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها..).

أما ما شاع من انتشار الخمر في عصره فإن واقع هذه الدولة وهذا العصر يكذبه وخاصة إذا علمنا أن حاشية الرشيد كان على رأسها الأئمة الثقات أمثال :

مالك بن أنس ، أبو يوسف الشافعي ، الفضيل بن عياض ، عبد الله بن المبارك وغيرهم فهل هؤلاء كانوا يسكتون إذا وجدت الخمر بهذه الصورة التي يذكرها المبطلون ؟

أضف إلى ذلك أن هناك أنواعا كثيرة من المشروبات كانت منتشرة في هذا العصر وكلها يطلق عليها الشراب مثل : الماء ، اللبن ، الشربات ، وهذه كانت تصنع من الماء المحلى بالسكر وتعطر بخلاصة البنفسج أو الموز أو الورد أو التوت ويطلق عليها الشراب .

أما مجالس الغناء والطرب والجواري

فالسؤال كيف كان هذا الغناء في العهد العباسي؟ ثم ما هو حكم الغناء ؟

الأصل في الغناء الإباحة إلا إذا تسبب في فتنة كأن يحوي كلمات كفر أو مجون ، يقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة عن أشهر المغنين في عهد الرشيد :

(.. وفي عام ١٧٤ هـ من الهجرة توفى منصور مولى عيسى بن جعفر بن منصور ، وكان منصور هذا يلقب بزلزل ، وكان مغنيا يضرب بغنائه المثل ، وكان الغناء يوم ذلك غير الموسيقى الآن وإنما كانت زخمات عددية وأصوات مركبة في أنغام معروفة وهو نوع من إنشاد زماننا على الضروب لإنشاد المداح والمواعظ)

وهذه نماذج من الشعر الغنائي الذي كان موجودا في ذلك العصر ...

نراع بذكر الموت ساعة ذكره ونفتر بالدنيا فنلهو ونلعب

ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها — وما كنت فيه فهو شئ محبب

المرء في تأخير مدته — كالثوب يبلى بعد جدته

عجبا لمنتبه يضيع ما — يحتاج فيه ليوم رقدته

وأما موضوع الجواري وكثرها لدى الرشيد فهذا أمر صحيح يقول د. مؤيد فاضل صاحب كتاب شبهات في العصر العباسي الأول:

(.. وفي الحديث عن الجواري مثال آخر للاختلاف في التصور بيننا وبينهم[1] فقد وصم الخلفاء بأنهم كانوا يتخذون العشيقات والخليلات من الجواري ، وراحوا يتغزلون بهن شعرا ونثرا ، فمفهومنا وتصورنا لهذا الغزل ولأولئك الجواري أوقعنا في هذا الوهم حيث اعتبرنا ذلك نقيصة في الخلفاء ، ولو أننا رجعنا إلى الشرع في موضوع الجواري لعلمنا أن الجارية ملك يمين يملك سيدها حق التمتع بها وحق الاستخدام .. وليس على السيد أن يعدل بين إمائه كما يعدل بين نسائه..)

وفي المغني لابن قدامه :

(.. يمكن للرجل أن يكون له عدد كبير من الإماء أو الجواري يدخل عليهن كيف يشاء...).

ولمزيد من معرفة حال هذه النخبة من الخلفاء فتأمل هذه المواقف :

عن أنس بن مالك قال : بعث أبو جعفر المنصور إلي ابن طاوس ، فأتيناه فدخلنا عليه، فإذا به جالس على فرش قد نضدت ، وبين يديه أنطاع قد بسطت ، وجلاوزة (جمع جلواز وهو الشرطي) بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأومأ إلينا أن

[1] أى بيننا نحن المسلمون وبين المؤرخين الماديين البعيدين عن الفقه الإسلامى .

اجلسا، فجلسنا ، فأطرق عنا قليلا ثم رفع رأسه والتفت إلي ابن طاوس فقال له حدثني عن أبيك ، قال : نعم ، سمعت أبي يقول : قال : رسول الله ﷺ : " إن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه ، فأدخل عليه الجور في عدله " قال مالك : فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه ، ثم التفت إليه أبو جعفر فقال عظني . قال نعم إن الله تعالى يقول: (**ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد . الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد**)

قال مالك : فضممت ثيابي مخافة أن يملأها من دمه ، فأمسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه

ثم قال : يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة ، فأمسك عنه . ثم قال : ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه . فقال : ما يمنعك أن تناولنيها ؟ قال : أخشى أن تكتب بها معصية لله فأكون شريكك فيها . فلما سمع ذلك قال : قوما عني . فقال ابن طاوس : ذلك ما كنا نبغي ، قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاوس فضله .

- حج أمير المؤمنين هارون الرشيد إحدى حجاته ، فلما قضى اليوم الأول في منى سهر عنده وزيره الفضل بن الربيع ، حتى إذا حان وقت النوم انصرف إلي خيمته ، وبينما هو نائم بعد أن انقضى شطر من الليل سمع قرع الباب أمام خيمته فقال :

- من هذا ؟

فقيل له : أجب أمير المؤمنين .

فخرج مسرعا فوجد هارون الرشيد على الباب فقال له :

- يا أمير المؤمنين لو أرسلت لي أتيتك

فقال هارون : ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم فانظر لي رجلا اسأله عنه .

فقال الفضل : هاهنا سفيان الهلالي العالم المحدث

قال هارون : امض بنا إليه .

قال الفضل : فأتينا خيمة سفيان ، فطرقنا عليه الباب فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعا ، فلما وجد أمير المؤمنين بباب الخيمة قال :

- يا أمير المؤمنين لو أرسلت لي أتيتك .

فقال الرشيد : جد لنا ما جئنا له ، وحادثه ساعة ثم سأله : أعليك دين ؟

قال : نعم فقال الرشيد ، يا أبا العباس اقض دينه وانصرفنا فقال لي أمير المؤمنين ونحن في الطريق :

- ما أغنى عني صاحبك فانظر لي رجلا أسأله .

فقلت : هاهنا عبد الرزاق بن همام الحميري الصنعاني .

قال امض بنا إليه . فأتيناه وقرعت الباب فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعا فلما وجد نفسه بين يديه قال :

- يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك .

فقال : جد لنا ما جئنا له وحادثه ساعة ثم قال له :

- أعليك دين ؟ قال : نعم ، فقال لي الرشيد : يا أبا العباس اقض دينه ولما انصرفنا قال أمير المؤمنين ما أغنى عني صاحبك شيئا ، فانظر لي رجلا أسأله .

فقلت : هاهنا **الفضيل بن عياض التميمي** ، شيخ الحرم ومن أئمة الهدى فقال : امض بنا إليه .

فأتيناه فإذا هو قائم يصلي في خيمته يتلو آية من كتاب الله ويرددها ، فقرعت عليه

فقال : من هذا ، قلت : أجب أمير المؤمنين . قال : مـــالي ولأمـــير المؤمنـــين ؟

فقلت : سبحان الله ، أما تجب عليك طاعــــة ؟

ففتح الباب ثم أطفأ السراج والتجأ إلي زاوية في خيمته ، فجعلنـــا نجـــول عليـــه بأيدينـــا ، فسبقت كف الرشيد كفي إليه فقـــال الفضيـــل :

- أواه من كف ما ألينها إن نجت غدا مـــن عـــذاب الله .

فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلـــب تقـــي .

فقال هارون : جد لنا ما جئنا له رحمـــك الله .

فقال الفضيل : وفيم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من معـــك حملـــوا عليـــك . حـــتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصا (أي جزءا) من ذنـــب مـــا فعلـــوا ولكـــان أشـــدهم حبا لك أشدهم هربا منك . وسكت الفضيـــــل هنيهـــة ثم اســـتأنف كلامـــه في ســـكينة الظلام ورهبته وكانت ضربات قلب الرشيد تكـــاد تســـمعها أذنـــاه كأنهـــا ضربـــات الساعة فقـــال :

إن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله ورضـــي عنـــه ــ لمـــا ولي الخلافـــة دعـــا سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعـــب القرظـــي ورجـــاء بـــن حيـــوة ، فقال لهم: (إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي) فعـــد الخلافـــة بـــلاء وعددتهـــا أنـــت وأصحابك نعمة فقال له ســـالم:

- إن أردت النجاة غدا من عذاب الله ، فليكن كبير المســـلمين عنـــدك أبـــا وأوســـطهم عندك أخا وأصغرهم عندك ولدا . فبر أباك وارحم أخاك وتحنـــن علـــى ولـــدك .

وقال رجاء بن حيـــوة :

إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحـــب لنفســـك ، ثم مـــت مـــتى شئت وإني أقول هذا ، ، وأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقـــدام ، فـــهل معـــك

- رحمك الله – مثل هؤلاء القوم ومن يأمرك بمثل هذا ؟

فبكى هارون بكاء شديد ، فقلت للفضيل : ارفق بأمير المؤمنين ، فأجابني :

- يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق أنا به !؟

ولما أفاق هارون قال الفضيل : زدني .

فقال الفضيل : يا أمير المؤمنين : بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز رحمه الله شكا إليه سهرا فكتب إليه عمر يقول : (يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبد فإن ذلك يطرد بك إلي ربك نائما ويقظان ، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك) فلما قرأ العامل كتاب عمر بن عبد العزيز طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر: (ما أقدمك ؟) فأجابه : (لقد خلعت قلبي بكتابك ، لاوليت ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل) .

فبكى هارون بكاء أشد من الأول ثم قال للفضيل : زدني .

فقال : يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي ﷺ جاء إليه فقال : يا رسول الله أمرني إمارة ، فقال النبي ﷺ (يا عباس نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها ، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت ألا تكون أميرا فافعل) .

فبكى هارون أيضا ثم قال له : زدني يرحمك الله فقال :

- يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل . وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك، فإن النبي ﷺ قال : (من أصبح غاشا لرعيته لم يرح رائحة الجنة) فبكى الرشيد بكاء شديدا ثم قال للفضيل : عليك دين ؟ قال : نعم دين لربي يحاسبني عليه ، فالويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن سألني ، والويل لي إن لم يلهمني

حجتي .

قال هارون : إنما أعني دين العباد .

فقال الفضيل : ربي لم يأمرني بهذا ، وإنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره فقال هارون : هذه ألف دينار ، فخذها وأنفقها على عيالك ، وتقوى بها على عبادة ربك.

قال الفضيل :سبحان الله أنا أدلك على سبيل الرشاد ، وأنت تكافئني بمثل هذا .

سلمك الله ووفقك ورفض أن يأخذها .

قال الفضيل بن الربيع ، ثم سكت و لم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فقال الرشيد : إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا ..

- دعا أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين ، أبا عمرو الأوزاعي فلبى دعوته ، ولما سلم عليه، سأله أبو جعفر :

- ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي ؟
- وما الذي تريد يا أمير المؤمنين ؟
- أريد الأخذ منكم والاقتباس عنكم .
- فانظر يا أمير المؤمنين ولا تجهل شيئا مما أقول .
- وكيف أجهله وأنا أسألك عنه ، وقد وجهت فيه إليك ؟
- أن تسمعه ولا تعمل به .
- فصاح الربيع بالأوزاعي وأهوى بيده إلي السيف فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة .. فطابت نفس الأوزاعي وانبسط في الحديث فقال:

يا أمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن ابن بسر ، أن رسول الله ﷺ قال (أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فهي نعمة من الله سيقت إليه إن قبلها بشكر ، وإلا

كانت حجة عليه من الله ليزداد بها آثما ويزداد الله بها عليه سخطا) يا أمير المؤمنين : حدثني مكحول عن ابن بسر أن رسول الله ﷺ قال (أيما وال بات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة)

يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله لأن الله هو الحق المبين .

يا أمير المؤمنين : قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم ، أحمرهم وأسودهم ، ومسلمهم وكافرهم ، وكل له عليك نصيبه من العدل ، فكيف إذا تبعك منهم وفد وراء وفد ، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه ، أو ظلامة سقتها إليه ؟

يا أمير المؤمنين ، لقد كان النبي ﷺ بالمؤمنين رءوفا رحيما ، مواسيا بنفسه لهم في ذات يده ، وكان فيهم بالقسط قائما ، ولعوراتهم ساترا ، لم تغلق عليه دونهم أبواب، ولم يقم عليه دونهم الحجاب ، يبتهج بالنعمة عندهم ويبتئس بما أصابهم ..

يا أمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن زياد بن جارية عن حبيب ابن مسلمة أن رسول الله ﷺ دعا إلي القصاص من نفسه في خدشة خدشها أعرابيا لم يتعمدها ، فأتاه جبريل فقال : يا محمد ! إن الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا ، فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال : اقتص مني ، فقال الأعرابي : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما كنت لأفعل ذلك أبدا ولو أتيت على نفسي فدعا له الرسول ﷺ بخير .

فكيف بمن شقّق أبشار الناس ، وسفك دماءهم ، وخرب ديارهم و أجلاهم عن بلادهم ، وغيبهم الخوف منه !!؟

يا أمير المؤمنين ، رض نفسك لنفسك ، وخذ لها الأمان من ربك ، وارغب في جنة عرضها السماوات والأرض قال فيها رسول الله ﷺ : (لقاب قوس أحدكم في

الجنة خير من الدنيا وما فيها) .

يا أمير المؤمنين الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك ، وكذلك لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك .

يا أمير المؤمنين : أتدري ما جاء عن جدك في تأويل هذه الآية :

(ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) ؟ قال : الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك .. فكيف بما حدثته الألسن وعملته الأيدي ؟!

يا أمير المؤمنين ، بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالي عنه أنه قال : لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخفت أن يسألني الله عنها ...

فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ؟!

يا أمير المؤمنين ، إنك قد بليت بأمر عظيم ، لو عرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه . حدثني يزيد عن جابر عن عبد الرحمن عن أبي عمرة الأنصاري أن عمر بن الخطاب استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة ، فرآه بعد أيام مقيما ، فقال له ، ما منعك من الخروج إلي عملك ؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله ؟

قال : لا . قال عمر وكيف ذاك ؟

قال : لأنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال : (ما من وال يلي من أمور الناس شيئا ، إلا أتي به يوم القيامة فيوقف على جسر من نار فينتفض به الجسر انتفاضا يزيل كل عضو من موضعه ، ثم يعاد فيحاسب ، فإن كان محسنا نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئا انخرق به ذلك الجسر فهوي به في النار سبعين خريفا) فقال له عمر :ممن سمعت هذا قال من أبي ذر وسلمان ، فأرسل إليهما عمر ، فسألهما فقالا : نعم ، سمعنا ، من رسول الله ﷺ فقال عمر : واعمراه ، من يتولاها بما فيها ؟ فقال أبو ذر : من

أسلت الله أنفه ، وألصق خده بـــــالأرض .

فأخذ أبو جعفر المنديل ، ووضعه على وجهه فبكي وانتحب حـــتى أبكـــى الأوزاعـــي... ثم مضى الأوزاعي ودمعه ينـــــهمر :

يا أمير المؤمنين : قد سأل جدك العباس النبي ﷺ إمارة على مكـــة والطـــائف فقـــال لـــه: (يا عباس يا عم النبي ، نفس تحيها خير من إمـــــارة لا تحصيـــها) وهـــي نصيحـــة منـــه لعمه، وشفقة منه عليه ، لأنه لا يغني عنه من الله شيئا ، أوحي الله تعـــــالي إليـــه: (**وأنـــذر عشيرتك الأقربين**) فقال : يا عباس ، يا صفية عمة النبي ، إني لســـت أغـــني عنكـــم مـــن الله شيئا ألا لي عملي ولكم عملكـــــم

وقد قال عمر رضي الله عنه : لا يقيم أمر الناس إلا حصيـــــف العقـــل ، أريـــب العقـــدة ، لا يطلع منه على عورة ، ولا يحنو على حوية ، ولا تـــأخذه في الله لومـــة لائـــم .

وقال : السلطان أربعة أمراء : فأمير قوي ظلف نفسه وعمالـــــه فـــذاك المجـــاهد في ســـبيل الله، يد الله باسطة عليه الرحمة . وأمير ضعيف ظلـــــف نفســـه وأرتـــع عمالـــه فضعـــف ، فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله ، وأمير ظلف عماله وأرتـــع نفســـه فذلـــك الحطمـــة الذي قال رسول الله ﷺ فيه : (شر الرعاء الحطمة) فهو الهـــــالك وحـــده وأمـــير أرتـــع نفسه وعماله فهلكوا جميعـــا .

وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب قال : اللـــــهم إن كنـــت تعلـــم أني أبـــالي إذا قعد الخصمان بين يدي علي من كان الحق من قريب أو بعيد فـــلا تمـــهلني طرفـــة عـــين .

يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه ، وإن أكرم الكـــرم عنـــد الله التقـــوى .. إنـــه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله ، ومن طلبه بمعصيـــة الله أذلـــه الله ووضعـــه .

هذه نصيحتي والسلام عليك .. ثم نهض فقال أبو جعفـــــر : إلي أيـــن ؟ قـــال : إلي البلـــد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شـــــاء الله

قال أبو جعفـــر :

قد أذنت وشكرت لله نصيحتك ، والله الموفق للخير والمعـــين عليـــه ، فـــلا تحرمـــني مـــن مطالعتك إياي بمثلها فإنك المقبول غير المتـــهم في النصيحـــة .

- أفعل إن شاء الله .قال محمد بن مصعـــب : وأمـــر أمـــير المؤمنـــين للأوزاعـــي بمـــال يستعين به على خروجه فلم يقبله الأوزاعي وقال : أنا في غـــنى عنـــه ، ومـــا كنـــت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا كلها .. وعرف المنصور مذهـــب الأوزاعـــي فلـــم يؤلمـــه أنه رد عطـــاءه .

وبعد أيها أخي القارئ فلا شك أنه قد وقعـــت بعـــض أخطـــاء مـــن جـــانب هـــؤلاء الخلفاءولكن يجب عليك أن تقيم الأشخاص تقييما موضوعيـــا، وقـــد عـــرف علمـــاء الإسلام المسلم العدل الثقة: أنه مـــن غلبـــت حســـناته ســـيئاته ،فانتبـــه إلى ذلـــك ولا تنساق خلف من يسلطون الأضواء على السيئات ويخفـــون المحاســـن ليـــهزوا ثقتنـــا في تاريخنـــا

خلافة محمد الأمين بن هارون الرشيد من جمادى الآخرة سنة ١٩٤هـ حتى ٢٥ من محرم سنة ١٩٨هـ فتكون مدة خلافته أربع سنوات إلا أربع أشهر تقريبا وتولى الحكم وعمره ٢٣ عام

وعهده كان قاصرا على حادثة شنيعة فرقت الأمة ، وذلك ما كان بينه وبين أخيه المأمون.

وسبب هذه الأحداث أن هارون الرشيد ولى عهده أولا محمد الأمين والمأمون أسن منه، ولم يكن ما يزيد الأمين إلا أنه ابن زبيدة (زوجة الرشيد عالية النسب و الحبيبة إلى قلبه).

أراد الرشيد بعد ذلك معالجة هذه الغلطة ففعل ما يزيدها شرا بتولية المأمون العهد بعد الأمين ، ولم يقتصر على مجرد تولية العهد بل أعطاه من الامتيازات ما يجعله مستقلا تمام الاستقلال بمنطقة خراسان والري عن أخيه الأمين.. فأصبح لكل من الأمين والمأمون جيشا يتصرف فيه ..

ولم يقتصر الرشيد على ذلك بل أعطى أخا لهم ثالثا امتيازات أخرى وهي الجزيرة وأرمينية فأحس الأمين كأنه مقصوص الجناحين منزوعا من سلطان أعظم بقاع الإسلام وأكثرها أعوانا وجندا ..

وزاد الأمر اشتعالا وجود الفضل بن الربيع الذي جرأ الرشيد على إفساد ملكه وقتل البرامكة ... فكان في فئة الأمين وهو الذي أغراه بأخيه المأمون ولم يكن الأمين ينوي

قتاله إنما فعل الفضل ذلك خوفا علـــى مصالحـــه ...

لقد وصل الخلاف بين الأخوين إلى الاقتتال ، والحقيقـــة لم يكـــن للأمـــين حســـن تدبـــير بل كان مشغولا باللهو والعبث وكان عنده ثقة أنه سيقهر أخـــاه ، بينمـــا كـــان المـــأمون مشغولا بتدبير أمره يجمع إلى مجلسه العلماء والفقـــهاء ويجلـــس معـــهم ، حـــتى أشـــربت قلوبهم محبتـــه .

وباختصار فقد انتهى الأمر بمقتل الأمين علـــى يـــد أحـــد قـــواد المـــأمون وبـــايع النـــاس المـــأمون.

خلافة المأمون بن هارون الرشيد

٢٥من محرم سنة ١٩٨ هـ حتى١٩ من رجب سنة ٢١٨ هـ

فتكون مدة خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام

تولى الخلافة وعمره ٢٨ سنة

لقد تم الأمر للمأمون بالعراق على يد قائدين مخلصين عظيمـــين همـــا :-

طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعـــين .

وكان الذي يدبر الأمر مع المأمون بمرو **الفضل بن ســـهل** والـــذي يـــرى لنفســـه الفضـــل الأكبر في تأسيس دولة المأمون فأراد أن يستفيد من هذه الدولـــة فيســـتأثر بنفـــوذ الكلمـــة فيها وليس يتم له ذلك والعراق بين يدي طاهر وهرثمة، فاحتال حـــتى عـــزل طـــاهر علـــى لسان المأمون عن العراق وما حولها وتعيـــين الحســـن بـــن ســـهل فاســـتجاب طـــاهر ، واستصدر أمرا إلى هرثمة بالحضور إلى خراســـان فاســـتجاب.

استمر المأمون في خراسان إلى منتصف ولايته كما سنرى حـــتى ســـنة ٢٠٤ هـــ ثم قـــدم

بغداد بعد ذلك .

شاع بالعراق بعد خروج طاهر أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وأنزله قصرا حجبه فيه وأنه يبرم الأمور على هواه فغضب لذلك أهل العراق واستخفوا بالحسن بن سهل وهاجت الفتنة في الأمصار ، ولم يجد الحسن بن سهل حوله أحدا ينصره فأرسل إلى هرثمة بن أعين – الذي كان قد توجه إلى خراسان – يستنجد به فاستجاب هرثمة فقدم بغداد سنة ١٩٩ في شعبان واستطاع بعد عدة معارك أن يعيد الأمر إلى ما كان عليه في محرم سنة ٢٠٠ هـ.

كانت أغلب الفتنة التي حدثت بسبب العلويين .

فخرج بالكوفة **محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي**.وفي مكة كان **حسين بن حسن بن علي بن الحسين بن علي** يشيع العذاب في كل من له علاقة ببني العباس حتى اتخذ دارا سماها دار العذاب يعذب فيها الناس ، فلما علم أن هرثمة قضى على العلويين بالعراق والكوفة اجتمع حسين وصحبه إلى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخا ورعا محببا في الناس مفارقا لما عليه أكثر أهل بيته من قبح السيرة فأرادوا أن يبايعوه بالخلافة فأجاب بعد تردد وحشر إليه الناس فبايعوه طوعا وكرها وسموه أمير المؤمنين ... فأقام على ذلك أشهرا وليس له من الأمر إلا اسمه وابنه علي وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلا في الناس حتى تعدوا الأموال إلى الأعراض.

فلما جاء بعث هرثمة استطاع أن يهزمهم وطلب محمد بن جعفر الأمان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاءوا فأجيبوا وأمهلوا ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت جنود هرثمة مكة وذهب كل فريق من العلويين في ناحية .

لما فرغ هرثمة من تلك المهمة أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال

وما ينكره الناس عليه واستبداد الفضل بن سهل على أمره...ولكن الفضل كاد لهرثمة القائد المخلص فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد وكان المأمون قد كتب إلى هرثمة وهو في الطريق إليه أن يرجع ويلي الشام والحجاز فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ... فلما اقترب من مرو خشي هرثمة أن يكتم عن المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كي يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا :

هرثمة جاء يرعد ويبرق ، ولم يكن هرثمة يعلم أن المأمون قد تغير من ناحيته فلما دخل على المأمون لم يسمع منه كلمة وأمر به فوجئ عنقه وديس بطنه وأخذوه إلى الحبس ثم دسوا إليه فقتلوه وقالوا إنه مات.

لما بلغ أهل بغداد ما صنع بهرثمة هاج الجند بها وثاروا على الحسن بن سهل واستخفوا بأمر المأمون واختاروا **منصور بن المهدي** أميرا عليهم ولأن بغداد كانت خالية من جيش قوي يأخذ على أيدي المفسدين فانتشر الفساد الشديد على يد فساق الجند والشطار وأظهروا الفسق وقطعوا الطريق وأخذوا النساء والغلمان علانية وأخذوا يفرضون الإتاوات قهرا .. ولا أحد يمنعهم !

رأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم فقام صلحاء كل منطقة فمشى بعضهم إلى بعض واتفقوا على قمع هؤلاء الفساق فقام رجل اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محلته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابوه إلى ذلك وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم ، وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم إلى السلطان وكان لا يرى من حقه الاعتداء على السلطان.

وقام آخر اسمه سلامة بن سلامة الأنصاري ففعل مثله ..

كل ذلك والمأمون في مرو لا يصل إليه شئ من أخبار بغداد بفعل الفضل بن سهل .

ومن عجيب ما فعله المأمون في تلك الآونة أنه اختار لولاية عـــهده واحـــدا مـــن آل بيـــت علي هو علي بن موسى بن جعفر الصادق وسمـــاه الرضـــا مـــن آل محمـــد وأمـــر الجنـــد بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة كشـــعار جديـــد للدولـــة..

ويبدو أن ذلك من تدبير الفضل بن سهل (فارســـي الأصـــل) لأن الفـــرس يعجبـــهم أن يكون إمام المسلمين علويا .. وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفســـه مـــن تفضيـــل علي على غيره من الخلفاء الراشدين وأنه كان أحـــق بالخلافـــة منـــهم .... وهـــي فكـــرة اختمرت في رأسه نتيجة نشأته فقد كـــان في أول أمـــره في حجـــر جعفـــر الـــبرمكي[1] ثم انتقل إلى الفضل بن سهل وكلهم ممن تشـــيع.

لم يرض ذلك آل العباس ببغداد فاتفقوا علـــى مبايعـــة **إبراهيـــم المـــهدي** عـــم المـــأمون بالخلافة وذلك سنة ٢٠٢ هـــــ .

وأخيرا وصلت الأخبار على حقيقتها إلى المأمون ويقال إن الـــذي أبلغـــه بهـــا ولي عـــهده علي الرضا فإنه أخبره بما فيه الناس من الفتنة منذ قتل أخوه أن الفضـــل بـــن ســـهل يستـــر عنه الأخبار وما كادوه من قتل هرثمة وغـــيره..

لما تحقق المأمون أن الفضل قد كذبه وغشه أمر بـــالرحيل إلى بغـــداد وقتـــل الفضـــل بـــن سهل في الطريق..ثم قتل علي الرضا !!ولما وصل المأمون إلى النـــهروان خـــرج إليـــه أهـــل بيته والقواد فسلموا عليه ووافاه طاهر بن الحسين القـــائد المعـــزول .

وفي صفر سنة ٢٠٤ هـــ دخل المأمون مدينة بغداد وقـــد فـــر عمـــه واختبـــأ .. خوفـــا منه ولكنه عفا عنـــه..

ونستطيع القول أن الملك الحقيقي للمأمون بدأ منـــذ عودتـــه إلى بغـــداد ... فقـــد تجلـــت

---

[1] الذى قتل في عهد الرشيد وهى قرينة أخرى تدل على تشيعه فـــهو الـــذي ربى المـــأمون .

ونستطيع القول أن الملك الحقيقي للمأمون بدأ منذ عودته إلى بغداد ... فقد تجلت مزاياه العالية وأخلاقه وساس الناس سياسة لين لا يشوبه ضعف وقوة لا يشوبها عنف وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التي كانت لها في عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية كما سنرى أن شاء الله.

عيّن المأمون وزيراً جديداً له هو أحمد بن أبي خالد وأصله شامي فكان من خيار الوزراء وأخلصهم للمأمون..

فائدة :حادثة بين الخليفة ووزيره فيها درس في اختيار الوزراء وفيما ينبغي أن يكونوا عليه

ذكر المأمون يوماً عمرو بن مسعدة فاستبطأه وقال : يظن أني لا أعرف أخباره وما يجب إليه وما يعامل به الناس .

وكان أحمد حاضراً هذا المجلس فذهب إلى عمرو وأخبره بما قاله عنه الخليفة.

فأسرع عمرو إلى المأمون فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين أنا أقلّ من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد أو يُسِرَّ لي ضغناً يبعثه بعض الكلام على ظهاره ما يظهر منه.

فقال المأمون : وما ذاك ؟

فأخبره عمرو بما بلغه و لم يُسَمِّ له المخبر .

فقال له المأمون : ليس لك عندي إلا ما تحب فليفرج روعك وليحسن ظنك .. وظهر في وجه المأمون الحياء والخجل .

فلما غدا أحمد (الوزير) على المأمون قال له : أما لمجلسي حرمة .(و لم يكن المأمون يظن أن وزيره أحمد هو الذي بلّغ عمراً)،فقال أحمد : نعم .

فأخبره المأمون أن بعض من حضر من بني هاشم هو الذي أفشى ما قاله .

فقال أحمد : أنا يا أمير المؤمنين الذي أخبرت عمرا وليس أحدا من بني هاشم ، والذي حملني على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة ، و أن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك، أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبعداء فكيف الأولياء والأقرباء لا سيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ، فلما سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئا ، أخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه .. وإنما يكون ما فعلت مذموما لو أشعت سرا فيه قدح في السلطان أو نقص تدبير قد استتب ..

فنظر إليه المأمون مليا وقال : كيف قلت ، فأعاد عليه ما قال ، ثم قال أعد فأعاد فقال المأمون : أحسنت لما أخبرتني به أحب إلي من ألف ألف وألف ألف وألف ألف وعقده خنصره وبنصره والوسطى وقال : أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن وأطلق وسطاه وأما ألف ألف فلصدقك إياي من نفسك وأطلق البنصر ، وأما ألف ألف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر.ومات أحمد بن أبي خالد سنة ٢١١ هـ.

وكان من بعده أحمد بن يوسف وكان مخلصا ولكن كان هناك من يحسده فلم يزل يكيد له حتى أقصاه المأمون ..

ثم استوزر المأمون بعده القاضي **يحي بن أكثم** كان من جلة الغلماء الفقهاء وكان قد تولى قضاء البصرة وسنة عشرون سنة ... ثم عزله المأمون سنة ٢١٥ هـ .

فائدة :

أراد المأمون أن يعلن يوما حل زواج المتعة وهي شئ نهى عنه عمر بن الخطاب فدخل عليه يحي وهو متغير فسأله المأمون عن سبب تغيره فقال : غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام من نداء بتحليل الزنا .

قال : الزنا .

قال : نعم ، المتعة زنـــا .

قال : من أيـــن ؟

قال : من كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ ، قــــال تعـــالى :

(والذين هـــم لفروجــهم حـــافظون إلا علـــى أزواجـــهم أو مـــا ملكـت أيمانهم فإنــــهم غـــير ملوميـــن فمـــن ابتغـــى وراء ذلـــك فـــأولئك هـــم العـــادون)

يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمــــين ؟

قـــال : لا .

قال : فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولـــد لهـــا شـــرائطها ؟

قـــال : لا

قال : فقد صار من يتجاوز هذين من العادين ، وهـــذا الزهـــري يـــا أمـــير المؤمنـــين روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما علي بـــن أبي طـــالب " قـــال : أمـــرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قـــد أمـــر بهـــا "

فسأل المأمون عن حديث الزهري أهو محفوظ فعلــــم أنـــه رواه مـــالك فقـــال المـــأمون : أستغفر الله وأمر فنودي بتحريم المتعـــة.[1]

ثم كان من بعد يحي بن أكثم وزراء ولكـــن في الحقيقـــة أنـــه بعـــد تجربـــة الرشـــيد مـــع البرامكة وتجربة المأمون الأولى من الاعتمـــاد علـــى الـــوزراء لم يعـــط المـــأمون لوزرائـــه صلاحيات كبيرة بل كان يتابع الأمور بنفسه كما كان يدقـــق في اختيـــار وزرائـــه .

[1] انظر رحمك الله إلى خلفاء المسلمين وما كانوا عليه من العلم والعـــودة إلى الحـــق حينمـــا يتبـــين لهـــم بالدليل الناصع وحرصهم على أمور الدين .. وانظر كذلـــك إلى ذكـــاء هـــذا الوزيـــر العـــالم كيـــف سلك سلكا لطيفا في النصح والإرشـــاد .

وفى سنة ٢٢١ هـ ظهرت فرقة باطنية اسمها الخرمية. (نسبة إلى قرية بفارس اسمها خرمة منها زعيمهم بابك الخرمى) يدينون بما يريدون ويشتهون وإنما لقبوا بذلك لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر الملذات ونكاح ذوات المحارم وداعيها **بابك الخرمي** كان يخيف السبل ويعيث في الأرض فسادا قضى على فرقته سنة ٢٣٠ هـ في عهد المعتصم ..

الاهتمام بالعلم في زمن المأمون

نشأ علم الكلام في زمنه وترعرع ، وعلم الكلام علم يبحث في أصول الدين والعقائد ويعتمد على العقل .

وظهرت المعتزلة وشيخهم إبراهيم بن سيار (النظام)[1].

ونتيجة لذلك ظهر خلاف بين أهل السنة والجماعة الذين يعتمدون في علوم العقائد على النقل وبين المعتزلة الذين يقدمون العقل على النقل ومنها المسألة المشهورة هل القرآن كلام الله القديم أم هو مخلوق ؟

وهي مسألة على بساطتها ولكنها سبب في ابتلاء كثير من العلماء على يد المأمون ومن بعده على يد المعتصم لاعتناقهما المذهب الذي يقول إن القرآن مخلوق خلافا لأهل السنة والجماعة ..

كان أصحاب المذاهب المخالفة لما عليه عامة الناس لا يستطيعون أن يظهروا أراءهم خوفا من العامة فلما جاء المأمون أفسح المجال للمتخالفين أن يتناظروا فكان يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث ويجعل لهم مجالس مناظرة وكان يهدف إلى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأي فيما يعرض لهم من المسائل ليحمل

[1] انظر فصل الفرق والجماعات .

الجمهور على ذلك الرأي وتتفق كلمة الأمة خاصة فيما يتعلـــق بمبـــاحث أصـــول الديـــن ومباحث الإمامـــة

ويروى أنه تناظر في حضرته اثنان من أهل التشيع أحدهمـــا مـــن الإماميـــة والآخـــر مـــن الزيدية وجرى الكلام بينهما إلى أن قال أحدهما للأخر : يا نبطي مـــا أنـــت والكـــلام .
فقال المأمون : الشتم عمى والبذاءة لؤم ، إنا قد أبحنا الكـــلام وأظـــهرنا المقـــالات ، فمـــن قال بالحق حمدناه ، ومن جهل ذلك وقفنـــاه ، فـــاجعلا بينكمـــا أصـــلا ، فـــان الكـــلام فروع فإذا أفترعتم شيئا رجعتم إلى الأصـــــول ..
وهذه القصة توضح لنا أن المأمون أباح المناظرات بحريـــة مطلقـــه فـــهذان الرجـــلان مـــن أهل التشيع كلاهما على مذهب أن صـــح أحدهمـــا فـــهو كفيـــل أن يذهـــب بملـــك آل العباس[1] ومع ذلك ترك حرية القول لهـــم.

إيجابيات وسلبيات هذه الحرية في الحوار والتناظر بين العلماء بشتى مذهبهم.

١) كان من إيجابيتها ثراء العلوم الدينية من خلال الحـــوار والمنـــاظرة خاصـــة في الجـــانب الفقهي الذي يتعلق بالأحكام العملية فكانت ثـــروة للأمـــة...
٢) نشوء علم الكلام في حد ذاته لإثبات العقائد بالعقل والمنطـــق كـــان مناســـبا لمخاطبـــة الداخلين في الإسلام مـــن الفـــرس الذيـــن يتحـــاجون بهـــذه الطـــرق فمخاطبتـــهم بطريقتهم شئ مؤثر لاشك في ذلـــك.
٣) ولكن اعتماد العقل وحده في إثبات العقائد يـــؤدي إلى انحـــراف لأن العقـــل محـــدود والعقائد تتعرض للغيبيات والحجة فيها للنـــص الصحيـــح مـــن القـــرآن أو الســـنة ..

[1] انظر فصل الفـــرق .

فحدث انحراف في مسائل كثيرة تمذهب بها فرق وأدت إلى تفرق بعض أجزاء الأمة.

٤) من هذه المسائل القول بخلق القرآن ومن طول المناظرات اقتنع المأمون تماما بالقول بخلق القرآن مخالفا بذلك جمهور علماء أهل السنة والجماعة وكان يظن أنه حين يظهر رأيه للعلماء أنهم سيجيبونه إلى رضاهم بمذهبه ولكن النتيجة كانت عكس ذلك فتكلموا فيه واتهموه بالابتداع وغلا بعضهم في ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن وكان ذلك سنة ٢١٢ هـ.

ومازال الخلاف يتسع حتى كانت سنة ٢١٨ هـ فرأى المأمون أن يستعين بسلطانه في إلزام الفقهاء برأيه وهو غير محق في ذلك وكان في هذه السنة غازيا في بلاد الروم فبعث إلى عامله في بغداد إسحاق بن إبراهيم أن يجمع الفقهاء ويمتحنهم في أراءهم في هذه المسألة فجمع إسحاق نحو ثلاثين رجلا من العلماء فكان مما دار بينه وبينهم :

قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟

قال : أقول القرآن كلام الله.

قال : أسألك عن هذا أمخلوق هو ؟

قال : الله خالق كل شيء.

قال : أما القرآن شيء؟

قال : هو شيء.

قال : فمخلوق هو ؟

قال : ليس بخالق.

قال : ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو ؟

قال : ما أحسن غير ما قلت لك وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندي غير ما قلت.

فبعث إسحاق بإجابات العلماء عالماً عالماً فاغتاظ المأمون منها فأمره أن يأخذهم بالتهديد ففعل إسحاق فأجابوه جميعاً أن القرآن مخلوق إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح

يروى ابن كثير :

{ولما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل قال له إسحاق : أتقول إن القرآن مخلوق؟ فقال : القرآن كلام الله لا أزيد على هذا } إلى أن قال:{ وكان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرهاً لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه ، وإن كان له رزق من بيت المال قُطع ، وإن كان شيخ حديث روع عن الإسماع والأداء ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء وداهية دهياء فلا حول ولا قوة إلا بالله}

فوجه بهما إسحاق إلى طرسوس حيث يغزو المأمون الروم .

وإن من مفاخر التاريخ أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون في مسألة خلق القرآن أهمل المحدثون أمرهم وأنزلوا رتبهم وعدّوا ذلك عيباً من عيوبهم لأن العالم الذي لا يتحمل الأذى أو الجود بالنفس في سبيل اعتقاده لا يُعَدُّ عالماً .. ومن ثم رأينا الذين ثبتوا في المحنة مثل الإمام أحمد بن حنبل نالوا من التكريم والعناية والفضل ما لا مزيد عليه وزادته المحنة تشريفاً وذكراً في التاريخ.

٥) كان للمأمون وجه نظر تبدو صائبة[1] في تعليله محاولة توحيد القوم على رأي واحد

---

[1] والحقيقة أنها ليست صائبة لأن توحيد الآراء في الأمور الفرعية وفيما يحتمل وجوهاً عدة هو ضرب من المستحيل وهو مخالف لسنن الله وقد كان أكابر العلماء لا يمتعضون من الخلاف في الفروع ولا يرون حمل الأمة على رأى واحد بل كانوا يقولون : من لم يعرف الخلاف لم يشم=

فيما اختلف فيه من المسائل وقد كبر الخلاف في مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلا ولكنه كان يقول (إن أصغر المسائل متى كان أساسا لنحلة أو سببا لرياسة فان الخلاف يعظم بسببه أما أعضل الأمور فان الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلا إذا لم يكن أساسا لنحلة أو سببا لرياسة) .

كان يمكن للمأمون أن يكون من خيار الخلفاء لولا هذه السقطة وقوله بأفضلية على ابن أبي طالب على سائر الخلفاء الراشدين قال عنه ابن كثير بعد ذكر فضله وحسن سيرته (... وقد كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة)

خلافة المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي
١٩من رجب سنة ٢١٨ حتى ربيع الأول سنة ٢٢٧
فكانت مدة خلافته ثماني سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيام
تولى الخلافة وعمره تسعة وثلاثون عاما

تمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم فعاد بالجند إلى بغداد .

كان المعتصم ذا شجاعة وقوة وهمة يحب الشجعان ، قوته خارقة هائلة يحمل أرطالا تعجز عنها الرجال ويمشي خطوات ، ويثني الحديد مرات بعد عجز الأبطال عنه .

يقول وزيره أحمد بن أبي داؤد : كان المعتصم يخرج ساعده إلى ويقول : يا أبا عبد الله عض ساعدي بأكثر قوتك ، فأقول : والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك، فيقول : إنه لا يضرني ، فأروم ذلك ، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلا عن الأسنان

=رائحة الفقه أي من لم يعرف الآراء المتعددة في المسألة ووجهة نظر أصحابها لم يكن واسع الأفق أو الفقه .

وكان مع ذلك شفوقا غير أنه إذا غضب لا يبالي من قتل .
وكان يقول عن نفسه : قد علمت أني دون اخوتي في الأدب ، لحب أمير المؤمنين لي ، وميلي إلى اللعب وأنا حدث ، فلم أنل ما نالوا . وسبب ذلك أنه كان مع المعتصم غلام في الكتاب يتعلم معه ، فمات الغلام ، فقال له الرشيد : يا محمد مات غلامك
فقال : نعم يا سيدي واستراح من الكتاب
قال الرشيد : وإن الكتاب ليبلغ منك هذا المبلغ ؟! دعوه حيث انتهى لا تعلموه شيئا
ولذلك ورد أنه (كان يكتب كتابة ضعيفة ويقرأ قراءة ضعيفة) .
وكانت وصية المأمون للمعتصم :

احمل الناس على القول بخلق القرآن ، والخرمية فاغزهم بقوة وحزم وجلد ، واحشد لهم الأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة ، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه ، راجيا ثواب الله عليه .

لذلك انصبت جهود المعتصم وأموال الخلافة على القضاء على **حركة بابك** .
كان بابك من أبطال زمانه وشجعانهم ، عاث في البلاد وأفسد وأخاف الإسلام وأهله وغلب على أذربيجان وغيرها وأراد أن يقيم ملة المجوس ، وادعى الألوهية وأراد تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس ، فأثار ومن تبعه حربا شعواء على الإسلام والعرب .
فأرسل المعتصم **الأفشين** أعظم قواده حينئذ لمقاتلة بابك والقضاء عليه .. بيد أن الأمر

قد طال رغم أن المعتصم أنفق على هذه الحرب الكثير وأقام المعتصم البريد على مسافات قريبة ليأتيه خبر المعركة كل يوم وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة ٢٥٠٠٠٠ إنسان . وكانت نهايته في هذه المعركة .

كان بابك قد كتب إلى حليفه تيوفيل ملك الروم عندما ضيق عليه الأفشين يستنصره ويقول له إن الفرصة مهيأة للانتصار على المسلمين .. تأخر ملك الروم في التحرك فلم يتحرك إلا بعد ما قتل بابك .. فتحرك ملك الروم سنة ٢٢٣ هـ وانقض على مدينة زبطرة وأعمل فيها السيف ، وقتل الصغير والكبير وسبى النساء بعد ذبح أطفالهن .

وفي ابن خلدون : **وبلغ الخبر إلى المعتصم فاستعظمه ، وبلغه أن هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم : وامعتصماه ، فأجاب وهو على سريره : لبيك لبيك ، ونادى بالنفير العام ونهض من ساعته .**

وعندما سار المعتصم باتجاه الثغور لتأديب تيوفيل تساءل قائلا : أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل : عمورية ، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام ، وهي أصل النصرانية وهي أشرف من القسطنطينية فسار باتجاهها بجهاز عظيم من السلاح والعدد وآلات الحصار والنفط و دارت المعركة بقيادة المعتصم وبعد حصار ٥٥ يوما من سادس رمضان إلى أواخر شوال سنة ٢٢٣ هـ . ودك عمورية واستنقذ المرأة الهاشمية .

وأنشد بعدها أبو تمام قصيدته المشهورة في وصف المعركة وملابساتها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

وكان عدد جيش المسلمين ١٥ ألف فارس وجيش الروم ٢٠٠٠٠٠

خريطة رقم ١٤: توضح حملة المعتصم على عمورية في رمضان سنة ٢٢٣ هـ

فائدة :

لما جاء المعتصم ورأى أن من ببغداد من جنود لا يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء ورأى للأتراك من شدة البأس والنجدة فأراد أن يكون منهم جيشاً . فاستكثر من غلمان الأتراك وأحضر منهم عدداً عظيماً فوق ما كان منهم في عهد المأمون وأسكنهم بغداد وكان هؤلاء القوم عُجماً جفاة يركبون الدواب فيركضون في طرقات بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيقف لهم الجند من العرب ويجرحونهم .. حتى اشتكى الأتراك إلى المعتصم وتأذت العامة .. فاختط لهم مدينة تكون لهم معسكراً سماها (سر من رأى) سامراء حالياً سكنها المعتصم مع العسكر ..وهي منطقة متميزة من بغداد ..

وكان من قواده الذين يعتمد عليهم :

الأفشين حيدر بن كاوس وهو تركي من أشروسنة ومنهم إيتاخ وأشناس وعجيف بن عنبسة ووصيف وبغا الكبير أبو موسى وغيرهم . كل هؤلاء القواد من الأتراك اختارهم المعتصم لشجاعتهم وسلّمهم زمام ملك آبائه العرب وأزال العرب عن قيادة الجيوش وأسقط أسماءهم من الدواوين واعتز بهؤلاء المجلوبين فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف قلوبهم يتصرفون فيهم كما يشاءون ولم يكن لهم أنساب معروفة. حتى قال المؤرخون :

(إن المعتصم وحده يتحمل تبعة أكثر ما حل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالأمة العربية من غلبة هؤلاء على الأمر . لم يكن الرجل بعيد النظر في العواقب وإنما كان شجاعاً جسوراً يحب الشجعان ويعتز بهم مهما كان شأنهم سواء كانت لهم أحساب يحموها أم ليست لهم أحساب وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقاؤها أم لا ؟)

يروى أن أهل بغداد اشتكوا إلى المعتصم إساءة غلمان الأتراك وقالوا له : تحول عنا وإلا قاتلناك

قال : وكيف تقاتلوني وفي عسكري ثمانون ألف دارع !

قالوا : نقاتلك بسهام الليل ، وسهام الأسحار ،

فقال : لا طاقة لي بذلك .

المعتصم ومحنة الإمام أحمد بن حنبل :

ينقل لنا ابن الإمام أحمد على لسان أبيه ما ابتلى به في عهد المعتصم فيقول :

(لما أحضرني المعتصم من السجن زاد في قيودي فلم أستطع أن أمشي بها فربطها في التكة وحملتها بيدي ، ثم جاءوني بدابة فحملت عليها فكدت أسقط على وجهي من ثقل القيود وليس معي أحد يمسكني ، فسلم الله حتى جئنا المعتصم ، فأدخلت في بيت وأغلق على وليس عندي سراج ، فأردت الوضوء فمددت يدي فإذا إناء فيه ماء فتوضأت منه ، ثم قمت ولا أعرف القبلة ، فلما أصبحت إذا أنا على القبلة والحمد لله .

ثم دعيت فأدخلت على المعتصم ، فلما نظر إلي وعنده وزيره أبو داؤد قال : أليس قد زعمتم أنه حدث السن وهذا شيخ كهل ؟ فلما دنوت منه وسلمت قال لي : ادنه ، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال : اجلس ، فجلست وقد أثقلني الحديد ، فمكثت ساعة ثم قلت : يا أمير المؤمنين إلام دعا ابن عمك رسول الله ﷺ ؟

قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله

قلت : فإني أشهد أن لا إله إلا الله .

ثم تكلم ابن أبي داؤد بكلام لم أفهمه ، وذلك أني لم أتفقـــه كلامـــه ثم قـــال المعتصـــم : لولا أنك كنت في يد من كان قبلي لم أتعرض إليـــك ، ثم قـــال : يـــا عبـــد الرحمـــن ألم آمرك أن ترفع المحنـــة؟

فقلت : الله أكبر ، هذا فرج للمســـلمين .

ثم قال : ناظره يا عبد الرحمن ، كلمـــه .

فقال لي عبد الرحمن : ما تقول في القرآن ؟ فلـــم أجبـــه ،

فقال المعتصم : أجبه . فقلت : ما تقول في العلـــم ؟ فســـكت .

فقلت : القرآن من علم الله ، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفـــر بـــالله ، فســـكت .

فقالوا فيما بينهم : يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا ، فلـــم يلتفـــت إلى ذلـــك .

فقال عبد الرحمن : كان الله ولا قـــرآن .

فقلت : كان الله ولا علم ؟ فســـكت .

فجعلوا يتكلمون من ههنا وههنا فقلت : يا أمير المؤمنين أعطـــوني شـــيئا مـــن كتـــاب الله وسنة رسوله حتى أقول بـــه .

فقال ابن أبي داؤد : وأنت لا تقول إلا بهـــذا وهـــذا ؟

فقلت : وهل يقوم الإسلام إلا بهما ؟وجرت منـــاظرات طويلـــة .

حتى قال ابن ابي داؤد : هو والله يا أمير المؤمنين ضـــال مضـــل مبتـــدع وهنـــا قضـــاتك والفقهاء فســـلهم .

فقال لهم : ما تقولون ؟ فأجابوا بمثل مـــا قـــال ابـــن أبي داؤد ، ثم أحضـــروني في اليـــوم الثاني وناظروني أيضا في اليوم الثالث وفي ذلك كله يعلو صـــوتي عليـــهم وتغلـــب حجـــتي حججـــهم .

فإذا سكتوا فتح الكلام عليهم ابن أبي داؤد وكان من أجهلـــهم بـــالعلم والكـــلام ، وقـــد

تنوعت بهم المسائل في المجادلة ولا علم لهم بالنقل ، فجعلوا ينكرون الآثار ويردون الاحتجاج بها ، وسمعت منهم مقالات لم أكن أظن أن أحدا يقولها ، وقد تكلم معي ابن غوث بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه ، فقلت : لا أدري ما تقول، إلا أني أعلم أن الله أحد صمد ، ليس كمثله شيء ، فسكت عني .

وقد أوردت لهم حديث الرؤية في الدار الآخرة فحاولوا أن يضعفوا إسناده ويلفقوا عن بعض المحدثين كلاما يتسلقون به إلى الطعن فيه ، وهيهات ، وأني لهم التناوش من مكان بعيد ؟

وفي أثناء ذلك كله يتلطف بي الخليفة ويقول :

يا أحمد أجبني إلى ذلك حتى أجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي .

فأقول : يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله ﷺ حتى أصيبهم إليها . فلما أعيتهم الحجج قال إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد :

يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين ، فعند ذلك حمى المعتصم واشتد غضبه فقال لي : لعنك الله ، طمعت فيك أن تجيبني فلم تجيبني .

ثم قال : خذوه واخلعوه واسحبوه ..

فأخذت وسحبت وخلعت وجئ بالعاقبين والسياط وأنا أنظر ، وكان معي شعرات من شعر النبي ﷺ مصرورة في ثوبي ، فجردوني منه وصرت بين العقابين ، فقلت : يا أمير المؤمنين أذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يديك ، فكأنه أمسك .

ثم لم يزالوا يقولون له : يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر ، فأمر بي فقمت بين العقابين وجيء بكرسي فأقمت عليه وأمرني بعضهم أن آخذ بيدي بأي الخشبتين فلم أفهم ، فتخلعت يداي وجيء بالضرابين ومعهم السياط فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول له المعتصم : شد قطع الله يديك ، ويجيء بالآخر فيضربني سوطين ثم

الآخر كذلك ، فضربوني أسواطا فأغمى علـــي وذهـــب عقلـــي مـــرارا ، فـــإذا ســـكن الضرب يعود علي عقلي ، وقام المعتصم يدعوني إلى قولهم فلم أجبـــه وجعلـــوا يقولـــون : ويحك ! الخليفة على رأسك ، فلم أقبـــل وأعـــادوا الضـــرب ثم عـــاد إلى فلـــم أجبـــه ، فأعادوا الضرب ثم جاء إلي الثالثة ، فدعاني فلم أعقل مـــا قالـــه مـــن شـــدة الضـــرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس بالضرب ، وأرعبـــه ذلـــك مـــن أمـــري وأمـــر بي فأطلقت و لم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيـــت ، وقـــد أطلقـــت الأقيـــاد مـــن رجلـــي ، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضـــان في ســـنة ٢٢١ هـــ وكـــان ثم أمـــر الخليفة بإطلاقي إلى أهلـــي .)

وكان جملة ما ضرب نيفا وثلاثين سوطا وقيل ثمانين سوطا ، لكـــن كـــان ضربـــا مبرحـــا شـــديدا.

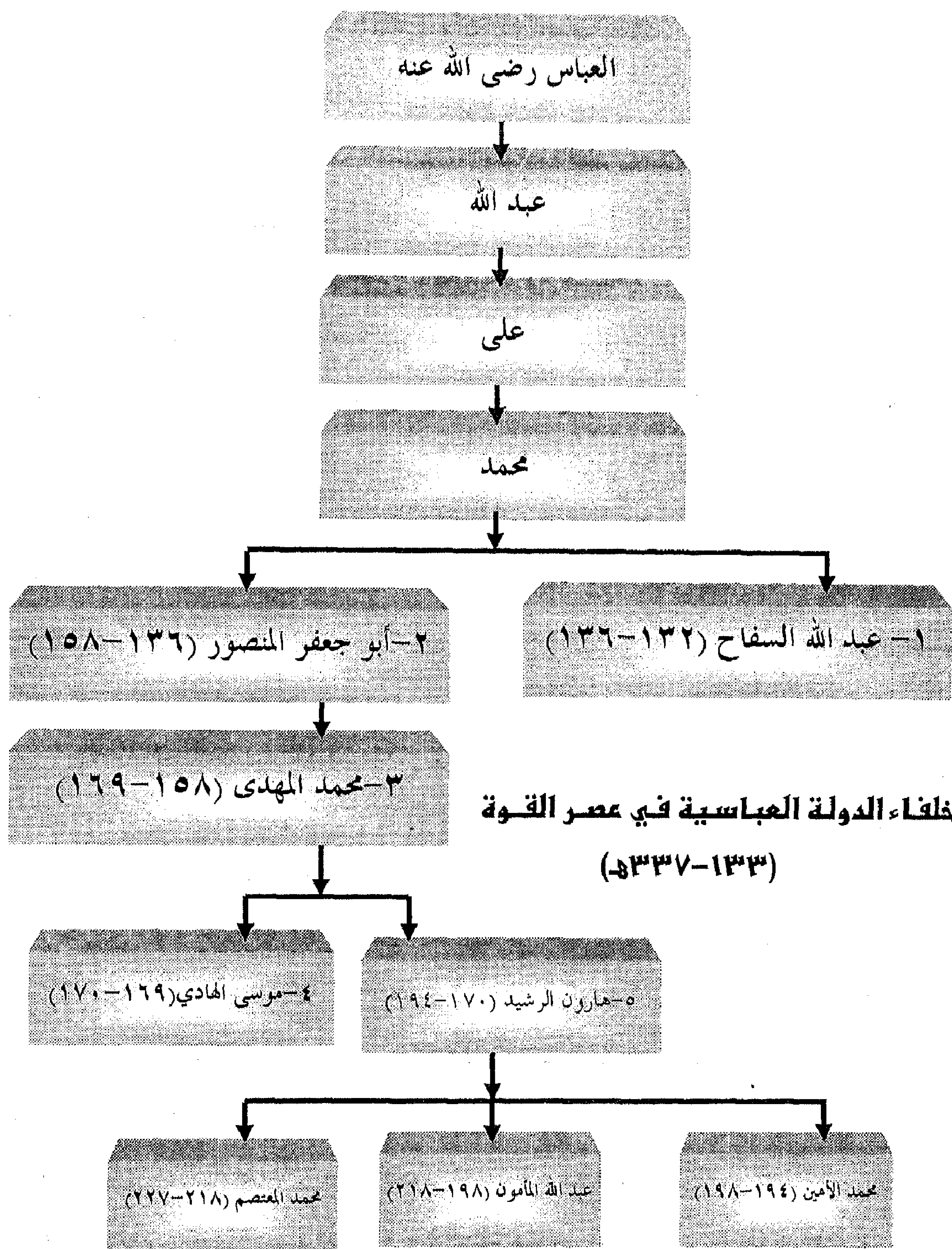
ولما حمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهـــو صـــائم أتـــوه بســـويق ليفطـــر فامتنع من ذلك وأتم صومـــه .

ويروى أنه لما أقيم ليضرب انقطعت تكة سراويله فخشي أن يســـقط ســـراويله فتتكشـــف عورته فدعا الله : يا غياث المستغيثين يا إله العالمين ، إن كنت تعلـــم أني قـــائم لـــك بحـــق فلا تهتك لي عورة فعاد سراويله كما كـــان .

ولما رجع إلى منزله جاءه الجرايحي فقطع لحما ميتا من جســـده وجعـــل يداويـــه والنـــائب في كل وقت يسأل عنه ، وذلك أن المعتصم ندم علـــى مـــا كـــان منـــه إلى أحمـــد ندمـــا كثيرا.. فلما عوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك . ولما شفاه الله تعـــالى جعـــل كـــل مـــن آذاه في حل إلا أهل البدعـــة ،

وكان يقول :(ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المســـلم بســـببك ؟)

ثم توفي المعتصم ١٨من ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـــ و ولي عـــهده ابنـــه هـــارون.


العباس رضى الله عنه
عبد الله
على
محمد
١- عبد الله السفاح (١٣٢-١٣٦)
٢-أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨)
٣-محمد المهدى (١٥٨-١٦٩)
خلفاء الدولة العباسية في عصر القوة
(١٣٣-٣٣٧هـ)
٥-هارون الرشيد (١٧٠-١٩٤)
٤-موسى الهادي(١٦٩-١٧٠)
محمد الأمين (١٩٤-١٩٨)
عبد الله المأمون (١٩٨-٢١٨)
محمد المعتصم (٢١٨-٢٢٧)

خلافة أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد
١٨ من ربيع أول سنة ٢٢٧ هـ حتى ٢٤ من ذي الحجة سنة ٢٣٢
فكانت مدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر و١٥ يوما
تولى الخلافة وعمره واحد وأربعون سنة

توطدت أقدام القواد الأتراك الذين اصطنعهم المعتصم وصاروا أصحاب نفوذ عظيم ولا سيما أشناس الذي توجه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر في رمضان سنة ٢٢٨هـ . بل وقام قواد الأتراك لأول مرة بأعظم الأعمال الحربية في جزيرة العرب نفسها وذلك للقضاء على فتنة قامت سنة ١٣٠ هـ حيث خرجت بنو سليم حول المدينة فعاثوا في الأرض فسادا وقاد هذه الحملة بغا الكبير أبو موسى التركي .

وفتنة أخرى قامت سنة ١٣٢ هـ حيث قامت قبيلة بني نمير باليمامة بالإفساد في الأرض واستطاع أيضا بغا الكبير أن يقضي على فتنتهم .

عمل شنيع للواثق :

فقد سيطر عليه هو الأخر الفكر المعتزلي وتعصب له وكان يدعو إلى القول بخلق القرآن ليلا ونهارا .

وفي عهده ارتكب جرما شنيعا إذ قتل أحمد بن نصر بن مالك الذي كان من أهل العلم والديانة والعمل الصالح والاجتهاد في الخير ، وكان من أئمة السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وممن يخالف رأي الخليفة في القول في القرآن وأبوه هو نصر بن مالك الذي بايعته العامة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند غلبة الفساد ببغداد سنة ٢٠١ هـ . في غيبة المأمون بمرو .

استدعاه الواثق وناظره فلم يفلح في إقناعه بما يعتقد فقتله الواثق بنفسه وفصلت رأسه عن جسده وعلقت رأسه ببغداد من ٢٨من شعبان سنة ٢٣١ هـ إلى ٣من شوال سنة ٢٣٧ هـ ولم يغير أحمد عقيدته وثبت وقد سمعه بعض الناس وهو مصلوب على الجذع ورأسه يقرأ : (**ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون**).

فلما حكم المتوكل بعد الواثق وكان محبا لأهل السنة وفي سنة ٢٣٧ هـ أمر بإنزال رأسه والجمع بين رأسه وجسده وأن يسلم لأوليائه ، ففرح الناس بذلك فرحا شديدا ، واجتمع في جنازته خلق كثير جدا وجعلوا يتمسحون بها وبأعواد نعشه وتوفى الواثق في ٢٤من ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ ولم يعهد لأحد من بعده فاجتمع كبراء الدولة يومها وهم :

أبو داؤد القاضي ومحمد بن عبد الملك الوزير وإيتاخ من قواد الأتراك وغيرهم ليختاروا الخليفة فاختاروا جعفر المتوكل على الله.

خلافة المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد

٢٤ من ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ حتى قتل في ٤ من شوال سنة ٢٤٧ هـ

فتكون مدة خلافته أربعة عشر سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام

تولى الخلافة وعمره ٢٦ سنة

امتاز المتوكل عن سائر أهل بيته بكراهة علي بن أبي طالب وأهل بيته وهذا ما يعرف في العقائد بالنصب وهو ضد التشيع وهو الذي أمر بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب سنة ٢٣٦ هـ وما حوله من المنازل والدور ونودي في الناس من وجد هنا بعد ثلاثة أيام ذهبت به إلى المطبق فلم يبق هناك بشر ، واتخذ ذلك الموضع مزرعة

تحرث وتستغل ..

ومع ذلك كتب المتوكل في الآفاق بالمنع في الكلام في مسائل الكلام والكف عن القول بخلق القرآن وأنه من تكلم بها فمأواه المطبق وأمر الناس ألا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير وأكرم الإمام أحمد بن حنبل وكان لا يولي إلا بعد مشورته وكانت ولاية يحي بن أكثم قضاء القضاة مكان ابن أبي داؤد عن مشورته وقد كان يحي بن أكثم من أئمة السنة .

قال ابن كثير :

(وكان المتوكل محبباً إلى رعيته قائماً في نصرة أهل السنة وقد أظهر السنة بعد البدعة فرحمه الله) .

فائدة : عبرة وعظة في هلاك الظالمين ولو بعد حين .

دخل عبد العزيز بن يحي الكتاني أحد المقربين إلى المتوكل عليه فقال :

(يا أمير المؤمنين ما رأيت أعجب من الواثق ، قتل أحمد بن نصر الخزاعي وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن) فوجل المتوكل من كلامه وساءه ما سمع في أخيه الواثق ، فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات قال له المتوكل :

(في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر)

فقال : يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً[1] ودخل على المتوكل هرثمة فكلمه المتوكل في ذلك ،

فقال : (قطعني الله إرباً إرباً إن قتله إلا كافراً) .

[1] أي لم يقتل الواثق أحمد بن نصر إلا لكفر أحمد !!

ودخل عليه القاضي أحمد بن أبي داؤد فقال له مثل ذلك فقال :

(ضربني الله بالفالج إن قتله الواثق إلا كافراً).

قال المتوكل : فأما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار[1]، وأما هرثمة فإنه هرب فاجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحي فقال : يا معشر خزاعة هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فقطعوه إرباً إرباً . وأما ابن أبي داؤد فقد سجنه الله في جلده - يعني بالفالج- ضربه الله له قبل موته بأربع سنين .

وفي عهد المتوكل قامت *الدولة اليعفرية بصنعاء* :

ومؤسسها هو *يعفر بن عبد الرحيم سنة واستمرت ٢٤٧ إلى سنة ٣٨٧ هـ ومدتها ١٤٠ سنة .*

كان نفوذ الأتراك يزداد يوماً بعد يوم وقد أحس المتوكل بتوغل الأتراك في الدولة واستبدادهم بأمور الخلافة وإدارتها وجيشها فحاول أن يقلل نفوذهم فبدأ بإيتاخ فدبر له مكيدة حتى قتل .

وحاول المتوكل أن ينتقل بعاصمة الخلافة إلى دمشق - ربما ليستعين بسلطان العرب على الأتراك - ولكنه لم يتحمل البقاء بدمشق فعاد إلى بغداد .. وكان قد شاع أنه عزم على الفتك بوصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ولكنه لم يتأت له ذلك لأنهم سبقوه إلى الغدر به .

وذلك :

أن المتوكل قد ولى العهد من بعده لابنه عبد الله وكان ابنه الآخر المنتصر بالله حانقاً

[1] وذلك أنه لما رأى منهم هذه الجرأة عزم على التنكيل بهم فحرّق ابن الزيات بالنار وهرب منه هرثمة ومرض ابن أبي داؤد بالفالج .

على أخيه وعلى أبيه من أجل ذلك وكان الأتراك يميلون إلى المنتصر بالله وكانوا يشمون رائحة الغدر بهم من ناحية المتوكل فتحالف المنتصر بالله مع بعض جند الأتراك ودخلوا على المتوكل وهو عليل وقتلوه **وكان ذلك بداية لعهد تمكن نفوذ الأتراك.**

عهد نفوذ الأتراك:

خلافة محمد المنتصر بن المعتصم

٤ من شوال سنة ٢٤٧ هـ حتى ٥ من ربيع آخر سنة ٢٤٨ هـ

فتكون مدة خلافته ستة أشهر

زادت قوة الأتراك في الدولة لأن أيديهم امتدت إلى حياة الخلفاء فقتلوا الخليفة وساقوا الخلافة إلى خليفة فأنشبوا أظفارهم بذلك في جسم الدولة وكانوا لا يحبون ولاية العهد للمعتز والمؤيد ابني المتوكل فلم يزالوا بالمنتصر حتى أجبر أخويه على أن يكتبا طالبين أن يخلعا من ولاية العهد .. وبذلك وصل عجز الخليفة مداه تحت ضغط عسكر الأتراك ويبدو أنه ندم على قتل أبيه فإنه لا يزال يؤنب نفسه في يقظته ومنامه ويبكي ليلاً ونهاراً ندماً على فعلته وهم بالانتقام من قتلة أبيه ولكنه لم يستطع ووافته المنية

٥من ربيع آخر سنة ٢٤٨ هـ

خلافة أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد
٥ من ربيع آخر سنة ٢٤٨ هـ إلى ٤ من محرم سنة ٢٥٢ هـ
إلى أن خلع في ٤ من محرم سنة ٢٥٢ هـ
فتكون مدة خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر و٢٨ يوما

اختير بمعرفة قادة الأتراك (بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش) فلم يولوا أحداً من أبناء المتوكل لئلا يغتالهم بدم أبيه فكان أول خليفة من بني العباس لم يكن أبوه خليفة بعد مؤسسي الدولة السفاح والمنصور وأول خليفة تولى بعد ابن عمه .

ضعف نفوذ الخليفة وتحكم الموالي من الأتراك فهم يعينون الوزير فإذا غضبوا عليه عزلوه وصادروا أمواله .

ثم تولى أتامش أحد قواد الأتراك الوزارة وأصبح صاحب السلطان التام فحسده أصحابه من الأتراك وصيف وبغا فألبوا العسكر عليه فقتل أتامش وانتهبت داره .

واستوزر الخليفة بعده أبا صالح عبد الله بن محمد وولّى بغا الصغير فلسطين وولّى وصيفاً الأهواز وفي سنة ٢٥١ هـ اجتمع رأي المستعين وبغا الصغير ووصيف على قتل باغر التركي وكان من قواد الأمراء الكبار الذين باشروا قتل المتوكل وقد اتسع إقطاعه وكثرت عماله فقتل ونهبت أمواله .

وفي عهد المستعين قامت *__الدولة الزيدية__* خرج الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ بنواحي طبرستان .

واستطاع أن يكون دولة عرفت بالدولة الزيدية بطبرستان (٢٥٠ - ٣٠٠).

في سنة ٢٥١ هـ وقعت فتنة عظيمة بين جند بغداد وجند سامراء ودعا أهل

سامراء إلى بيعة المعتز وكان مسجونا فأخرج واستقر أمر أهل بغداد على بيعة المستعين ، فصارت بغداد في جانب المستعين وسامراء في جانب المعتز وأمر المستعين محمد بن عبد الله بن طاهر أن يحصن بغداد وأدير حولها السور وحفرت حولها الخنادق ونصب على السور مناجيق وأسلحة كثيرة عظيمة وبعث المعتز إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يدعوه إلى الدخول معه ويذكره بعهد أبيه المتوكل أن يبايع بعده المعتز ولكن عبد الله لم يأبه لذلك .

وانضم الأتراك إلى معسكر المعتز وجرت بينهما حروب طويلة وفتنة مهولة جدا .

ولما تفاقم الحال جعل ابن طاهر يضغط على المستعين حتى خلع المستعين نفسه وأرسل بن طاهر بذلك مع جماعة من الأمراء إلى المعتز بسامراء ، فلما قدموا عليه بذلك أكرمهم وخلع عليهم .

وبالطبع أثرت هذه الخلافات على الأحوال الخارجية للبلاد واستطاعت الروم أن تنزل الهزائم بالمسلمين وقتلوا قائدين عظيمين للمسلمين من قواد الثغور هما عمر بن عبد الله الأقطع وعلي بن يحي الأرمني .

خلافة أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم
٤ من محرم سنة ٢٥٢ هـ إلى أن خلع في ٢٧ رجب سنة ٢٥٥ هـ
فتكون مدة خلافته ثلاث سنوات وستة أشهر و٢٣ يوما

ولم يكن في مدة خلافته سوى مزيد من ضعف الخلافة العباسية وتنازع الجند الأتراك والمغاربة الأمر .

فعل شنيع بالخليفة ..

لم تكن له كلمة مسموعة وكان سبب خلعه أن الجند اجتمعوا فطلبوا منه أرزاقهم فل يكن عنده ما يعطيهم .. فاجتمع الأتراك على خلعه فأرسلوا إليه ليخرج إليهم فاعتذر بأنه شرب دواء وأن عنده ضعف ، ولكن ليدخل إلي بعضكم فدخل إليه بعض الأمراء فتناولوه يضربونه وجروا برجله وأخرجوه وعليه قميص مخرق لطخ بالدم ، فأقاموه في وسط دار الخلافة في حر شديد حتى جعل يراوح بين رجليه من شدة الحر ، وجعل بعضهم يلطمه وهو يبكي ويقول له الضارب : اخلعها والناس مجتمعون ، ثم أدخلوه حجرة مضيقا عليه وما زالوا عليه بأنواع العذاب حتى خلع نفسه عن الخلافة وولى بعده المهتدي بالله .

ثم سلموه إلى من يسومه سوء العذاب بأنواع المثلات ، ومنع من الطعام والشراب ثلاثة أيام حتى جعل يطلب شربة من ماء فلم يسق ، ثم أدخلوه سربا فيه جص جير فدسوه فيه فأصبح ميتا ، فاستلوه من الجص سليم الجسد وأشهدوا عليه جماعة من الأعيان أنه مات وليس به أثر .

خلافة محمد المهتدي بالله بن هارون الواثق بن المعتصم بن الرشيد ٢٧ من رجب سنة ٢٥٥ هـ إلى أن خلع في ١٤ رجب سنة ٢٥٦ هـ فتكون مدة خلافته ١١ شهرا وأياما

أحضر الأتراك محمد هذا ليخلف المعتز بالله وكان المعتز قد نفاه إلى بغداد واعتقله فلما جاء إلى سامراء تلقاه الموالي في الطريق وعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها قبل أن يرى المعتز ويسمع كلامه فلما دخل على المعتز ورآه على الحالة التي وصفنا آنفا ، عانقه وجعل يسأله عن سوء حاله وأراد محمد أن يصلح بينه وبين الأتراك ولكن المعتز قال له : لا حاجة لي فيها ولا يرضون بي .

وكان المهتدي من صالح بني العباس يكره الظلم ، بنى قبة لها أربعة أبواب وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص للمظالم ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان ، وكان فيه ديانة وتقشف حتى أن الجند تأسوا به .

ولكن أمور الدولة لا تزال يتحكم فيها الخلافات بين الأتراك

والخلاف دب بين بعض القادة ولأن المهتدي قد مال لصالح الدولة مع أحدهم أرادوا خلعه .. فانتشر الخبر في العامة فكتبوا رقاعا ألقوها في المسجد الجامع وفي الطرقات ونص هذه الرقاع :

(بسم الله الرحمن الرحيم يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه .. فإن الموالي قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام والمدبر لذلك فلان وفلان رحم الله من أخلص النية ودعا وصلى على محمد ﷺ)

فلما بلغ ذلك الأتراك خافوا ثورة العامة فأرسلوا إلى المهتدي يخبرونه أنهم يبذلون دماءهم دونه ..وشكوا مع ذلك سوء حالهم وتأخر أرزاقهم وما صار من الإقطاعات إلى قوادهم فوعدهم المهتدي خيرا ولكنه لا يملك الآن ما يعطيهم منه فأعادوا عليه الطلب وأنهم سيصيرون إلى باب أمير المؤمنين حتى تقضى حوائجهم .

لقد كانت ثورة من الجند على قادتهم ولكنها غير منظمة ولو وجدت هذه الثورة خليفة قويا وانتهزها المهتدي لتخلص من نفوذ الأتراك ولكنه لم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ويظهر أنه أراد استعمال الحيلة في الخلاص منهم

ولكنهم كشفوا أمره وقامت فتنة ومعركة ، فريق الناقمين على الأتراك من العامة والموالي من غير الأتراك من ناحية وبين الأتراك من ناحية أخرى ، وخرج الخليفة المهتدي وفي عنقه مصحف يدعو الناس إلى نصرته ولكن الأتراك انتصروا ..

وقبضوا على المهتدي وحملوه إلى داره مهانا في ١٤من رجب سنة ٢٥٦ هـ ثم خلعوه لما أبى أن يخلع نفسه ثم مات في ١٨من رجب سنة ٢٥٦ هـ .

خلافة أحمد المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم من ١٦ رجب سنة ٢٥٦ هـ حتى ٩ رجب سنة ٢٧٩ هـ فتكون مدة خلافته ٢٣ سنة وثلاثة أيام

كان من مطالب الأتراك أن يتولى أمر الجيش أحد إخوة أمير المؤمنين ولا يرأسهم واحد منهم لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة فولى المعتمد أمرهم إلى أخيه أبي أحمد طلحة بن المتوكل فولاه أمر الجيش والولايات .

فصار السلطان الحقيقي لأبي أحمد لا للخليفة وصارت كلمة أبي أحمد هي العليا على الأتراك وقوادهم فحسن ذلك الأحوال بعض التحسين ولكن المعتمد نفسه ساءت أحواله لأنه لم يترك له بشيء من التصرف حتى أنه احتاج في بعض الأحيان إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها .

والمعتمد هو ، أول خليفة انتقل بعاصمة الخلافة من سامراء إلى بغداد ثانية منذ عهد المعتصم .

كان أبو أحمد غزير العقل حسن التدبير يجلس للمظالم وعنده القضاة فينصف المظلوم وكان عالما بالأدب والفقه وسياسة الملك وله محاسن ومآثر كثيرة لقبه أخوه بالموفق بالله ، ولما هزم صاحب الزنج لقبه الناس الناصر لدين الله .

ثورة صاحب الزنج

في رمضان سنة ٢٥٥ هـ قام دعي في آل علي لا يعرف له نسب ولا رحم زعم أن اسمه عليّ بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فادعى أنه عباسي ودعا الناس إلى طاعته

ظهرت فتنته أولا بالبحرين ثم تحول عنهم إلى البادية ، ثم إلى البصرة سنة ٢٥٤ هـ .

ثم مضى الدعي ومن اتبعه حتى وصل بغداد فأقام بها عاما يستميل الناس سرا ثم شخص إلى البصرة ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر القرشي وهناك استعان بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلك النواحي في حمل السباخ وغيره لأهل البصرة وهم كثيرو العدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيه فكيف لو وعدوا مع الحرية بالسيادة على مالكي رقابهم ؟

فأخذ هذا الدعى منهم غلاما اسمه ريحان بن صالح ووعده أن يكون قائدا وأمره أن يحتال للعبيد الذين يعرفهم حتى يجيبوه إلى نحلته ويتركوا سادهم وأعمالهم فاجتمع إليه كثير منهم فخطب فيهم ومناهم ووعدهم وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم .

والتفت الزنوج حوله وراقتهم دعوته .

وكان كل جيش يبعث من قبل الخليفة يهزمه ومضى يعيث في الأرض الفساد يحرق وينهب واستفحل أمره وعظم شره وخيف على الدولة منه فلم ير أبو أحمد الموفق إلا أن يحشد إليه الجموع ويتولى هو قيادها بنفسه واصطحب معه ابنه أبا العباس وكان نائبه وتطوع الناس لحرب هذا الدعي .

وقد كانت لأبي أحمد معه وقائع مذهلة وخطوب جسام استمرت أعواما استعان فيها الموفق بربه ودعاه وناداه وتحمل الشدائد حتى أنه أصيب بسهم فمرض منه أياما واضطرب الناس أثناء فترة مرضه ولكنه كان يحثهم على المواصلة حتى شفاه الله فأتم

له النصر على عدوه وحملت إليه رأس الخبيث فلما تيقن منها خر لله ساجدا وفرح المسلمون بذلك في المشارق والمغارب وكان ذلك في صفر سنة ٢٧٠ هـ فكانت أيام هذا الدعي من لحظة خروجه إلى مماته أربع عشر سنة .

وفي هذا العهد :

قامت *الدولة الطولونية* بمصر سنة ٢٥٨ هـ واستمرت حتى سنة ٢٩٢ هـ ومؤسسها أحمد بن طولون كان مملوكا تركيا وسيأتي لها مزيد تفصيل .

كما قامت في هذه العهد **الدولة السامانية** سنة ٢٦١ هـ ببلاد ما وراء النهر واستمرت حتى سنة ٣٨٩ هـ أي دامت قرابة مائة وسبعين سنة وقامت على أيدي آل سبكتكين من جهة والترك الخاقانية من جهة أخرى وسيأتي مزيد من بيان ذلك ،

ثم توفى المعتمد في ٩ من رجب سنة ٢٧٩ هـ .

في عهده ظهرت القرامطة بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام ، وكذلك كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وأفريقية فكأن الدعوة الإسماعيلية رتبت أن يكون ظهورها في آن واحد بجميع الجهات الإسلامية حتى لا يكون لبني العباس قبل بملاقاة شرها وكذلك كان .

ولما توفى المعتضد كان ولي عهده ابنه المكتفي .

خلافة أبي العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم

١٩ من رجب سنة ٢٧٩ هـ حتى ٢٢ من ربيع آخر سنة ٢٨٩ هـ فتكون مدة خلافته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام

كان من خيار خلفاء بني العباس ورجـــالهم .

(قلت الأموال بدولة الخلافة ولا غرابة في ذلك فإن كثيرا مـــن الأقـــاليم اســـتقل بإدارتـــه وأمواله الخارجون على الدولة العباسية وما بقى لبني العبـــاس لم يعمـــره العـــدل والأمـــن لكثرة الاضطرابات في الجزيرة وبلاد العراق وفارس) ثم توفى ولى عـــهده لابنـــه المكتفـــي

خلافة المعتضد بن أبي أحمد بن المتوكل

٢٢ من ربيع آخر سنة ٢٨٩ هـ حتى ١٢ من ذي القعدة سنة ٢٩٥ هـ فتكون مدة خلافته ٦ سنوات وستة أشهر و١٩ يوما

انتكست البلاد في عهده وازدادت الصراعات والمنافسات بـــين ذوي النفـــوذ بالدولـــة .

قاتل القرامطة ونظف النواحي الشامية منهم في محـــرم ســـنة ٢٩١ هـــــ ولكـــن ذلـــك لم يكن مبيدا للمذهب القرمطـــي .

وضعف سلطان هذه الفرقة بالعراق بعد مقتـــل زكرويـــه[1] وأولاده وقتـــل أكـــثر دعـــاهم ولكن نفى أخطر دعاهم وهو الجنابي بالبحرين و لم يكـــن لـــه في عـــهد المكتفـــي كبـــير عمل وإنما كانت مصائبه ورزاياه في عهد المقتدر .وفي عهده انتـــهت دولتـــا بـــني طولـــون

[1] كبير دعاة القرامطـــة .

بمصر سنة ٢٩٢ هـ على يد العباسيين كما انتهت دولة الأغالبة بإفريقية على يد أبي عبيد الله الشيعي داعية الفاطميين بالمغرب كما سيأتي ذكره .

خلافة جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بن أحمد بن المتوكل ١٣من ذي القعدة سنة ٢٩٥ هـ حتى قتل في ٢٨من شوال سنة ٣٢٠ هـ فتكون مدة خلافته ٢٤ سنة و١١ شهرا و١٦ يوما

تولى الخلافة وسنه ١٣ سنة عن عهد من أخيه لم يرق الأمر للناس لصغر سنه فحدثت محاولة لخلعه من كبار القادة وتولية عبد الله بن المعتز ولكنها فشلت .

حكومة النساء

والحقيقة أن هيبة الخلافة قد سقطت في عهد المقتدر فهو شاب صغير لا يعرف عن السياسة شيئا ولا من الشجاعة شيئا وكانت له أم وقهرمانة صار لهما الحكم في كل ما يجرى من الشئون وإليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملا أو وزارة ، والمقتدر لاه بما هو فيه من اللعب واللهو والسرف ولم يعد بيده شيء ، تولى الوزارة في عهده اثنا عشر وزيرا منهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثا وكانت تنال بالرشوة ، وتدخل في أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية ولم يكن الصالح منهم يبقى في العمل كثيرا لأن بقاءه يتبع رضا أم المقتدر وقهرمانته وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون إلا إذا حوبوا بالأموال الكثيرة التي بها تفسد المالية وتختل موازنتها فمتى حصل التقصير عن دفع الأموال جيء بآخر يستطيع أن يدفع وسرعان ما يقبض على الأول ويصادر ويعين الثاني .

وفي سنة ٣٠١ هـ قتل **أبو سعيد الجنابي** زعيم القرامطة وتولى ابنه أبو طاهر سليمان الجنابي من بعده . وفي عهده فعل القرامطة الأفاعيل واشتد نفوذه وسار نحو الكوفة

وتقدم ناحية العاصمة بغداد ، وهم يهزمون جيوش الخلافة الواحد تلو الآخر .

وورد الخبر بذلك إلى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفا شديدا ، وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان .. كل ذلك وعدد القرامطة لا يزيد عن ٢٧٠٠ حتى أنه لما علم المقتدر بعددهم قال : (لعن الله نيفا وثمانين يعجزون عن ألفين وسبعمائة!!)

وفي سنة ٣١٢ هـ اعترض القرمطي أبو طاهر الحسين بن سعيد الجنابي للحجيج وهم راجعون من بيت الله الحرام .. فلما حاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم قتل منهم خلقا كثيرا وأسر من نسائهم وأبنائهم ، ثم بعث الخليفة بجيش بقيادة مؤنس الخادم لقتال القرامطة وأنفق على خروجه ألف ألف دينار فخافه أبو طاهر وأطلق من كان معه من أسرى الحجيج .. فسكن الأمر وانصلحت الأحوال

وفي عهد المقتدر أعلن عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس نفسه أميرا للمؤمنين .

وفي إفريقية قامت الدولة الفاطمية سنة ٢٧٩ هـ قضت على دولة الأدارسة من المغرب الأقصى والأغالبة من إفريقية وجعلت مقرها مدينة المهدية التي أسسها عبيد الله المهدي بالقرب من القيروان .

وسيأتي ذكر الدولة الفاطمية في فصل خاص .

وفي الموصل ابتدأت ***دولة آل حمدان*** ولكن لم يتمكن سلطانهم في عهد المقتدر قامت سنة ٢٩٣ هـ واستمرت حتى ٣٨٠ هـ وسيأتي بيان هذه الدولة ..

نهاية شنيعة :

كانت نهاية المقتدر بائسة شغب الجند واستاء القادة وحصل مواجهة بينه وبين أحد أكبر القادة في عصره وأعظمهم نفوذا وهو مؤنس المظفر قائد عام الجيوش وهزم الخليفة وقتل على يد بعض الجند وذبحوه ثم رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون

ويلعنونه وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوفا إلى أن مر به رجل فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قتل ٢٨ عاما .

خلافة أبو محمد القاهر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل
٢٨من شوال سنة ٣٢٠ هـ حتى خلع فى ٥ من جمادى الأولى
سنة ٣٢٢ هـ فتكون مدة خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام

جاء باختيار مؤنس قائد الجيش .

وكان أول ما فعله هو إحضار أم المقتدر وتعذيبها وكانت مريضة ليعرف أين كان مالها وجواهرها فاستلب جميع ما تملك .

وكان القاهر شريرا خبيث النية سرعان ما غدر بمؤنس وأمر بالقبض عليه وكل من أجلسوه على كرسي الخلافة ولما تمكن منهم القاهر أمر بقتلهم وأما من بقى منهم فقد أخذ يخطط للتخلص من القاهر فقضوا عليه وخلعوه بتخطيط من وزيره ابن مقلة.

خلافة الراضي أبو العباس أحمد المقتدر بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل
٥من جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ حتى ١٥ من ربيع أول سنة ٣٢٩
فتكون مدة خلافته ستة سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام

اختاره القادة وعينوه خليفة .

كالعادة كانت الكلمة العليا في أول عهده لمن ساعده وهو الوزير بن مقلة وحاجبه

محمد بن ياقوت ولكن سرعان ما انقلب على ابـــن يـــاقوت ، الـــذى تـــوفى مســـجونا ثم انقلب على ابن مقلة وســـجنه .

واضطربت الأحوال فاضطر الراضي أن يرسل إلى محمد بن رائـــق وهـــو بواســـط يعـــرض عليه الولاية ببغـــداد .

فقلده الراضي لقب أمير الأمراء وولاه الدواوين ومـــن ذلـــك الوقـــت بطلـــت الدواويـــن وبطلت الوزارة وانتقل السلطان الحقيقي لابن رائق وصـــارت الـــوزارة شـــكلية ..

عجبا

كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمور جميعها وكذلك كـــل مـــن تـــولى إمـــرة الأمـــراء بعده وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفـــون فيـــها كمـــا يريـــدون ويطلقـــون للخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الأمـــوال .

ودارت صراعات ونزاعات للفوز بهذا المنصب _ الذي لم يـــدم طويـــلا لابـــن رائـــق _ كل يريد أن تكون له إمارة الأمراء ببغداد والأعداء ينتقصـــون في كـــل يـــوم مـــن أرض الخلافة جزءا و لم يعد لها شيء من الهيبة ولا نفـــوذ الكلمـــة .

ظهرت في عهد الراضي **الدولة الإخشيدية** بمصر على يد مؤسسها محمـــد الإخشـــيد بـــن طغج وهو من موالي آل طولون وكان ملكه مصر ســـنة ٣٢٣ هــــ إلى ســـنة ٣٥٨ هــــ وهم الذين تسلم منهم الفاطميون مصـــر .

ختم الراضي الخلفاء في أشياء منـــها :

- أنه آخر خليفة دون له شـــعر .
- وآخر خليفة انفرد بتدبير الملـــك.
- وآخر خليفة خطب على منبر يـــوم الجمعـــة .
- وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليـــه العلمـــاء.

- وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجري علـــى قواعـــد الخلفـــاء المتقدمـين .

وفي أيامه حدث اسم أمير الأمـــراء في بغـــداد وصـــار إلى أمـــير الأمـــراء الحـــل والعقـــد والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة ولا ســـلطان الخلافـــة شـــيء .

خلافة إبراهيم المتقي لله بن المعتمد بن أبي أحمد الموفق
٢٠ من ربيع أول سنة ٣٢٩ هـ حتى خلع ٢٠من صفر سنة ٣٣٣
فتكون مدة خلافته أربع سنوات و١١ شهرا

عينه القادة والوزراء و لم يكن له من الأمـــر شـــيء

اشتد الصراع عل منصب أمير الأمراء و لم يكن يستقر الحـــال لأحدهـــم طويـــلا :

(ابن رائق – بجكم – البريدي – ناصر الدولة ابن حمـــدان – تـــوزون) واســـتمر الحـــال على ذلك حتى خلـــع .

دور جديد للدولة العباسية سنة ٣٣٤ حتى سنة ٤٤٧ سيطرة البويهيين على مقاليد الحكم

يبتدئ هذا الدور من سنة ٣٣٤ حتى سنة ٤٤٧ تولى فيه الخلافة خمسة خلفاء أولهم

خلافة المستكفي أبو القاسم عبد الله بن المكتفي بن المعتضد ٢٠من صفر سنة ٣٣٣ حتى خلع في ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ فتكون مدة خلافته سنة وأربعة أشهر

ويرتبط هذا الدور بتاريخ آل بويه الديلميين الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيقي والسلطان الفعلي في العراق.

فائدة: كيف وصل آل بويه إلى الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية ؟

بلاد الديلم تقع في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر....

كانت في القديم إحدى الولايات الفارسية إلا أن أهلها لم يكونوا من العنصر الفارسي بل عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالمه أو الجيل.

فتحت بلاد الديلم في عهد عمر بن الخطاب وخضعت للحكم الإسلامي مع بقائهم على وثنيتهم ....

وكانت تجاورهم بلاد طبرستان وأكثر أهلها دانوا بالإسلام وكان بين الديالمه والطبريين سلم وموادعة.

واستمر الحال على ذلك بعد قيام الدولة العباسية فلا الديالمه تحدثهم أنفسهم بالخروج إلى بلاد المسلمين ولا المسلمون يحدثون أنفسهم بالتوغل إلى

بلادهم.

حتى عهد المستعين الذي أرسل محمد بن طاهر ليحكم تلك البلاد كان ذلك سنة ٢٥٠ هـ ولكن أهل طبرستان امتنعوا وأعلنوا العصيان لمحمد بن طاهر وجعلوا عليهم الحسن بن زيد (الدولة الزيدية)وطلبوا من الديلم أن يساعدوهم على عمال ا بن طاهر ففعلوا.

وظل الحسن يحكم مدن طبرستان ثم الري وجرجان حتى مات سنة ٢٧١ هـ ثم تولى أخوه محمد بن زيد وكانت مدته مضطربة حتى قتل سنة ٢٨٧ هـ وكان وجود الحسن ومحمد بعد أخيه محمد من أسباب شيوع الإسلام في أهل الديلم.

ثم دخل بلاد الديلم الحسن بن عليّ الملقب بالأطروش سنة ٣٠١ وأقام بينهم ١٣ سنة يدعوهم إلى الإسلام فأسلم منهم خلق كثيرون واجتمعوا عليه وبنى في بلادهم المساجد.. ولكن إسلامهم ملتبس بتشيع .. ثم بعد فترة استطاع الأطروش بمساعدة الديلم أن يستولي على طبرستان وجرجان من السامانيين.. ثم توفى الأطروش سنة ٣٠٤ هـ.وتطورت الأحوال بمرور الأيام حتى سنة ٣٢٣ هـ صارت القوى الكبرى بهذه البلاد على النحو التالي :

قوة على بن بويه بفارس والري.

وقوة السامنيين بخراسان وما وراء النهر.

وكان بنو بويه ثلاثة هم عليّ والحسن وأحمد فلما ضعف سلطان الخليفة خطر ببال عليّ بن بويةً أن يرسل أخاه الأصغر أحمد ليمد سلطانه إلى الأهواز والعراق.

واستطاع أحمد أن يسيطر على الأهواز بعد حروب بينه وبين بجكم الرائقي وانهزم بجكم وفر إلى واسط.

وكاتب قواد بغداد أحمد بن بويه يطلبون إليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصلها ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ والخليفة هو المكتفي بالله فقابله واحتفى به وبايعه أحمد وحلف كل منهما لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة، وفي هذا اليوم شرّف الخليفة بني بويه بالألقاب:

فلقب علياً صاحب بلاد فارس (عماد الدولة)

والحسن صاحب الري والجبل (ركن الدولة).

ولقب أحمد صاحب العراق (معز الدولة)

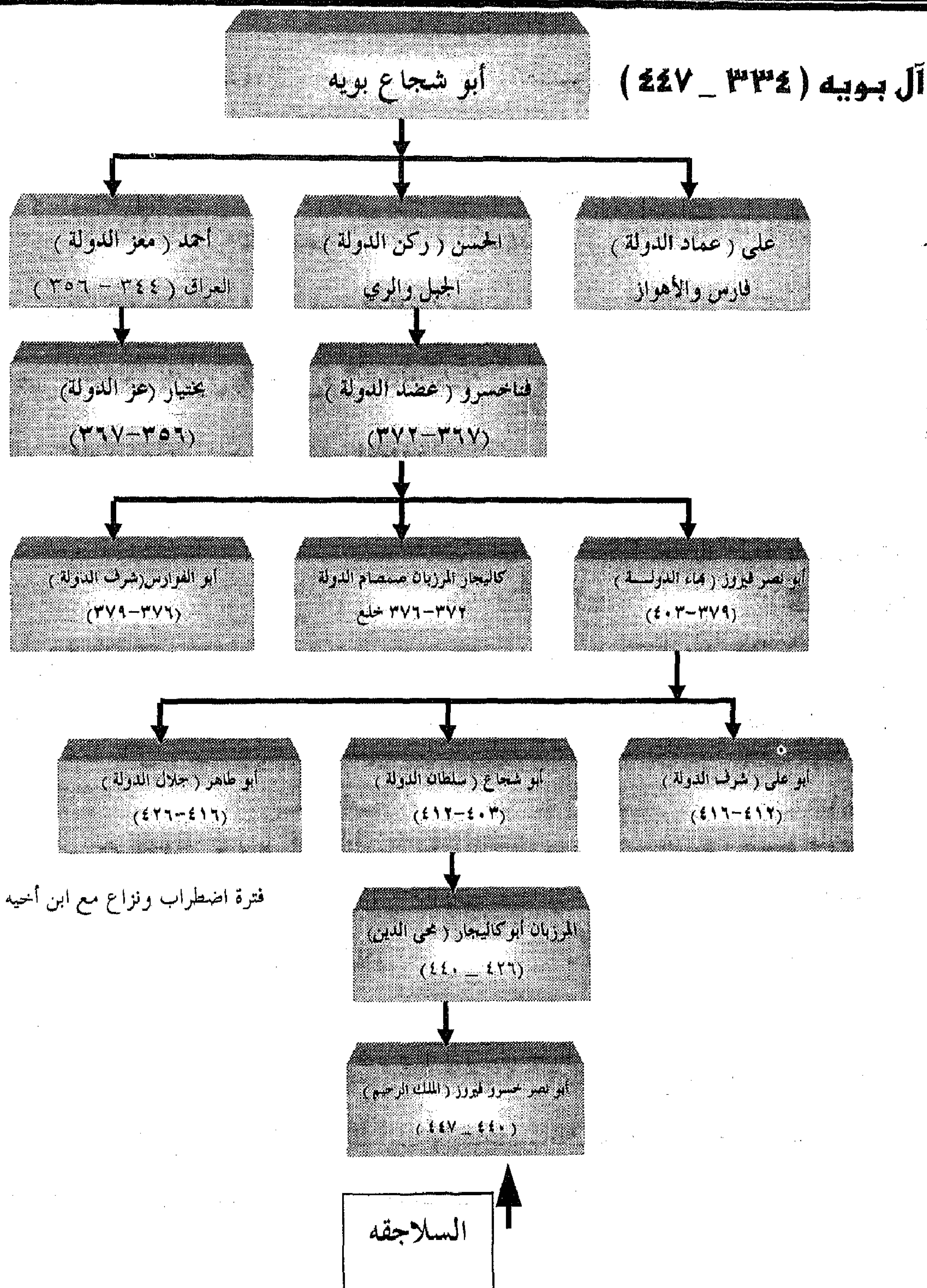
وأمر أن تضرب ألقابهم وكُناهم على النقود.

وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثاني للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقي من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيساً دينياً لا أمر له ولا نهى ولا وزير وإنما له كاتب يدبر إقطاعياته واخراجاته لا غير وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يشاء ...

خطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضاً عن بني العباس ويوليها علوياً لأن معز الدولة كان من قوم انتشرت فيهم تعاليم الشيعة الزيدية كما رأينا فكانوا يعتقدون أن بني العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل وقال له :

إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ومتى قتلته أجلست بعض العلويين خليفة اعتقدت أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا فأعرض عما كان قد عزم عليه.

آل بويه (٣٣٤ _ ٤٤٧)



فائدة :ما وصلت إليه الأمة الإسلامية في ذلك الوقت:

- **الأندلس** يحكمها **عبد الرحمن الناصر** أمير المؤمنين.
- **بلاد إفريقية** ويحكمها **الفاطميون**.
- **أقصى المغرب** ويحكمها **الأدارسة** والقائم بالأمر منهم إسماعيل المنصور وهو ثان خلفائهم ويلقب بأمير المؤمنين.
- **مصر والشام** ويحكمها **الإخشيديون** و يخطبون باسم الخليفة العباسي.
- **حلب والثغور** لسيف الدولة **عليّ بن عبد الله بن حمدان الشيباني** ويخطبون باسم الخليفة العباسي.
- **الجزيرة الفراتية** لناصر الدولة **الحسن بن علي عبد الله بن حمدان** ويخطب باسم الخليفة العباسي .
- **العراق** للديلم والسلطان منهم **معز الدولة أحمد بن بويه** ويخطب على منابره باسم الخليفة العباسي ثم باسم معز الدولة من بعده.
- **عمان واليمن والبحرين وبادية البصرة للقرامطة** ويخطبون باسم المهدي الفاطمي .
- **فارس والأهواز لعلي بن بويه** الملقب بعماد الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسي وكان يلقب بأمير الأمراء لأنه أكبر بني بويه.
- **الجبل والري لحسن بن بويه** الملقب ركن الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسي وجرجان وطبرستان عليها نزاع بين آل سامان وركن الدولة.
- **خراسان وما وراء النهر لآل سامان** ومقر ملكهم مدينة بخاري ويخطبون للخليفة العباسي.

هذه هي القرى الكبرى التي كانت لأسر مملوكة في الرقعة الإسلامية فقد تفرق هذا الملك

الواسع تفرقًا غريباً بعد أن كان متماسك الأعضاء ويرجع كله إلى خلافة واحدة كبرى تجمع شتاته.

ومما يستحق النظر أن العنصر العربي لم يبق له شئ من الملك إلا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة من آل حمدان فإنهما من عنصر عربي ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليانه من البلاد لقواد من الأتراك ولم يكن لهما استقلال سياسي بل كان أمر بني بويه فوقهما وكانا يذكران اسم معز الدولة في الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسي.

لم يمكث المستكفي في الخلافة بعد استيلاء معز الدولة إلا أربعين يوماً وخُلِع لأن معز الدولة اتهمه بالتدبير عليهم و ذلك فى ٢٢من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤.

خلافة الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المنصور
٢١من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ حتى خلع فى ١٥ من ذى القعدة سنة ٣٦٣ هـ فتكون مدة خلافته ٢٩ سنة وخمسة أشهر

عانى من شغب الجند عليه فاضطر إلى استرضائهم بإقطاع القواد والجند إقطاعات السلطان وأصحاب الأملاك فخربت البلاد لذلك وعم الغلاء والنهب.. ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء فأكل الناس الميتة والكلاب وأكل الناس خروب الشوك وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام في أحشائهم وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة فمات أكثرهم في الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز.

فكان نظام الإقطاعات أول فساد بالعراق ، لأنه أضعف همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الأرض وإصلاحها...

ظهر كذلك لون من النزاع العنصري بين الأجناد من الديلم والأتراك وقد حاولت

الديلم خلع معز الدولة ولكن الأتراك وقفوا معه وأفسدوا هذه المحاولة فمـال إليهم معز الدولة دون الديلم وأطلق يد الأتراك فخربوا البلاد ونهبوا الأموال....

النفوذ الشيعي : البويهيون على خطى الفاطميين

كان أهل بغداد قبل تحكم البويهمية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون الشيخين على سائرهم ولا يقدحون في معاوية ولا غيره من سلف المسلمين ، فلما جاءت هذه الدولة وهي متشيعة : نما مذهب الشيعية ببغداد ووجد له دعماً من الحكومة حتى أنه أمر بالكتابة على المساجد سنة ٣٥١ هـ .:

(لعن الله معاوية بن أبي سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها ومن منع أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام..)فلما كان الليل حكه بعض الناس ولكن المعز أعاد كتابته ...

وفي ١٠ من محرم سنة ٣٥٢ هـ أمر معز الدولة بالإضراب عن العمل وإظهار النياحة ولبس القباب عملوها كالمسوح وأن يخرج النساء مسودات الوجه وقد شققن ثياهن يدرن في البلد بالنوائح على الحسين بن عليّ رضى الله عنهما ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنية قدرة على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم.

وفي من١٨ ذي الحجة لنفس العام أمر بإظهار الزينة وإشعال النيران وإظهار الفرح احتفالاً بعيد الغدير (غدير خم) وهو الموضع الذي يروى أن رسول الله ﷺ قال فيه عن عليّ : (**من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللهمَّ والِ من والاه وعاد من عاداه**) وكان يوماً مشهوداً.

حصلت حروب بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة العربي، لم تهدأ الحروب بين الطرفين فاشتغلا بها عن كل مصلحة وكان ذلك سبباً فيما يأتي ذكره من الضعف

أمام الروم.

توفى معز الدولة ١٣من ربيع آخر سنة ٣٥٦ هـ

وتولى بعده عز الدولة بختيار بن أحمد بن بويه فظل فى السلطة حتى خلعه ابن عمه سنة ٣٦٧ هـ .وكانت مدته عبثاً واشتغالاً باللهو والنساء .. ولم يحسن معاملة من حوله حتى استوحشوا منه

في هذه الفترة ، استطاع الروم أن يستردوا جميع الثغور الإسلامية الكبرى وصارت لهم الهيبة في قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام بينما بنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضاً وعن عدوهم مشتغلون .

موقف يوضح ما وصل إليه الحال:

سنة ٣٦١ هـ أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فحرقوا البلاد وخربوها فسار جماعة أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنصرين وقاموا في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي ، فاستعظم الناس ذلك فسار معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وكان بختيار يصطاد بنواحي الكوفة فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتال عمران بن شاهين صاحب البطيحة_ وهو مسلم _ وترك جهاد الروم ومنعهم عن ديار الإسلام فوعدهم بالتجهيز للجهاد وأرسل إلى سبكتكين يأمره بالتجهيز وأن يستنفر العامة ، فاجتمع معه عدد كثير لا يحصون ..

وكتب بختيار إلى أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره بإعداد الميره والعلوفات ويعرفه عزمه على الجهاد والغزو فأجابه بإظهار السرور ثم أرسل بختيار إلى المطيع لله يطلب منه مالاً فقال المطيع : إن الغزو والنفقة عليه وعلى غيره من مصالح

المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجبي إليّ الأموال ، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شئ وإنما يلزم من البلاد في يده وليس لي إلا الخطبة فإن شئتم أن أعتزل فعلت

وترددت الرسائل بينهما حتى وصل الحال إلى تهديد الخليفة فبذل المطيع ٤٠٠ ألف درهم فاحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وشاع بين الناس من أهل العراق وخراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر ماله فلما قبض بختيار المال صرفه في مصالحه وبطل حديث الغزو).

وفي سنة ٣٦١ هـ انتقل خلفاء الفاطميين إلى مصر بعد استيلاء جوهر الصقلي عليها في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي .

وفي ١٥ ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ اعتزل المطيع و لم يكن له أثر يذكر.

خلافة أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع بن المقتدر ١٥من ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ حتى ١٢من رجب سنة ٣٨١ فتكون مدة خلافته ١٧ سنة وثمانية أشهر وستة أيام

كانت للفتنة التي قامت ببغداد بين أهل السنة والشيعة أثر كبير في إثارة الاضطرابات والفوضى ببغداد فسفكت الدماء وأحرقت الكرخ التي كانت محلة الشيعة و لم يستطع بختيار أن يسيطر على مقاليد الأمور

شهدت هذه الفترة صراعاً بين بختيار وعضد الدولة ابن عمه على بغداد انتهى لصالح الأخير سنة ٣٦٦ هـ فتمكن من بغداد ثم سار إلى الموصل فملكها وأزال عنها الدولة الحمدانية واتسعت أملاكه فصار له العراق والجزيرة ، والأهواز وفارس والجبال والري ثم جرجان...

كان عضد الدولة من أعقلِ آل بويه حسن السياسية شديد الهيبة معطاء وكان يختار على

أساس الكفاءة لا الشفاعة   توفى سنة ٣٧٢ في شوال.

اختير بعده ابنه كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة فاضطربت في عهده الأحوال وتقلص الملك الذي ورثه عن أبيه حتى ضعف أمره ودخل فى ولاية أخيه شرف الدولة من سنة ٣٧٦ حتى توفى سنة ٣٧٩ هـ.

ثم تولى بعده بهاء الدولة أبو نصر أخو شرف الدولة ، وفي سنة ٣٨١ هـ قبض بهاء الدولة على الطائع لله للاستيلاء على أمواله طمعاً فيها ثم خلع ...

وفى هذه الفترة قامت **الدولة السبكتكينية (الغزنوية)** من سنة ٣٦٦ هـ إلى سنة ٥٨٢ على يد سبكتكين كما سيأتى ذكره

خلافة أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد من ١٣من رمضان سنة ٣٨١ حتى توفى ٢٩ من ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ فتكون مدة خلافته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما

تم اختياره بمعرفة آل بويه وقد كان هارباً في زمن الطائع فأتى به إلى بغداد واستقبل استقبالاً طيباً من بهاء الدولة.

لم يكن للخليفة شيء من السلطان كمن كضى في عهد سلاطين ابن بويه ، إلا أن ضعفهم أحيا للخليفة شيئاً من الكلمة والنفوذ ، وكان القادر ، فيه من خلال الخير ما يساعد على ذلك فقد كان حليماً كريماً يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر وكان حسن الاعتقاد وصنف كتاباً على مذهب أهل السنة والجماعة ثم توفى سنة ٤٢٢ هـ.

خلافة أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله
من ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ حتى ١٣ من شعبان سنة ٤٦٧ هـ
فتكون مدة خلافته ٤٤ سنة و٢٥ يوما

وفي أول عهده ضعفت الخلافة والسلطنة جميعاً ببغداد وعمت الفوضى وشغب الجند.

وكثر النزاع بين الديلم عنصر السلطان وبين الأتراك قدماء العهد ببغداد والعجيب أن آخر سلطان بويهي وهو أبو نصر فنا خسرو في ظل هذا الضعف البيِّن يطلب من الخليفة أن يلقب بالملك الرحيم فأبى الخليفه ذلك ولكنه أصر حتى كان ذلك لقبه ..!!!

واستمر سلطاناً حتى قضى عليه السلطان طغرلبك السلجوقي وبذلك انقضت مدة آل بويه التي لم تترك أثراً صالحاً في عهد الدولة العباسية إلا مزيداً من الفساد والتشتت بما أظهرته من التشيع في بغداد مع أن غالبية أهلها أهل سنة وجماعة.

عهد نفوذ السلاجقة الأتراك:

فائدة: كيفية وصول آل سلجوق إلى السلطنة مكان البويهيين؟

يعود أصل آل سلجوق إلى الغز من الترك وهي عشيرة كانت تقيم في بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك .

تنسب إلى سلجوق بن تقاق توفي عن عمر ١٧٠ سنة ، ظهرت عليه علامات النجابة فقربه ملك الترك إليه ثم خافه وأحس سلجوق بذلك فجمع عشيرته وهاجر إلى ديار الإسلام واعتنق الإسلام وصار يشن غارات على بلاد الترك واستعان السامانيون بسلجوق في رد غارات الترك على بلادهم .

استمر الحال حتى كان من أحفاده طغرل بك محمد وداود جعفر بك اللذين أصبح لهما السلطان بعد ذلك على عشيرتهم فانتقلا بمن معهم إلى قرب بخاري حيث أقاموا هناك ولكن أمير بخاري خافهما فسارا إلى تركستان عند ملكها بوغراخان ثم حدث بينهم خلاف انتهى باعتقال طغرل بك ولكن داود استطاع أن يداهم بوغراخان ويستنقذ أخاه طغرل بك ثم انتقلوا إلى بلاد الدولة السامانية حيث استقروا هناك ولكن الدولة السامانية كانت في آخر أيامها وقد برزت قوة جديدة هي قوة الغزنويين فاصطدموا معهم وانتهى الصدام بأسر أرسلان سلجوق عم طغرل بك ، ثم حدث صلح بين السلاجقة والغزنويين بحيث تولى عماد السلاجقه إمرة بعض المدن والمناطق وأطلق سراح عمهم أرسلان ...

وفي سنة ٤٢٩ هـ رجع الخلاف بين الغزنويين والسلاجق وتمكن طغرل بك أن يستولي على مرو وذكروا اسمه في خطبة الجمعة باسم ملك الملوك.

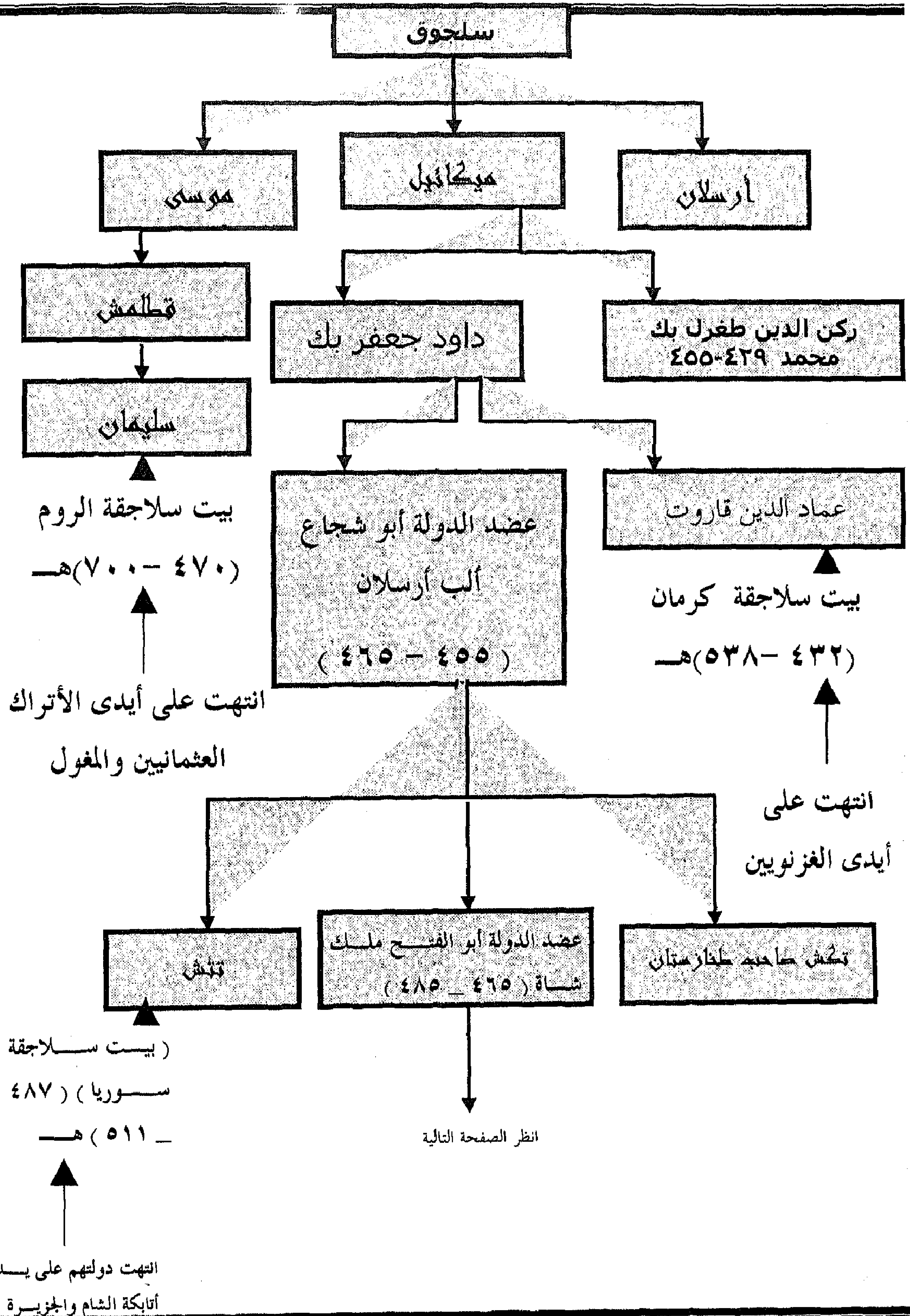
وفي سنة ٤٣٢ هـ استولى طغرل بك على نيسابور وعلى جرجان وطبرستان ثم في سنة ٤٣٣هـ ضم كرمان وبلاد الديلم.

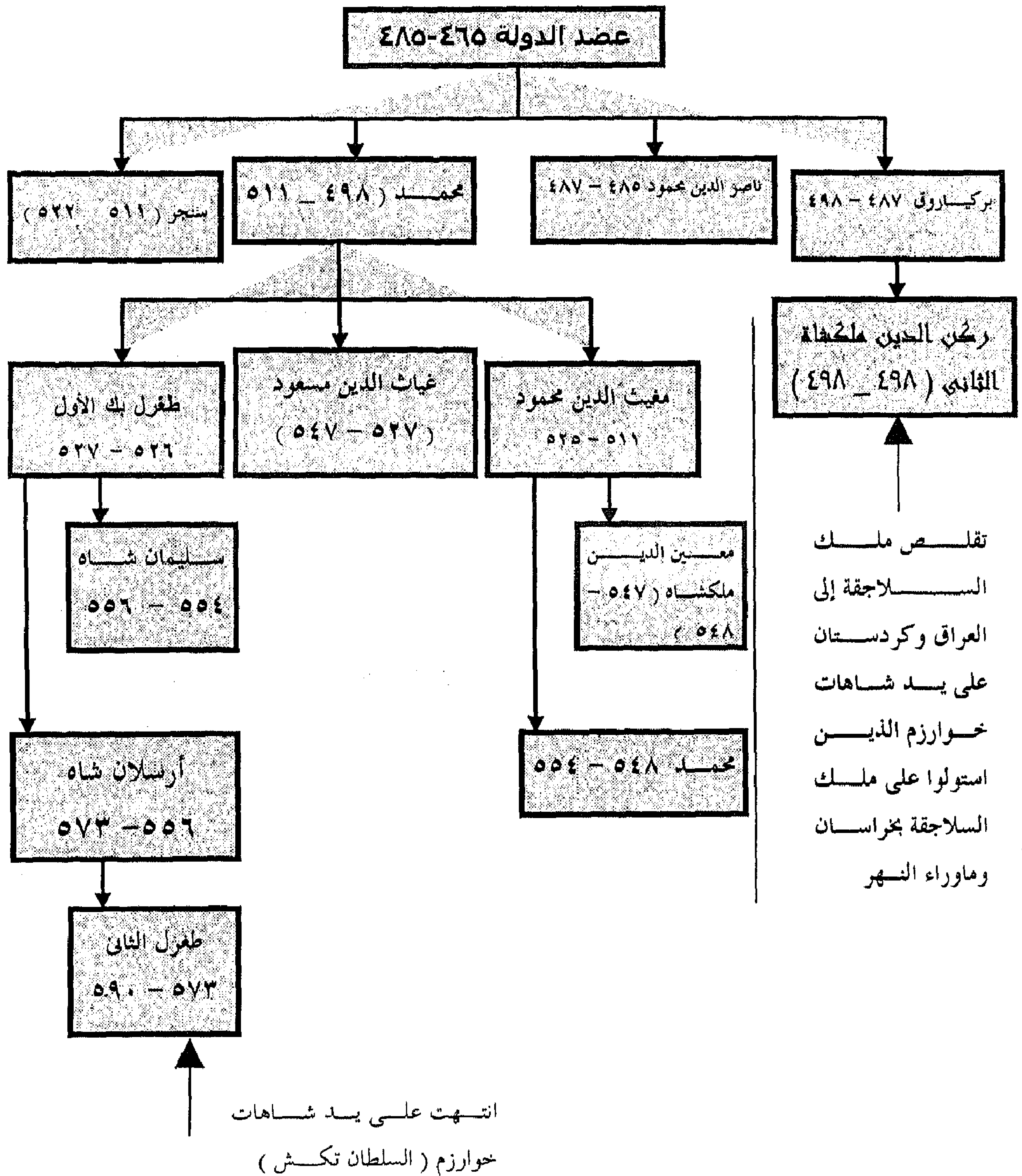
وفي سنة ٤٣٤ هـ استولى على خوارزم ، وانتقل الصراع فأصبح مع البويهيين ، فدخل طغرل بك أصبهان ثم تم الاتفاق معهم وتزوج طغرل بك ابنة أبي كاليجار البويهي كما تزوج أبو منصور ابن أبي كاليجار ابنة داود أخو طغرل بك سنة ٤٣٩هـ انتقل طغرل بك إلى الصراع مع الروم فقاتلهم وانتصر عليهم وعقد معهم هدنة واشترط فيها أن يبني مسجد بالقسطنطينية فبنوه وأقيمت فيه الصلاه وخطب لطغرل بك فيه .

تقاسم السلاجقه البلاد الواسعة التي بحوزتهم فيما بينهم وانتخب ملكاً عليهم جميعاً طغرل بك ولم يكن له أولاد واتخذ مدينة الري حاضرة له ، وقد اختير ابن اخيه ألب أرسلان بن داود ليكون مع عمه طغرل بك مساعداً له ، ونتيجة ما قدّم طغرل بك من خدمات ونتيجة مراسلاته مع الخليفة فقد ذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة قبل السلطان البويهي ثم استأذن طغرل بك على الخليفة القائم ودخل مدينة بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، وطلب الخليفة القائم من السلطان البويهي أن يتبع ويخضع لطغرل بك ، وبذا انتهى عهد البويهيين وجاء دور السلاجقة.

كان الخليفة قد تزوج خديجة بنت داود أخي طغرل بك سنة ٤٥٤ هـ ثم خطب طغرل بك ابنة الخليفة وتزوجها بعد امتناع من الخليفة ، واتجه طغرل بك إلى الري فمرض في الطريق ثم توفي سنة ٤٥٥ هـ بعد أن وصل إلى الري.

لقد استطاعت هذه العشيرة أن تستولي على جل ما ملكه المسلمون وقد انقسمت إلى خمسة بيوت.


سلجوق
موسى
ميكائيل
أرسلان
قطلمش
داود جعفر بك
ركن الدين طغرل بك محمد ٤٢٩-٤٥٥
سليمان
بيت سلاجقة الروم
(٤٧٠ – ٧٠٠)هـ
انتهت على أيدى الأتراك العثمانيين والمغول
عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان
(٤٥٥ – ٤٦٥)
عماد الدين قاروت
بيت سلاجقة كرمان
(٤٣٢ –٥٣٨)هـ
انتهت على أيدى الغزنويين
تتش
عضد الدولة أبو الفتح ملك شاة (٤٦٥ _ ٤٨٥)
تكش صاحب طخارستان
(بيت سلاجقة سوريا) (٤٨٧ _ ٥١١) هـ
انظر الصفحة التالية
انتهت دولتهم على يد أتابكة الشام والجزيرة



مخطط يوضح تسلسل سلاطين السلاجقة وبيوهم

صراع الشيعة والسنة

في صفر سنة ٤٤٣ هـــ وقعت حرب بين الشيعة والســـنة ، فقتـــل مـــن الفريقـــين خلـــق كثير ، وذلك أن الشيعة نصبوا أبراجاً وكتبوا عليـــها بـــالذهب : (محمـــد وعلـــيّ خـــير البشر ، فمن رضى فقد شكر ، ومن أبي فقـــد كفـــر).

فأنكرت السنة إقران على مع محمدﷺ في هذا ، فنشبت الحــــرب بينــــهم واســـتمر القتـــال بينهم إلى ربيع أول ، وأحرقت قبور بني بوية وقبر جعفـــر بـــن المنصـــور ومحمـــد الأمـــين وأمه زبيده وقبور كثيرة جداً ، وانتشرت الفتنة وتجاوزوا الحـــدود ، وقـــد قابلـــهم أولئـــك الرافضة الشيةه أيضاً بمفاسد كثيرة ، وبعـــثروا قبـــوراً قديمـــة وأحرقـــوا مـــن فيـــها مـــن الصالحين وكادوا أن يحرقوا قبر الإمـــام أحمـــد

وتسلط على الرافضة عيار يقال له القطيعي وكـــان يتبـــع رءوســـهم وكبـــارهم فيقتلـــهم جهاراً وغيلة ، وعظمت المحنة بسببه جـــداً ، ولم يقـــدر عليـــه أحـــد ، وكـــان في غايـــة الشجاعة والبأس والمكـــر .

استمر الحال حتى سنة ٤٤٨ هــ ، وهي السنة التي بدأ فيـــها ملـــك آل ســـلجوق.

يقول ابن كثـــير:

{ وفي هذه السنة ألزم الروافض بترك الاذان (بحي على خـــير العمـــل) وهـــي بدعـــة أحدثوها ، وأمروا أن ينادى مؤذنهم في أذان الصبح ، بعد حـــي علـــى الفـــلاح : الصـــلاة خير من النوم ، مرتين وأزيل ما كان على المساجد مـــن كتابـــة : (محمـــد وعلـــي خـــير بشر) ودخـــل المنشـــدون مـــن بـــاب البصـــرة إلى بـــاب الكـــرخ (الكـــرخ معقـــل الرافضة)ينشدون بالقصائد التي فيها مدح الصحابـــة ، وقـــد كـــانوا لا يســـتطيعون ذلـــك لأن بني بويه كانوا حكاماً ، وكـــانوا يقـــوون الشـــيعة وينصروهـــم ، فزالـــوا وبـــادوا

وذهبت دولتهم ، وجاء بعدهم قوم آخرون من الأتراك السلجوقية الذين يحبون أهل السنة ويوالونهم ويرفعون قدرهم والله المحمود ، أبداً على طول المدى)

فتنة عظيمة : سنة ٤٥٠ هـ : محاولة الفاطميين الاستيلاء على بغداد ونفي الخليفة العباسي إلى حديثة عانة بمساعدة أرسلان أبو الحارس البساسيري التركي:

كان البساسيري من مماليك بهاء الدولة ، وكان أولاً مملوكاً لرجل من أهل مدينة بسا، فنسب إليه فقيل له البساسيري ، وتلقب بالملك المظفر ثم كان مقدماً كبيراً عند الخليفة القائم بأمر الله ، لايقطع أمراً دونه، وخطب له على منابر العراق كلها ، ثم طغى وبغى وتمرد وخرج على الخليفة والمسلمين وفى هذه الفترة كان هناك نزاع بين الملك طغرل بك وأخيه إبراهيم فى نفس الوقت كان البساسيرى هذا ومعه قريش بن بدران أمير العرب يتوجهان إلى الموصل ونجحا فى أخذها .. فسار إليها طغرل بك سريعاً فاستردها .. وهربا منه فتبعهما إلى نصيبين ، وهرب إبراهيم أخو طغرل إلى همذان وعصى عليه فسار طغرل وراء أخيه وترك عساكره وراءه فتفرقوا وقل من لحقه منهم..

انتهز البساسيرى هذه الفرصة وقصد بغداد وليس بها أحد من المقاتلة ولما علم الناس بقدومه تنادى الناس : من أراد الرحيل من بغداد فليرحل ، فانزعج الناس وبكى الرجال والنساء والأطفال .. حتى أن الخليفة نفسه قد هم بالرحيل ولكنه آثر البقاء فى قصره مع النصح له بأن الأفضل أن يرحل لعدم المقاتلة .. حتى كان يوم ٨من ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ جاء البساسيرى إلى بغداد ومعه الرايات البيض المصرية وعلى رأسه أعلام مكتوب عليها اسم الخليفة الفاطمى فتلقاه الشيعة أهل الكرخ .. وجمع البساسيرى اللصوص ومنّاهم بنهب دار الخليفة ، ونهب الشيعة دور أهل السنة وأعيد عادات الشيعة وبدعهم .. ووجد الخليفة نفسه محاصراً وحوله زمرة قليلة من

العباسيين فطلب الأمان من أمير العرب قريش فأمّنـــه .. ولمــا علــم بذلــك البساســيرى اغتاظ ولامه لوماً عنيفاً على اعطاءه الأمان للخليفة ، ثم اتفقا علـــى إخـــراج الخليفـــة مـــن بغداد إلى أمير حديثة عانة وهو **مهارش بن مجلي الندوى** وهى من بـــنى عـــم قريـــش بـــن بدران وعبثاً ألح الخليفة على قريش أن لا يخرجه مـــن بغـــداد فلـــم يغـــد ذلـــك شـــيئاً ، وأخرج الخليفة فى هودج إلى حديث عانة فكان عند مهارش عاماً كـــاملاً ، وليـــس معـــه أحد من أهله وذلك فى ذى القعدة ســـنة ٤٥٠ هـــ .

وأمر البساسيرى بالخطبـــة للخليفـــة المصـــري ، والروافـــض فى غايـــة الســـرور وانتقـــم البساسيرى من أعيان أهل بغداد انتقامـــاً عظيمـــاً

ودخلت سنة ٤٥١ والحال على ما هى عليه بيد أن الســـلطان طغـــرل قـــد انتـــهى مـــن منازعة أخيه إبراهيم وقتله تفرغ للقضـــاء علـــى البساســـيرى فأرســـل إلى أمـــير العـــرب يتهدد ويتوعد فتحالف معه على البساســـيرى .. وتوجـــه الســـلطان طغـــرل إلى بغـــداد وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً وأرسل السلطان إلى الخليفـــة مراكـــب كثـــيرة فلمـــا وصل الخليفة النهروان خرج السلطان لتلقيه ، فلما دخـــل ســـرادق الخليفـــة قبَّـــل الأرض بين يد الخليفة سبع مرات وكان يومـــاً عظيمـــاً ..

ثم خرج السلطان خلف البساسيرى الـــذى هـــرب إلى واســـط فـــاقتتلوا هنـــالك وانهـــزم أصحاب البساسيرى وتبعه بعض الغلمان فقتلوه وحملـــت رأســـه إلى بغـــداد وانتـــهت بذلك فتنتـــه .

معركة ملاذكرت

توفى طغرل بك سنة ٤٥٥ هـ في خلافة القائم وتولى الأمر بعده سلطان عضد الدولة **أبي شجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق** .

وفى سنة ٤٦٣ هـ أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والكرخ والفرنج وعدد عظيم وعُدَد ، ومعه خمسة وثلاثون ألفاً من البطارقة مع كل بطريق مائتا ألف فارس ، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفاً ، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفاً ، ومعه مائة ألف نقاب وحفار ، وألف روزجاري ،ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير ، وألف عجلة تحمل السلاح والسروج والغرادات والمناجيق ، منها منجنيق عدة ألف ومائتا رجل ، ومن عزمه - قبحه الله _ أن يبيد الإسلام وأهله ، أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد واستوصى نائبها بالخليفة خيراً والقدر يقول (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون)

فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب من عشرين ألفاً بمكان يقال له الزهوة في يوم الأربعاء ٢٥من ذي القعدة ، وخاف السلطان من كثرة جند الروم ، فأشار عليه الفقيه **أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري** بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين ، فلما كان ذلك الوقت وتواجه الفريقان ، **نزل السلطان عن فرسه وسجد لله عز وجل ، ومرَّغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره ، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم أكتافهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسر ملكهم أرمانوس ، أسره غلام رومي !!!**

كان عهد ألب أرسلان كله عهد نمو وارتقاء في دولة السلاجقة لا بالبسيف وحده بل للعلم أيضاً فإن الملك أسس في عهده أول المدارس النظامية ببغداد وقد تم بناؤها

سنة ٤٥٨ هـ ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهو الشيخ أبو إسحاق الشيرازي .

وفي سنة ٤٦٥ هـ توجه ألب أرسلان قاصداً بلاد الترك فعبر نهر جيجون ولكن عاجلته منيته حكِيَ أنه قال وهو يقرب من الموت :

{ما كنت قط في وجه قصدته ولا عدو أردته إلا توكلت على الله وطلبت منه النصر وأما في هذه النوبة فإني أشرفت من تل عالٍ فرأيت عسكري فقلت أين من له قدرة بمصارعتي ومعارضتي وإني أصل بهذا العسكر إلى بلاد الصين فكان ما أراد الله ..}

ثم تولى بعده جلال الدولة أبو الفتح ملك شاه ، وفى ١٣من شعبان سنة ٤٦٧ هـ توفى الخليفة القائم بأمر الله .

يقول ابن كثير في وصف القائم:

{ ولم يبلغ أحد قبله هذه المدة ، كان فصيحاً ورعاً زاهداً كثير الإحسان إلى الناس رحمه الله ، وقد كان من خيار بني العباس ديناً واعتقاداً ودولة ، وقد امتحن من بينهم بفتنة البساسيري التي اقتضت إخراجه من داره ومفارقته لأهله وأولاده ووطنه ، فأقام بحديث عانه سنة كاملة ثم أعاد الله تعالى عليه نعمته وخلافته)

خلافة المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الأمير ذخيرة الدين أبي القاسم محمد بن الخليفة القائم بأمر الله بن القادر العباسي

من ١٣ من شعبان سنة ٤٦٧ هـ حتى ٥ من محرم ٤٨٧ هـ

فتكون مدة خلافته ١٩ سنة وثمانية أشهر

تولى الخلافة وعمره عشرون عاماً نشأ في حجر جده القائم بأمر الله يربيه بما يليق بأمثاله .

كان المقتدي شجاعاً شهماً أيامه كلها مباركة ، والرزق دار والخلافة معظمة جداً ، وتصاغرت الملوك له وتضاءلوا بين يديه ، خُطِب له بالحرمين وبيت المقدس والشام كلها ، واسترجع المسلمون الرها وأنطاكية من أيدي العدو ، وعمرت بغداد وغيرها من البلاد وكان وزراؤه وقضاته من خيار الناس

وفي أول سنوات حكمه أخرج المفسِدات من بغداد وأمرهن أن ينادين على أنفسهن بالعار والفضيحة ، وخرب الخمارات ودور الزواني والمغاني

توافر لهذا الزمن اكتمال السعادة فقد كان ملك شاه السلجوقي أيضاً سلطاناً عادلاً مقداماً لا يتوجه إلى إقليم إلا فتحه وخضع له ملوك الشرق والغرب ، وخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى اخر بلاد اليمن وحملت إليه الروم الجزية ولم يفته مطلب .

كذلك كان الوزير قوام الدين نظام الملك أبي على الحسن بن عليّ بن إسحاق رضى أمير المؤمنين ، كان معدوداً من العلماء الأجواد وكان محباً للعلم ، بمجلسه دائماً معمور بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية في سائر الأمصار والبلاد وأسقط في زمنه كثير من المكوس

والضرائب .

وعلى الجملة فقد كان هذا الوزير غرة في جبين آل سلجوق وهو قرين أبو حامد الغزالي حجة الإسلام في طلب العلم

بيد أن الوشاة وأصحاب المصالح لا يريدون لهذه الأمة أمثال هذا السود وهؤلاء الوزراء والسلاطين، فسعوا بينه وبين السلطان حتى استوحش منه السلطان واستطال مدته وكانت تسعة وعشرين عاماً في الوزارة وقتل ومن عجائب القدر أن يموت السلطان بعده بخمسة وثلاثين يوماً وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقي ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف.

وكان ملكشاه له أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود فتولى بركياروق ولكن الخليفة مات فجأة قبل أن يوقع تقليده السلطنة.

خلافة أبي العباس أحمد المستظهر بالله
من ١٥من محرم سنة ٤٨٧ هـ حتى ١١ من ربيع آخر سنة ٥١٢
فتكون مدة خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و١١ يوما

كان المستظهر لين الجانب كريم الأخلاق مسارعاً في أعمال البر .. وكانت أيامه أيام سرور لرعيته ..

تولى ملك العراق في عهده بركياروق بن ملكشاة الذي لم يحسن اختيار معاونيه مما جرّأ عمه تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق أن يطلب السلطنة لنفسه وقامت بينهما معارك انتهت بقتل تتش سنة ٤٨٧ هـ واستقام الأمر لبركياروق بعد أن كاد يضمحل .

طلب السلطنة كذلك أخو بركياروق محمد بن ملك شاه فكان ذلك فاتحة شر

مستطير على هذين الأخوين بل على البيت السلجوقي كله بل على الإسلام جميعاً فقد ظلت نيران الحرب بينهما مستعرة من سنة ٤٩٢ هـ حتى سنة ٤٩٧ هـ أي خمس سنين فتحرك الإفرنج من مرابضهم للإغارة على البلاد الإسلامية لتخليص البيت المقدس كما زعموا ، وملوك الإسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون ويتخاصمون .

حتى تم الصلح بينهما كلٌّ على البلاد التي تحت يديه فزال الخلف والشغب ولكن لم تطل مدة بركياروق بعد هذا الصلح فإنه توفى في ٢ من ربيع ثاني سنة ٤٩٧ .

وتم الأمر من بعده لأخيه محمد الذي لم يكن موفقاً في اختيار وزرائه وولاته فكثر التغيير والاضطراب في عهده.

واستمر مَلك محمد إلى سنة ٥١١ هـ وكان عادلاً حسن السيرة شجاعاً .. واختير للملك بعده ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين أبو القاسم محمود بن محمد بن ملك شاه.

وبعدها بأربعة أشهر توفى الخليفة المستظهر بالله.

خلافة أبي منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر
من ١٦ من ربيع آخر سنة ٥١٣ هـ حتى قتل في ١٧ من ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ

كان شهماً شجاعاً كثير الإقدام بعيد الهمة وكان بليغاً حسن الخط ، يقول عنه ابن الأثير : (ولقد حاول أن يعيد شيئاً من مجد أهل بيته فحالت الأقدار بينه وبين ما أراد).

كان سلطان العراق لأول عهده : السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ولكن عمه

سنجر بن ملكشاه (وكان ملك خراسان وما إليها من بـــلاد مـــا وراء النـــهر) لم يرضـــه هذا الوضع فتوجه إلى العراق والتقيا بجيوشهما محمـــود وعمـــه ســـنجر عنـــد الـــري وانتصر سنجر وخطب على المنابر له وكان يقيم بـــالأهواز ثم تصالحـــا علـــى أن يخطـــب لمحمود من بعد عمه وردّ عليه جميع ما أخذ منه ســـوى الـــري.

وفي سنة ٥١٤ هـــ قام ضد محمود أخـــوه مســـعود بـــن محمـــد (وكـــان لـــه الموصـــل وأذربيجان) فتقاتلا فالهزم عسكر مســـعود ثم تصالحـــا

هذا النزاع بين عظماء السلاجقة جعل الخليفة المسترشد يحـــاول أن يعيـــد هيبـــة الخلافـــة فقاد الجيوش بنفسه لمحاربة المخالفين و لم يكن للخلفاء عهد بذلـــك منـــذ زمـــن طويـــل ، ولا شك أن الملوك السلجوقيين لا يعجبهم ذلك فـــإلهم يـــرون ذلـــك تقليصـــاً لدورهـــم وخطراً على نفوذهـــم

ولذا عزم محمود بن محمد بن ملكشاه أن يدخـــل بغـــداد و لم يكـــن مقيمـــاً بهـــا ولكـــن الخليفة وقف له وحاول منعه بالقوة فلما رأى إصرار محمود آثـــر الصلـــح فدخـــل محمـــود بغداد سنة ٥٢١ هـــ وأقام بها بضعة أشهر ثم فارقها بعـــد أن حمـــل إليـــه الخليفـــة الخُلَـــع والدواب الكثـــيرة.

وفي سنة ٥٢٤ هـــ استطاع محمود أن يستولي علـــى قلعـــة المـــوت مـــن يـــد صاحبـــها **الحسن بن الصباح الاسماعيلي البـــاطني.**

وفي سنة ٥٢٥ هـــ توفى السلطان محمود فاضطرب الأمـــر مـــن بعـــده حـــتى ولى أخـــوه مسعود الملقب بـــ (غياث الدنيا والديـــن).

مرة أخرى حاول الخليفة المسترشـــد أن يعيـــد هيبـــة الخليفـــة وأن يتحـــرر مـــن نفـــوذ السلاجقة باستعمال القوة معهم مما سبب نفـــرة بينـــه وبـــين الســـلطان مســـعود أدت إلى أن أمر الخليفة بقطع خطبة مسعود من منابر بغداد وجهز جيشـــاً لحـــرب مســـعود ومعـــه

جنود كثيرة لكنها لم تكن ذات عصبية تصدق عند اللقاء لذا لما تواجه الطرفان تحول كثير من عسكر الخليفة الأتراك إلى السلطان مسعود ، فانهزم جند الخليفة وثبت الخليفة حتى أُسر وقتل في ١٨من ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ.

وتولى بعده ابنه الراشد أبو جعفر المنصور في ٢٧من ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ الذي دخل في مواجهة مباشرة من السلطان مسعود فخلع بعد ١١ شهراً و١١ يوماً.

خلافة المقتفي لأمر الله أبو عبد الله الحسين ابن المستظهر من ٨ من ذي الحجة سنة ٥٣٠ هـ حتى ٢من ربيع أول سنة ٥٥٥ هـ فتكون مدة خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و١٦ يوماً

اختاره السلطان مسعود ، ولما توفى السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ بهمذان ماتت معه سعادة البيت السلجوقي فلم تقم له بعده راية يعتد بها.

تولى بعده محمد بن محمود الذى توفى سنة ٥٥٤ هـ بهمذان ثم كان الأمر من بعده لأرسلان بن طغرل .

ثم وتوفى الخليفة سنة ٥٥٥ هـ ٢ ربيع أول .

وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن السلاجقة وأول خليفة تمكن من الخلافة ، كان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه وكان عادلاً حسن السيرة من الرجال ذوي الرأي والعقل والكبير.

خلافة المستنجد بالله أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله

من ٦من ربيع أول سنة ٥٥٥ هـ حتى ٩من ربيع أخر سنة ٥٦٦ هـ فتكون مدة خلافته ١١ سنة وشهرا وأسبوعا

كان يعد من خيرة الخلفاء العباسيين رفع المكوس والمظالم ولم يترك منها شيئاً وكان شديداً على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس.

وكان ملك السلاجقة في عهده أرسلان بن محمد بن ملكشاه ولم يكن له شئ من السلطان في بلاد العراق .

خلافة المستضىء بالله أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله

من ٩من ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ حتى ٦من ذى القعدة سنة ٥٧٥ هـ فتكون مدة خلافته تسع سنوات وسبعة أشهر إلا سبعة أيام

كان عادلاً حسن السيرة في الرعية عاش حميداً ومات سعيداً .

يقول ابن الأثير فى تاريخه : وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحرياً للعدل منه ، وله أخبار حسان ألفت فيها كتب خاصة .

*وانقرضت في عهده الدولة الفاطمية في محرم سنة ٥٦٧ هـ على يد الدولة **الأيوبية**.*

خلافة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بن المستنجد
من ٢من ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ حتى ٢٩من رمضان سنة ٦٢٢ هـ فتكون مدة خلافته ٤٦ سنة وعشرة أشهر و ٢٨ يوماً

وهو أطول خلفاء بني العباس مدة ، وفي عهده انتهى ملك السلجوقين بالعراق سنة ٥٩٠ هـ بقتل طغرل بن أرسلان على يد **خوارزمشاه علاء الدين تكش** الذي اتسع ملكه جداً فصار ملكه ممتداً من أقاصي بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الري التي أخذها بعد القضاء على السلاجقة وكان هوى خوارزمشاه أن يذكر اسمه على منابر بغداد فيخطب له بدل السلاجقة ولكن الخليفة أبى فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده

التتار والأمة الإسلامية

من هم التتار ؟

شعب كبير من الأمة التركية ومنه تتفرق معظم بطونها وهو مرادف للترك عند الأفرنج.

منهم جنكيز خان وكان ذا همة عالية وكان قومه متفرقين مغلوبين من منافسيهم من التتر وهم المغول فعمل على لم شعثهم فنجح في ذلك فحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعاً بعد حروب شديدة وكون مملكة واسعة مسكونة بتلك الأمم التي لا يعلم عددها إلا الله وعاصمة ملكه مدينة قراقروم .

ثم فكر في وضع قانون لهذه الأمة العظيمة يكون لهم ديناً يسيرون على مقتضاه فوضع لهم (اليساق) أو (الياسة) وهي كتابهم الذي يرجعون إليه في معاملاتهم وأحكامهم وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين .

يقول المؤرخون : إن الخلاف الذي قام بين الخليفة الناصر وخوارزمشاه علاء الدين تكش جعل الخليفة يستدعي التتر للخروج إلى مملكة خوارزمشاه كي ينشغل بهم عن مراده أن تكون السلطنة لـه.

لم يكن الخليفة يقصد ما تبع فعلته من أحداث ، كان كل ما يريد هو ألا يعود من جديد نفوذ لغير دولتهم الخلافة و لم يكن الخليفة كذلك يظن أن التتار بهذه القوة وأن خوارزمشاه بهذا الضعف

والحقيقة أن جنكيز خان لم يكن يرى أن ذلك سبب كاف للهجوم على دولة خوارزمشاة وكان هناك وفاق بينه وبين خوارزمشاه حتى كانت سنة ٦١٥ هـ لما سافر تجار من بلاد جنكيز خان حتى وصلوا إلى بلدة بثغر خوارزمشاه بساحل

سيمون وبها وال من قبل خوارزمشاه ، فلما ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء ٤٠٠ نفس وعهم أموال جسيمة طمع ذلك الوالي في أخذ أموالهم فأرسل قاصداً إلى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيز خان قد قاموا في زي تجار فأمره بقتلهم وأخذ أموالهم ففعل.

فلما بلغ ذلك جنكيز خان أرسل إلى خوارزمشاه أن يبعث إليه الوالي الذي فعل هذه الفعلة ليقتص منه ولكن خوارزمشاه قتل الرسول مما دعا جنكيز خان للخروج لمحاربته .

وبدأ خوارزمشاه بالعدوان وهجم على بلاد عدوه فلقي هناك جموعاً قليلة ولكنه لم يتمكن من التغلب عليها فعلم أنه سيواجه حرباً ضروساً مع عدوه.

زحفت جيوش جنكيز خان الجرارة وعبر نهر سيحون وسار حتى أتى بخارى وكان بها عشرون ألفاً من الجنود الخوارزمية فهربوا وتركوا المدينة بلا حامية .

وفى ٤من ذي الحجة سنة ٦١٦ هـ دخل التتار بخارى وأمر جنكيزخان التجار أن يأتوا بما استلبوه من تجارة وأخرج رؤساء البلد منها وانتهبت الأموال وتقاسم الجند من بقى من الناس وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأنها لم تغن بالأمس وكذلك فعلوا بسمرقند في محرم سنة ٦١٧ هـ.

ثم اختار جنكيز خان عشرين ألفاً من أشداء جنوده وأمرهم أن يطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسماء ففعلوا وكلما هموا أن يوقعوا به هرب منهم وقد أصابه الهلع والرعب حتى وصل إلى قلعة له في البحر فلما نزل هو وأصحابه في السفن يئس التتر من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به.

فلما عادوا استولوا على كل قرية يمرون بها (مازندان ، الري ، همذان ، قزوين) حتى وصلوا إلى البلاد الشمالية وهي دشت القفجاق وفيها أمم تركية كثيرة فأمعنوا

فيهم قتلاً وسبياً فتفرقوا في جميع الأقطار وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ومنهم المعز أيبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم .

ثم دخل التتر بلاد الروس ثم بلغار أواخر سنة ٦٢٠ هـ .

استطاعت هذه الفئة القليلة التي خرجت تطلب خوارزمشاه أن تثير الرعب و النهب والخراب .

ثم أرسل جنكيز جيوشه تستولي على البلدان الواحدة تلو الأخرى فتم له مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدئ شرقاً من بلاد الصين وتنتهي غرباً إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوباً ببلاد الهند وشمالاً بالبحر الشمالي كل ذلك تم له في مدة قصيرة .

ولما أحس بقرب منيته قسَّم الممالك الجنكيزية إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة كما سيأتي بيانه.

كان التتار يفسدون في الأرض والخليفة الناصر مشغول عن ذلك بلهوه وعبثه ظالماً للناس وسلب الأموال وتوفى جنكيز خان سنة ٦٢٤ هـ فكان قبيح السيرة وبقي في أواخر أيامه ثلاث سنين معطلاً عن الحركة وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً حتى وافته المنية .

خلافة أبو نصر الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر
من غرة شوال سنة ٦٢٢ هـ حتى ١٤من رجب سنة ٦٢٣ هـ
فتكون مدة خلافته تسعة أشهر و١٤ يوما

كان عادلاً محسناً قالوا إنه أعاد سنة العُمَريـــــن .

وكانت تأتيه الأخبار عن الناس والأحوال على عادة من قبلـــه فيردهـــا ويقـــول: أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوقم فلا يكتب أحد لنـــا إلا مـــا يتعلـــق بمصـــالح دولتنا ، فقيل له : إن العامة يفسدها ذلـــــك ويعظـــم شـــرها ، قـــال إنـــا ندعـــو الله أن يصلحـــهم .

ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعيـــة فجـــدد مـــن العـــدل مـــا كـــان دارساً وأذكر من الإحسان ما كان منسياً حـــتى توفـــاه الله .

خلافة أبي جعفر المنصور بن المستنصر بالله بن الظاهر
من ١٤ من رجب سنة ٦٢٣ حتى ١٠ من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠
فتكون مدة خلافته ١٧ سنة إلا شهرا

سلك في الناس سيرة أبيـــه .

آخر خلفاء العباسيين ببغــــداد .

خلافة أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضئ بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي بن محمد الذخيرة بن القائم بن القادر بن اسحاق بن المقتدر بن القادر بن اسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهتدي بن المنصور .
بويع بالخلافة فى ١٠ جمادى الآخر سنة ٦٤٠ هـ حتى قتل بين يدى هولاكو خان في ٢٠ من محرم سنة ٦٥٦ هـ

ففي آبائه سبعة عشر خليفة لم يغنوا عنه مــــن الله شـــيئا.

وبقتله انتهت الخلافة العباسية ببغـــــداد .

كان خيرا متدينا عفيف اللسان والفرج جعل كتاب الله لا أنـــــه كـــان مســـتضعف الـــرأي ضعيف البطـــش .

وزيره **مؤيد الدين محمد بن العلقمي** صــــاحب التوجــــه الشـــيعي النـــاقم علـــى الدولـــة العباسية وقيل إنه يهودي الأصل وهو الذي كان يوافي التتــــار بأخبـــار المســـلمين.

يقول ابن كثير في وصف كيفية دخول التتار بغداد :

[ثم دخلت سنة ٦٥٦ هـ فيها أخذت التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة و انقضت دولة بني العباس منها،استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار ، هولاكوخان ، وجاءت إليهم أمداد احب الموصل[1] يساعدوهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه ، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً ، كما ورد في الأثر " لن يغني حذر عن قدر " وكما قال تعالى :(إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر)

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه ، وكانت من جملة حظاياه ، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة ، فانزعج الخليفة من ذلك فزعاً شديداً ، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم ، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز ، وكثرت الستائر على دار الخلافة – وكان قدوم هولاكوخان بجنوده كلها، وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل – إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة ،

[1] صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، كان بدر الدين هذا أرمينياً اشتراه رجل خياط إلى الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي أقسنقر ، وكان مليح الصورة ذو عقل ودهاء ، فحظى عنده وتقدم في دولته إلى أن صارت الكلمة العليا له ثم إنه عمل قتل أولاد أستاذه غيلة واحداً تلو الآخر إلى أن لم يبق معه أحد منهم ، فاستقل بالملك ، فملك الموصل نحواً من خمسين عاماً ، وكان شيعياً يبعث في كله سنة إلى مشهد على قنديلاً ذهباً زنته ألف دينار ، ولما خرج هولاكو من بغداد سار لؤلؤ إلى خدمته طاعة له

وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه وأنفذه وأمضاه ، وهو أن هولاكو لما كان أول بروزه من همدان متوجهاً إلى العراق أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير أيبك وغيره ، وقالوا إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال ، وأشار بأن يبعث بشيء يسير ، فأرسل شيئاً من الهدايا فاحتقرها هولاكوخان وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دويداره المذكور ، وسليمان شاه ، فلم يبعثهما إليه ، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة ، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية الشرقية ، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة ، ولايبلغون عشرة آلاف فارس وهم بقية الجيش ، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي ، وذلك أنه لما كان في السنة الماضية كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير ، فاشتد حنقه على ذلك ، فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد وإلى هذه الأوقات، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو ، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه ، فاجتمع بالسلطان هولاكوخان لعنه الله ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة ، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورءوس الأمراء والدولة والأعيان ، فلما اقتربوا من منزل السلطان

هولاكوخان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً ، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين ، وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم ، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت ، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خوجةَ نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما ، والخليفة تحت الحوطه والمصادرة ، فأحضر من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة ، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو ألا يصالح الخليفة، وقال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاما أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك ، وحسنوا له قتل الخليفة ، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله ، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي ، والمولى نصير الدين الطوسي ، وكان نصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت ، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية وانتخب هولاكو نصير ليكون في خدمته كالوزير المشير ، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً ، وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شئ من دمه ، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم ، وقيل بل خنق ، ويقال بل أغرق فالله اعلم ، فباءوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاه والأكابر والرؤساء والأمراء وأولى الحل والعقد ببلاده ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش ، وفي الوسخ ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون ، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحه ، حتى تجري الميازيب من

الدماء في الأزقة ، فإنا لله وإنا إليه راجعـــون .

وكذلك في المساجد والجوامع والربط ، ولم ينج منـهم أحـد سـوى أهـل الذمـة مـن اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمـي الرافضـي وطائفـة مـن التجار أخذوا لهم أماناً ، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سـلموا وسـلمت أموالهـم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خـراب ليـس فيـها إلا القليـل مـن الناس ، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة ، وكـان الوزيـر ابـن العلقمـي قبـل هـذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمـهم مـن الديـوان ، فكـانت العسـاكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مائة ألف مقاتل ، منهم مـن الأمـراء مـن هـو كـالملوك ، فلم يزل يجتـهد في تقليلـهم إلى أن لم يبـق سـوى عشـرة آلاف ، ثم كـاتب التتـار وأطعمهم في أخذ البلاد ، وسهل عليهم ذلك ، وحكى لهـم حقيقـة الحـال ، وكشـف لهم ضعف الرجال ، وذلك كله طمعاً منه أن يزيل السـنة بالكليـة ، وأن يظـهر البدعـة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفـاطميين ، وأن يبيـد العلمـاء والمفتيـين ، والله غـالب على أمره ، وقد رد كيده في نحره ، وأذله بعـد العـزة القعسـاء ، وجعلـه حوشكاشـا للتتار بعدما كان وزيراً للخلفاء ، واكتسب إثم من قتـل ببغـداد مـن الرجـال والنسـاء والأطفال فالحكم لله العلي الكبـير رب الأرض والسـماء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هـذه الوقعـة ، فقيـل ثمانمائـة ألف ، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف ، وقيل بلغت القتلـى ألفـي ألـف نفـس ، فإنـا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلـي العظيـم .

وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم ، وما زال السيف يقتـل أهلـها أربعـين يومـاً ، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعـاء رابـع عشـر صفـر وعفـى قبره، وكان عمره يومئذ ٤٦ سنة وأربعة أشـهر ، ومـدة خلافتـه خمـس عشـرة سـنة

وثمانية أشهر وأيام وقتل معه ولده الأكبر أبو العبـــاس احمـــد ، ولـــه ٢٥ ســـنة ، ثم قتـــل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وله ثلاث وعشرون ســـنة، وأســـر ولـــده الأصغـــر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجـــة ومـــريم ، وأســـر مـــن دار الخلافـــة مـــن الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل والله أعلم فإنا لله وإنـــا إليـــه راجعـــون.

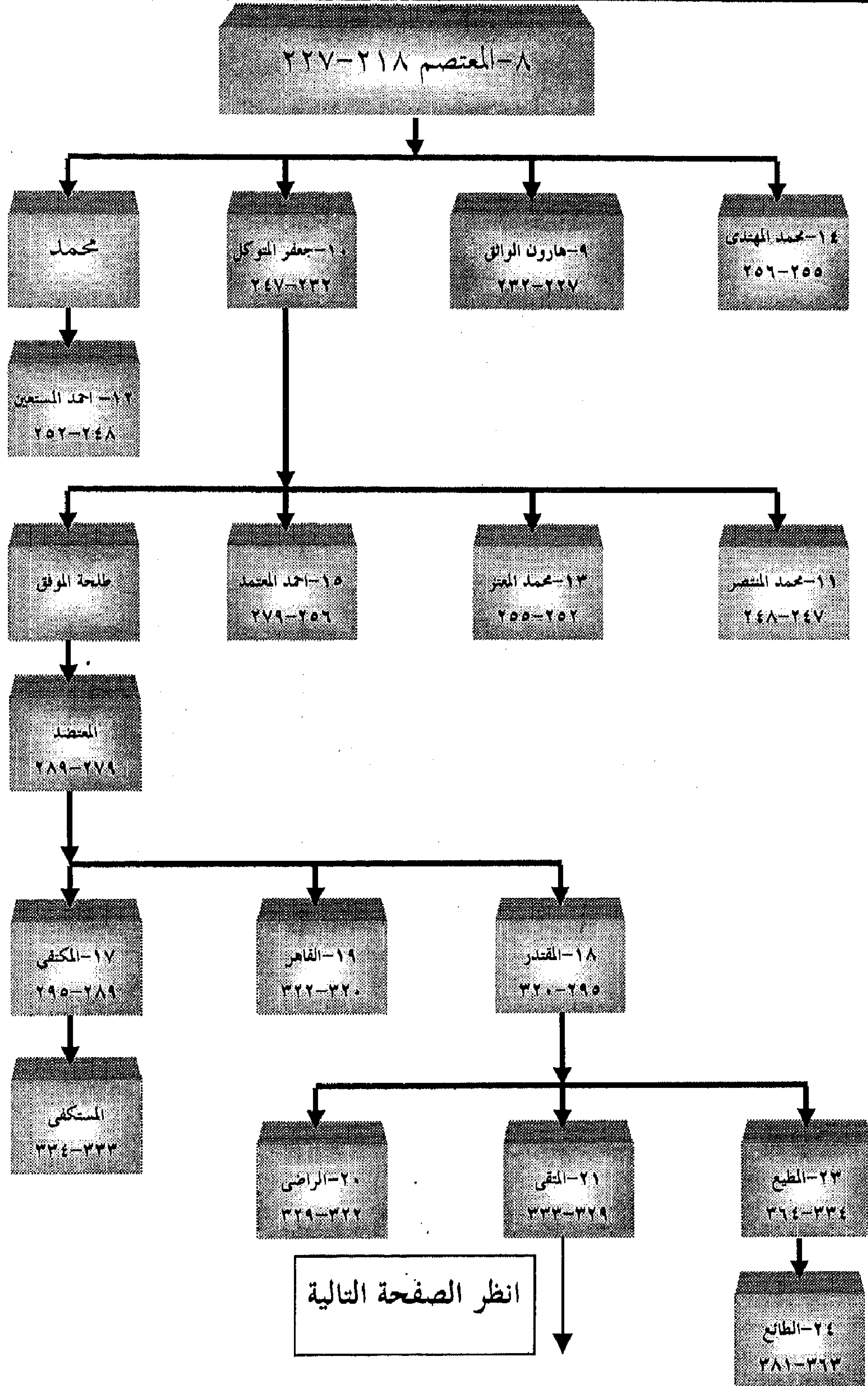
وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محي الدين يوسف بن الشـــيخ أبي الفـــرج ابـــن الجـــوزي ، وكان عدو الوزير ، وقتل أولاده الثلاثة : عبد الله ، وعبـــد الرحمـــن ، وعبـــد الكـــريم ، وأكابر الدولة واحداً بعد واحد ، منهم الدويدار الصغير مجاهد الديـــن أيبـــك ، وشـــهاب الدين سليمان شاه ، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد ، وكـــان الرجـــل يســـتدعي بـــه من دار الخلافة من بني العباس فيخرج بأولاده ونسائه فيذهـــب بـــه إلى مقـــبرة الخـــلال ، تجاه المنظرة فيذبح كما يذبح الشاه ، ويؤسر من يختارون مـــن بناتـــه وجواريـــه ، وقتـــل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علـــى بـــن النيـــار ، وقتـــل الخطبـــاء والأئمـــة ، وحملة القرآن ، وتعطلت المساجد والجماعات والجمعـــات مـــدة شـــهور ببغـــداد ، وأراد الوزير ابن العلقمي قبحـــه الله ولعنـــه أن يعطـــل المســـاجد والمـــدارس والربـــط ببغـــداد ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض ، وأن يبني للرافضـــة مدرســـة هائلـــة ينشـــرون عملـــهم وعلمهم بها وعليها ، فلم يقدره الله تعالى من ذلك بل أزال نعمتـــه عنـــه وقصـــف عمـــره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة ، وأتبعه بولده فاجتمعـــا والله أعلـــم بـــالدرك الأســـفل من النـــار .

ولما انقضى الأمراء المقدر وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغـــداد خاوية علـــى عروشـــها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس والقتلـــى في الطرقـــات كأنهـــا التلـــول ، وقـــد ســـقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلـــد ، وتغـــير الهـــواء فحصـــل بســـببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلـــق كثـــير مـــن تغـــير

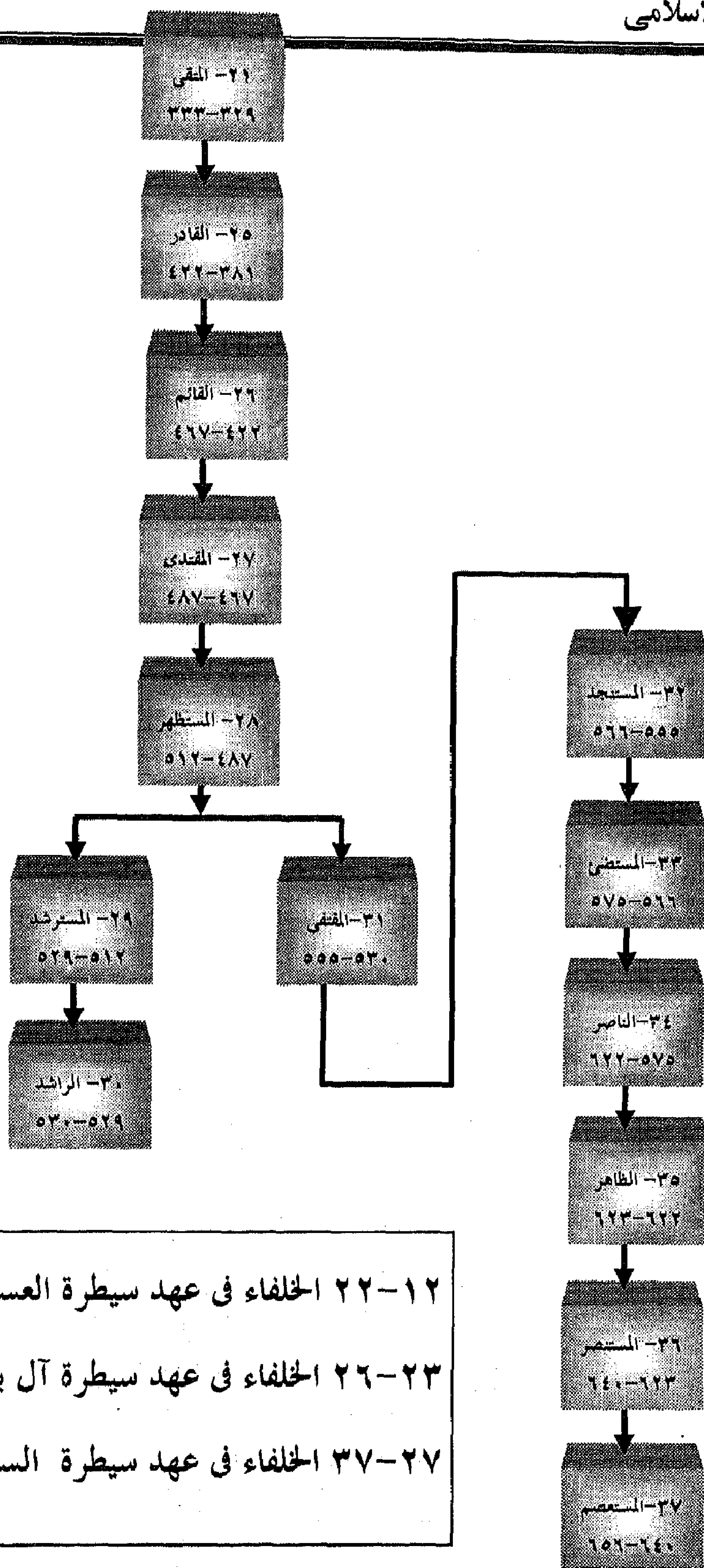
الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلـــق كثـــير مـــن تغـــير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغـــلاء والوبـــاء والفنـــاء والطعـــن والطـــاعون ، فإنا لله وإنا إليه راجعـــون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض مـــن كـــان بالمطامـــير والقـــني والمقـــابر وكأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم ، وقد أنكر بعضهم بعضاً فـــلا يعـــرف الوالـــد ولـــده ولا الأخ أخاه ، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقـــوا بمـــن ســـبقهم مـــن القتلـــى ، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم الســـر وأخفـــى ، الله لا إلـــه إلا هـــو لـــه الأسمـــاء الحسنى ، وكان رحيل السلطان المسلط هولاكوخان عـــن بغـــداد في جمـــادى الأولى مـــن هذه السنة إلى مقر ملكه ، أما الوزير ابن العلقمي فلم يمهلـــه الله ولا أهملـــه ، بـــل أخـــذه أخذ عزيز مقتدر ، في مستهل جمادى الآخرة عن ثـــلاث وســـتين ســـنة ، وكـــان عنـــده فضيلة في الإنشاء ولديه فضيلة في الأدب ، ولكنه كـــان شـــيعياً جلـــداً رافضيـــاً خبيثـــاً ، فمات جهداً وغماً وحزناً وندماً ، وإلى حيث ألقت رحلـــها أم قشـــعم ، فـــولى الـــوزارة ولده عز الدين بن الفضل محمد ، فألحقـــه الله بأبيـــه في بقيـــة هـــذا العـــام ، ولله الحمـــد والمنة.

وذكر أبو شامة وشيخنا أبو عبد الله الذهبي وقطب الدين اليونيـــني أنـــه أصـــاب النـــاس في هذه السنة بالشام وباء شديد ، وذكروا أن سبب ذلك من فســـاد الهـــواء والجـــو ، فســـد من كثرة القتلى ببلاد العراق وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشـــام فـــالله أعلـــم .



انظر الصفحة التالية



١٢-٢٢ الخلفاء فى عهد سيطرة العسكر الأتراك

٢٣-٢٦ الخلفاء فى عهد سيطرة آل بويه

٢٧-٣٧ الخلفاء فى عهد سيطرة السلاجقة

الفصل الثاني

الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية

صارت الدولة العباسية في منتصف القرن الثالث محاطة بدول مستقلة في الإدارة عن سلطان الخلفاء حصل ذلك في المغرب والمشرق والجنوب والشمال في آن واحد ، ولا قبل للدولة بإرسال الجنود لإعادة الحكم العباسي الفعلي إلى تلك الولايات لأن الموالي الأتراك قلما يهمهم ذلك ما داموا آخذين بحلاقيم الخلفاء في حاضرة الدولة ..

الفصل الثاني : أهم الدول التي قامت في عهد الخلافة العباسية

مقدمة :

كان تغلب عنصر الترك على مقاليد الخلافة العباسية ببغداد الأثر الأكبر في إضعاف هيبة الخلفاء ورأى الولاة الذين هم في الأطراف أن يستقلوا بما تحت أيديهم لأنهم ليسوا أقل من أتراك بغداد ، و لم يمض وقت طويل حتى صارت الدولة العباسية – في منتصف القرن الثالث– محاطة بدول مستقلة في الإدارة عن سلطان الخلفاء.

وكانت هذه الدول منها الموالي لدولة الخلافة فتعلن الدعاء لهم على المنابر وتكتب أسماء الخلفاء على السكة وترسل الأموال والهدايا إلى بغداد ، ومنها ما استقل استقلالاً تاماً بل وعادي أحياناً دولة الخلافة.

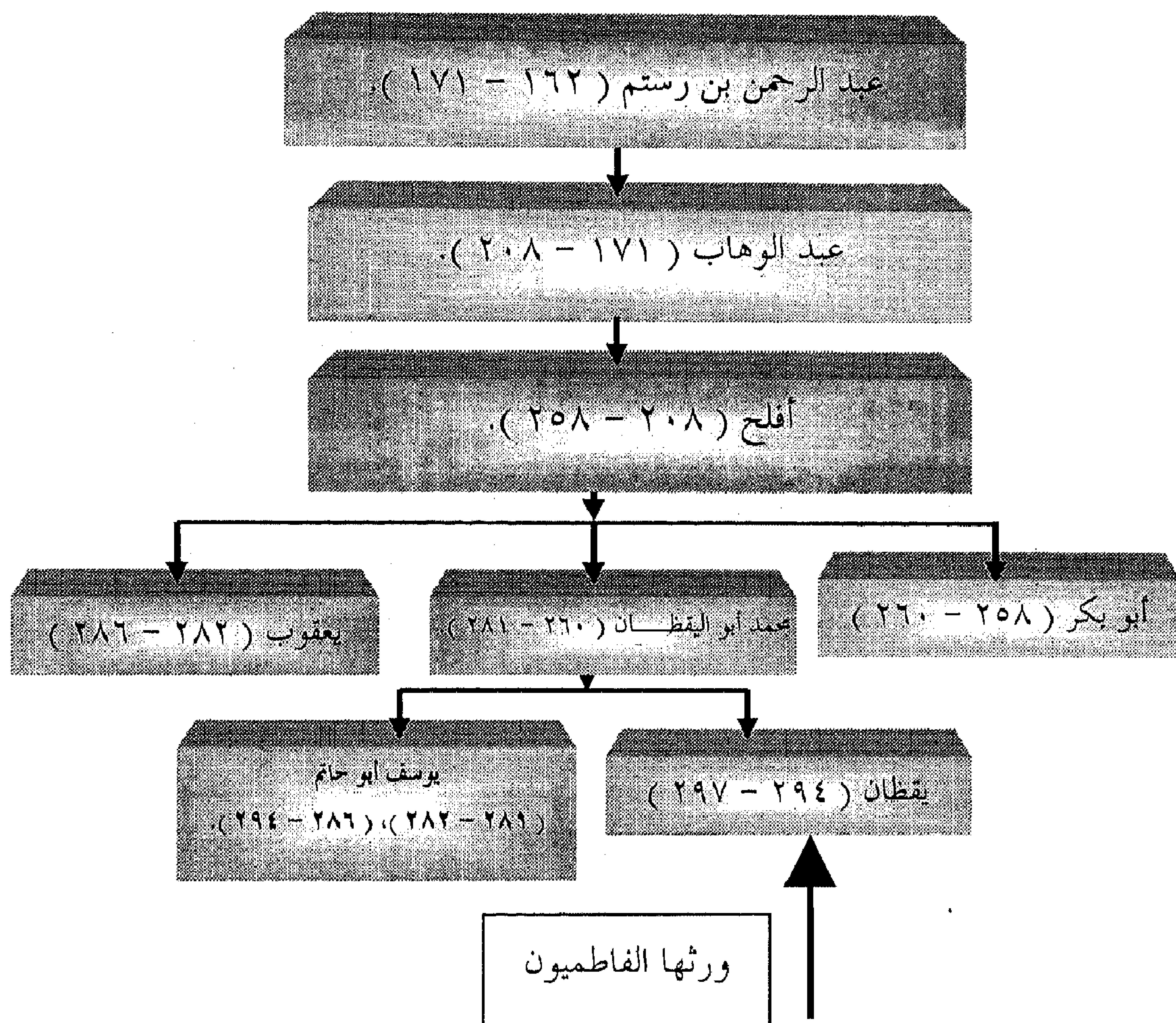
و لم تستطع دولة الخلافة أن تتخذ موقفاً حاسماً من هؤلاء لأنه لم يكن للخليفة سلطان حقيقي كما رأينا.

ولنتناول أهم هذه الدول وتأثيرها في تاريخ أمة الإسلام:

الدولة الرستمية (١٦١ - ٢٩٦)

نسبة إلى مؤسسها عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بن بهـــرام (بهــرام كـــان مـــولى سيدنا عثمان) ، ومكانها تاهرت (بـــالمغرب الأوســـط).

ومذهبها هو الإباضيـــة .

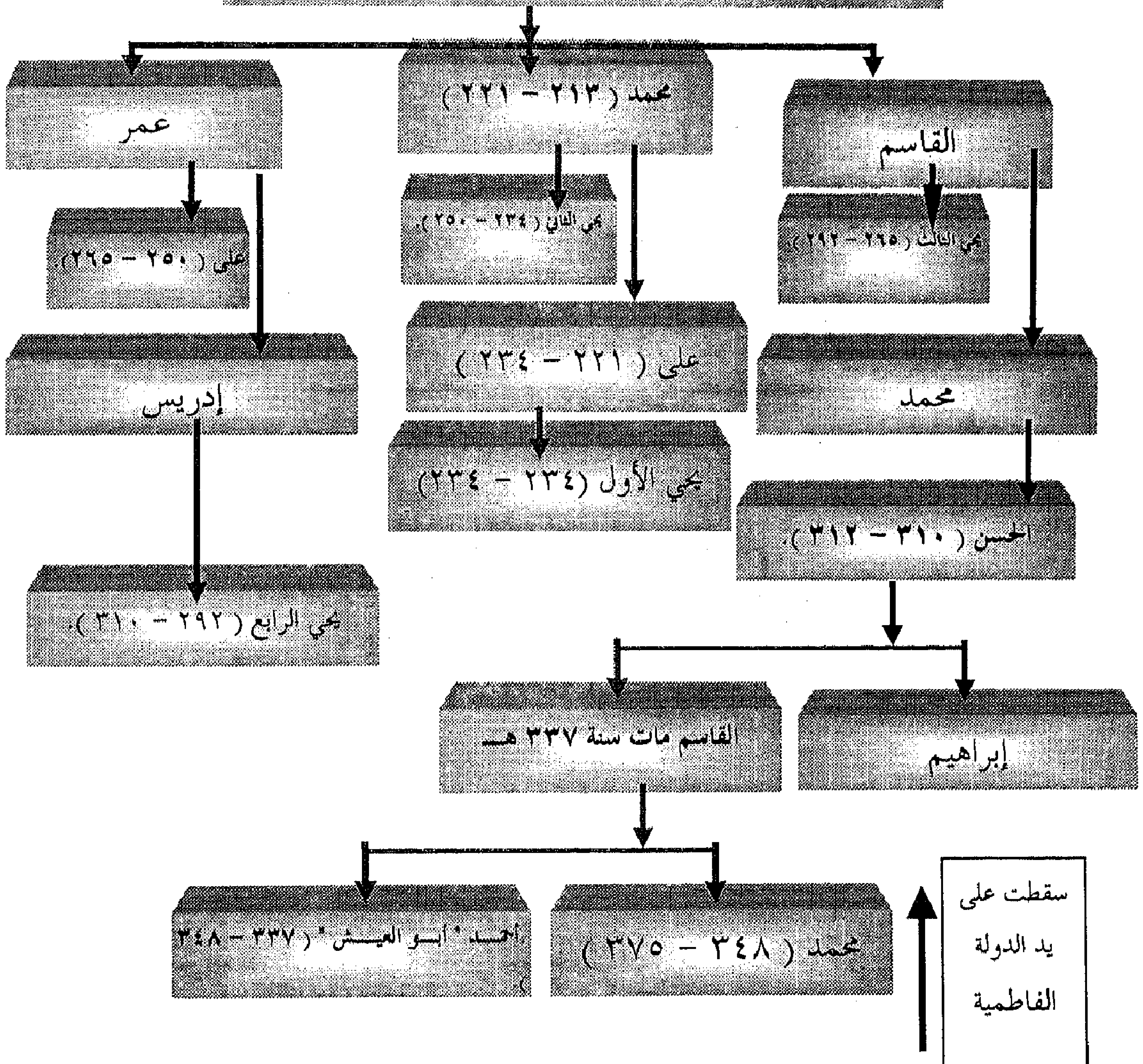


الملاحظة الوحيدة على هذه الدولة أنهم جعلوا الحكم وراثياً خلافـــاً لمبـــادئ الإباضيـــة

دولة الأدارسة ١٧٢ حتى ٣٧٥ هـ

إدريس بن عبد الله ١٧٢-١٧٧هـ

إدريس الثاني (١٧٧ – ٢١٣)



سميت بالأدارسة نسبة إلى مؤسسها إدريس بن عبد الله بـــن الحســن.

قامت بالمغرب الأقصـــى.

ومذهبها هو الزيدية أقرب مذاهب الشيعة إلى أهـــل الســنة.

- لما حاول الحسين بن على بن الحسين بن الحسن بن علـــي بـــن أبي طـــالب الخـــروج في زمن خلافة موسى الهادي لم ينجح وذبح اكثر أتباعه في معركـــة (فـــخ) قـــرب مكـــة لم ينج منها من عشيرة الحسين إلا يحي بن عبد الله و أخـــوه إدريـــس .
- توجه إدريس إلى المغرب الأقصى والتقى بزعيم قبيلة أوربـــه البربريـــة (علـــى مذهـــب المعتزلة) ورئيسها هو اسحق بن محمود بن عبـــد الحميـــد ورغـــم اختـــلاف المذاهـــب وغلبة المعتزلة إلا أن إسحاق لم يكن يرى مانعاً من العمل على تأســـيس دولـــة تكـــون رياستها لإمام علوي زيدي تم هذا اللقاء وفق تمـــهيد مســبق.
- وأخذ إسحاق البيعة لإدريس ســنة ١٧٢ هـــ.
- استطاع إدريس أن يجمع جميع المذاهب عليه وبنى مدينـــة **فـــاس** لتكـــون عاصمـــة لـــه واختار معظم وزرائه من قبيلة أوروبة واستطاع أن يؤلف جيشـــاً عظيمـــاً مـــن وجـــوه قبائل زناتة وأوروبة وصنهاجة وهوارة وغيرهم واســـتطاع أن يوســـع لأركـــان مملكتـــه حتى فتح تلمسان ، وبفتحها استقامت له إمـــارة المغـــرب .

اغتيل إدريس على يد الشماخ بتكليف مـــن الخليفـــة هـــارون الرشـــيد وكـــانت امـــرأة إدريس حاملاً فلما وضعت سموا المولـــود إدريـــس.

- تولى مولاهم راشد الوصاية على إدريس الصغير حـــتى اغتيـــل

بويع إدريس الثاني وعمره عشر سنوات و لما شب استطاع أن يبلـــغ بمدينـــة فـــاس مبلغـــا عظيما من البهاء والازدهار حتى غدت قبله للمشـــارقة والمغاربـــة والأندلســـية.

وفي عهد يحي بن محمد بن إدريس سنة ٢٣٤ هـــ دب الضعـــف في كيـــان هـــذه الدولـــة

نتيجة اعتماد يحي على العناصر العربية مما أسخط عليه البربر ...

ثم ظهرت الإقطاعات ووزعها على أهله ثم تنازع الأبناء أملاك الأجداد حتى انقضت دولتهم تماما سنة ٣٧٥ على يد الفاطميين.

- وأحفاد الأدارسة مازال لهم وجود حتى يومنا هذا بالمغرب ويتمتعون بمكانه اجتماعية مرموقة.
- من آثار هذه الدولة:

◆ أنها ساعدت في تعريب المغرب ، إذ استقدم إدريس الثاني خمسائة أسرة عربية من الأندلس والمشرق وإفريقية إلى بلاده.

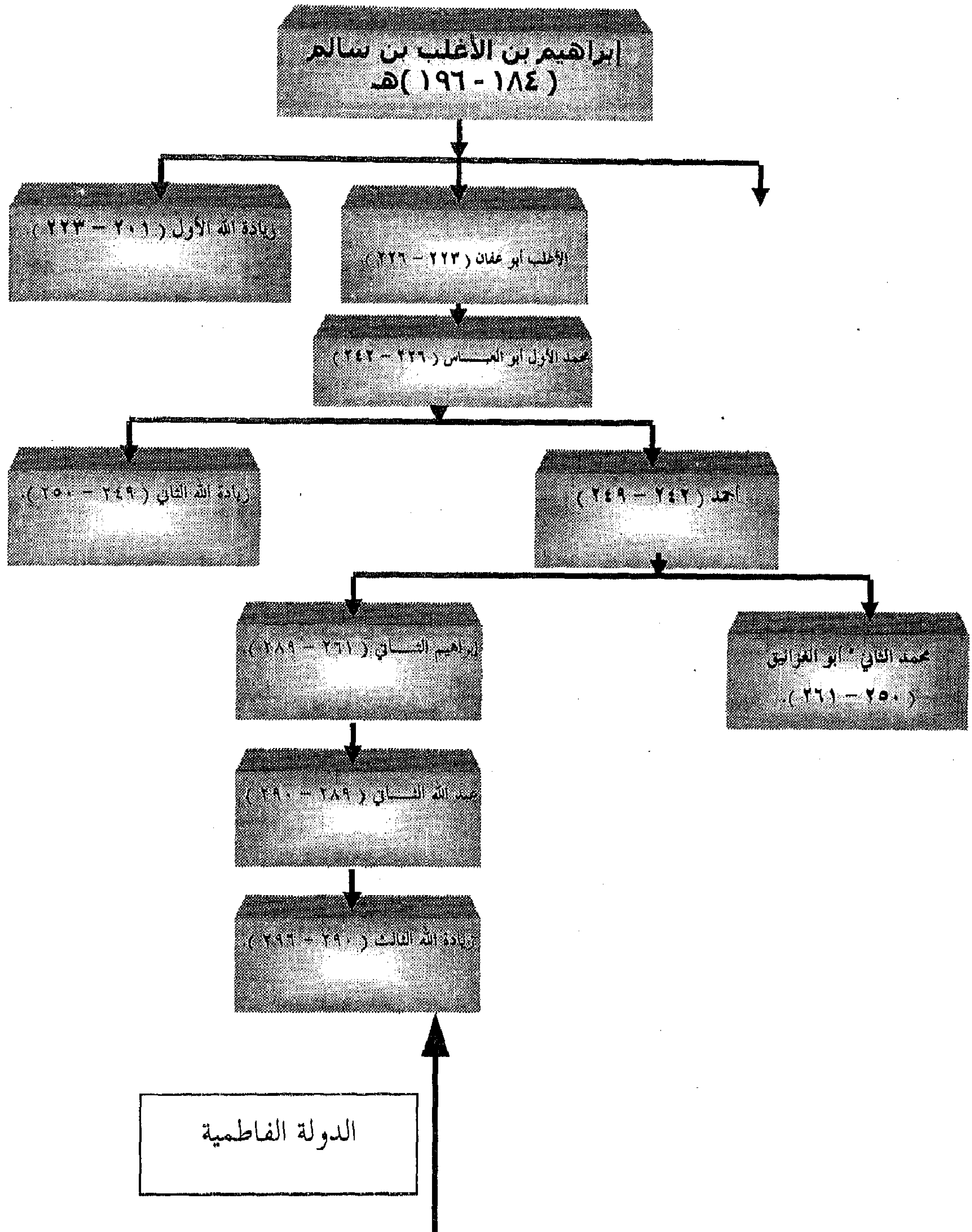
◆ حارب الخوارج وأفكارهم .

◆ أكبر مسجد لهم **مسجد القرويين** قامت بإنشائه أُم البنين فاطمة بنت محمد الفهري سنة ٢٤٣ هـ وظل هذا المسجد منارة للعلم فترات طويلة وكانت فيه مكتبة ضخمة ويقال : إنه أقدم جامعة في تاريخ الإسلام.

◆ كانت فاس منارة للعلم والحضارة.

دولة الأغالبة سنة ١٨٤ حتى ٢٩٦ هـ

- نسبة إلى مؤسسها إبراهيم بن الأغلب.
- منذ سنة ١٤٨ وحتى ١٨٤ هـ كانت إفريقية تشهد موجة من القلاقل فكان أن عين الرشيد إبراهيم بن الأغلب والياً عليها ... وكان إبراهيم ذا طموح فعمل منذ أن تولى الإمارة على تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده ...
- كان الرشيد يعلم بنية إبراهيم وطموحه ولكنه استبقاه في الإمارة مادام يعمل باسم العباسيين وجعله حاجزاً بين دولة الخلافة وبين دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى.
- ثم عظم أمر إبراهيم وسار كملك مستقل إلا أنه يخطب للخليفة العباسي .
- استطاعت هذه الدولة أن تقضي على ثورات طائلة في عهدها ... كما أن من ولاتها من أشاع العدل والإحسان في الرعية منهم مثلاً إبراهيم الثاني (٢٦١ – ٢٨٩) كان يجلس للعدل في **جامع القيروان** يوم الخميس والاثنين ، يسمع شكوى الخصوم ويصبر عليهم وينصف بينهم ويروي أنه تصدق بجميع ما يملك ووقف أملاكه جميعها .
- كما أن هذه الدولة قد مارست الغزو والجهاد فقد غزت جزيرة صقلية منذ نشأتها وكان من قواد الغزو العظام قاضي القيروان **أسد ين الفبرات** أحد أصحاب الإمام مالك وظلت محاولات السيطرة على الجزيرة حتى ثبتت أقدام المسلمين بها سنة ٢٦٤ هـ.


إبراهيم بن الأغلب بن سالم
(١٨٤ - ١٩٦)هـ
زيادة الله الأول (٢٠١ – ٢٢٣).
الأغلب أبو عفان (٢٢٣ – ٢٢٦).
محمد الأول أبو العباس (٢٢٦ – ٢٤٢)
زيادة الله الثاني (٢٤٩ – ٢٥٠).
أحمد (٢٤٢ – ٢٤٩)
إبراهيم الثاني (٢٦١ – ٢٨٩).
محمد الثاني " أبو الغرانيق
(٢٥٠ – ٢٦١).
عبد الله الثاني (٢٨٩ – ٢٩٠)
زيادة الله الثالث (٢٩٠ – ٢٩٦).
الدولة الفاطمية

- قام الأمير أحمد سنة ٢٣٢ هـ بغزو جنوب إيطاليا وذلك رداً على إغارة الإيطاليين على سواحل بلاده فخرج في حملة كبيرة من ميناء سوسة ووصلت إلى مشارف مدينة روما وانتشرت في ضواحي المدينة واحتلت الحصون القريبة من المدينة وسيطرت قوات الأغالبة على المدينة حوالي شهرين إلى أن وصلت الإمدادات المسيحية مما اضطر الجيش الإسلامي أن يرحل بعد أن غنم غنائم كثيرة وكانت هذه أول مرة يحاول فيها المسلمون فتح هذه المدينة.
- وفي عهدهم بني **جامع الزيتونة** وهو من أعظم مساجد العالم ، وأعيد بناء مسجد عقبة بن نافع وبنيت مدينة رقادة وهي مدينة عظيمة حافلة بالقصور .
- وأنشئت في أيام إبراهيم الثاني سلسلة المحاريس على الشواطئ ، وكانوا ينشئون في كل محرس برجاً للنار لإرسال الإشارات ، فكان الخبر يصل إلى أقصى البلاد من بجاية حتى طرابلس في أقل من ليلة ، أما بالنهار فكانت الإشارات ترسل بالدخان.

دولة بنى زيرى بالمغرب ٣٦٢ حتى ٥٤٧ هـ

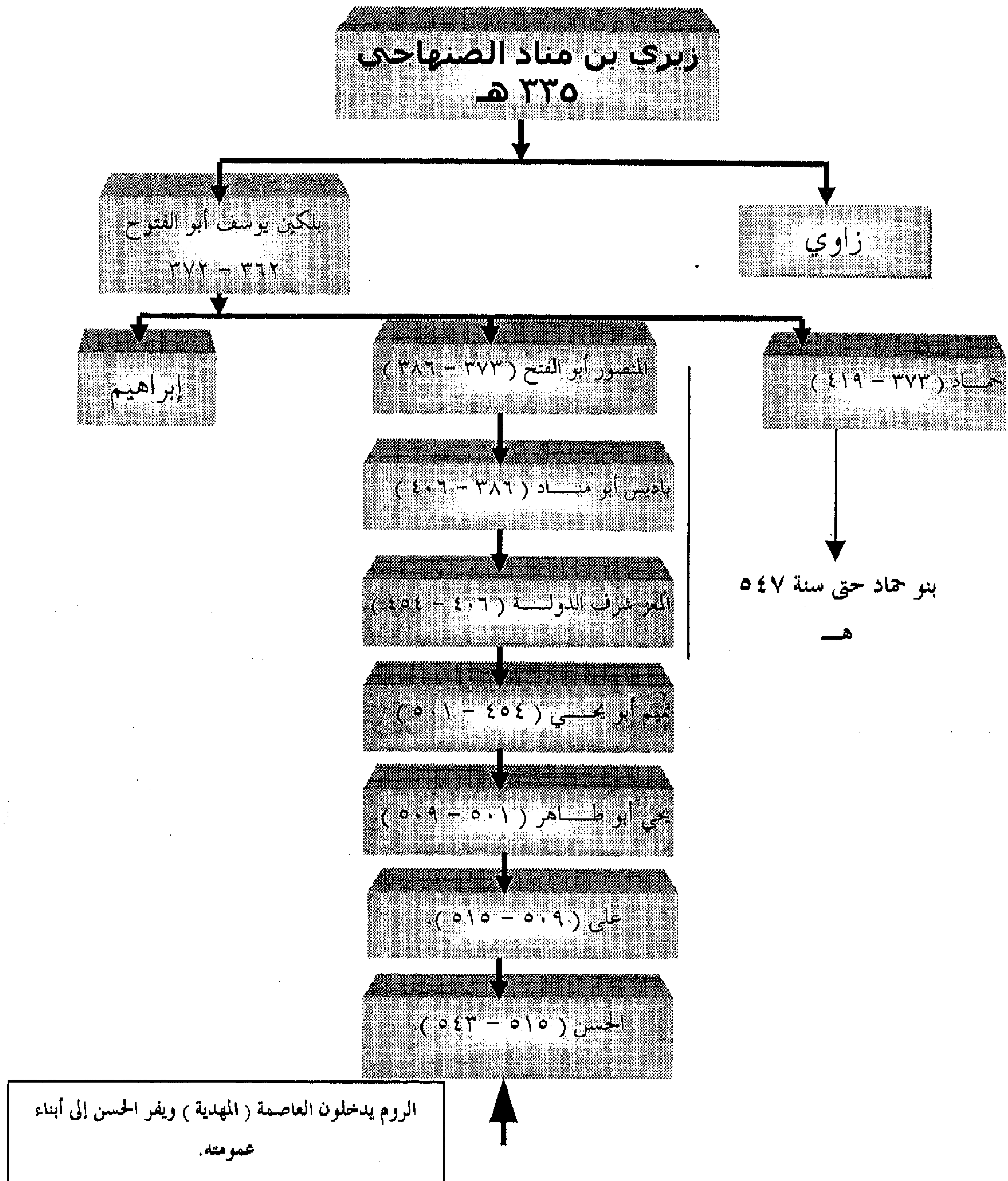
نسبة إلى زيري بن مناد الصنهاجي من قبيلة بربرية اسمها صنهاج تمثل ثلث البربر قويت شوكة بني زيري بمساعدة الفاطميين فلما خرج الفاطميون إلى مصر عينوا ابنه بلكين يوسف أبو الفتوح على المغرب نائباً عنهم.

عظم شأن زيرى بمساعدة الفاطميين .

وكان بدء الاستقلال بالنفوذ على يد بلكين وتعتبر هذه الدولة أول دولة ينشئها البربر بعد إسلامهم .

حدث خلاف بين أفراد العائلة انتهى بالانقسام فصارت ولاية حماد على الجزائر وولاية بنى زيرى على ليبيا وتونس .

فلما حكم المعز شرف الدولة ألغى المذهب الشيعي وخلع طاعة الفاطميين ودعا على المنابر للعباسين وحسن علاقاته مع أبناء عمومته وصارت القيروان في عهده وجهة للعلماء والأدباء .


زيري بن مناد الصنهاجي
٣٣٥ هـ
بلكين يوسف أبو الفتوح
٣٦٢ - ٣٧٢
زاوي
إبراهيم
المنصور أبو الفتح (٣٧٣ - ٣٨٦)
حماد (٣٧٣ - ٤١٩)
باديس أبو مناد (٣٨٦ - ٤٠٦)
بنو حماد حتى سنة ٥٤٧ هـ
المعز شرف الدولة (٤٠٦ - ٤٥٤)
تميم أبو يحيى (٤٥٤ - ٥٠١)
يحي أبو طاهر (٥٠١ - ٥٠٩)
على (٥٠٩ - ٥١٥)
الحسن (٥١٥ - ٥٤٣)
الروم يدخلون العاصمة (المهدية) ويفر الحسن إلى أبناء عمومته.

الدولة الطولونية ٢٥٤-٢٩٢هـ

تأسست سنة ٢٥٤ هـ واستمرت حتى ٢٩٢ هـ

ومؤسسها هو أحمد بن طولون :

كان أبوه من الأتراك الذين أهداهم **نوح بن أسد الساماني** عامل بخاري إلى المأمون سنة ٢٠٠ هـ.

ونشأ أحمد في صيانة وعفاف ورياسة ودراسة للقرآن عظيم ، مع حسن الصوت به ، وكان يعيب على أولاد الترك ماير كبونه من المحرمات والمنكرات

تولى نيابة مصر للمعتز في رمضان سنة ٢٥٤ هـ ... فأحسن إلى أهلها وأنفق فيهم من بيت المال وبنى بها جامع ابن طولون واستغرق بناؤه ثلاث سنوات ، وبنى ماستاناً للمرضى وكان يتصدق من خالص ماله في كل شهر بألف دينار

وفي سنة ٢٦٢ هـ حصلت بينه وبين أحمد الموفق (القائم بأعمال الخليفة) تنافر أدى إلى وحشة.

وفي سنة ٢٦٤ هـ دخل في حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة واليها أماجور ، فأحسن إلى أهل البلاد إحسانا بالغاً ... واتسع بذلك ملكه اتساعاً عظيماً حتى كانت حدود مملكته إلى الفرات ... وبلغ خراج مصر في عهده ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار/السنة وزادت الوحشه أكثر بين ابن طولون والموفق حتى إنه قطع الخطبة عن الموفق وقد كان يخطب للخليفة ومن بعده الموفق ...

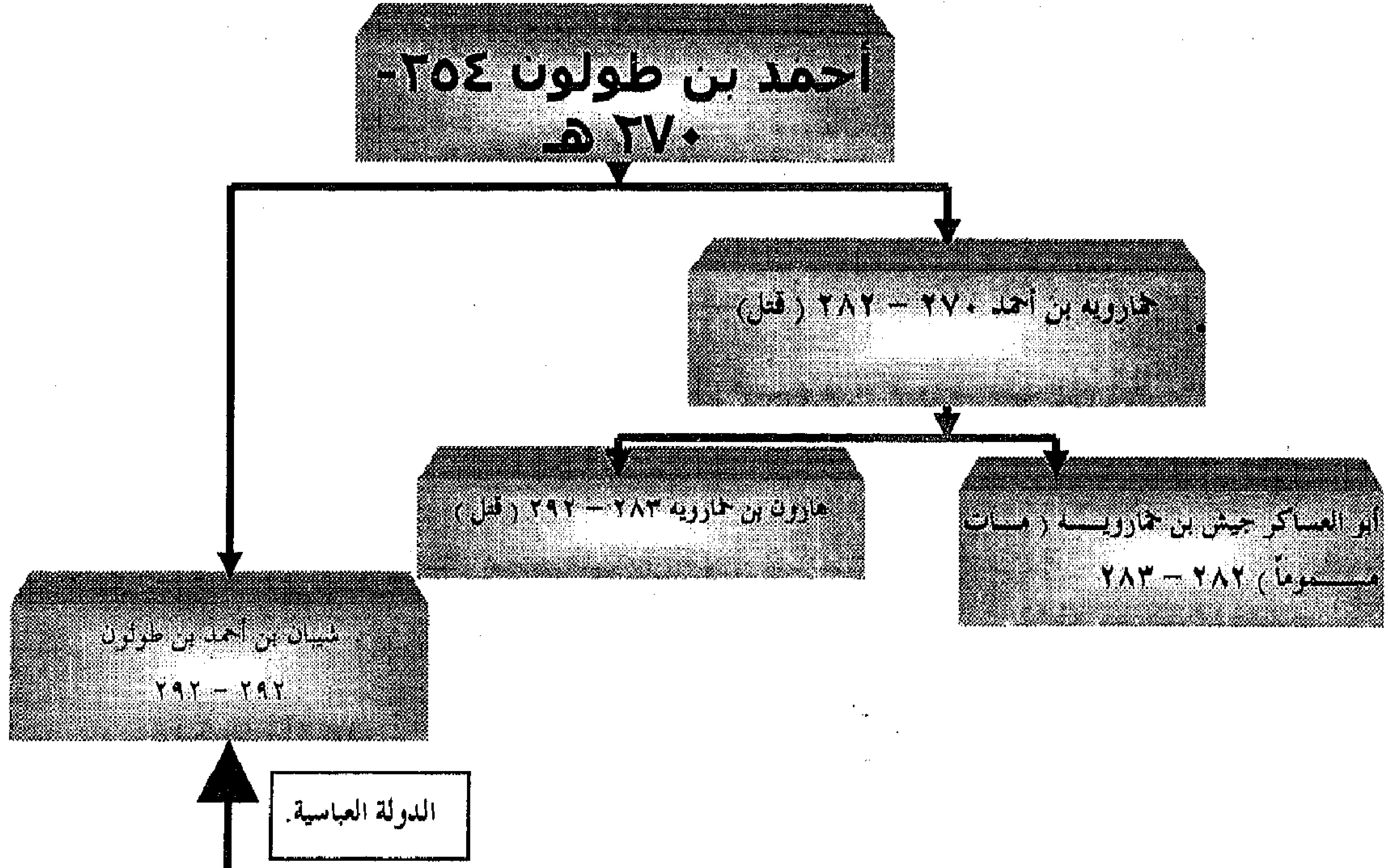
ثم مات سنة ٢٧٠ هـ عن ملك يفوق ملك الخليفة ...

فأعقبه ابنه خمارويه ...

فسار في الناس سيرة أبيه ، وبالغ في العمارة وأنواع الترف ...

حاربه أمراء الموصل والأنبار ووالي دمشق وقد اتفقوا مع أحمد بن الموفق على أن يخرجوه من الشام ويردوها إلى الخليفة فدارت بينهم معارك عديدة انتهت بانتصار خمارويه بعد موقعة فاصلة بجهة دمشق سنة ٢٧١ عندئذ عقد خمارويه صلحاً مع الموفق ، وقلده الخليفة حكم مصر والشام وأطراف بلاد الروم مدة ثلاثين سنة.

فلما مات الموفق سنة ٢٧٨ هـ ومن بعده الخليفة المعتمد تحسنت العلاقة بين خمارويه والخليفة المعتضد الذي تزوج ابنة خمارويه قطر الندى فجهزها خمارويه جهازا يضرب به المثل من ذلك :عشر صناديق مملوءة بالجواهر وغيرها ،وأمر فبني على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد، هذا الإسراف أضعف المركز المالي لدولة خمارويه وما لبث أن قتل بدمشق ذبحه بعض خدمه ودفن بمصر سنة ٢٨٢ هـ،ولم تستقر الأمور بعد خمارويه للطولونيين إذ أغارت القرامطة على الشام وحاصروا دمشق فتدخل الخليفة وقهر القرامطة واستغل الموفق فعزم على القضاء على ملك الطولونيين وإعادة مصر والشام إلى حظيرة الخلافة العباسية .



الدولة الإخشيدية ٣٢٣-٣٥٨ هـ

تأسست سنة ٣٢٣ هـ واستمرت حتى سنة ٣٥٨ هـ

ومؤسسها هو محمد بن طغج الملقب بالأخشيد ومعناه ملك الملوك ، وهو لقب يطلق على ملوك فرغانة وهي إحدى بلاد ما وراء النهر التي تتاخم بلاد التركستان .

وكان طغج من موالي آل طولون ...

وكان الخليفة الراضي بالله قد رضى عن محمد بن طغج حينما صد هجوم الفاطميين على مصر سنة ٣٢٣ هـ فقلده ولايتها ...

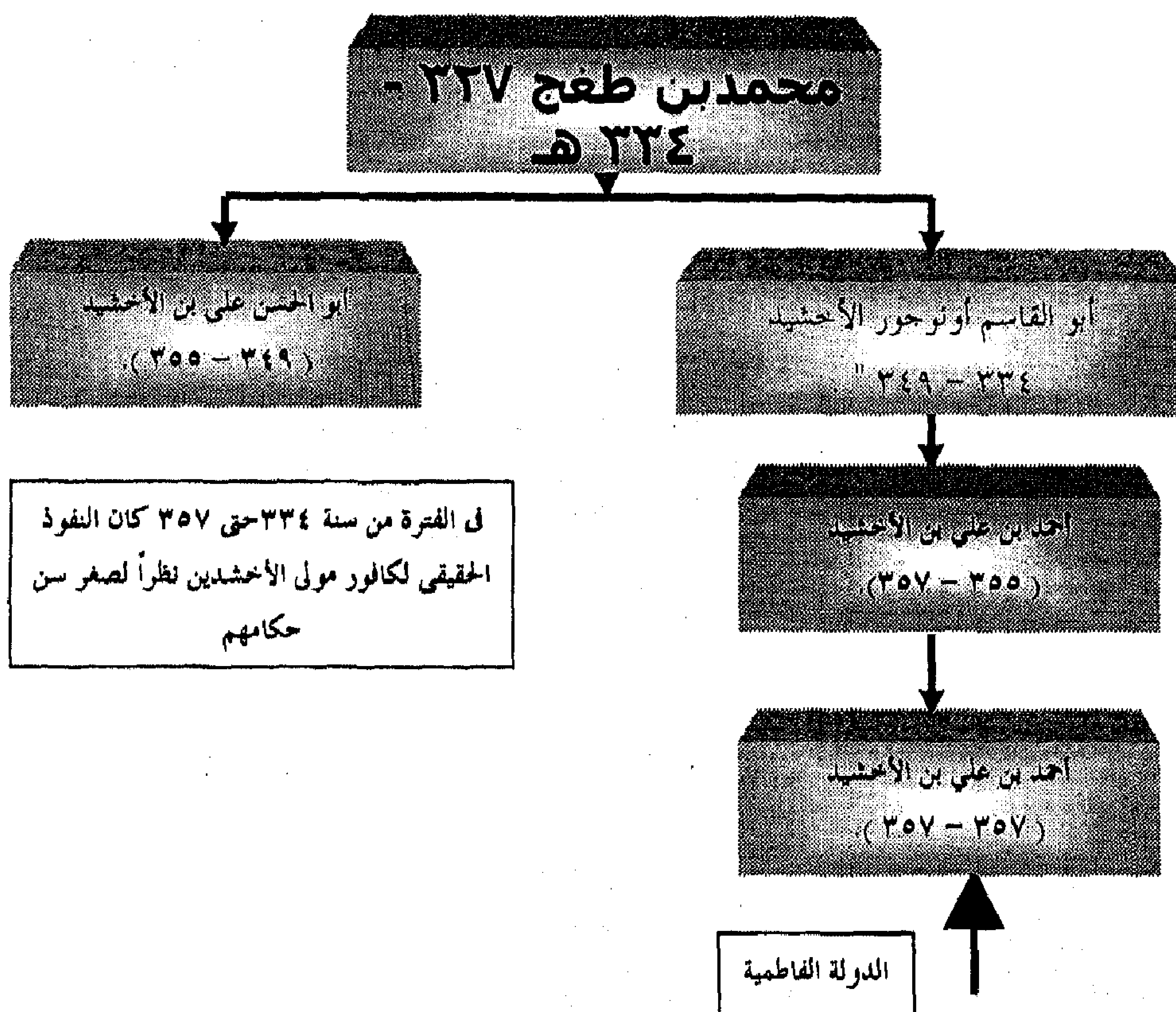
وكان علاقة الإخشيديين بالخلافة علاقة ولاء كامل حتى أن محمد بن طغج عرض على الخليفة العباسي المتقي بالله أن ينتقل إلى مصر ويجعلها مقراً للخلافة ولكن الخليفة رفض .

واجه الإخشيديون أطماع الحمدانيين في الاستيلاء على الشام

وبالجملة فقد كان ولاة هذه الدولة متدينون ... فكان بلاط الإخشيد مجتمعاً للعلماء والأدباء وكان بن طغج يحضر ختمة القرآن في رمضان ، وكان يبكي عند سماع القرآن ، دعته جاريته يوماً أن يتكاسل عن حضور ختم القرآن بالمسجد الجامع فقال لها:ويحك لعله يكون في هذه الليلة رجل صالح له عند الله مترلة ، فيكون في دعائه :"اللهم اغفر لجماعتنا"، فعسى أن أدخل فيهم ، ثم ركب إلى الجامع فحضر الصلاة والختم .

بلغ خراج مصر في عهد محمد بن طغج مليونين من الدنانير في السنة وفي عهد كافور بلغ الخراج ٣,٢٧٠,٠٠٠ دينار.

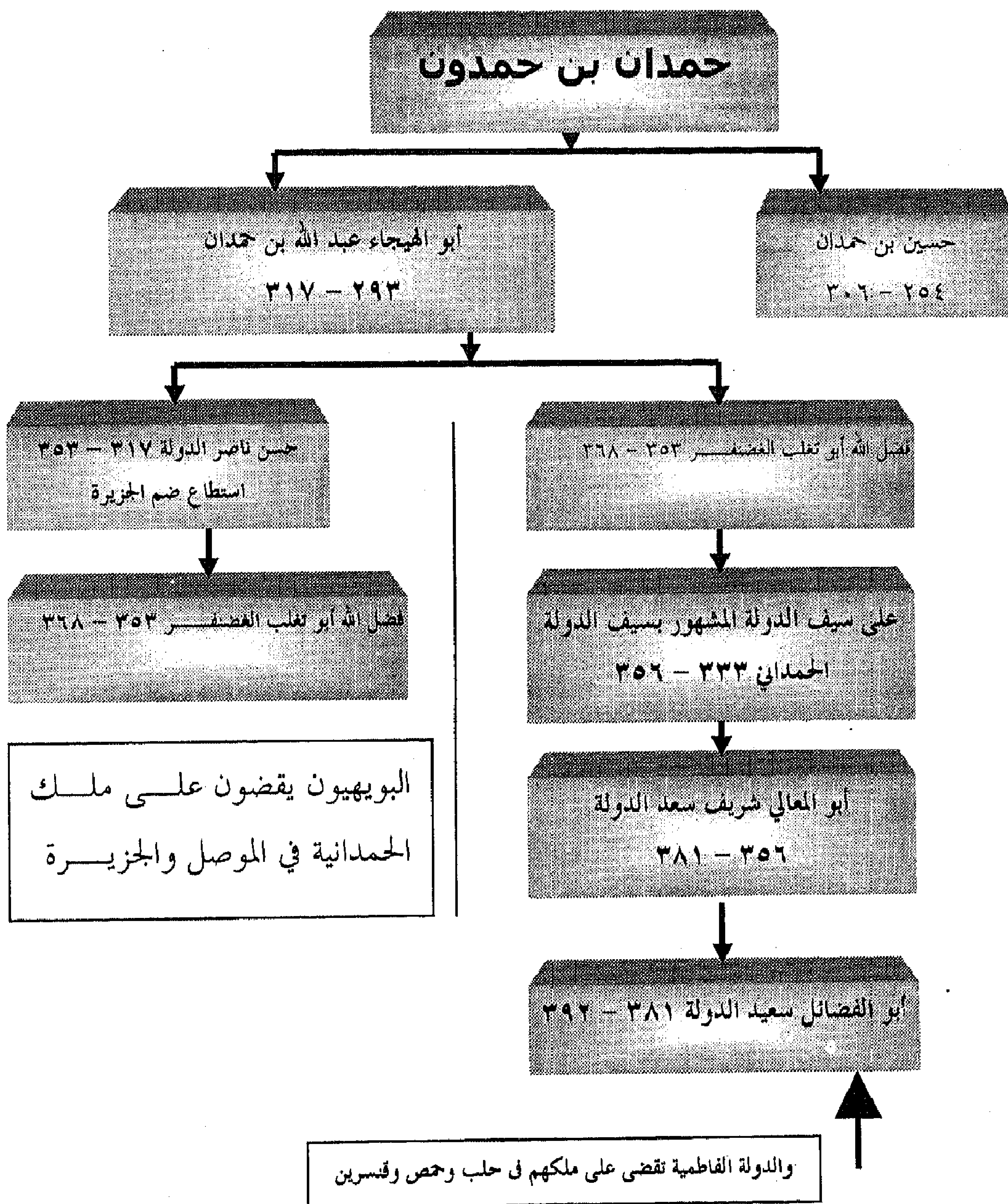
وانتهى أمر هذه الدولة على يد الدولة الفاطمية.


محمدبن طغج ٣٢٧ - ٣٣٤ هـ
أبو القاسم أونوجور الأخشيد
" ٣٣٤ - ٣٤٩
أبو الحسن على بن الأخشيد
(٣٤٩ - ٣٥٥).
احمد بن علي بن الأخشيد
(٣٥٥ - ٣٥٧).
أحمد بن علي بن الأخشيد
(٣٥٧ - ٣٥٧).
فى الفترة من سنة ٣٣٤حتى ٣٥٧ كان النفوذ
الحقيقي لكافور مولى الأخشدين نظراً لصغر سن
حكامهم
الدولة الفاطمية

دولة بني حمدان ٢٩٣ - ٣٩٢

نسبة إلى حمدان بن حمدون بن الحارث من قبيلـــة تغلـــب .

قامت بالجزيرة على حدود الروم - الموصل - حلـــب - حمـــص .



كان حسين بن حمدان ذا ولاء شديد للخلافة فساعدها في حرب الخوارج ثم كان له دور بارز في الحرب ضد القرامطة وفي الحملة التي جهزها الخليفة لاسترداد مصر من الطولونيين ولكنه حدث بينه وبين وزير المقتدر خلاف انتهى بسجنه وقتله سنة ٣٠٦هـ.

ويعتبر أبو الهيجاء المؤسس الحقيقي للدولة ولاّه الخليفة إمارة الموصل وتوابعها ، ثم قتل.

اشتهر تاريخ هذه الدولة **بسيف الدولة الحمداني** فقد كان أديباً وشاعراً ، جمع حوله الأدباء وكانت مقاومته للروم بالغة الأثر في تاريخ الإسلام حيث أجج سيف الدولة روح الجهاد والمقاومة ضد الروم ... فكانت ثغور ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وأدنة وخرسوس معامل صامدة للمقاومة إذ كانت مواقف سيف الدولة كلها مواقف دفاع إزاء هجمات الروم المتتالية ...

يقول ما ركفات :

" **إن حروب سيف الدولة فصل خطير من فصول الحروب الصليبية**" .

كان علاقة هذه الدولة بالخلافة مترددة بين الرضا والسخط وكانت تميل إلى التشيع .

الدولة السامانية سنة ٢٦١ حتى ٣٨٩ هـ

قامت ببلاد ما وراء النـــهر ...

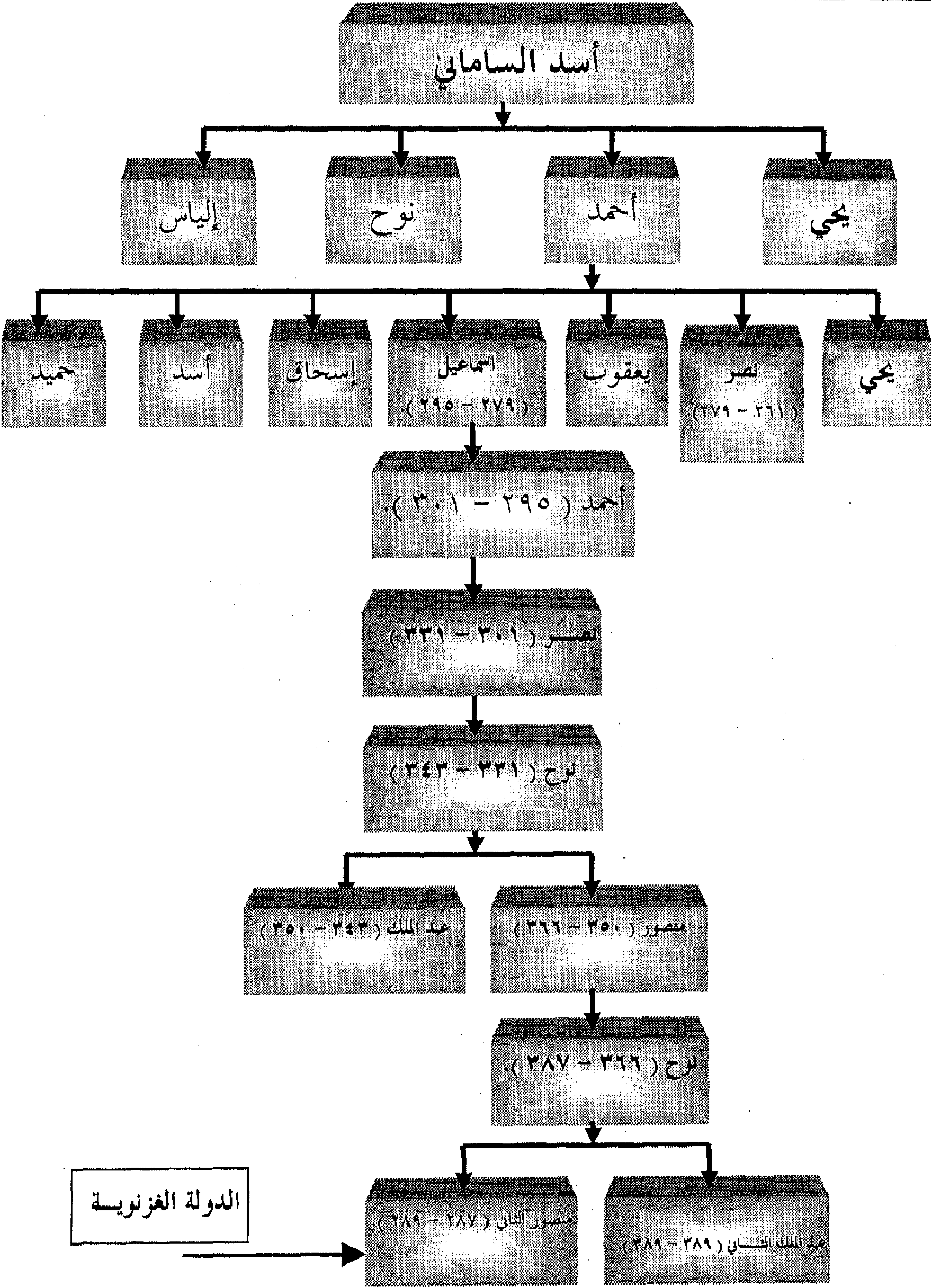
وسموا بذلك نسبة إلى موطنهم الأصلي قرية سامان بـــالقرب مـــن سمرقنـــد ...

وقد عرف السامانيون الإسلام من أيـــام خلافـــة الأمويـــين ... حـــتى كـــانت خلافـــة المأمون في أثناء فترته الأولى عندما كان بمرو فتعرف رجل مســـلم مـــن الســـامانين واسمـــه أسد الساماني على المأمون فنال عنده خطـــوة ومكانـــة حـــتى أن المـــأمون لمـــا انتقـــل إلى بغداد ولى أبناء أسد هذا الأربعة الولايات في بلاد مـــا وراء النـــهر .

فكان : نوح بن أسد على سمرقند،ويحي بن أسد على الشـــاش وأحمـــد بـــن أســـد علـــى فرغانة ،وإلياس بن أسد على هـــراة.

وكان أبرز هؤلاء أحمد بن أسد الذي كان له بدوره سبعة من الأبنـــاء أبرزهـــم نصـــر بـــن أحمد ومازالت هذه الأسرة تحظى بالمكانة لدى الخلفـــاء حـــتى كـــان ســـنة ٢٦١ هــــ ، أسند الخليفة العباسي ولاية جميع بلاد ما وراء النـــهر إلى نصـــر بـــن أحمـــد الـــذي أقـــام إخوته جميعاً على الولايات بسائر أنحاء البلاد وبدأ يومـــها مجـــد الســـامانيين ...

كانت علاقة هذه الدولة بالخلافة العباسية علاقـــة ولاء تـــام ... وكـــانوا علـــى مذهـــب أهل السنة وازدهرت الحياة في عـــهدهم فـــأمّ بلادهـــم ابـــن ســـينا والـــرازي وغـــيرهم بلادهم، ويوجل العلماء كل الإجلال والتقديـــر منـــهم ...


أسد الساماني
يحي
أحمد
نوح
إلياس
يحي
نصر (٢٦١ – ٢٧٩).
يعقوب
اسماعيل (٢٧٩ – ٢٩٥).
إسحاق
أسد
حميد
أحمد (٢٩٥ – ٣٠١).
نصر (٣٠١ – ٣٣١)
نوح (٣٣١ – ٣٤٣)
منصور (٣٥٠ – ٣٦٦)
عبد الملك (٣٤٣ – ٣٥٠)
نوح (٣٦٦ – ٣٨٧).
عبد الملك الثـــاني (٣٨٩ – ٣٨٩).
منصور الثاني (٢٨٧ – ٢٨٩).
الدولة الغزنويـــة

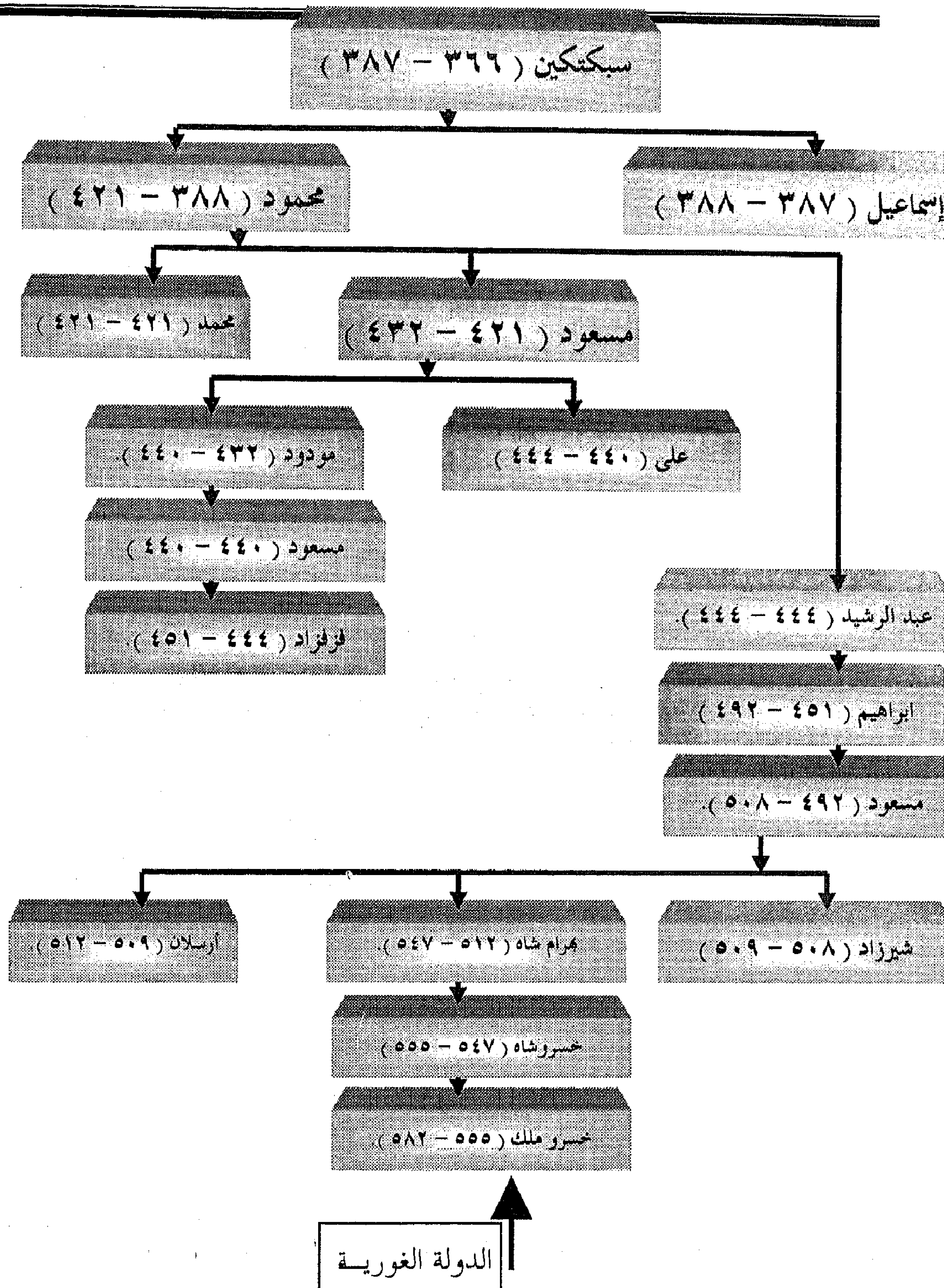
الدولة الغزنوية (السبكتكينية) سنة ٣٦٦ حتى ٥٨٢ هـ

نسبة إلى مدينة غزنة وهي بأفغانستان حالياً ...

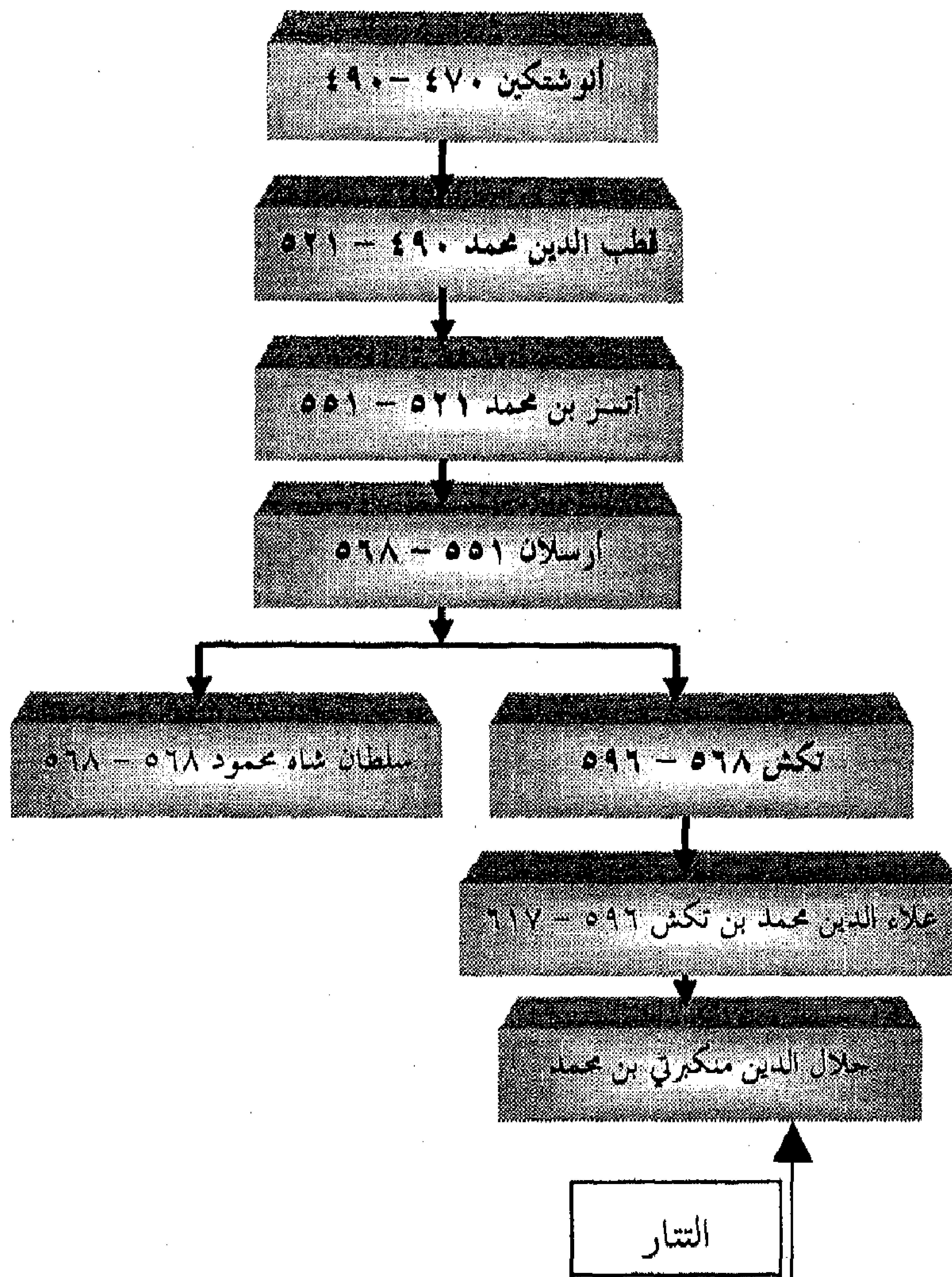
وكان قد التحق بخدمة السامانيين غلام تركي اسمه ألبتكين واستطاع بفضل همته العالية أن يحظي بمكانة لدى قادة السامانيين فولاه عبد الملك بن نوح الساماني سنة ٣٤٩ هـ ولاية خراسان نيابة عنه ... حتى عزله عنها الأمير منصور بن نوح فلجأ ألبتكين إلى بلخ واستطاع هزيمة جيش منصور ثم توجه إلى غزنة واستولى عليها واتخذها مقراً له سنة ٣٥١ هـ ،وبعد وفاة ألبتكين خلفه ابنه إسحاق إبراهيم الذي تحالف مع الأمير منصور بن نوح ضد أمير غزنة على أن يعد نفسه تابعاً للدولة السامانية ...فلما مات إسحاق و لم يكن له أبناء تولى أمر غزنة أمراء منهم حتى تولى سبكتكين إمارة غزنة سنة ٣٦٦ هـ وهو أحد الغلمان الأتراك الذين كانوا يعملون مع ألبتكين واستطاع سبكتكين أن يوسع حدود ملكه من ناحية الهند ...

كما استعان به الأمير نوح بن منصور للقضاء على حركة تمرد ضده في بخاري فلما انتصر لقب نوح سبكتكين لقب ناصر الدولة وعين ابنه محموداً قائداً لجيش خراسان ومنحه لقب سيف الدولة...

ولهذه الدولة وخاصة في عهد محمود بن سبكتكين الفضل في فتح أجزاء كبيرة من الهند.وكانت هذه الدولة على ولاء تام للخلافة وكانت على مذهب أهل السنة والجماعة وكانت موئلاً للعلماء فترة طويلة من الزمان ...


سبكتكين (٣٦٦ – ٣٨٧)
محمود (٣٨٨ – ٤٢١)
إسماعيل (٣٨٧ – ٣٨٨)
محمد (٤٢١ – ٤٢١)
مسعود (٤٢١ – ٤٣٢)
مودود (٤٣٢ – ٤٤٠).
على (٤٤٠ – ٤٤٤)
مسعود (٤٤٠ – ٤٤٠)
فرخزاد (٤٤٤ – ٤٥١).
عبد الرشيد (٤٤٤ – ٤٤٤).
ابراهيم (٤٥١ – ٤٩٢)
مسعود (٤٩٢ – ٥٠٨).
أرسلان (٥٠٩ – ٥١٢).
بهرام شاه (٥١٢ – ٥٤٧).
شيرزاد (٥٠٨ – ٥٠٩)
خسروشاه (٥٤٧ – ٥٥٥)
خسرو ملك (٥٥٥ – ٥٨٢).
الدولة الغورية

الدولة الخوارزمية في خراسان وبلاد ما وراء النهر ٤٧٠ - ٦٢٨



كان انوشتكين مملوكاً لأمير من أمراء السلاجقة كان متميزاً فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف .

تولى ابنه إمارة خوارزم من قبل بركياروق ولقب خوارزم شاه - كان عادلاً كريماً مقرباً لأهل الدين والعلم.

في عهد علاء الدين محمد طمع في توسيع ملكه على حساب الدولة الغورية فدخل في صراع طويل معهم انتهى بالاستيلاء على أغلب أملاكهم سنة ٦١١ هـ.

بل وصلت أطماعه إلى أنه كان يريد أن تكون له الكلمة العليا على الخليفة العباسي كما كان السلاجقة فلما أبى عليه الخليفة العباسي ذلك أعلن أنه لاحق للعباسيين في خلافة المسلمين واتهمهم بأنهم اغتصبوا الخلافة من أبناء علي بن أبي طالب واختار رجلاً من العلويين يسمى (علاءِ الملك الترمذي) جعله خليفة على المسلمين في خوارزم وكان قد استصدر فتوى من العلماء تجيز له ذلك.

بل وتحرك محمد خوارزم شاه بجيشه يريد بغداد فانتصر على كل جيش واجهه فلما اقترب من بغداد ، انهمرت أمطار غزيرة على المنطقة التي يعسكر بها جيشه فهلك جمع كبير من جنده وكذا الدواب ولم يستطيع أن يواصل المسير إلى بغداد فعاد إلى خوارزم فلما ظهر التتار كان ما كان من الأحداث السالف ذكرها.

الدولة الغورية

سميت كذلك نسبة إلى مكان نشأتها وهو الغور وهو جبال وولاية بين غزنة هراة(في أفغانستان حاليا) وهي بلاد باردة واسعة موحشة.

كان الغوريون - وهم من أتباع الغزنويين-يحكمون هذه المنطقة فلما ضعف أمر الغزنويين نهض زعيم الغورية يومئذ محمد الغوري واحتل غزنة وواصل حروبه ضد الغزنويين حتى استولى على ملكهم سنة ٥٩٨ هـ.

كانت الدولة الغورية سائرة على نهج الدولة الغزنوية في الجهاد بالهند ونشر الإسلام بها فقد كان السلطان محمود الغزنوي كما يقول المؤرخون-**غازياً مجاهداً،أخذ على عاتقه نشر الإسلام في بلاد الهند وبلغ في فتوحه إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ولم تتل به قط سورة ولا آية**،فلما جاء الغوريون حاول أمراء الهند التمرد على المسلمين فدخلوا في معارك شرسة مع الغوريين، وفي سنة ٥٩٦ استطاع الهنود أن يهزموا المسلمين وجعلوهم يتقهقرون عنهم مسافة أربعين ميلاً..

وفي العام التالي عزم السلطان محمد الغوري على القضاء على هذا التمرد فخرج في جيش قوامه (١٢٠.٠٠٠) لمحاربة الهنود وكان جيش الهنود يتكون من(٣٠٠.٠٠٠) ودارت رحى المعركة وجاهد المسلمون الهنود وقتلوا منهم ألوف مؤلفة وانتصر المسلمون وحطم السلطان الغوري أصنام الهندوكية والبوذية واستعمل أحجارها في بناء المساجد.

ثم عهد محمد الغوري في ولاية الهند إلى مملوكه قطب الدين أيبك الذي كان قائداً ماهراً عمل على تثبيت أقدام السلطان الغوري في الهند،واتخذ دهلي عاصمة له وبنى مسجدها المشهور قطب منار ،واستمر الفتح من قبل الغوريين في هذه النواحي حتى

شمل كل الهند.

وإذا كان الغزنويون هم أصحاب الفضل في تحطيم قوى أمراء الهند وفتح معظم الهند ولكنهم كانوا لا يستقرون بها بل يعودون إلى غزنة، أما الغوريون فهم أصحاب الفضل في تثبيت أقدام السلطان الإسلام في الهند حيث أقام سلاطينهم بصفة دائمة في الهند متخذين دهلي عاصمة لهم، ولهذا فهم يعتبرون **أول الدول الإسلامية في الهند** وبهم بدأ تاريخ الهند الإسلامية.

وعقب وفاة السلطان محمد الغوري سنة٦٠٢ هـ نصب مملوكه أيبك نفسه سلطاناً على الهند وبدأت بذلك دولة مماليك الهند سنة ٦٠٢هـ واستمرت حتى سنة٦٨٦ هـ وقنعت بما تحتها من أملاك حتى قضى عليهم الخلجيون.

هذه أهم الدول التي قامت في عهد العباسيين وهناك دول أخرى سنذكرها في فصول مستقلة لأهميتها.

الفصل الثالث
الدولة الأندلسية

دخلنا الأندلس بشجاعة وفداء طريف بن مالك وعزيمة طارق بن زياد ، وإيمان موسى بن نصير ، وطموح عبد الرحمن الغافقي ، وبطولة السمح بن مالك الخولاني ، ونجد الإسلام فيها بنجدة ومتانة عقيدة يوسف بن تاشفين .

مرت الأيام ومال المسلمون في الأندلس إلى حياة الرخاء والنعيم ، متناسين من يمكر بهم ، ومن يجمع صفوفه لسحقهم بينما عدوهم يستعد عسكرياً ، ويوحد كلمته ،وهم في موشحاتهم وسماعهم وخمرتهم وترفهم مغموورون ..

المسلمون في الأندلس من ٩٢ هـ حتى ٨٩٧ هـ

تواعدنا أن نفرد بابا خاصا عن المسلمين في الأندلس لأنه تاريخ بدأ من عام ٩٢ هـ إلي عام ٨٩٧هـ . أي قرابة ثمانية قرون من الحكم الإسلامي في الأندلس ، فلا شك أنها ملحمة طويلة تلك التي عاشها المسلمون بهذه البلاد حتى اندثر ذكرهم هناك بأيديهم و من عند أنفسهم أولا ،ثم بتربص و مكر و صبر من عدوهم ثانيا بعد ما وصلوا إلى قمة المجد وذروة الحضارة و لكن سنن الله لا تحابي أحدا ولا تتغير ولا تتبدل .

وسنتجاوز عن مرحلة تكلمنا عنها عند الحديث عن الدولة الأموية وهي مرحلة الفتح الأول للأندلس وحتى هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ ..

فلقد مر تاريخ الأندلس بمراحل كثيرة (عشرة).

- **المرحلة الأولى : (٩٢ هـ ١٣٨ هـ)**

كانت فيها الأندلس ولاية تابعة للدولة الأموية وتبدأ من سنة ٩٢ هـ مع محاولات الفتح الأولى وحتى سقوط الدولة الأموية ودخول عبد الرحمن الداخل الأندلس سنة ١٣٨هـ.

- **المرحلة الثانية : (١٣٨ هـ ٢٣٨ هـ)**

مرحلة الإمارة الموحدة للأندلس (الازدهار الأول للأندلس).

- **المرحلة الثالثة : (٢٣٨ هـ ٣٠٠ هـ)**

مرحلة التدهور الأول للأندلس وتقسيمها وحتى بداية حكم عبد الرحمن الناصر .

۞ **المرحلة الرابعة : (٣٠٠ هـ ـــ ٣٦٨ هـ)**

عودة القوة للأندلس وإعلان الخلافة بهـا.

۞ **المرحلة الخامسة : (٣٦٨ هـ ـــ ٣٩٩ هـ)**

عصر سيطرة الوزراء أو قيام الدولة العامريـة.

۞ **المرحلة السادسة : (٣٩٩ هـ ـــ ٤٢٢ هـ)**

الانهيار الثاني ونهاية حكم الأمويين بـالأندلس.

۞ **المرحلة السابعة : (٤٢٢ هـ ـــ ٤٨٤ هـ)**

عصر ملوك الطوائـف.

۞ **المرحلة الثامنة : (٤٨٤ هـ ـــ ٥٣٩ هـ)**

عهد المرابطين بـالأندلس.

۞ **المرحلة التاسعة : (٥٣٩ هـ ـــ ٦٢٠ هـ)**

عهد الموحدين بـالأندلس .

۞ **المرحلة العاشرة : (٦٢٠ هـ ـــ ٨٩٧ هـ)**

دولة بني الأحمر أو بني نصر وانحصار ملك المسلمين بغرناطـة أول مرحلـة السـقوط الأخـير .

المرحلة الأولى :
عندما كانت الأندلس ولاية تابعة للخلافة المركزية بدأت سنة ٩٢هـ وحتى سنة ١٣٨هـ أي حتى قيام الدولة الأموية في الأندلس .

تعاقب في هذه الفترة الزمنية (ستة و أربعون عاما) على الأندلس ثلاثة و عشرون واليا أي بمعدل سنتين للوالي مما يدل على أنها كانت مرحلة توتر و تمهيد استشهد فيها من الولاة فداءً لدينهم و نشراً لدعوة الله تبارك و تعالى الكثير كما وقع بعضهم فريسة مؤامرات وأحقاد فأُبعد أو قُتِل **وهذه قائمة أسمائهم**.

١. طارق بن زياد	٩٢ - ٩٣	
٢. موسى بن نصير	٩٣ - ٩٥	أعيد إلى المشرق بأمر الخليفة ومعه طارق
٣. عبد العزيز بن موسى	٩٥ - ٩٧	قتل
٤. أيوب بن حبيب اللخمي	٩٧ - ٩٧	
٥. الحر بن عبد الرحمن الثقفي	٩٧ - ١٠٠	
٦. السمح بن مالك الخولاني	١٠٠ - ١٠٢	استشهد في موقعة طولوشة.
٧. عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	١٠٢ - ١٠٣	استشهد
٨. عنبسة بن سحيم الكلبي	١٠٣ - ١٠٧	
٩. عذرة بن عبد الله الفهري	١٠٧ - ١٠٧	
١٠. يحي بن سلمة الكلبي	١٠٧ - ١١٠	

١١.	حذيفة بن الأحوص القيسي	١١٠ - ١١٠	
١٢.	عثمان بن أبي نسعة الخيثمي	١١٠ - ١١١	
١٢.	الهيثم بن عبيد الكلابي	١١١ - ١١٢	
١٤.	محمد بن عبد الله الأشجعي	١١٢ - ١١٢	
١٥.	عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	١١٢ - ١١٤	استشهد في معركة بواتييه
١٦.	عبد الملك بن قطن الفهري	١١٤ - ١١٦	
١٧.	عقبة بن الحجاج السلولي	١١٦ - ١٢٢	
١٨.	عبد الملك بن قطن الفهري	١٢٢ - ١٢٣	قتل.
١٩.	بلج بن بشر القشيري	١٢٣ - ١٢٤	
٢٠.	ثعلبة بن سلامة العاملي	١٢٤ - ١٢٥	
٢١.	أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي	١٢٥ - ١٢٧	
٢٢.	ثوابة بن مسلمة الجذامي	١٢٧ - ١٢٩	
٢٣.	يوسف بن عبد الرحمن الفهري	١٢٩ - ١٣٨	ولايته ولاية مضطربة

وفي هذه المرحلة ظهرت بوادر الخلاف بين جند الفتح من عرب و بربر في بلاد المغرب أولاً ثم تعداه إلى الأندلس نتيجة عوامل مختلفة منها :

- استئثار العرب بالمناصب القيادية من جانب .
- **شيوع فكر الخوارج** : الذين هربوا من المشرق إلى المغرب بعيدا عن أعين الخلفاء بين البربر فهيجوهم على العرب حتى قام رجل بربري خارجي المذهب اسمه ميسرة بثورة ضد العرب و كانت بين العرب و البربر حرب شديدة هزم فيها العرب في موقعة كبيرة في أحواز طنجة تعرف **بواقعة الأشراف**

سنة١٢١هـ . و سميت كذلك لكثرة من قتل فيها من أشراف العرب

هذه الحوادث دعت الخليفة الأموي هشام عبد الملك أن يبعث جيشا قوامه ٤٠ ألفا بقيادة **كلثوم بن عياض القشيري** أغلبه من عرب الشام (القيسية) و معهم بعض من جند مصر لتأديب البربر ..

و كان من المفروض أن يرحب بهم العرب المهزومون و لكن الأمر جاء على غير المتوقع ، و يرجع ذلك إلى أن عرب شمال أفريقية كانوا من الحجاز و أكثرهم من المدينة المنورة بالذات، وبين عرب الحجاز و عرب الشام ثارات و أحقاد ترجع إلى أيام وقعة الحرة و استباحة المدينة في أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٣هـ .

ولكنهم اضطروا أن يتوحدوا أمام خطر البربر (لاحظ أن الجميع مسلمون) و لكن لأن توحدهم شكلي و لم تصف القلوب فقد هُزموا من البربر في وادي **سبو** هزيمة شنعاء ، و نجا كلثوم – وهو مجروح – ببقايا من جيشه تبلغ سبعة آلاف تحصن بهم في **سبته** حيث حاصره البربر.

فلما ضاق به الأمر أرسل كلثوم إلى عرب الأندلس يستأذنهم في عبور المضيق إليهم ولما كان هؤلاء حجازيين أيضا فقد رفضوا السماح له ، غير أن الأحوال في الأندلس تغيرت واضطرت عرب الأندلس أن يسمحوا لجيش كلثوم بالعبور إليهم ،و ذلك أن بربر الأندلس سمعوا بانتصارات بني جنسهم في المغرب ، فثاروا ثورة شديدة يريدون بها القضاء على عرب الأندلس ، عندئذ رأى والي الأندلس **عبد الملك بن قطن الفهري** أن يشترط عليهم أن يعبروا المضيق فيحاربوا البربر معه ، فإذا ما انتصروا عادوا من حيث أتوا ، فوافق كلثوم فاجتمع الفريقان بعد أن أخذ عبد الملك من جند الشام رهنا من رجالهم ليضمن تنفيذ شروطه .

و سار الفريقان معا فقضوا على ثورة **البربر في الأندلس وترك البربر المسلمون**

أراضيهم بالأندلس و أخذوا يعـــودون إلى أفريقيـــة .. و خســـر المســـلمون بســـبب اختلافهم ربع الأندلس ، خسروه دون أن يخرجهم منـــه عـــدو✿ ، ومـــات في المعركـــة كلثوم وخلفه ابن عمه **بلج بن بشر القشيري** و طلب منـــهم عبـــد الملـــك بـــن قطـــن أن ينفذوا الاتفاق فيخرجوا من الأندلس و يعـــودوا إلى أفريقيـــة .. و لكـــن هيـــهات فقـــد رفضوا الخروج ، و لما كانوا ذوي بأس و قوة فقد عزلـــوا عبـــد الملـــك وولـــوا زعيمـــهم بلج إمارة الأندلس ..بل اهموا عبد الملك بأنه تسبب في مـــوت أحـــد الرهـــائن و طـــالبوا بتسليمه لهم لقتله ، و عبثا حاول بلج منعـــهم، فلمـــا هـــددوه و اهمـــوه بـــالتحيز لعبـــد الملك لأنه مضري مثله ، دفعه إليـــهم مضطـــرا فقتلـــوه ، فثـــار العـــرب البلديـــون (أول عرب سكنوا الأندلس ومعظمهم من اليمـــن) لمقتـــل أمـــيرهم و نشـــبت الحـــرب بـــين الفريقين من جديـــد

رأت الخلافة سوء الحال التي وصلت إليـــه الأندلـــس فبعثـــت مـــرة أخـــرى برجـــل ذي مكانة وقوة هو **أبو الخطار بن ضرار الكلبي** ليكـــون واليـــا عليـــهم جميعـــا وذلـــك في رجب سنة ١٢٥هـــ.

بدأ أبو الخطار ولايته بداية طيبة حيث بـــدأ بحـــل مشـــكلة العـــرب الشـــاميين فـــأنزلهم مقسمين على كور الأندلس ، و قسمهم حسب أجنـــادهم في الشـــام .

✿ وإنما أخرجهم منه كراهة بعضهم لبعض وقلة نظرهم في العواقـــب وكـــان مـــن المنتظـــر إذا بقيـــت هذه القوة وهي ألوف من البربر المسلمين أن يعبروا بالإســـلام كـــل نواحـــي الأندلـــس ، لقـــد تـــرك هؤلاء كل الأراضي الواقعة شمال نهر تاجة خالية تقريبا مـــن المســـلمين ، فـــأصبحت هـــذه النواحـــي ابتداء من النصف الثاني للقرن الميلادي أرضا خلاء مفتوحة لنصارى الشـــمال ليمتـــدوا فيـــها كيـــف يشاءون وسيسترد النصارى جزءا كبيرا منها خلال القـــرن التاسـع الميـــلادي ويصبـــح حـــوض الدويرة أرضا نصرانيـــة.

فأنزل أهل جند دمشق كورة (ألبيرة) و سماهـــا دمشـــق .
و أنزل أهل جند حمص كورة (أشبيليه) و سماهـــا حمـــص .
و أنزل أهل جند (قنسرين) كورة (جيان) في جنوب الأندلـــس و سماهـــا قنســـرين .
و أنزل أهل جند (الأردن) كورة (ريـــة) و سماهـــا (الأردن) .
و أنزل أهل (فلسطين) شذونة في أقصى الجنـــوب و سماهـــا (فلســـطين) .
و أما أهل مصر فأنزلهم الجنوب الشرقي من الأندلس في كورة تدمـــير و سماهـــا مصـــر .
و بذلك فرق شمل الشاميين الذين سببوا إزعاجا لســـكان الأندلـــس مـــن عـــرب و بربـــر وسكان أصليين ، فرقهم بطريقة منظمة حـــتى أصبحـــت هـــذه الأجنـــاد مـــن العنـــاصر العسكرية الرئيسية في التنظيم الحربي للأندلس .. فإن لهؤلاء الجنـــد ثلـــث الخـــراج الـــذي يؤديه نصارى الذمة و المزارعون نظير أن يقدموا للحكومة عددا معينـــا مـــن الجنـــد كلمـــا طلبت ذلـــك .

و لم تستمر هذه السياسة الحكيمة طويلا فقـــد ظـــهرت حميـــة الجاهليـــة بـــين العـــرب المضرية و اليمينية و ظهر بين الشـــاميين رجـــلا يدعـــى **الصميـــل بـــن حـــاتم بـــن ذي الجوشن** المتعصب لمضريته و صار زعيما لهم ،كما أن أبـــا الخطـــار والى الأندلـــس كـــان يمنيا متعصبـــا.

و قد حدث حادث تافه ؛ ذلك أنه اختلف مضري و يمـــني علـــى أمـــر فلجـــأ اليمـــني إلى أبي الخطار فقضى له ، فعد المضري هـــذا تحـــيزا فشـــكا إلى الصميـــل فذهـــب الصميـــل ليكلم أبا الخطار في ذلك فأهانه أبو الخطار فخرج من عنده و قـــد حلـــت عمامتـــه فقـــال له أحد الحراس على الباب: **أصلح عمامتك أبـــا الجـــوش** فـــرد قـــائلا : (**إن كـــان لي قوم فسيقيمونها**) وهذا تهديد بالحرب ، وفعـــلا وقعـــت الحـــرب بـــين المضريـــة بقيـــادة الصميل و اليمنية بقيادة أبي الخطار، و دارت بينهما معركـــة كبـــيرة علـــى نهـــر الـــوادي

الكبير في قرية غربي قرطبة تسمى شقندة و كانت الحرب سجالا ، انتصر فيها المضريون أولا ثم عاد اليمنيون فانتصروا، و تراجع الصميل إلى مدينته سرقسطة و هي مدينة حصينه من ثغور الأندلس - فتحصن فيها ، فخرج اليه جيش أبي الخطار للقبض عليه . و حاصره في سرقسطة ..

عندئذ خرجت قوة مضرية لنجدة الصميل و فك حصاره ، و كانت في طريقها تزداد عددا بمن ينضم إليها من المضرية في المدن و **كان بين رجال هذه القوة طائفة من موالي بني أمية عددهم ثلاثمائة** ، و لم يخرج هؤلاء الموالي للقتال و إنما كانت لهم غاية أخرى فقد كانوا رسلا إلى الطرفين المتحاربين **يريدون أن يظفروا بأمر ما** فتوجهوا أولا إلى الصميل المحصور و أرادوا أن يستغلوا هذا الموقف فبعثوا إلى الصميل رسالة بقدومهم لنجدته ، فلما أحس اليمنيون بتلك النجدة تراجعوا و فكوا الحصار حول سرقسطة ، وخرج الصميل للقاء النجدة فرحب بها ووزع الأعطيات بين رجالها وكر راجعا معها إلى قرطبة حيث عرض عليه هؤلاء الموالي أمرهم و لكنه رفض العوض..

فلما يئسوا من الصميل توجهوا نحو اليمنية الذين رحبوا بالعرض .

ترى ما هو هذا العرض الذي عرضه هؤلاء الموالي لبني أمية ؟

لكي نفهم الأمر أكثر نعود قليلا إلى الوراء وحينما قامت الدولة العباسية على أنقاض دولة بني أمية .. فأخذهم بكل سبيل حتى طلب بنو أمية بطن الأرض و كان من الذين نجوا من حرب الإبادة هذه **عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك** الملقب بالداخل الذي جعل ينتقل من مكان إلى آخر مجتازا ما يقابله من صعاب و فخاخ وسنه لم تتجاوز العشرين سنة حتى نزل قبيلة أخواله من البربر (أم عبد الرحمن من هذه القبيلة) و هي قبيلة (**نفزة**) .

فدعاهم عبد الرحمن بحق الولاء أن يعينوه على دخول الأندلـــس ليعيــد مجــد أجــداده في هذه الأرض . وكان هـــؤلاء المـــوالي مخلصـــين أذكيـــاء فتحركـــوا مســـتغلين أحـــداث الأندلس لعلهم يجدون فرصتهم عند أحد الطرفين .. و قـــد كـــان ..

حينما رحب اليمنيون بالعرض و هو أن يستقبلوا عبـــد الرحمـــن ويمكنـــه مـــن الأندلـــس ففرح القوم فقد وجدوا بغيتهم وطيروا الخبر إلى عبـــد الرحمـــن فعـــبر المضيـــق ونـــزل في **طرش** المركز الأساسي لموالي بني أمية و فيها أخذ يدبـــر الأمـــر ، فانتـــهز فرصـــة غيـــاب الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري و صاحبه الصميـــل في الشـــمال لإخمـــاد بعـــض الفتن المحلية ، فلم جموعه واتجه إلى قرطبة ، فوصل الخـــبر إلى يوســـف و الصميـــل فعـــادا مسرعين ليواجها الموقـــف ..

وقف الجيشان و بينهما نهر الوادي الكبـــير عنـــد قريـــة **المصـــارة** في يـــوم عرفـــة ســـنة ١٣٨هـــ

بعث عبد الرحمن إلى الطرف المقابل يطلب الدخول في مفاوضـــات ســـلمية حقنـــا للدمـــاء على أن يسمح لقواته بعبور النـــهر للدخـــول في هـــذه المفاوضـــات . فـــانخدع الـــوالي يوسف بهذا العرض و مكنهم من عبور النهر ، و علـــى الضفـــة الشـــمالية كشـــف عبـــد الرحمن عن حقيقة نفسه ، و أعلن أنه لا مفاوضة إلا على أســـاس المنـــاداة بعبـــد الرحمـــن سليل الخلفاء من بني أمية و صاحب الحق الشرعي في حكـــم هـــذه البـــلاد ، أمـــيرا علـــى الأندلـــس ..

فكان ذلك إيذانا ببدء المعركة و كانت **وقعـــة (المصـــارة)**

و فيها برزت مواهب عبد الرحمن و ســـرعة خـــاطره .. فقـــد سمـــع همســـا في صفـــوف جنده يقولون : إن عبد الرحمن شـــاب حـــدث لم يخـــض الحـــرب و يخـــافون أن تخلـــع الحرب فؤاده فينجو على ظهر جواده القوي السريع و يتركـــهم نهبـــا لســـيوف المضريـــة،

و لم يعلق عبد الرحمن على هذا الهمس بالقول وإنما بالعمل .. فلقد نزل عن جواده المتميز و تخير أضعف جواد تحت فارس فاستدعاه و ركبه و تنازل عن جواده .. فركب أهزل جواد في الجيش معلنا لرجاله في صمت أنه لن يكون أول من يدير عنان الجواد . و ثبت جنده و انتصر عبد الرحمن .. و دخل عبد الرحمن قرطبة و لتبدأ الدولة الأموية عهدا جديدا في الأندلس .

المرحلة الثانية:

عبد الرحمن الداخل

وتأسيس دولة بني أمية بالأندلس ١٣٨هـ ← ١٧٢هـ مدة أربعة وثلاثين عاما

عبد الرحمن يقضي على المخاطر الداخلية :

- واجه عبد الرحمن الغريب عن بلاد الأندلس مخاطر جمة في الداخل و الخارج
- فلقد قامت دولة عبد الرحمن على عون كبير من العرب اليمنيين و قد تصور هؤلاء أن ذلك يعني أن الدولة صارت دولتهم و أن لهم الحق في أن يتعرضوا للناس كيف يشاءون ويستمرون على أسلوب الفوضى و الاستخفاف بالناس و الأموال وإثارة العصبيات و لكنهم فوجئوا أن عبد الرحمن لا يعترف بهذه العصبيات و لا يزكيها و إنما يريد للجميع وحدة إسلامية في وطن واحد ..
- فأثار ذلك اليمنيين و اعتبروه جحودا لهم فأثاروا ثورة بعد أخرى .. وواجه عبد الرحمن هذه الفتنة بالاستعانة بموالي بني أمية فقضى عليها فلم يمهل الثائرين حتى قضى عليهم قبل أن يجمعوا أمرهم . فكانت طريقته على الدوام معاجلة

الثوار قبل أن يستفحل أمرهم فيقضي عليهم بـــلا هـــوادة شـــأن الأمويـــين دائمـــاً في معاملة خصومـــهم .

فـائدة :
لاحـظ أن عبـد الرحمـن تربـى في بيـت الخليفـة الأمـوي هشـام بـن عبـد الملـك الـذي كـان عـهده عـهد ازدهـار الدولـة الأمويـة فكـان قصـره مدرسـة للتعلـم مـن كـل المـهارات و الفنـون فمنـه تعلـم عبـد الرحمـن .

و كان من ضمن هذه الثورات ثورة دعمتها الخلافة العباســية زمــن أبي جعفــر المنصــور وهي **ثورة العلاء بن المغيث** سنة ١٤٦ ولكن عبد الرحمـــن اســتطاع أن يقضــي عليــها رغم أنه حوصر لمدة شهرين بمدينة قرمونة **فلما أصاب عبـــد الرحمـــن و جنـــده الجـــهد أمر بتحريق أسلحته وأسلحة الجند ثم قال لأصحابه : (اخرجـــوا معـــي خـــروج مـــن لا يحدث نفســـه بـــالرجوع)** فـــانطلقوا خلـــف قـــائدهم فـــانقضوا علـــى محاصريـــهم و مزقوهم شر ممزق وأرسل عبد الرحمن بـــرأس العـــلاء إلى أبي جعفـــر المنصـــور و معـــها لفافة بها آذان جند العلاء و مع كل أذن بطاقـــة باســـم صاحبـــها فلمـــا وُضعـــت أمـــام المنصور – وكان يحج بمكة –اشتد غضبه و لكنه قال : (الحمـــد لله الـــذي جعـــل بيننـــا و بين هذا الشيطان بحرا) و سماه **صقر قريش** ، ولم يحـــاول بعدهـــا العباســـيون أن يصلـــوا إلى بني أمية بـــالأندلس.

و أما الخطر الخارجي الأعظم فكان يكمن في الصليبيين:

وقد خرج جماعة من العرب الحانقين على عبد الرحمـــن يتزعمـــهم ســـليمان بـــن يقظـــان الكلبي والى برشلونة إلى شرلمان قائد الصليبيين الأوربيـــين فجعلـــوا يزينـــون لهـــم القـــدوم إلى الأندلس ويعدوهم بتسهيل استيلائهم علـــى سرقســـطة ،و هـــان عليـــهم أن يعرضـــوا

البلاد لأعظم الخطر مقابل إشفاء أحقاد شخصية ..و بالفعل خرج شرلمان في جيش ضخم (سنة ١٦١هـ سنة ٧٧٨م).

وعبر جبال البرانس وزحف جنوبا إلى سرقسطة و لكن أهلها امتنعوا عليه فضرب عليها الحصار ، و خف عبد الرحمن لنجدة المدينة و جاءت الظروف مواتية فقد ورد إلى شرلمان ما يفيد وجود اضطراب في بلاده فانسحب متكبدا خسائر فادحة ، و عاد هذا الجيش إلى فرنسا يجر أذيال الخيبة ، و كان لله تدبير خاصٌ فعندما كان جيش شرلمان يمر في ممرات البرانس الضيقة ، وقفت له قبائل البشكنس من أهالي هذه البلاد في صياصي الجبال و يقال إن عبد الرحمن هو الذي أمدهم بالسلاح و بعض الرجال و هجمت على مؤخرة الجيش الشرلماني و فرقته شر ممزق ، و هلكت في تلك البقعة زهرة الجيش الفرنسي و كان يقود المؤخرة فارس مقرب لشرلمان يُدعى رولاند فقتل فيمن قتل ، و حزن عليه شرلمان حزنا شديدا ، و نظم فيه شاعر فرنسي ملحمة تسمى **أغنية رولان** يعدها الفرنسيون أول أنشودة حماسية في الأدب الفرنسي و معظم حوادثها لا صلة لها بالواقع التاريخي ، و هذه الملحمة تعتبر من المعالم الحاسمة في تكوين اللغة الفرنسية .

هدأت الأحوال بعد ذلك و عمل عبد الرحمن على دعوة شرلمان إلى السلم فأجابه شرلمان .

لقد كان عبد الرحمن يؤسس دولة ومن ثم احتاج إلى فترة زمنية امتدت من (سنة ١٣٨هـ سنة ١٦٣هـ) أي ما يوازي خمسة و عشرين عاما لكي تستقيم له الأمور .

وقد بدأ وهو في العشرين من عمره اجتاز من قبلها محناً و من بعدها محن و ها هو في الخامسة و الأربعين من عمره يجني ثمار صبره و علو همته و صلابة إرادته .

بدء مرحلة الاستقرار

فكان من أعماله بدء بناء مسجد قرطبة سنة ١٧٠هـ و استمر بناءه سبع سنوات

و سار في إدارة البلاد بطريقة أجداده فمصر الأمصار و جند الأجناد و قد أنشأ بجوار جنده من موالي بني أمية ورجال الكور المجندة قوة جديدة من **الصقالبة** (أي الجند الذي يشترى أفراده صغارا من بلاد النصرانية و يربون تربية إسلامية عربية و يُنَشَّئون جندا خالصا للإمارة و رجالها).

واهتم كذلك بالعمران فجمّل المدن وشيد دارة سماها **الرصافة** في ظاهر قرطبة ، وجر الماء إلى هذه الجنة الغناء و كان من ضمن ما غرسه فيها نخلة أتى بها من الشام ، و قد أهاج انفراد هده النخلة بالرصافة و غربتها في الأندلس أشجان عبد الرحمن وتمثل فيها حاله وكان شاعرا فأنشد فيها شعرا يقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التفرد و النوى وطول التنائي عن بنيَّ و عن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الإقصاء و المنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي يسح و يستمري السماكين بالوبل

هشام بن عبد الرحمن ١٧٣ ← ١٨٠هـ:

اختاره أبوه من بين أبنائه ليكون خلفا له .. و أثناء وفاة أبيه كان واليا على ماردة إحدى مدن الثغور الشمالية و كان أبوه يريد بتوليته تلك المناطق البعيدة الخطرة أن يتمرس في ميادين الجهاد و أن يكون أبدا مستعدا لمواجهة المخاطر .

كان ورعا ديّنا تقيا ، سعِد الناس في أيامه وكان يراقب الولاة و يحاسبهم على التقصير و ربما عزلهم

حاربه أخوه سليمان و لكن الدائرة كـانت لهشـام

غزا فرنسا و قد تحمس المسلمون لذلك فتجمع جيـش قوامـه ١٠٠.٠٠٠ مقـاتل .

و كان دخولهم فرنسا سنة ١٧٧هـ ــ ٧٩٢م . و كـان شـرلمان إذ ذاك مشـغولا علـى ضفاف الدانوب فتقدم المسلمون إلى **قرقشونة** ، ولكـن كونـت تولـوز اسـتنفر أمـراء المملكة فأقبلوا من كل جانب و تلاقوا مع المسـلمين و كـانت معركـة حاميـة انتصـر فيها المسلمون و أصيب فيها الفرنجة بخسائر فادحة و لم يتبعـهم المسـلمون و اكتفـوا بمـا أصابوا من غنـائم .

و في عهده انتشر مذهب الإمام مالك في الأندلس عن طريـق **يحـيى بـن يحيى الليـث** الذي أخذ عن الإمام مـالك .

و كان للفقهاء في عهده شأن عظيـم .

الحكم بن هشام ١٨٠ ← ٢٠٦ هـ

الملقب بالربضي ولقب بذلك لموقعة كانت علـى أهـل الربـض و هـي ضاحيـة مـن ضواحي قرطبـة.

۞ كان الحكم يحب حياة الترف و الرياضة و الصيـد، وجعـل مـن حولـه حاشـية متكبرة متعالية وجندا خاصاً قاسياً عنيفاً علـى النـاس معظمـه مـن الصقالبـة،و لم تنقضي على ولاية الحكم شهور قليلة حتى بدأ بيته وكبـار دولتـه يدبـرون عليـه ، لأنهم رأوه شابا ماجنا مستخفا ، و انضم إليهم نفر من الفقـهاء .. و بـدأت العامـة تتعرض لـه .

تعامل الحكم مع هذه المحاولات بقسـوة

۞ ومن أشهر الأحداث في عهده **موقعة الربـض** في ١٣ مـن رمضـان سـنة ٢٠٢هـ

حيث خرجت من الضاحية الجنوبية لقرطبة **شقندة** ثـــورة تضـــم الفقـــراء و الفقـــهاء و فيهم **يحيى بن يحيى الليثي** يطلبون فيها العدالـــة لا الحكـــم ..

و لكن الحَكم تصرف معهم تصرفا خسيسا حيث أطلـــق جنـــده علـــى بيوهمـــم فأشـــعلوا فيها النيران و عرّضوا أولادهـــم و حريمـــهم للمـــوت ، فـــارتد النـــاس لإنقـــاذ أبنائـــهم فحصدهم الجند حصدا ، و انتهى اليوم بانتصار الحكـــم ، **و أمـــر بطـــرد أهـــل الريـــف الجنوبي من الأندلس و كانوا من أجَـــلّ النـــاس و أكـــثرهم شـــهامة فـــهاجرت هـــذه الأفواج من الأندلس** ، فريق منهم هـــاجر إلى **فـــاس** وكـــان إدريـــس الأول آخـــذا في تأسيسها ، فاستقبلهم و رحب بهـــم و أنزلهـــم حيـــاً يعـــرف إلى الآن بحـــي الأندلســـية ، وانتفع بخبرتهم و صناعتـــهم .

و أما الفريق الآخر فقد سار نحو الشرق بحـــراً وبـــراً فدخلـــوا الإســـكندرية ثم أُخرِجـــوا منها فتوجهوا إلى كريت و كانت في يد البيزنطيين فاستولوا عليـــها و أقـــاموا فيـــها دولـــة إسلامية عرفت بالدولة **الكلبية** ولم يزالوا بها حتى عاد الروم فملكوهـــا مـــن أيديـــهم .

شغلت هذه الفتنة الحكم عن عدوه الصلبي شارلمان الـــذي انتـــهز الفرصـــة و اســـتطاع أن يستولي على برشلونة سنة ١٩٠هــ و أنشأ فيـــها ثغـــرا أصبـــح بعـــد ذلـــك شـــوكة في جنب المســـلمين .

تمكن المرض من الحكم بن هشام بعد حادثة الربـــض و تطـــاولت بـــه العلـــة و حـــل بـــه الندم و جعل يتمنى لو لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحـــو حـــتى توفـــاه الله.

عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦ ـ ٢٣٨ (عبد الرحمن الأوسط)

ورث عبد الرحمن ملكا ممهدا ثابتـــا.

بالإضافة إلى شخصيته المعتدلة بين اللين و العنف ، فهو يعـــرف كيـــف يضـــع الســـيف في موضع السيف و كيف يستعمل اللين في موضـــع اللـــين .

و في عهده بدأت مظاهر الحضارة و الترف تظـــهر فأنشـــأ النـــاس القصـــور الجميلـــة ، و أخذت قرطبة طريقها لتصير أجمل مدائن أوروبا علـــى الإطـــلاق ..ولكـــن هـــذه حيـــاة الأقلية أما حياة الأكثرية فكانوا يعيشون في رخاء نسبي لأن البلـــد كـــان غنيـــا ، و كـــان الناس مقبلين على العمل ، والضرائب قليلة ، وكان هناك ديـــوان المظـــالم مخصـــص للنظـــر في شكاوى الناس من أعمال رجال الدولـــة و تصرفـــاتهم .

تولى يحيى بن يحيى الليثي الإشراف على القضاء فكـــان بمثابـــة وزيـــر العـــدل في زماننـــا و لقد أتسع سلطانه حتى ثقل على القضـــاء .

فـــائدة :

يلاحـــظ المتـــابع لأحـــوال الأندلـــس في هـــذه الفـــترة بـــروز شـــخصيات ذات تأثـــير في الحكـــم وفي الحيـــاة العامـــة بـــالأندلس .

فعلـــى ســـبيل المثـــال تذكـــر كتـــب التـــاريخ الـــتي تـــؤرخ للأندلـــس ظـــهور شـــخصية : الحســـن بـــن علـــي بـــن نـــافع الموســـيقي المشـــهور باســـم (زريـــاب) (الطـــائر الأســـود) وهـــو موســـيقي كبـــير وفـــد مـــن بغـــداد إلى الأندلـــس فرحـــب بـــه عبـــد الرحمـــن وأكـــرم وفادتـــه ورتـــب لـــه ولأســـرته الرواتـــب والإقطاعيـــات وأصبـــح مـــن ذلـــك الحـــين موســـيقية المفضـــل.

وزرياب هذا هو أول من استخدم الكورس (المجموعات) في الغناء ، ووضع للموسيقي الأندلسية أساسا ثابتا ، استطاع من أتى بعده أن يبني عليه حتى أصبحت الموسيقى الأندلسية أرقى أنواع الموسيقى العربية شرقا وغربا ، ولا تزال آثار زرياب باقية في الموسيقى حتى الآن ، ويقال إنها هي أساس الموسيقى الأسبانية الحالية .

وكان لزرياب طريقة مبتكرة من تصفيف الشعر ونظام اللباس وقد تبعه أهل الأندلس في طريقته هذه ، بل كان له إبتكارات في مسائل الطعام وألوانه وأصبح لزرياب تلاميذ ينشرون ما يأخذونه من أستاذهم في كل ناحية .. ،

يحيى بن الحكم البكري المشهور بـ (الغزال) كان من شعراء الأندلس الموهوبين هكذا يقول عنه المؤرخون : (كان يعيش حياة فنية خالصة يقول إذا حلا له الشعر ولا تردد في هجو الأمراء إذا تراءى له ذلك ، وربما قال من الشعر ما يمس العقيدة ويتعرض بسبب ذلك لغضب الفقهاء) وظفه الأمير عبد الرحمن في وظائف السفارة إلى الملوك وقد كان الغزال جميل الطلعة حسن الهيئة حاضر البديهة طلق اللسان مما ساعده في أن ينجح في سفارته.

وغالب المؤرخين وهم يذكرون هذه الشخصيات وغيرها في تاريخ الأندلس يشيدون بفضل هؤلاء في نقل الأندلس من البداوة إلى الحضارة والتهذيب !!!

ومن حوادث هذه الفترة غارات النورمان سنة ٢٠٩ :

كانوا يقبلون في مراكب صغيرة نسبيا ذات أشرعة سوداء ثم ينزلون إلى البر فيقيمون معسكرا صغيرا ، ثم ينطلقون في غارات سريعة ينهبون فيها ما يقع تحت أيديهم ويعودون لإيداعه في ذلك المعسكر ، فإذا فرغوا من الغارة نقلوا غنائمهم إلى

السفن و مضوا إلى مكان آخر ، و كـــان مـن عـادتهم أن يسـتعملوا النـار لإرهـاب عدوهم و لذا حسـبهم المسـلمون مجوسـا (عبـاد النـار) و سموهـم في النصـوص (المجوس)و لم يستطع رجال عبد الرحمن الأوسط أن يتغلبـوا عليـهم إلا بعـد مشـقة ... **ولكن هذا الحدث نبه عبد الرحمـن إلى وجـوب إنشـاء أسـطول بحـري للمسـلمين بالأندلس** وقد كان هذا أمرا مهملا ، فقامت البحريـة الأندلسـية الإسـلامية لأول مـرة و لم تلبث أن سيطرت على الحوض الغربي للبحـر المتوسـط و اسـتولت علـى الجزائـر الشرقية المعروفة اليوم (بالبليار) و كان للمسـلمين الأندلسـيين أسـطولان :

- أسطول بـالبحر المتوسـط
- و أسطول بـالمحيط الأطلسـي

كما وقعت خصومات بين المضرية و اليمنية في إقليم مرسية بشرق الأندلـس دامـت سـبع سنوات ، بذل خلالها الأمير عبد الرحمن جهدا كبيرا لإخماد هذه الفتنة ، و تمكن من القضـاء عليها ... لكن مؤقتا وسنرى أنها ستنفجر من جديد على أعنف صورة أيام الأمير عبد الله .

ثورة المستعربين

و المستعربون هم النصارى الذين أقـاموا علـى دينـهم ، و دخلـوا في ذمـة المسـلمين واستعربوا لسانا و عقلا و ثقافة و أسـلوب حيـاة ، و كـانت أعدادهـم في الأندلـس عظيمة ، وكانت العلاقات بينهم و بين المسلمين على أتم ما يكـون مـن الصفـاء ..

و لذا فإن من العجيب أن يثور في زمن عبد الرحمن الأوسـط بـالخصوص و عـهده كـان عهد رخاء و استقرار و لم تعرف عن الرجل أي عصبيـة دينيـة .

و ذلك أن بعض القساوسة المتعصبـين فجعـه إقبـال النصـارى علـى الثقافـة العربيـة وتعايشهم السلمي مع المسلمين فأثار فتنـة هيجـت مشـاعر بعـض النصـارى فثـاروا

ولكن تعاملت معهم الحكومة بحكمة إذ كانوا يســـتتيبوهم و لا يتعرضــون لهـــم بـــالأذى إلا في حال الإصرار و العناء الشديدين وأخيرا انتهت هـــذه الحركـــة بســـلام .

فـائدة:

وقفـة هامـة تساعد علـى فـهم الأحـداث المقبلـة

أسـبانيا (الأنـدلـس) شـبة جزيـرة تتكـون مـن هضبـة قديمـة تقطعـها سلاسـل مـن الجبـال مسـتعرضة تحصـر بينـها وديانـا طويلـة مـن الشـرق إلى الغـرب في وديـان محفوفـة علـى الأرجـح بحافـات هضـاب أو جبـال و مـن شـأن البـلاد الـتي سـطحها كذلـك أن تميـل إلى الحكـم اللامركـزي ..

أمـا سـكان أسـبانيا في ذلـك الوقـت فقـد كـانوا يتكونـون مـن :

القـوط الذيـن حكمـوا قبـل العـرب .

السـكان الأصليـين الذيـن حكمـهم القـوط

ثـم العـرب و الـبربر الفـاتحين

و كـل جنـس مـن هـذه الأجنـاس بقـى يتميـز بخصائصـه ، فـالعرب نزلـت قبائلـهم إلى الأندلـس محتفظـة بشـخصيتها معتـدة بأنسـابها ، فـهناك قبـائل مضريـة و أخـرى يمنيـة ولكـل قبيلـة شـخصيتها القائمـة ، وقـد نزلـت هـذه القبـائل أمـاكن بعينـها واحتلـت أجـزاء بذاتـها. والـبربر أيضـا كـانوا قبـائل و نزلـوا محتفظـين بنظامـهم القبلـي واحتلـوا جـزءا بعينـه مـن الأندلـس .

أمـا المجتمـع الأسـباني فقـد لحقـه تغـير كبـير ، فقـد أنتشـر الإسـلام و اللغـة العربيـة بـين السـكان الأصليـين فـأعتنق كثـير منـهم الإسـلام و تكلـم العربيـة ، و تـزوج العـرب و الـبربر مـن هـؤلاء السـكان الأصليـين فنشـأ جيـل مشـترك في الـدم و النسـب عـرف باسـم المولديـن، كـان لهـذا الجيـل طابعـه .

و بقـى عـدد كبـير مـن أهـل البـلاد لم يعتنـق الإسـلام و أحتفـظ بديانتـه

المسيحية أو اليهودية ولكنه تعلم العربية وأخذ بأسلوب العرب في الحياة فعرف هؤلاء باسم المستعربة .

المرحلة الثالثة:

التدهور الأول للأندلس وحتى بداية حكم عبد الرحمن الناصر (٢٣٨ - ٣٠٠) وخلفاء هذه المرحلة :

محمد عبد الرحمن الأوسط
سنة ٢٣٨← ٢٧٣هـ

المنذر
سنة ٢٧٣← سنة ٢٧٥

عبد الله
٢٧٥← ٣٠٠هـ

وفي هذا العهد :كثرت الثورات

- كون العرب دويلات أهمها **دولة بني حجاج** في أشبيليه من قبيلة لخم اليمنية أحبوا أن يكون لهم مثل ما للأمير الأموي من هيبة و جاه فصاغ إبراهيم بن حجاج دولة على مثال الدولة الأموية فكان له بلاط وحاشية وحرس وجيش و أحاط نفسه بهالة من الأدباء و المؤرخين و رجال الفن و شجع العلوم ، و كان ممن ظهروا في عهده الشاعر المؤرخ (ابن عبد ربه) صاحب العقد الفريد .
- و أما البربر فقد خلعوا أيضا طاعة أمراء بني أمية و عادوا إلى القبائل واستقلوا

بالولايات الغربية (استرا مادور) و جنوب البرتغال و احتلـــوا مراكـــز عظيمـــة الشـــأن في الأندلس نفسه كمدينة (جيان) و كانت أسرة **ذي النـــون البربريـــة** أشـــهر مـــن قام من البربر و كانت تتألف من عميدها موســـى وهـــو شـــرير كبـــير ثم أولاده الثلاثـــة الذين أشبهوه في قسوته ، فدهمت هـــذه الأســـرة الأندلـــس كلـــها بالســـيف و النـــار و عاثت في جميع نواحي الأندلس فسادا تحرق وتنهب وتقتـــل أينمـــا ســـارت .

۞ و أما مولدو الأسبان فقد استولوا على ولايـــة الجـــرف في الزاويـــة الجنوبيـــة الغربيـــة من الأندلس و ملكوا عدداً كبيراً من المدن والولايات المســـتقلة بـــالأندلس وكـــان **ابـــن حفصون** أكثر هؤلاء قوة و بأسا ، و كـــان ينـــزل كـــورة ريـــة ، وأقـــام في حصانـــة معقله في جبل (ببشتر) مثيرا سكان الجبـــال بغرناطـــة وظـــل يحكـــم و يمـــد نفـــوذه و سطوته على البلاد التي حوله ، حتى اقترب من قرطبـــة جـــدا دون أن يدفعـــه دافـــع ، و لقد حاول الأمير عبد الله بن محمد مراراً القضاء على ســـطوة ابـــن حفصـــون و لكـــن لم ينجح ، وظل ابن حفصـــون في قوتـــه حـــتى ارتـــد عـــن الإســـلام ليغـــري المســـتعربة بالانضمام إليه ولكن هذا جاء وبالا عليه فانفض من حولـــه المســـلمون و لم ينضـــم إليـــه النصارى فضعف أمره و زالت دولته على يد الناصر فيمـــا بعـــد .

هكذا كان حال الأندلس حيناً من الزمان من (ســـنة ٢٣٨ إلى ســـنة ٣٠٠ هـــ) أي بعد مائة سنة من تأسيس دولة بني أمية هناك فأصبحت ممزقـــة الأشـــلاء ، تبعـــثرت بهـــا المقاطعات المستقلة التي صارت أشبه بالضياع منـــها بالولايـــات ، و صـــار ملـــك بـــني أمية يشمل قرطبة وحدها و ما يجاورها مـــن أعمالهـــا ..

بيد أن ركب الحضارة و التقدم لم يتـــأثر كثـــيرا ..

استخلف الأمير عبد الله لولاية عهده من بعده حفيده (عبـــد الرحمـــن) و كـــان شـــابا في الحادية و العشرين من عمـــره.

المرحلة الرابعة :
عودة القوة وإعلان الخلافة ٣٠٠ - ٣٦٨ هـ

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الناصر

بداية القرن الرابع الهجري (٣٠٠ ← ٣٥٠) هـ

كان محل عناية جده عبد الله و مات أبوه في ظـــروف غامضـــة

بايعه الناس من بعد جده دون معارضة و مع أنه كان لعبـــد الرحمـــن أعمـــام هـــم أحـــق بالملك منه فكان المفروض أن يكون منهم تمـــرد أو علـــى الأقـــل عـــدم رضـــا ، و لكـــن الحالة السيئة التي وصلت إليها الأندلـــس و توقـــع الجميـــع زوال الملـــك هنـــاك جعلتـــهم يزهدون في الإمارة ومن ثم تهيأت الظـــروف للنـــاصر فتفـــرغ للقضـــاء علـــى المشـــاكل الداخلية التي أدت إلى تجزئة الأندلـــس ممـــا عرقـــل التجـــارة و التنقـــل و أفســـد الحيـــاة الاقتصادية و الحياة الآمنة للعامة فقد ضجت العامة من هـــذه الحالـــة الســـيئة و تمنـــت أن يأتي من يستنقذ البلاد من هذا الفساد ..فكانت العامة في صـــف عبـــد الرحمـــن في كـــل **خطواته الإصلاحية** ..و كان الرجل ممـــن يتمـــيزون بـــالاعتدال بـــين اللـــين و الشـــدة يستخدم كلا في موضعه و من ثم فقد بدأ بإصدار منشور أرســـله إلى كـــل أمـــير أو ملـــك من هؤلاء المتغلبين على النواحـــي ،

و فيه يعد و يتوعد و يمني و يحذر ، فأيما رجل متغلب علـــى ناحيـــة مـــن النواحـــي قـــدم ولاءه للحاكم الشرعي فإنه سيكون من المقربـــين و ســـيحقق مـــا يبتغيـــه مـــن مـــال و سلطان تحت راية الإمارة المركزية ، و من لم يفعل فينـــذره بحـــرب مدمـــرة لا تبقـــي و لا

تذر .

و كان عبد الرحمن يدرك معنى هذا المنشور إذ إن أكثر الموجودين من المتغلبين كانوا بقايا أسر أو عصبيات قديمة قد ضعفت و ذهبت عنها قوتها..

وكان له أسلوب بارع في الوصول إلى هذه الغاية ، فقد كان يخرج بجيوشه فيزل علي الواحد منهم فيحاصره ويشدد عليه ويبسط له الأمان حتى إذا استسلم وفّى له بوعده وجاء به إلى قرطبة معززا مكرما هو وأهله وحاشيته وأغدق عليهم وجعلهم من المقربين إليه ، ومن ثم استسلم هؤلاء الذين عاندوا الدولة وأرهقوها بحروب طويلة.

وأما الخصم الوحيد الذي كلف عبد الرحمن مشقة كبيرة فهو ابن حفصون ، غير أن هذا ضعف أمره وذهبت ريحه خصوصا بعد أن ارتد عن الإسلام كما رأينا فيما سبق وتوفي سنة ٣١٢ هـ .

وكان أمره قد تفرق تماما و لم يصمد أولاده من بعده لعبد الرحمن وسقط حصنه المنيع (ببشتر) .

فائدة:

كان عمر بن حفصون هذا من أصل أسباني قوطي ، بالغت بعض المصادر الأوروبية في تصوير هذا الرجل على أنه بطل قومي يريد تحرير وطنه مع أنه لم يكن أكثر من قاطع طريق عنيف في سلوكه والدليل على ذلك أنه لما أعلن ارتداده عن الإسلام لم يجد من يتجاوب معه حتى طائفة المستعربين .

ولم تأت سنة ٣١٣ هـ . إلا وعبد الرحمن الناصر سيدا علي الأندلس الموحدة .

أما على الصعيد الخارجي : خطر الدولة النصرانية

بعد الفتح العربي بقي للأسبان جزء منعزل في الشمال الغربي من الأندلس يعرف بإقليم (**جليقية**) لم يطمع المسلمون في امتلاكه لفقره وبرده ، فانحاز إليه البقية الباقية من نبلاء القوط المغلوبين ورجال الدين وقد ظلوا يترقبون الفرصة لتوسيع رقعتهم ، فلما كانت الفوضى السائدة بالأندلس، انتهز أولئك النصارى الفرصة ووصلوا بملكهم إلى ضفاف نهر دويرة واحتلوا مدينة ليون وجعلوها عاصمتهم وأخذت تتسع رويدا رويدا في المنطقة التي خلت بنزوح البربر منها أمام العرب كما أشرنا سالفا حتى إذا ما وصلت إلي عصر ملكهم الفونسو الثالث الملقب بالكبير نجد هذه الإمارة الليونية تحتل مدينة سمورة فحصّنها وأصبحت من ذلك الحين حصن إمارة ليون المواجهه للمسلمين عند غزوهم لبلاد النصارى ، وقد هاجمها المسلمون وخربوها مرارا حتى سميت عندهم (سمورة الخراب)

وخلاصة القول أن الإمارة الليونية قد وصلت في آخر عهد الفونسو الثالث إلى نهر دويرة بل امتد إلى كل ما يقع جنوبي نهر دويرة هذا في ناحية الغرب ..

أما من ناحية المشرق من الأندلس أي الممالك النصرانية التي قامت وظهر أمرها فيما يلي الثغر الأندلسي الأعلى فيما بين نهر ابرو نهيراته ، وجبال البرانس ، فهناك ظاهرة أن هذه الإمارات النصرانية نشأت كلها في الجبال نظرا لاشتداد الخطر الإسلامي من الجنوب (سرقسطة) وكذلك كانت جهتها الشمالية متاخمة لأوروبا النصرانية مما جعلها علي صلة دائمة بالبابوية والعالم الكاثوليكي .

ولذا لم يكن لهذه الجهة النصرانية إمكانية تحقيق أي توسع أو طموح سياسي .

وكان أقوى الإمارات النصرانية في هذه الفترة مملكة (نبرة) (نافارا) وكان ملكها

شنجو قد تمكن من أن يمد حدودها حتى تاخمت بلدتي (لاردة) و (وشقة) من حصون المسلمين.

فكان على عبد الرحمن أن يواجه هذه الأخطار والأطماع ، فدخل في مواجهات طويلة مع الصليبيين امتدت تقريباً من سنة ٣٠٥ هـ إلى سنة ٣٣٩ هـ حتى دانت له الأمور بالتحالف مع البعض وبالإجبار مع البعض كل ذلك في كياسة وحكمة جعلتهم جميعاً لا ينظرون إليه كعدو بل كصديق يحكمونه فيما شجر بينهم ، ويكفي للدلالة على ذلك أن نذكر أن ملك (نافار) شنجو طلب من قرطبة طبيباً يعالجه من سمنته المفرطة ، فأرسل إليه عبد الرحمن طبيباً له دراية بالطب هو (حسداي بن شيروط) الإسرائيلي ، وكان من نتيجة سفارته أن قدم وفد إلى قرطبة على رأسه (شنجو) نفسه ليشكر عبد الرحمن فأكرم عبد الرحمن وفادته وندب الأطباء لعلاجه، وكان من نتيجة ذلك عقد محالفة بينهما نال من ورائها المسلون حصوناً على حدود مملكة.

ومن ناحية أخرى كان ملوك ليون وأرجون يفدون إلى قرطبة يحتكمون إلى أميرها ليقر السلام بينهم .

واستطاع عبد الرحمن بعد سنوات طويلة من الجهد والدأب أن يعيد السيادة للمسلمين على أسبانيا كلها.

عبد الرحمن يعلن عن نفسه خليفة:

وفي أثناء فترة حكمه ظهر الحكم الفاطمي وأعلنت الخلافة الفاطمية التي طمعت في إخضاع العالم الإسلامي كله لسلطانها وهددت سلطان الأندلس ولأن الخلافة لها سلطان ديني وهيبة في النفوس فقد رأى عبد الرحمن أن يلقب نفسه خليفة

للمسلمين في رمضان ٣١٦ هـ وكان هذا الإعلان من جانبه من قبيل محاربة العدو الفاطمي بسلاحه.

في عهده ابتدأ بناء مدينة **الزهراء** سنة ٣٢٥ هـ على بعد ٧ كم من قرطبة على الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير ، استغرق بناؤها ٤٠ عاماً وأتمها ابنه الحكم وكانت من أعجب ما أنشأ الإنسان على الأرض بشهادة المؤرخين والسياح.

الحكم بن عبد الرحمن المستنصر ٣٥٠ ← ٣٦٦ هـ

- كان محباً للعلم والعلماء ، بل كان عالماً قال عنه أحد المؤرخين إنه **كان دودة كتب.**

- وقد ظن الصليبيون فيه اللين فحاولوا أن يرجعوا عن عهدهم بتسليم بعض الحصون على الحدود ولكن الحكم جرد لهم جيشاً أدبهم وألزمهم تنفيذ الاتفاق.

الحالة العلمية في عهده:

كان الحكم يرسل رسله إلى كل بقاع الشرق ليبتاعوا له ما ندر من المخطوطات في مختلف الفنون والعلوم والأدب مهما غلا ثمنها، وقد قدر ابن خلدون والمقري أنه بمكتبة الحكم بقرطبة نحو أربعمائة ألف مجلد وكان يقرؤها جميعاً ويعلق عليها وكانت تعليقاته هذه عند العلماء من أدق ما كُتِب وأنفسه.

وكان الحكم كذلك يتصيد العلماء وتحول جامع قرطبة إلى جامعة لكثرة العلماء الذين كانوا يحاضرون فيه.

كما أنشأ كثيراً من المدارس والمكاتب في قرطبة وفي الأمصار ليتعلم فيها أبناء الفقراء

مجاناً ، كما أنشأ فروعاً للمكتبة في العاصمة والمدن لتيسير الإطلاع على العلم.
هذا الاهتمام بالعلم من قبل الحكم جعله يترك الأمر للوزراء والقادة للتصرف في شئون الدولة وكان **وزيره المصحفي** مفوضاً في شئون السياسية والإدارة وفي حل المشكلات ولا يرجع إلى الخليفة إلا في بعضها.
كما أنه اشتغل عن إعداد ابنه هشام لخلافة عهده ومن ثم لما حضرته الوفاة أصابه القلق على مصير ابنه فجمع القادة والرؤساء وأخذ عليهم **العهود** المغلظة أن يوفوا بما عهد إليهم من تولية ابنه من بعده ومؤازرته والإخلاص له ثم مات سنة ٣٦٦ هـ.
فصار الأمر من بعده إلى هشام ولكن الحكم الحقيقي قد صار لرجل طموح من غير بني أمية هو **محمد بن أبي عامر** ويمكن أن يقال إن الدولة الأموية انتهت انتهاء حُكمياً بوفاة الحكم ، فالخلفاء الذين تولوا من بعده كانوا مجرد أشباح ليس لهم من الأمر شئ حتى انتهت تماماً سنة ٤٢٢ هـ.

المرحلة الخامسة :
عصر سيطرة الوزراء أو الدولة العامرية ٣٦٦ - ٣٩٩

هشام بن الحكم (الثاني) سنة ٣٦٦:

تولى الخلافة وعمره لا يزيد على عشر سنوات وأشهر !!
وانقسم رجال الدولة إلى قسمين:
قسم العسكر يرى في هشام طفلاً لا يصلح للإمارة ويرشحون عمه (المغيرة بن عبد الرحمن الناصر).
وفريق الوزير المصحفي ورجال الحكم المدنيين يرون استبقاء هشام في الحكم تقوية لنفوذهم

واستئثاراً بالسلطة.

وبادر الفريق الثاني لتدبير مؤامرة لقتل المغيرة فقتل على يد شاب هو : **محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعفري القحطاني** .

وهذا الشاب نزح آباؤه من قبل إلى الأندلس مع الجيوش الفاتحة أيـام طـارق بـن زيـاد فكان أجداده ذوي وجاهة في الجند ، وقد قدم محمد هـذا قرطبـة وهـو شـاب فطلـب العلم والآداب وسمع الحديث في جامعها وكانت له همة عاليـة وطمـوح للملـك

ولقد زاول بعد تخرجه عملاً بسيطاً ، فافتتح دكانـاً بجـوار قصـر الخلافـة يكتـب فيـه للناس شكاواهم، فاستهوى بشخصيته المتميزة الجمهور ، وخاصـة مـن اتصـل بـه مـن خدم القصر وغلمانه ، فهيئوا له الاتصال **بالسيدة صبح** زوجـة الحكـم وأم هشـام الـتي أعجبت بنبوغه فوكلت إليه النظـر في شـئون أموالهـا وضياعـها ، فظـهرت كفايتـه ورضيت السيدة عنه فنبهت إليه الخليفة الحكم فولاه القضاء في بعـض النواحـي ومـازال يترقى حتى وصل إلى مرتبة تكافئ الوزارة في آخـر أيـام الحكـم، ولما تـوفي الحكـم وحصلت الأزمة سنحت له الفرصة التي طالما حلم بها وهـي الإمـارة.

كان محمد العامري حريصاً على أن يكون له النفـوذ المطلـق ومـن ثم عمـل مـن أول لحظة على التخلص من كل من ينازعونه الأمر بالحيلـة والمكـر.

فلما بلغ غايته وأصبح الأمر إليه أظهر كفايتـه في خدمـة شـعبه ولم يعـرف في التـاريخ الإسلامي من كان أدأب على العمل منه، فقد كان يعمـل عشـرين سـاعة في اليـوم في خدمة الدولة وتفقد أمورها بنفسه ، **وسمى نفسـه المنصـور**.

ولقد وكل مهام الدولة إلى رجال يثق بهم وراح يرقب أعمـالهم بنفسـه ، وبـث عيونـه في كل ناحية ليطلع على كل كبيرة وصغيرة ، وكـان يقـود الجيـوش بنفسـه في ميـدان القتـال.

وقد نظم جيشه تنظيما دقيقا ، وكان شـديدا في النظـام .

أما الخليفة هشام فكان لا شـيء ، فـهو في القصـر يسـتمتع بلذاتـه ويلـهو بغلمانـه وجواريه، وابتنى ابن أبي عامر لنفسه مدينة خاصة به سماهـا **الزاهـرة** وشـحنها بالسـلاح والعتاد والمؤن ونقل إليها دواوين الحكـم.

وحنقت أم الخليفة السيدة (صبح) علـى ابـن أبي عـامر لاسـتبداده بـالأمر دون ابنـها فأرادت أن تقضي على نفوذه فلجأت إلى طـرق عـدة:

- حاولت الاستعانة بقوة خارجية من مراكش واتصلت ببعـض الزعمـاء هنـاك ليـأتي بقوة تتغلب على المنصور وطلب هؤلاء مالا ، فأرسـل إليـهم علـى شـكل هدايـا ولكن المنصور اكتشف الأمر واستولى على الأموال وفشـلت المؤامـرة.
- فرأت السيدة أن تأخذه من طريق آخر ، فأوعزت إلى الفقـهاء بـأن المنصـور يسـتبد بالأمر على الخليفة الشرعي ، وتحركت الألسـنة في قرطبـة بهـذا ، ولكـن المنصـور كان داهية ، فقابل الخليفة وقدم له فروض الطاعـة والـولاء ، وكـان هشـام فـاقد الإرادة فأقنعه المنصور بالخروج معه في شوارع قرطبة ، وتم له مـا أراد فقضـى علـى القالة بعد أن رأى الناس بأعينهم الخليفة يساير وزيره ويحادثـه ويتبسـط معـه.
- فأراد أعداؤه أن يأخذوه من طريق آخر فـأرجفوا في المدينـة بأنـه زنديـق ،ولكنـه تخلص من هذه التهمة بأن استدعى الفقهاء وطلب منـهم أن يحصـوا الكتـب الـتي لا تتمشى مع الدين في مكتبة الحكم ثم يخرجوها فيحرقوها فنـال الفلسـفة مـن ذلـك ضرر كبير وارتفع مكانته عند الفقهاء الذين كانوا حربا ضـد الفلسـفة.

۞ **كان المنصور يغزو الصليبين في كل عام غزوتـين في الربيـع و في الخريـف طيلـة مدة حكمه وكان يتولى الغزو بنفسه ، ولم يهزم قط في الخمسـين غـزوة الـتي غزاهـا طول حكمه البالغ خمسة وعشرين عاما مما زاد من رصيـده لـدى شـعبه.**

- **توفى سنه ٣٩٢هـ . وهو منصرف من غزوة بالقرب من مدينة سالم و تنفس نصارى الشمال الصعداء لموته.**
- تولى بعد موت محمد بن أبي عامر ابنه **عبد الملك** ومكث سبع سنوات كلها طيبة

واصل الغزوات التي كان يقوم بها أبوه ، وكانت أيامه رخاء وهدوءا في الداخل ولما توفى خلفه أخوه **عبد الرحمن** لكنه كان مستهترا محبا للملذات .. وطمع فيما لم يطمع فيه أبوه ولا أخوه ، إذ طمع في السلطة الشرعية وأراد أن يستأثر بما بقى للأمويين من رسوم الخلافة فطلب من هشام ، أن يكتب له بولاية العهد.

- فأثار ذلك المرسوم المضريين الذين كبر عليهم أن ينتقل العرش إلى اليمنيين (القحطانين) وأن تبتعد الخلافة عن قريش **فانبعثت العصبية العربية من جديد** وانتهز الأمويون والمضريون فرصة غياب عبد الرحمن في الشمال فخلعوا هشاما عن العرش وولوا رجلا من أحفاد الناصر هو (**محمد بن هشام بن عبد الجبار بن أمير المؤمنين الناصر**) ولقبوه بالمهدي بالله.
- ولما بلغت الأخبار عبد الرحمن رجع من الشمال ، وكان كلما اقترب من قرطبة انفض عنه جماعة من جيشه حتى صار في قلة من أصحابه فاعترضه من خصومه معترض فقبض عليه وحز رأسه وحمله إلى المهدي وجماعته وبموته انتهت دولة بن عامر.

المرحلة السادسة :

الانهيار الثاني ونهاية حكم الأمويين بالأندلس٣٩٩ - ٤٢٢

تولى الأندلس فيها عدد من الخلفاء الأمويين يزيد على عدد من تولوا طيلة القرون الثلاثة الماضية وضاعت هيبة الخلافة وانقسمت البلاد مرة أخرى وبرزت العنصرية المقيتة بشكل واضح.

والأنكى من ذلك أن كل فريق كان يستعين على خصمه بنصارى الشمال ، وكان هؤلاء النصارى يرون فرصتهم في الحصول على حصون ومواقع نظير إجابتهم طلب النجدة

وأخيرا سقطت الدولة الأموية بالأندلس بموت آخر خلفائها المعتمد بالله سنة ٤٢٢ هـ.

وبموته أعلن الوزير أبو **محمد بن جهور** انتهاء الخلافة لعدم وجود من يستحقها وأنه سيحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهوري.

وبانتهاء هذه الفترة انقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة واستقل كل أمير بمقاطعته وأعلن نفسه ملكا عليها ، ودخلت الأندلس في عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف.

المرحلة السابعة:
عصر ملوك الطوائف ٤٢٢ - ٤٨٣ هـ

لم تكد الخلافة الأموية تنتهي حتى استقل كل بما امتلكته يده ، فأصبح لكل مدينة أو مقاطعة أمير مستقل.

فالبربر بالجنوب ، والصقالبة بالشرق ، وأما البقية الباقية فقد ذهبت إلى أيدي محدثي النعم أو بعض الأسر القديمة ، وقد حكم في هذه الفترة نحو عشرين أسرة مستقلة في عشرين مدينة أو مقاطعة ومن أشهر ملوك الطوائف:

- بنو عباد بأشبيلة.
- بنو حمود الأدارسة بمالقة والجزيرة.
- بنو زيري بغرناطة وبنو هود بسرقسطة.
- بنوالنون بطليطه وهم أقوى هؤلاء الملوك.

وقد أحسن بعض هؤلاء الملوك الحكم وإن كان أكثرهم عتاة جبارين ، غير أنهم كانوا مثقفين محبين للعلم ، وكانت قصورهم مثابة للشعراء والأدباء والعلماء وقد عاش في هذه الفترة وفي بلاط هؤلاء الملوك كثير من العلماء الكبار والأدباء العظام ممن تفخر بهم الأندلس ، كما كان من بين هؤلاء الملوك أنفسهم من كان عالما أديبا شاعرا.

وقد تنافس ملوك الطوائف في إحراز العلماء والأدباء في بلاطهم وأفاضوا عليهم من عطائهم ، ولذلك أصبحت عواصم الأندلس منتدى للعلوم والآداب التي عمل الملوك

على نشرها حتى أصبح جو الأندلس جوا أدبيا شاعرا.

يقول صاحب معجم البلدان في حديثه عن إحدى مدن الأندلس (وسمعت ممن لا يحصى أنه قال : قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ولا يعاني الأدب ولو مررت بالفلاح خلف فدانه -محراثه- وسألته عن الشعر لقرض لك من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبته منه).

طمع الصليبيين في أسبانيا والمسلمون يدمرون أنفسهم بأنفسهم

كان ألفونسو السادس (الأذفونش) قد وحد تحت إمارته استوريا وليون وقشتالة ورأى أن يستفيد من الفوضى في الأندلس خاصة أن أكثر ملوك الطوائف كانوا يتقربون إلى ألفونسو بالعطايا والإتاوات يطلبون حمايته فكان ألفونسو يجمع منهم ما يعد به العدة للقضاء عليهم وهم لا يشعرون.

وكان ألفونسو ينتهز كل فرصة ليستولي على الحصون والقلاع واحدة إثر الأخرى حتى وثب وثبة سنه ٤٧٨ هـ استولى فيها على طليطلة ، ووضع حامية تزيد على اثنى عشر ألفا في حصن ليط في وسط الأندلس ، ومن هذا الحصن كانت تخرج جنوده لتغير وتنهب.

رغم الذل فمازالت النخوة موجودة

يئس ملوك الطوائف أن يتوحدوا فتوجه نظرهم إلى دولة المرابطين بأفريقية ، ولقد توجس بعض مشيري ابن عباد **ملك أشبيليه وقرطبة** من هذه الدعوة خيفة ولكنه أسكتهم بقوله: (**لأن أكون راعي جمال في صحراء أفريقية خير من أرعى الخنازير في قشتاله**).

كان المعتمد بن عباد هذا آخر ملوك بني عباد وكان عربيا شاعرا .

ولكنه كان ذليلا لألفونسو حيث كان يدفع له كغيره **حتى طلب منه ألفونسو يوما أن يسمح لزوجته أن تدخل جامع قرطبة لتلد فيه حسب إشارة القسيسين والأساقفة فلم يتمالك ابنَ عباد نفسه فقتل حامل الرسالة لوقاحتها وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة وأمر بمن معه من الفرسان فقتلوا.**

وبلغ الخبر ألفونسو فأقسم ليغزونه بأشبيليه فأعد ألفونسو لذلك جيشين زحف أحدهما إلى كورة باجة ثم أشبيليه ، ، وقاد الجيش الثاني بنفسه ثم لحق به الجيش الأول ونزل بهما أمام قصر ابن عباد على الضفة الأخرى من نهر الوادي الكبير، وكتب إلى ابن عباد يتهكم : (لقد كثر بطول مقامي في مجلس الذباب ، واشتد على الحر، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي وأطرد الذباب عن وجهي)

فوقع له ابن عباد على الرسالة بخطه:

(قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تريح منك لا تروح عليك).

وابن عباد يشير بالجلود اللمطية إلى الاستعانة بالمرابطين في شمال أفريقية.

المرحلة الثامنة :

عهد المرابطين بالأندلس ٤٨٤ - ٥٣٩

دولة المرابطين :

المرابطون هم عدة قبائل ينسبون إلى حمير ، وأشهر هذه القبائل **لمتونه** وجدالة ولمطة ، ومن لمتونة كان أمير المسلمين **يوسف بن تاشفين.**

وقد دخلت هذه القبائل المغرب مع موسى بن نصير وتوجهوا مع طارق إلى طنجة، لكنهم أحبوا الانفراد فدخلوا الصحراء بالمغرب الأقصى واستوطنوها.

وفي سنة ٤٤٨ هـ حدث بينهم انبعاث ديني وانبثق فيهم مذهب جديد يدعو إلى الجهاد في سبيل الله وتسمى أصحابه بالمرابطين ، وقد تغلب هؤلاء المرابطون على المنطقة كلها من الجزائر إلى السنغال ، وكانوا رجالا من طابع طارق وأصحابه لا تنقصهم الشجاعة وليس للترف إليهم منفذ.

معركة الزلاقة:

وفي سنة ٤٦٢ آل أمر المرابطين إلى يوسف بن تاشفين وكان رجلا تقيا حازما داهية مجربا ، فمد فتوحه في المغرب الأفريقي حتى دان له جميعه ، واختط مدينة مراكش تحت جبال المصامدة الذين هم أشد أهل المغرب قوة وأمنعهم عقلا ، فكانت **مراكش عاصمة لدولة المرابطين** ثم ملك سبته وطنجة وأصبح بذلك مطلا على جنوب الأندلس.

ودولته هي أقوى دولة بالمغرب يومئذ ومن ثم استنجد به أهل الأندلس.

فاستجاب ابن تاشفين بدافع من النصرة لإخوانه وحب الجهاد فحشد الجيوش

للجهاد وأجازها إلى الجزيرة الخضراء وجعلا قاعدة لجيوشه.

وما كادت سفن جيش المسلمين تنشر قلاعها حتى صعد يوسف بن تاشفين إلى مقدمة سفينته ودعا الله مخلصا : (**اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيرا وصلاحا للمسلمين فسهل علي جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجزه**) فهدأ البحر وجازت السفن سراعا ، ولما نزل أرض الأندلس سجد لله شكرا.

وقد انضم إليه ملوك الطوائف منهم الراضي ومنهم الكاره ، واخترق الولايات بجيوشه حتى التقى بألفونسو عند موضع يسمى الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ في ربيع أول بالقرب من بطليوس . وقد ظهرت من القائد يوسف خصال وأفعال أعادت إلى الأذهان سيرة السلف الصالح في فتوحاتهم.

وفي المقابل أعد الفونسو جيشه قوامه خمسين ألفا صاح حين رأى كثرتهم وكمال عدتهم (**بمثل هؤلاء أحارب الشيطان والجن والملائكة**) ولكن كثرة عدده وما أبداه من النشوة لم تغن عنه شيئا أمام بسالة ابن عباد ودهاء ابن تاشفين وإيمان المرابطين وحماسهم ، فقد أحاط الجيش الإسلامي بجيش ألفونسوا وضيق عليه وأباده إبادة تامة، و لم ينج إلا ألفونسو وعدد قليل بلغ الخمسمائة من الفرسان.

وبعد هذا النصر عاد يوسف بن تاشفين إلي أفريقية بارا بوعده للملوك ألا يضم الأندلس إلي ملكه ولكنه ترك حامية من ٣٠٠٠ من رجاله لمعاونة الأندلسيين على عدوهم.

واشتهر يوسف بن تاشفين في بلاد العدو وذاع صيته من يومها ...

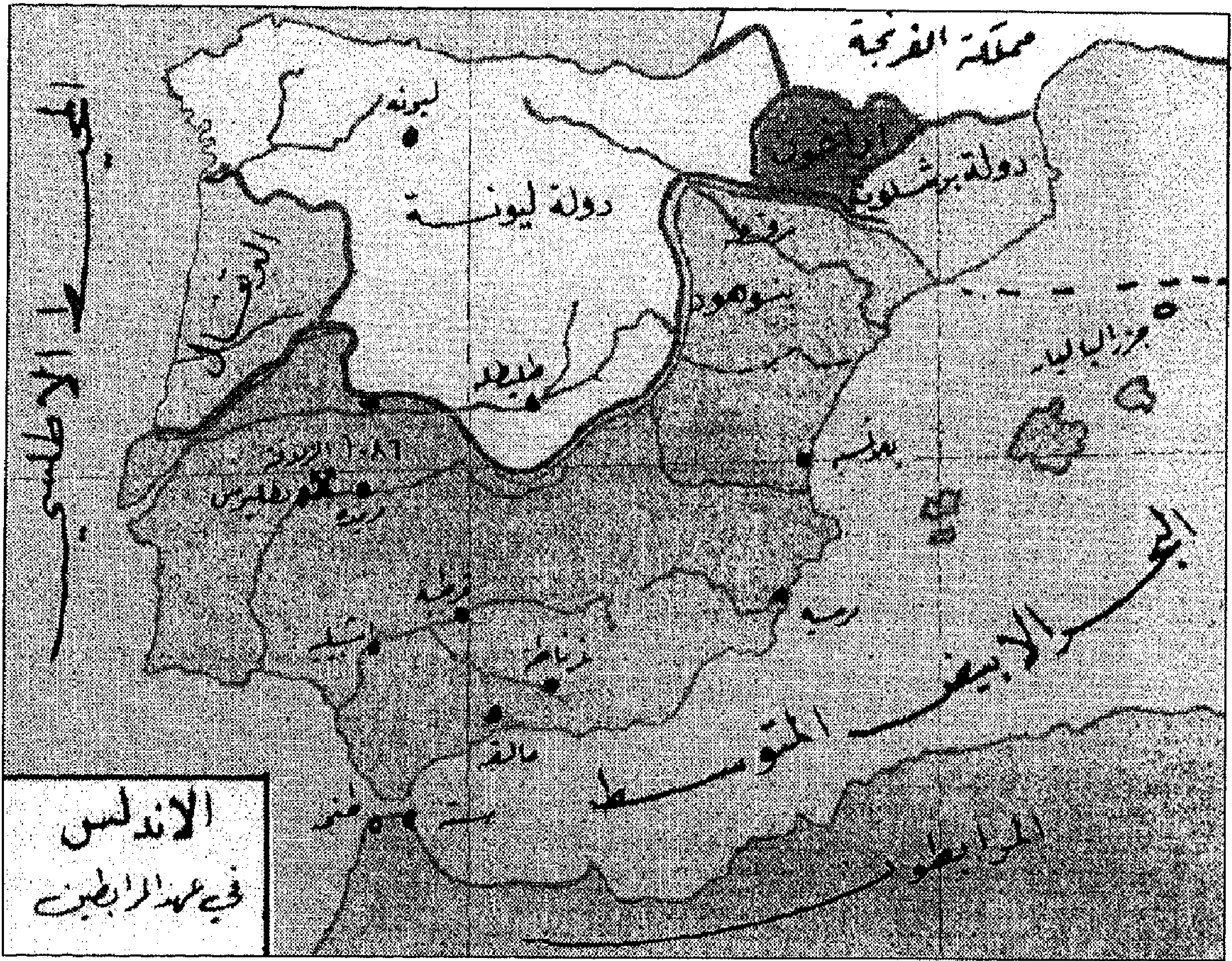
وفي سنه ٤٨٣هـ .أعاد ملك أشبيليه طلب استنجاده بالمرابطين ليصدوا عنه غارات الصليبين الذين استمروا في عدائهم واستجاب يوسف بن تاشفين ، لكنه في هذه المرة

وجه هجومه إلي ملوك الطوائف أنفسهم كما وجهــه إلي النصـارى علـي الســواء فقـد ساءه هذا التشتت والتمزق بين ملـوك الطوائـف.

فـائدة :

مـن طرائـف التـاريخ أن الـذي يتـولى صـد الصليبيـين في المشـرق صـلاح الديـن يوسـف بـن أيـوب سـنه ٥٨٥ هــ . والـذي يتـولى صـد الصليبـين في المغـرب يوسف بـن تاشـفين سـنة ٤٧٩ هـ.

ولكـن حـظ يوسـف الأيوبـي مـن الشـهرة كـان أعلـى إذأنـه الأكـثر ذكـرا في كتـب التـاريخ ولم ينـل يوسـف بـن تاشـفين نفس العنايـة مـع أنـه أنقـذ الأندلـس مـن الضيـاع ! !؟



خريطة رقم ١٥

المرابطون يحكمون الأندلس ٤٨٤ - ٥٣٩

رأى يوسف ترف الملوك وإسرافهم وما يفرضون من ضرائب على الرعية فأمرهم برفع الكثير منها فلم يستجيبوا له إلا ابن عباد.

كما أن هؤلاء الملوك قد ملئوا أذني ابن تاشفين بشكوى بعضهم من بعض وخيانة بعضهم لبعض حتى عرفهم جميعاً وذهبت ثقته بهم جميعاً.

وما لبث أن أحله الفقهاء من عهده بألا يضم الأندلس إلى ملكه ، بل زادوا فأوجبوا عليه ارضاء لربه أن يخلص المسلمين من شر هؤلاء الملوك ، وجاءت الفتاوى من الشرق مؤيدة لفتاوى فقهاء الأندلس.

كل ذلك دفع يوسف بن تاشفين البدوي المؤمن الذي لم يفسده الترف أن يدخل الأندلس ليعيدها إلى وحدتها فبدأت حملته سنة ٤٨٢ هـ بغرناطة واستمرت حتى سنة ٤٩٥ هـ قضى فيها على نفوذ ملوك الطوائف بما فيهم ابن عباد وأصبحت الأندلس تابعة لمملكة المرابطين بأفريقية.

وقد مات يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ ، وكان من بعده على بن يوسف حتى سنة ٥٣٣ هـ ثم من بعده تاشفين بن علي حتى سنة ٥٣٩ هـ وفرحت العامة إلى حين بعودة الأمن إلى الأندلس وانكمش الصليبيون لكن قلة من عظماء الأندلس والمتحضرين لم يرضوا عن حكم المرابطين ، فإنهم رأوا فيهم تخلفاً وخشونة ينأى عن فهم ما برع فيه الأندلسيون من شعر و أدب .

وسرعان ما قامت ثورة جامحة في أفريقية للقضاء على المرابطين أثرت على أحوالهم بالأندلس وعادت الأندلس إلى عادتها القديمة فانقسمت بصورة أكبر فصار الملوك في الأندلس بعدد ما فيها من مدن.

المرحلة التاسعة :

عهد الموحدين ٥٣٩ – ٦٣٠

ظهور محمد بن تومرت الملقب بالمهدي مؤسس دولة الموحدين

من قبيلة مصمودة البربرية ولكنه كان في الأصل من أحفاد العلويين الأدارسة الذين اندمجوا في البربر بعد سقوط دولتهم ، فهو عربي الأصل ، بربري النشأة .

خرج طالبا للعلم وتأثر بآراء بن حزم ، ورحل إلى المشرق فلقى في بغداد أبا بكر الشاشي وأخذ عليه شيئا من أصول الفقه وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار.

ثم عاد فمر بالإسكندرية فحضر مجالس أبي بكر الطرطوشي ، ثم عاد إلى بلاد المغرب وظهر أمره حتى استدعاه أمير المسلمين على بن تاشفين وجمع له العلماء ، فناظرهم وغلبهم ، وأشار بعض مستشاري أمير المسلمين بقتله خوفا من حدة ذكائه وخوفا من أن يجتمع عليه المصامدة فيثور على الدولة ،ولكن أمير المسلمين اكتفى بأن أمره بالخروج من البلاد وليتوجه إلى حيث شاء.

خرج محمد بن تومرت إلى أغمات ولحق بالجبل واجتمع عليه الناس فوعظهم وحدثهم عن المهدي ، فكثر أتباعه واشتد أمره وقام إليه عبد المؤمن بن على الكومي في عشرة رجال فبايعوه على أنه المهدي المنتظر ، وأقبل الناس على المهدي يبايعونه فأصبح في قوة عظيمة تهدد دولة المرابطين.

وأراد أمير الأندلس أن يتدارك الأمر فأرسل إلى المهدي جيشا ولكنه هزم ، فقويت بذلك شوكة محمد بن تومرت وبدأ منذ سنة ٥٢٤ هـ في محاربة المرابطين ، وجهز لذلك جيشا كبيرا زحف على مراكش وحاصرهم ولكن بنجدة أمير سلجلماسة

جاءت فهزم جيش المهدي وفك الحصار عن مراكش ، وكان المهدي مريضا فأوصى لابنه عبد المؤمن من بعده فبايعه الناس.

استطاع عبد المؤمن أن يكمل مسيرة أبيه فقضى على دولة المرابطين وفتح المغربين الأوسط والأقصى في الفترة من (٥٣٨ - ٥٤١) هـ ، وفي هذه السنة سقطت مراكش في أيدي الموحدين وانتهى عصر المرابطين.

وسموا بالموحدين : لأنهم يعتقدون أنهم هم المؤمنون حقا الذين يوحدون الله وينزهونه عن كل تشبيه بالخلق.

عاد مسلمو الأندلس يطلبون النجدة من الموحدين في شمال أفريقية كما طلبوها من قبل من المرابطين ، ورأي الموحدون في ذلك فرصة لهم ليدخلوا الأندلس.

فأرسل عبد المؤمن جيشا سنة ٥٣٩ هـ فدخل الأندلس و لم يمض أكثر من خمس سنوات حتى صارت جميع بلاد المسلمين في الأندلس في يد الموحدين.

ولكن الموحدين لم يفكروا في أن يجعلوا من الأندلس قاعدة لملكهم ، بل أرسلوا إليها نوابا عنهم يحكمونها باسمهم ، وبقيت قاعدة ملكهم مراكش.

موقعة الأراك

وفي سنة ٥٨٠ هـ تولى **المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن** قيادة الموحدين وهو ثالث قوادهم (٥٨٠ ← ٥٩٥) هـ.

قاد جيشه بنفسه سنة ٥٩١ هـ وانتصر على الصليبين انتصارا كبيرا في موقعه الأراك بالقرب من بطليوس ، وكان انتصاره لا يقل عظمة عن انتصار المرابطين من قبل في الزلاقة.

موقعة العقاب

وفي سنة ٦٠٩ هـ أعلن الصليبيون حملة واسعة النطاق ضد المسلمين بالأندلس

فجاءهم المتطوعون من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا، وقاد **الناصر بن المنصور بالله** جيش المسلمين وكان عدته كما تقول بعض الروايات حوالي نصف مليون من المحاربين ، ولما لم يكن الناصر بارعا في القيادة حسن التدبير في الحروب فقد دارت الدائرة عليه وفقد معظم جيشه ، **بل إن هذه المعركة كانت نهاية لدولة الموحدين في الأندلس** ، فقد سقطت المدن الأسبانية مدينة إثر أخرى في يد الصليبيين وعم الشغب بين قبائل البربر في أفريقية ، وتوالت وثبات المنافسين للموحدين فيها فتبددت قوتهم وطمع فيهم أمراء الأندلس فأزاحوهم عن الأندلس سنة ٦٣٣ هـ وأعلن **ابن هود** نفسه حاكما لأكثر بلاد الجنوب لما قضى نحبه تحول حكم الأندلس إلى بني نصر أمراء غرناطة سنة ٦٢٠ هـ.

المرحلة العاشرة :
دولة بني الأحمر في مملكة غرناطة ٦٢٠ ٨٩٧هـ

كانت مملكة غرناطة هي بقية ملك العرب في أسبانيا بعد أن تمزقت دولتهم ووقع أكثر المدن الكبرى في أيدي الصليبيين ، ففي الفترة ما بين (٦٣٦ ← ٦٦٨) هـ فتح فرديناند الثالث ملك قشتاله ، وجايم الأول ملك أرجون ، مدن بلنسية وقرطبة ومرسيه وأشبيلية وأصبح حكم العرب محصورا في غرناطة التي استطاعت لمناعتها أن تقاوم الأسبان قرنين ونصف من الزمان.

كان منشئ دولة بني الأحمر رجلا عربيا من بني نصر الدين – يقال إنهم ينسبون إلى خزرج المدينة – ويدعي **محمد بن يوسف** كان رجلا شديد المراس ذا خلق كريم وكفاية نادرة ، ولذلك لقب بالشيخ اعترافا له بالزعامة في بني نصر .

ونظرا للظروف التي كان يمر بها المسلمون بالأندلس لم يكن بنو الأحمر يطمحون في أكثر من المحافظة على غرناطة .

والعجيب أن غرناطة بقت وحدها صامدة في وجه أعدائها واستطاعت أن تحتل مركزا رفيعا في الآداب والفنون والعلوم مع إحاطتها بالأعداء من كل جانب يتربصون بها الدوائر.

ويرجع ذلك إلى أن **أكثر المسلمين الذين انهزموا في النواحي الأخرى قد انحازوا إلى غرناطة موتورين حانقين على الصليبيين** ، وكانوا أهل فلاحة وتجارة وصناعة فعمرت بهم تلك الجهات عمرانا حافلا ، فلم يبق شبر من الأرض إلا استغل أحسن استغلال.

وكان ابن الأحمر رجلا عادلا أخذ الناس بحسن السياسية .. واستطاع بمعاونة العلماء الذين وفدوا على غرناطة من شتى المدن الإسلامية أن يستخرج المعادن ويبني المستشفيات ، وينشئ المدارس ، وبني قصر الحمراء فوق شرف من الأرض تحيط به قمم عالية صعبة المنحدر تتدفق في سفحها الشمالي مياه نهر حدود (درو) وقد حصن القصر بأسوار غطيت بالمرمر وشدت عند كل مسافة بحصون تشرف عليها.

والأمر الثاني الذي أعان غرناطة على الوقوف في وجه أعدائها هو الصداقة التي قامت بين ملوك غرناطة وبين **بني مرين في المغرب** ، وكان هؤلاء يرسلون عونهم الحربي عند كل هجوم علي غرناطة ، بل كانوا يبقون قوة حربية تحت سلطة ملك غرناطة تساعده إذا ما تحرش به الصليبيون.

ولقد وصلت الحضارة العلمية أوجها في عهد محمد الخامس من بني الأحمر سنة ٧٦٣هـ.

وبعد موت محمد الخامس توالي على عرش غرناطة عدة من ملوك بني الأحمر لم تكن

لهم قوة إسلافهم ولا حذرهم ولاحيطتهم ، فعاشوا عيشة تـــرف ولهـــو
وفي الوقت الذي أخذ الضعف فيه يدب إلى غرناطة ممثـــلا في تـــرف ملوكـــها ، وذهـــاب حلفائها في المغرب ، بدأ النشاط والقـــوة تتجمـــع في أســـبانيا المســـيحية ، فقـــد **تـــزوج فرديناند ملك أراغون من إيزابيلـــلا ملكـــة قشـــتالة واتحـــدت المملكتـــان ضـــد غرناطـة.**

وكان يحكم غرناطة في هذه الأثناء **مـــولاى علـــى أبـــو الحســـن** وكـــان مـــن أشـــجع الشجعان ولكنه كان ضعيف الرأي ، فرأى أن يبادئ اتحـــاد النصـــارى بـــالحرب قبـــل أن يناجزوه فامتنع عن دفع الإتاوة التي كان يؤديها لهم ، ورد على رســـول فردينـــاند الـــذي جاء يلح في طلبها بقوله : **قـــل لمـــولاك : إن ســـلاطين غرناطـــة الذيـــن اعتـــادوا أداء الإتاوات قد ماتوا ، وإن دار الضرب بغرناطة لا تطبـــع الآن غـــير الســـيوف.**

ودارت معارك أسر في إحداها **أبو عبد الله بن أبي الحسن** وكـــان أســـره ضربـــة شـــديدة لحكم المسلمين في الأندلس ، لا من حيث أسره نفســـه ، ولكـــن مـــن حيـــث أن ملكـــي النصارى فرديناند و إيزابيللا استطاعا أن يستذلا نفسه ويصغرا إليـــه ملكـــه وملـــك أبيـــه مرة بالتهديد والوعيد ومرة بالوعد والأماني حتى ذل عنقـــه وأصبـــح آلـــة في أيديـــهما ، ثم أطلقا سراحه فعاد إلى غرناطة ليشن على أبيـــه حربـــا شـــديدة ثم ، مـــا لبـــث أبـــو الحسن أن مات هما وكمـــدا.

وتولى أخوه **عبد الله الزغل** إمارة غرناطة وهـــو آخـــر ملـــك عظيـــم حكـــم الأندلـــس الإسلامية فقد كان شجاعا ثابت الرأي شديدا في محاربـــة الصليبيـــين ، ولـــولا أن أفســـد عليه ابن أخيه أمره ونازعه ملكه لكان من الممكن أن تظل الدولـــة في يديـــه حـــتى آخـــر أيامه فعجل سلاطين غرناطه بتنازعـــهم ســـقوطها.

وضيق الصليبيون الخناق حول غرناطة فأخذت تســـقط في أيديـــهم مدينـــة بعـــد أخـــرى

وحصنا بعد حصن ، وزاد الموقف عسرا أن البارود كان قـد اكتشـف في ذلـك الوقـت وصل في أيدي الصليبين وأخذت مدافع فرديناند الـتي ابتكـرت حديثـا تـدك الحصـون والقلاع ، لكن المسلمين في هذه الحصون والقلاع قاتلوا أعنـف قتـال واسـتماتوا أعظـم استماتة وكان الزغل قويا ثابتا لكن ابن أخيه عبـد الله كـان يـأمر جنـوده أن يصـدوا جيش عمه كلما هم بنجدة حصن من حصـون المسـلمين وذلـك غـيرة منـه وحسـدا وسوء رأي وعمى بصـيرة.

وهكذا ما لبث القسم الغربي من مملكة غرناطـة أن وقـع في قبضـة النصـارى واحتلـت حامياهم قلاع رنده ومالقة الجميلة ، ومـن أعجـب العجـب أن يرسـل أبـو عبـد الله يهنئ فرديناند وايزابيلا باستيلائهما على مالقـة.

وانتقل الصليبيون إلى الجزء الشرقي و لم تفلح محـاولات الزغـل لإيقافـهم فقـد نفـذت كلمة القدر وآذنت بزوال ملك المسلمين مـن الأندلـس.

فأما الزغل فقد خرج إلى أفريقية حيث قبض عليه سلطان فـاس وصـادر اموالـه وعذبـه أشنع عذاب فسمل عينيه وقضى بقية أيامه في أتعس حال وشـر مـآل.

أما أبو عبد الله فان الملك فرديناند الذي كان عبد الله يحرضـه علـى قتـال عمـه الزغـل ويمنيه بحيازة ملك غرناطة إذا قضى عليه ها هو يطالبه بالوفـاء بوعـده ولكـن عبـد الله يتردد فبعث أهل غرناطه بزعامة **موسى بـن أبي الغسـان** الفـارس العـربي الشـجاع إلى فرديناند بأنه إن أراد أسلحتهم فليأت لأخذهـا بنفسـه.

وكان وقت الحصاد قد آن أوانه فاقتنص فرديناند هـذه الفرصـة ورمـى السـهل بجيـش بلغ ٢٥٠٠٠ ، و حقق انتصارات متتالية ، وقنع فرديناند بهذا القـدر هـذا العـام.

ثم ما لبث أن أرسلها غارة مدمرة في سنة ٨٩٥ فلبس لها أبـو عبـد الله سـلاح الحـرب وخرج إلى القتال ولكنه أفاق متأخرا ومعه موسى الـذي كـان آخـر أبطـال العـرب في

الأندلس ، فلما أحس العرب الذين خضعوا لفرديناند دبيـــب الحيـــاة يـــدب في إخوانهـــم وشاهدوا ملك غرناطة يقود جيوشه للجهاد طرحـــوا عـــن كواهلـــهم طاعـــة فرديـنـــاند وانضموا لإخوانهم في الجهاد ، وصدمـــت جيـــوش غرناطـــه جيـــوش فرديـنـــاند فردهـــا واستردت بعض الحصون ، ولكن ذلـــك كـــان آخـــر خفقـــة في الســـراج ســـيلفظها ثم ينطفـئ.

وفي سنة ٨٩٧ أراد فرديناند أن يحسم الجولة فخـــرج بجيـــش قوامـــه ٥٠,٠٠٠ وحـــاصر المدينة وبنى أمامها في ثمانين يوما مدينة سماها الإيمـــان المقـــدس .

وعمل الجوع في أهل المدينة عمله ولم يجد أبـــو عبـــد الله بـــدا مـــن مفاوضـــة الصليبيـــين ولكن قائده موسى لم يرض بالتسليم للعدو فلبس ســـلاحه وركـــب جـــواده وغـــاص في الأعداء ضربا وطعنا حتى قتل غرقا مفضلا ميتة كريمة على حيـــاة ذليلـــة.

شروط التسليم :

كانت شروط التسليم سبعة وستين شـــرطا ، منـــها :

تأمين المسلمين على أنفسهم وأهلهم وأموالهـــم .

وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقـــارهم .

وإقامة شريعتهم على ما كانت عليـــه .

وأن تبقى المساجد كما كـــانت .

ولا يقهر أحد على ترك دينـــه.

وأن يسير المسلم في بلاد النصارى آمنا على نفســـه ومالـــه

وأن يطلق سراح أسرى المســـلمين .

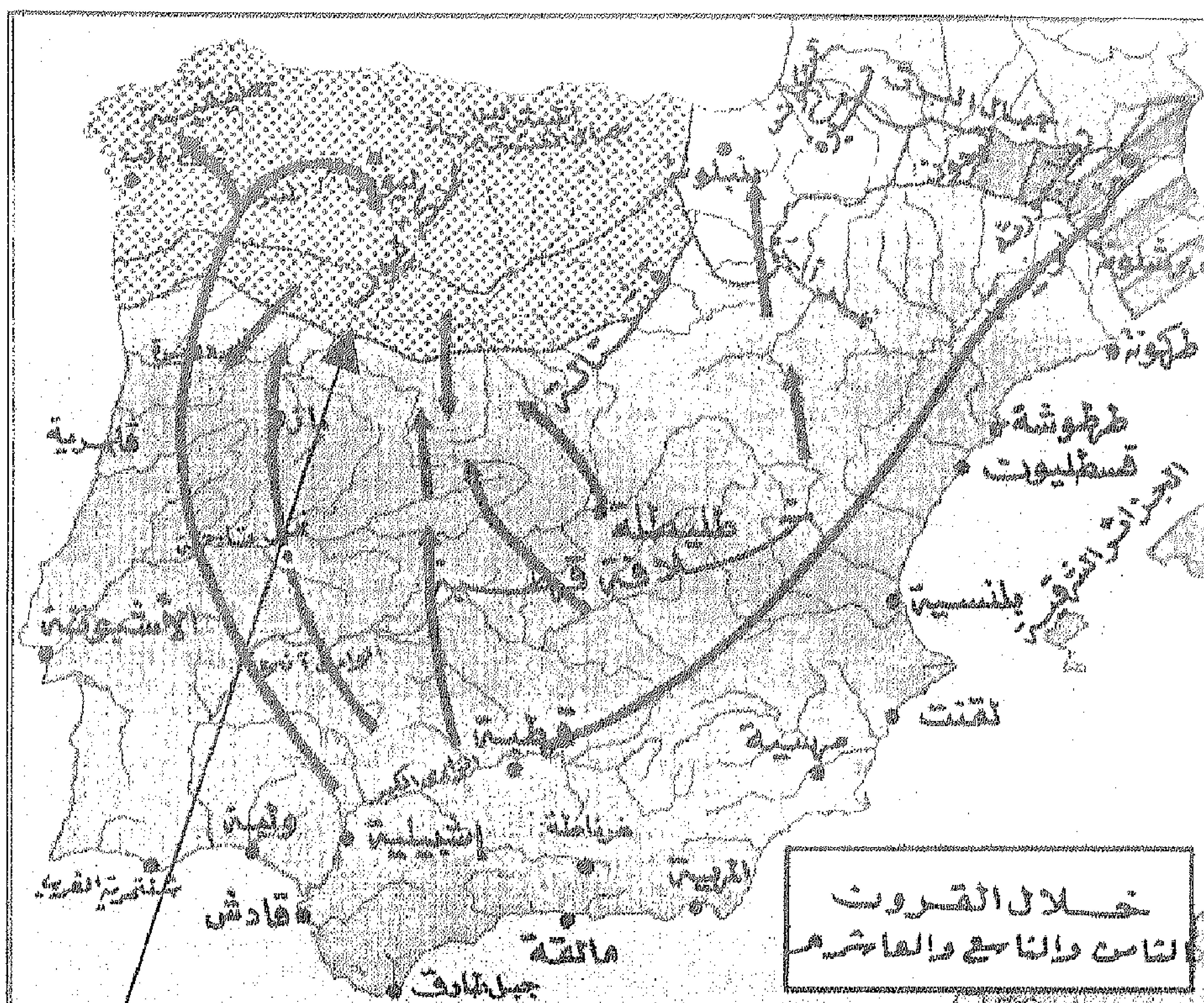
وأن يكون لهم الحق في الخروج إلى أفريقية بأموالهم وأولادهـــم مـــتى شـــاءوا.

وافق المسلمون على هذه الشروط ولم يكن أمامـــهم خيـــار آخـــر ووقـــف عبـــد الله

في ثلة من فرسانه بسفح جبل الريحان فلما مر موكب فردينـــاند وإيزابلــلا تقـــدم فســـلم مفاتيح المدينة ووقف من بعيد يودع ملكا ذهب ومجدا ضـــاع فلمـــا رأتـــه أمـــه (عائشـــة الحرة) يبكي فقـــالت :

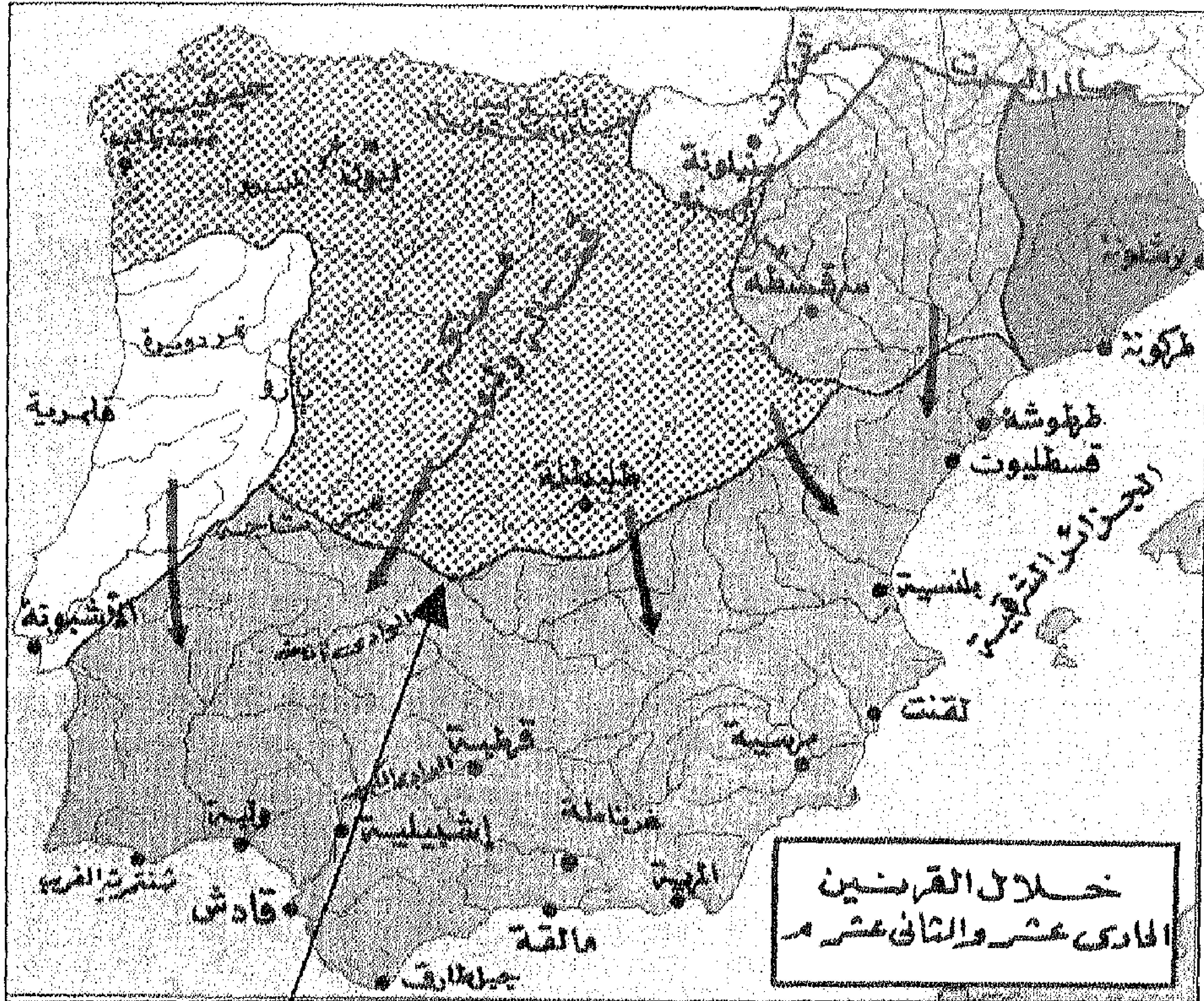
(ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال)

ثم هاجر أبو عبد الله إلى المغرب ونزل بفاس حيـــث كـــان يعيـــش هـــو و أبنـــاؤه علـــى سؤال المحســـنين.



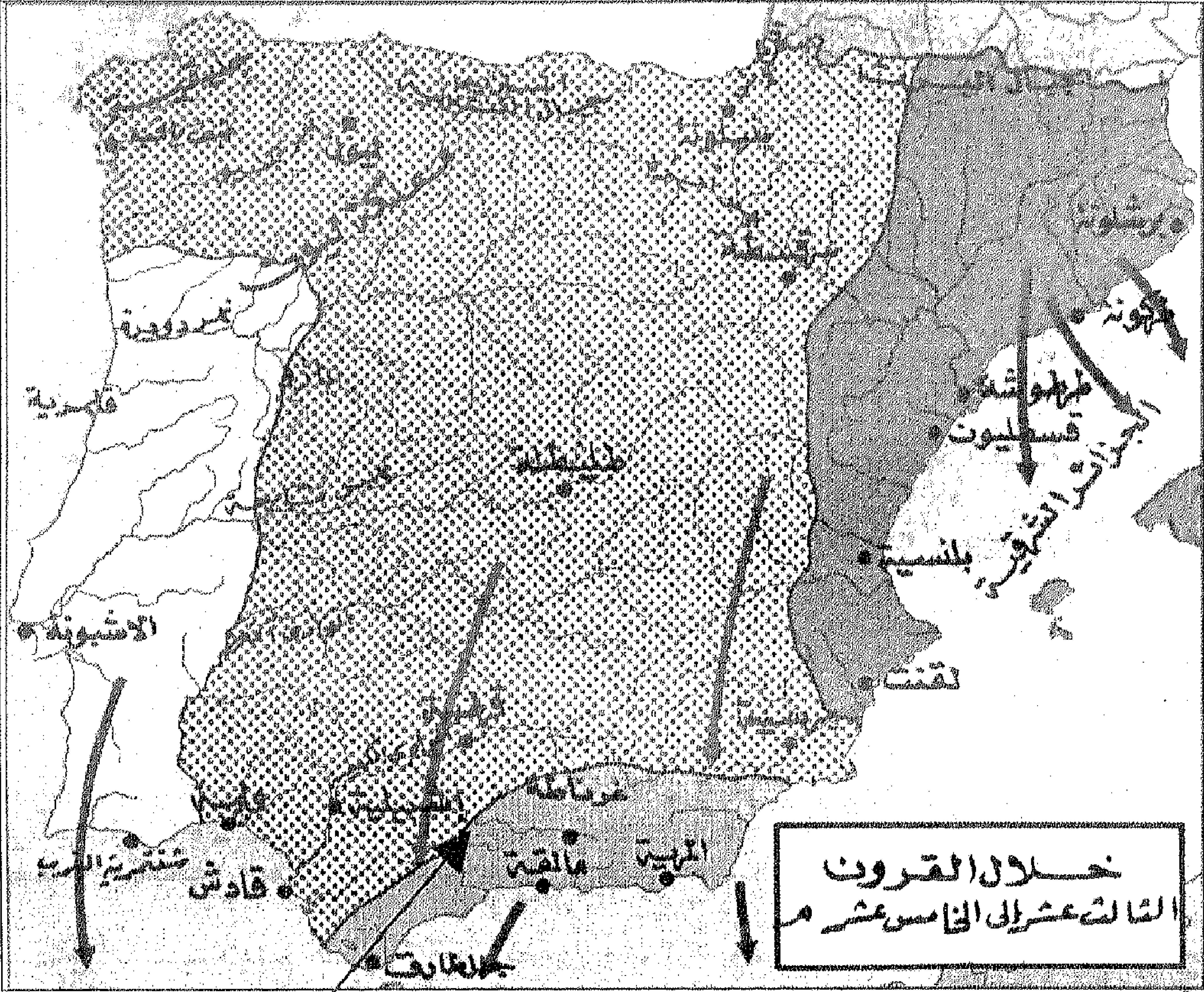
خريطة رقم ١٧ : توضح مساحة الأندلس في عهدها الأول

الحدود الفاصلة بين أراضى المسلمين وأعدائهم



خريطه رقم ١٨

الحدود الفاصلة بين أراضى المسلمين وأعدائهم



خريطة رقم ١٩

هكذا تقلصت المساحة الـــتي يحكمـــها المســـلمون

حركة إزالة الإسلام في الأندلس

لم تكن دموع أبي عبد الله آخر دموع سكبت بالأندلس بل تلتها دموع ، ذلك أن النصارى ما لبثوا أن تنكروا لعهودهم ونقضوا الشروط إلى أن آل الأمر إلى حملهم المسلمين على التنصير ، نعم مرت فترة في أول الأمر بدا فيها أن حرية العبادة يمكن أن تقوم حينما كان أسقف غرناطة (هرناندوتا لافيرا) رجلا متسامحا ، ولكن الكردنال (شيمينس) لم يرض عن سياسة اللين التي يصطنعها الأسقف ، أخذ يوسوس إلى الملكة بأن في حفظ عهد المسلمين خيانة لعهد الله حتى أصدرت أمرا باضطهاد المسلمين ، وثار المسلمون لذلك ، ولكن الكردنال كان يزيد لأمر اشتعالا فقد استصدر مرسوما جديدا يخير العرب فيه بين التنصير ومغادرة البلاد ، وجاء في المرسوم أن أسلافهم كانوا مسيحيين وأن الكنيسة تعدهم مسيحيين منذ الولادة ، ثم أعقب ذلك غلق المساجد وإحراق المخطوطات والكتب النفيسة وتعذيب المسلمين أشد العذاب .

ثار المسلمون في جبال البشرات (من أصلح المناطق لنمو الثورات) وباءت الحملات التي أرسلت إليهم بالخيبة ، وفر كثير منهم إلى مراكش ومصر وتركيا أما من اضطر أمام الضغط إلى التظاهر بالمسيحية فقد جهدوا أن يؤدوا فروض دينهم سرا وأعانوا لصوص البحر الذين كانوا يترلون بثغور الأندلس على اختطاف أبناء النصارى واشتعلت ثورة جديدة قادها رجل صباغ بغر ناطة فرج ابن فرج ينتمي إلى بني سراج وجمع حولهم الساخطين وفر بهم إلى الجبال ولم يمض أسبوع حتى حمل رجال البشرات كلهم السلاح وذلك سنة ٩٧٦ هـ وسارت مذابح عظيمة بين الطرفين ولكن تداعيات الأحداث صارت لغير صالح المسلمين و لم يأت علم

(١٠١٧ هـ ١٦٠٩ م) إلا وأسبانيا خالية تماما من العرب وبلغ عدد من نفي ما بين سقوط غرناطة والعقد الأول من القرن السابع عشر حوالي ثلاثة ملايين .

لمحات من المأساة التي حلت بالأندلسيين المورسكيين :

في ٤ من محرم سنة ٩٠٧ هجرية صدر المرسوم الملكي بمنع وجود المسلمين في مملكة غرناطة وحظر اتصال المسلمين بعضهم ببعض ومن يخالف تلك الأوامر يكون جزاؤه الموت ومصادرة أملاكه .

في ١٣ من رمضان سنة ٩٠٨ هـ ١٢ فبراير سنة ١٥٠٢ م. صدر المرسوم الذي يحتم على كل مسلم حر يبلغ الرابعة عشرة من عمره إن كان ذكرا والثانية عشرة من عمرها إن كانت أنثى ، مغادرة غرناطة قبل أول شهر مايو من العام نفسه ولا يسمح لمن يريد الخروج التصرف في أمواله وممتلكاته ولا يكون الخروج إلى شمال أفريقيا لأنها بلد إسلامية .

في ١٩ من ربيع أول سنة ٩٠٩ هـ ١٢ سبتمبر سنة ١٥٠٢ م. صدر المرسوم الملكي الذي يحظر على الناس التصرف في أملاكهم قبل مضي عامين ، كما يحظر عليه مغادرة مملكة قشتالة إلا إلى مملكتي الأراغون والبرتغال لأنها بلاد غير إسلامية .

في ٦ جمادى الأولى سنة ٩٢٠ هـ ١٢ مارس سنة ١٥٢٤م. صدر الأمر البابوي:
بإجبارالمسلمين على اعتناق الكاثوليكية ، ومن أبى ذلك فعليه الخروج من أسبانيا خلال مدة معينة أو يصبح عبدا رقيقا مدى الحياة ، وفي ختام الأمر قرار يجعل كل المساجدكنائس،ورغم تنصر الكثيرون إلا أنهم لم يتركوا لحالهم ولم يسلموا من التعذيب والمطاردة .

ففي سنة ١٥٩٩ م. الموافق ١٠٠٧ هـ صدر المرسوم الملكي باسترقاق شباب المتنصرين والكهول منهم ومصادرة أموالهم ونفيهم إلى خارج البلاد وأخذ الأطفال وإيداعهم المعاهد

الدينية المسيحية ليتلقوا تربيتهم .

وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ م. الموافق ١٠١٨ هـ صدر المرسوم الملكي بنفي كل المتنصرين إلى بلاد البربر خلال ثلاثة أيام من تاريخ نشر القرار وتم تقدير عدد المنفيين بعد ذلك بأكثر من مليون شخص .

وأخذ الأسبان يلفقون تهما غريبة لبقايا المسلمين وكان العقاب جاهزا ومتشابها في كل الحالات : فمن الحرق أو الجلد ومصادرة الممتلكات أو التشهير بإركاب المتهم حمارا وقد علق على ظهره لوحة فيها اسمه وتهمته ويطاف به في أرجاء المدينة ، ومن التهم التي كانت تلفق للمسلمين مثلا : كثرة الاستحمام ، أو تكفين الميت في ثياب جديدة ، أو ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أو اقتناء القرآن ، أو إحراز أوراق أو كتب عربية أو إنشاد أغاني عربية أو الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر أو الوضوء والقيام إلى الصلاة أو الصيام!!!

الفصل الرابع

الدولة الفاطمية

كانت ظاهرة الاعتماد على اليهود والنصارى سمة من سمات خلفاء الدولة الفاطمية فقد لمع في سماء هذه الدولة منصور بن مقشر النصراني الطبيب صاحب الكلمة السامية في قصر العزيز ، وعيسى بن نسطورس الكاتب ، و منشا اليهودي الذي كان نائب العزيز في الشام ويعقوب بن كلس اليهودي الذي أعطاه العزيز الفاطمي الحق في أن يدرس للناس فقه الطائفة الإسماعيلية وكان العزيز يحبه جداً حتى أنه قال له يوماً :

" وددت لو أنك تباع فأبتاعك بملكي " ولم يدرك العزيز أن ملكه كان قد بيع فعلاً بهذه السياسة التي جعلت عهد الفاطميين في مصر عهد شدة وتناطح وبؤس

الدولة الفاطمية (بنى عبيد)من ٢٩٧ إلى ٥٦٧ هـ

سلكت مسلك العباسيين عند تأسيس دولتهم فمهدت بالدعوة إلى الفكرة في مصر والمغرب واليمن وأصبح لها أتباع وأنصار بكل من هذه البلاد بل استطاعوا أن يستميلوا وزراء العهد الأخير للأغالبة وكان داعي دعاتها في المرحلة الأخيرة قبل قيام دولتهم أبو عبد الله **علي بن حوشب الشيعي** فعمل علي نشر الدعوة للفاطميين في بلاد المغرب منذ سنة ٢٨٠ ثم شمال إفريقية سنة ٢٨٩ .

استطاع أبو عبد الله أن يحشد جيشا من أتباعه ويواجه دولة الأغالبة في حروب امتدت حوالي خمس سنوات حتى سنة ٢٩٦ والتي استطاع فيها أن يقضي تماما علي دولة الأغالبة ، وامتد نفوذ الفاطميين في ذلك الوقت إلى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة غرب مدينة القيروان.

أثناء هذه الحروب أرسل أبو عبد الله إلى **عبيد الله**✿ يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب وبالفعل عزم عبيد الله على الرحيل الي المغرب ولكنه احتاط واستخفي ومر في طريقه بمصر فرحب به أتباعه ودعاته بمصر وصادف بعد ذلك بعض المتاعب حتى وصل إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى وكان يعيش بها آمناً بسبب إغداقه المال علي واليها اليسع ابن مدرار ، غير أن معاملة الوالي تبدلت بعد انتصار أبي عبد الله الشيعي علي الأغالبة سنة ٢٩٦ فقبض علي عبيد الله وزجه وأتباعه في السجن ، فلما امتد نفوذ أبي عبد

✿ عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية اختلف العلماء في نسبه فمن قائل انه من نسل على بن أبي طالب والجمهور على انه دعي يهودي الأصل والبعض ينسبه إلى القرامطة وهى فرقة باطنية شكلت خطرا على الأمة الإسلامية فترة من الزمان.والذين ينسبونه إلى آل البيت يذكرون نسبه كالتالي: عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن على بن الحسن بن على بن أبي طالب .

الله ووصل إلى سجلماسة فـر واليـها ، فـأطلق سـراح أبي عبيـد الله مـن سـجنه في سجلماسة وأُخذت لعبيد الله البيعة ثم سار في جيش كبير من الجنـد حـتى وصـل **رقـادة** (عاصمة الأغالبة سابقا) فتلقاه أهلها بالترحاب واتخذها عاصمة لـه وأمـر بذكـر اسمـه في الخطبة علي منابر البلاد وتلقب بالمـهدي أمـير المؤمنـين ، وبذلـك قـامت الخلافـة الفاطمية في شمال إفريقيـة.

معاناة عبيد الله من القلاقل والاضطرابات المتتالية ببلاد المغرب :

ولأن أبا عبد الله الشيعي هو صاحب الفضـل الأول في التمكـين لعبيـد الله فقـد علـت مكانته بين أهالي بلاد المغرب وقبيلة كتامـة (إحـدى القبـائل البربريـة الـتي سـاعدت عبيد الله مساعدة عظيمة) ومن ثم حنق عليه عبيد الله وخشـي أن يضعـف نفـوذه فـأمر بقتل كل من أبي عبد الله وأخيه العباس فى جمادى الآخـرة سـنة ٢٩٨ .

فثار أهالي المغرب عليه خاصة الكتاميون ولكنه استطاع أن يخمـد هـذه الثـورة .

ازدادت طموحات عبيد الله في إخضاع المغرب كله له **واسـتطاع القضـاء علـي نفـوذ الأدارسة سنة ٣١٢ هـ** علي يد موسى بن أبي العافية الـذي بـدوره أخـذ نفـوذه في الازدياد حتى خلع طاعة الفاطميين ودخـل في طاعـة عبـد الرحمـن النـاصر الأمـوي بالأندلس فأرسل عبيد الله ابنه وولي عهده أبا القاسـم سـنة ٣١٥ إلى موسـى واسـتطاع أن يعيد للفاطميين نفوذهـم ..

وأقام عبيد الله مدينة المهدية واتخذها عاصمة لدولته وكان البحر يحيـط بهـا مـن ثـلاث جهات وبني بها دارا للصناعة تسع اكثر من مائتي مركب ثم بنى بجوارهـا مدينـة زويلـة.

وفى سنة ٣١٦ ثار **أبو يزيد مخلد بن كيداد** وامتدت ثورته إلى زمـن القـائم الـذى تـولى بعد وفاة أبيه عبيد الله ، وأبو يزيد هذا نشأ في مدينة تورز وتعلـم القـرآن واعتنـق فكـر الخوارج الصفرية وعادي الشيعة واجتمع إليه سـائر الخـوارج ، وبعـض قبـائل الـبربر

وبايعوه سنة ٣٣١ هـ علي قتال الشيعة وكان البربر يرون أنهم فتحوا الأندلس وبذلوا جهدهم لتولية الفاطميين الخلافة دون أن ينالوا شيئا لذلك تزعم أبو يزيد ثورة هؤلاء البربر ليستعيد سلطانهم ..

أرهق أبو يزيد الفاطميين حتى قضوا على ثورته سنة ٣٣٦ هـ ولكن نفوذ الفاطميين تضاءل في بلاد المغرب وساءت حال البلاد في شمال إفريقية من جراء تلك الثورات .

وتولى أمر الخلافة الفاطمية بعد القائم إسماعيل أبو طاهر المنصور سنة ٣٣٤هـ :

وفي سنة ٣٣٧ أسس المنصور مدينة **المنصورية** واتخذها حاضرة له ولها خمسة أبواب الباب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة وباب كتامة وباب الفتوح . وكانت جيوش الفاطميين تخرج من باب الفتوح .

وازدهرت بها التجارة ..

ثم جاء **المعز بن المنصور** فعمل علي توطيد نفوذه في بلاد المغرب فعهد إلى **جوهر الصقلي** بإخضاع الأمراء الثائرين في نواحي البلاد ونجح في إقامة الدعوة للفاطميين علي جميع منابر المغرب عدا سبتة وطنجة .

والحقيقة أنه رغم الجهد الكبير الذي بذله خلفاء هذه الدولة لتحقيق الاستقرار لهم في بلاد المغرب ولكنهم لم يفلحوا في ذلك فكلما أخمدت ثورة ظهرت أخرى .

محاولات الفاطميين لفتح مصر :

ولذا كانت عيون الفاطميين علي مصر وقد حاول فتحها عبيد الله المهدي مرارا منذ سنة ٣٠١ حيث وجه إليها جيشا بإمرة ابنه أبي القاسم ولكن الجيش انهزم علي يد جيش مؤنس الخادم من قبل الخليفة العباسي المقتدر .

وفى أوائل سنة ٣٠٧ وجه أبو عبيد جيشا بقيادة ابنه أبي القاسم فاستولى على

الإسكندرية ثم سار إلى الجيزة وتوغل الفاطميون في بـلاد الوجـه القبلـي لكـن مؤنـس الخادم استطاع أن يقهر هذه الحملة وأحرق سـفن الفـاطميين ..

وفى سنة ٣٢١ أرسل جيشا بقيادة جيش حبش بن أحمـد المغـربي ولكـن هـزم في سـنة ٣٢٢ علي يد محمد بن طغج الإخشيدي كـانت هاتـان الحملتـان بالتنسـيق مـع ابـن طاهر الجنابي أمير القرامطة ببلاد البحريـن .

وفى سنة ٣٢٣ أرسل **أبو القاسم** الخليفة الثـاني الفـاطمي جيوشـه إلى مصـر فدخلـت الإسكندرية بسهولة ووجدت مناصرة من بعض زعماء المصريين ممـا يـدل علـي انتشـار الدعوة الفاطمية بمصـر ..

ولكن الفاطميين هُزِموا علي يد الإخشيديين . وبقيت العلاقات بعـد ذلـك بـين حكـام مصر والفاطميين يشوبها التربص والحيـل .

في سنة ٣٣٤ هـ حرص **كافور** الـذي كـان وقتـذاك يحكـم مصـر (وكـان يقـوم بالوصاية علي أنوجور بن الإخشيد) علي تحسين العلاقة مع الخليفـة العباسـي وكذلـك مع الخليفة الفاطمي فكان يهادي صاحب المغـرب ويظـهر ميلـه إليـه ، وكـذا يذعـن بالطاعة لبني العباس ، ويداري ويخدع هؤلاء وهـؤلاء وفي هـذه الآونـة وجـه الخليفـة الفاطمي المعز اهتمامه لتوسيع دائـرة الدعـوة الفاطميـة في مصـر حـتى اسـتطاعوا أن يأخذوا البيعة للمعز من رجال بلاد كافور وكبار موظفي دولته .كمـا أنـه عمـل علـي إنشاء الطرق وحفر الآبار في الطريق إلى مصر سـنة ٣٥٦ هـ .

وفى سنة ٣٥٧ مات كافور فاضطربت الأحوال بمصـر وتـردت الحالـة الاقتصاديـة بهـا وحل الوباء والقحط بالبلاد من جراء انخفاض النيـل ، وعجـزت الحكومـة عـن دفـع رواتب الجند مما حمل كثيرا من أولي الـرأي بمصـر علـي الكتابـة إلى المعـز لديـن الله يطلبون منه القدوم إلى مصـر ..

وفى ١٤من ربيع ثاني سنة ٣٥٨ هـ سار **جوهر الصقلي** علـــي رأس جيــش للفــاطميين فدخل الإسكندرية بغير مقاومة ولمـــا وردت إلى الفســطاط أخبــار وصــول جوهــر إلى الإسكندرية رأي الوزير المصري جعفر بن الفرات ومن معــه أن يفــاوضوا جوهــر علــي شروط التسليم وطلب الأمان علي أرواح المصريين فــالتقوا بــه عنــد تروجــه (إحــدى قري مركز أبي المطامير بمحافظة البحيرة) في ١٨من رجــب ســنة ٣٥٨ فأمنــهم جوهــر علي أموالهم وأنه ما جاء إلا للإصلاح كمـــا نــص في كتــاب الأمــان علــي أن يظــل المصريون علي مذهبهم السنى ولا يلزمون بــالتحول إلى المذهــب الشــيعي ..

بيد أن طائفة كبيرة من الجند المصريين رفضوا هـــذا العقــد ودخلــوا في معركــة حربيــة مع جوهر الصقلى ولكنهم استسلموا فى النهاية وطلبوا إعـــادة الأمــان .

بناء القاهرة والجامع الأزهر :

وبدأ عهد جديد لمصر في ظل الحكم الفاطمي ووضــع الأســاس لبنــاء مدينــة المنصوريــة (القاهرة) فى ١٧شعبان سنة ٣٥٨ شمالي الفسطاط وأســس القصــر الــذي ســيترل بــه المعز وعرف باسم القصر الشرقي الكبـــير .

ظلت القاهرة تعرف بالمنصورية أربع سنوات ثم سماها المعز القــاهرة تفــاؤلا بأنهــا ســتقهر الدولة العباسية وجعل جوهر بسور القاهرة أربعة أبواب بــاب النصــر ، بــاب الفتــوح ، باب زويلة ، باب القوس ثم بدىء بناء الجامع الأزهـــر ســنة ٣٥٩ وتم بنــاؤه في ســنتين وذلك ليكون خاصا بشعائر المذهب الفاطمي خشية إثـــارة المصريــين إذا ظــهرت هــذه الشعائر في مساجدهم .. وأقيمت الصلاة في الجــامع الأزهــر لأول مــرة ٧مــن رمضــان سنة ٣٦١هـ وتحولت الدعوة علي المنــابر إلى الخليفــة المعــز وضــرب الســكة باســم الخليفة الفاطمي بدلا من اسم الخليفة العباسي كذلــك منــع جوهــر النــاس مــن لبــس السواد شعار العباسيين وزيد في الخطبة علي عادة الشيعة .. (اللـــهم صــل علــي محمــد

النبي المصطفي وعلي علي المرتضي ، وعلي فاطمة البتول ، وعلي الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، اللهم صل علي الأئمة الراشدين ، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين)

لم يف الفاطميون بتعهداهم بعدم إجبار المصريين علي تغيير مذهبهم السني إلى مذهب الشيعة ..

- فأسندت المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعيين .
- واتخذت المساجد الكبيرة مركز دعاية للمذهب الشيعي .
- وتم إضافة منصب جديد يقوم على تعيين أحد كبار المتفقهين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم وكان يعرف بداعي الدعاة وكانت مترلته تلي قاضي القضاة ويعاونه اثنا عشر نقيبا ونواب في سائر البلاد وكثيرا ما تقلد رجل واحد منصبي قاضي القضاة والدعوة .

وحولوا الشعائر إلى المذهب الشيعي واحتفلوا **بعيد الغدير**[1] ويوم مقتل الحسين وتضرر المصريون من ذلك كثيرا .

- وفي سنة ٣٩٥ أمر الحاكم بأمر الله بنقش سب الصحابة علي الجدران وفي الأسواق . ثم تراجع عن ذلك سنة ٣٩٨
- وظهر الاحتفال بمولد النبى ﷺ ومولد ابنته فاطمة وعلى .

وأذن في جميع المساجد بـ (حي علي العمل) فمهد بذلك جوهر للخليفة المعز المجيء إلى مصر فدخل المعز مصر في شعبان سنة ٣٦٢ هـ .

ولما دخل قصره الذي أعدله خر لله ساجدا ..

[1] سيأتى بيانه في الملحق الخاص بأشهر الفرق التى ظهرت فى تاريخ الإسلام .

وقدمت إليه الهدايا العظيمة الثمينة ..

واتخذت القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية .

أضعف ذلك نفوذ الفاطميين في بلاد المغرب ، واستقلت بلاد عن نفوذ الفاطميين بالمغرب ..

استأثر المعز بالنفوذ والسلطان في مصر ولم يشأ أن يترك لجوهر من السلطة شيئا لئلا ينازعه ملكه وبالتدريج فقد جوهر ماكان يتمتع به نفوذ ..

من الأمور البارزة في عهد الفاطميين أنهم قربوا إليهم أهل الكتاب من النصارى واليهود !!

- ففي زمن المعز استعان بكثير من الأطباء اليهود وترقى بعضهم في المناصب حتى صار أحدهم وهو يعقوب بن كلس وزيرا للعزيز بن المعز ، وإليه يرجع الفضل في وضع قواعد الدولة ونظمها .
- وتزوج العزيز من مسيحية أصبح لها نفوذ عظيم علي العزيز فقد حملته علي العطف علي بني ملتها فاحتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية . وأصبح بدواوين الدولة عدد كبير من كتابهم واستأثروا بمعظم السلطات ..
- عين العزيز منشا بن إبراهيم الفرار اليهودي واليا علي بلاد الشام

في سنة ٣٩٣ أمر الحاكم بأمر الله أن يرتدي أهل الذمة أزياء خاصة وبعدها بثلاث سنوات أمر بهدم بعض الكنائس في القاهرة ومن العجيب أنه في ذات الوقت قلد الوزارة منصور بن عبدون النصراني الذي أشار علي الخليفة الفاطمي الحاكم بهدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس فأصدر مرسوما بهدمهما . وكان لهدم هذه الكنيسة الأثر الأكبر في إثارة حمية الصليبيين للاستيلاء علي بيت المقدس .

- واستمر هذا الاضطهاد حتى اضطر كثير من كتاب النصارى أن يدخلوا في

الإسلام وهاجر بعضهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة ..

- وفى سنة ٤١١ قرر الحاكم أن يرفع عنهم هذا الاضطهاد ثم جاء الظاهر فعطف علي أهل الذمة ..

- وفي أوائل عهد المستنصر بالله الفاطمي ارتفع شأن أبي سعد إبراهيم بن سهل التستري اليهودي لأن والدة ذلك الخليفة كانت من قبل أمة في بيته ، فلما ولي ابنها المستنصر الخلافة قربت التستري وولته ديوانها وتحيز التستري لليهود فتقلدوا في أيامه كثيرا من مناصب الدولة ولكنه قتل سنة ٤٣٩ هـ .

ظهور فرقة الدرزية :

- وفي عهد الحاكم وفي سنوات حكمه الأخيرة جاء إلى مصر بعض الفرس والذين راقتهم الدعوة الإسماعيلية فاعتنقوها وزادوا فيها فكرة تأليه الحاكم ودعوا إليها فسخط عليهم أهل السنة وطاردوهم وكان أشهرهم والمقرب إلى الحاكم بأمر الله محمد بن إسماعيل الدرزى وقد هرب إلى بعض قري بانياس (بلد صغيرغربي دمشق) حيث أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم فاستمال إليه كثيرا من الأنصار الذي أصبحوا يعرفون باسم الدرزية .

وجد الخليفة الحاكم بأمر الله في هذه الدعوة فرصة ليحيط نفسه بسياج من التقديس رغبة منه في جعل رعاياه طوع إرادته ..

- ثم جاء الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بعد مضي ثلاث سنوات علي وفاة الحاكم ليعلن براءته من دعوى الألوهية التي قيلت في أبيه .

وفي عهد المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧) وقعت اضطرابات عظيمة في البلاد :

- فالجند السودانيون يثيرون الاضطرابات في الوجه القبلي .

- ونحوا من أربعين ألف فارس من قبيلة لواتة والأعراب تحت زعامة ناصر الدولة

الحسين بن حمدان التغلبي (المتمرد علي الخلافة الفاطمية) يغيرون علي الوجه البحري وينهبون بلاده ويحطمون الجسور والقنوات مما ترتب عليه انقطاع المئونه عن القاهرة والفسطاط .

- وفى سنة ٤٦٢ بعث ناصر الدولة إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولا من فبله يسأله أن يرسل إليه عسكرا ليقيم الدعوة العباسية بمصر علي أن تئول إليه السيادة علي مصر فرحب أرسلان بذلك ولكنه انشغل بمحاربة الروم عن مصر .
- وفى سنة ٤٦٤ قطع ابن حمدان اسم المستنصر من الخطبة في الوجه البحري وبعث إلى الخليفة القائم العباسي ببغداد يلتمس الخلع ثم قدم إلى الفسطاط وتولي الحكم في القاهرة وأطلق للخليفة مائة دينار كل شهر وخشي الأتراك علي أنفسهم من جراء استبداد ناصر الدولة بالأمور في القاهرة فدبروا لقتله فقتل وتتبعوا كل أفراد أسرته بمصر وتخلصوا منهم .

ثم تسلطت الأتراك واستبدوا بالأمور دون المستنصر سنة ٤٦٦ فبعث إلى **بدر الجمالي** والي عكا يطلب منه القدوم ليتولي تدبير شئون الدولة فاشترط أن يحضر معه من يختاره من عسكر الشام (أرمن) ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر .

وبدر الجمالي كان مملوكا أرمينيا للأمير جمال الدولة بن عمار ، ثم أخذ يترقي في المناصب لما أظهره من كفاية في الحروب التي قامت ببلاد الشام حتى ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر سنة ٤٥٦ وحارب الأتراك في تلك البلاد ثم تقلد نيابة عكا سنة ٤٦٠ هـ .

بدأ الجمالي بقتل رءوس الأتراك فاستتب له الأمن وكان من جنده من احتفظ

بمسيحيته .

واستطاع الجمالي أن يعيد نفوذ الخليفة علي جميع بلاد الوجه القبلي حتى أسوان وكذلك الوجه البحري

وبني **جامع العطارين** وأعاد الرخاء فزاد خراج مصر في سنة (٤٥٧ ٤٦٤) من ٢٠٠٠٠٠٠ دينار إلى ٣١٠٠٠٠٠ دينار وتوفي الجمالي سنة ٤٨٧ وعهد لابنه الأفضل شاهنشاه .

وظل المستنصر في عهد وزارته كالمحجور عليه إلى أن توفي في ١٧من ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ .

ومع وفاة المستنصر بالله بدأ العصر الفاطمي الثاني حيث زادت سلطة الوزراء ..

العصر الفاطمى الثانى – عصر نفوذ الوزراء

وابتدأ هذا الطور بالتراع بين أبناء المستنصر نزار الابن الأكبر وولي العهد من قبل أبيه **وأحمد أبو القاسم** صغير السن الذي فرضه الأفضل بدر الجمالي ليكون الخليفة رغما عن أنف **نزار** ..

وكان في هذه الآونة بمصر الحسن بن الصباح القائم علي الدعوة الإسماعيلية بأصبهان جاء يتعمق في دراسة المذهب الإسماعيلي .. فلما رأي هذه الأحداث وكان الحسن يري أن تولية نزار الإمامة بعد أبيه تتفق مع تعاليم الإسماعيلية التي تشترط أن يكون الأمام أكبر أبناء أبيه وأظهر الحسن رأيه بمصر وهدد نفوذ بدر الجمالي فكاد له بدر وزجه بالسجن ونفاه إلى بلاد المغرب غير أن الريح قذفت بالسفينة التي أبحر عليها سنة ٤٧٢ هـ إلى سواحل الشام فترل بثغر عكا ثم عاد إلى بلاده حيث أخذ ينادي بإمامة المستنصر وابنه نزار من بعده ولذلك سميت هذه **الطائفة الإسماعيلية النزارية** .

سيطر الوزراء في هذا الطور علي مقاليد الحكم وبلغ من نفوذ الأفضل أنه بعد وفاة

المستعلي سنة ٤٩٥ أتي بأبي علي بن المستعلى وأقامه علي الخلافة وعمره خمس سنوات ولقبه بالآمر فلما شب هذا الخليفة الصغير ضاق ذرعا بنفوذ وزيره فدبر لقتله فقتله سنة ٥١٥ .

وفى سنة ٥٢٤ قُتِل الخليفة وتولي أخوه عبد المجيد أبو الميمون الحافظ الخلافة من بعده ولكن الجند ثاروا عليه وولوا **أبا علي أحمد بن الأفضل** الوزارة فاستأثر بالسلطة والنفوذ وسجن الحافظ وكان أماميا لا إسماعيليا فعمل علي الانتصار لهم وعلي إضعاف المذهب الإسماعيلي بأن عين أربعة قضاه أحدهما إمامي والآخر إسماعيلي وأحدهما شافعي والأخر مالكي ، وأعطي كلاً منهم السلطة في إصدار أحكامه وفق مذهبه (ولم يسمع بمثل هذا في الملة الإسلامية قبل ذلك) .

ومكث علي ذلك حتى اغتالته الإسماعيلية سنة ٥٢٦ وأخرجوا الحافظ من سجنه وعاد خليفة من جديد .

وفي سنة ٥٢٩ طمع **بهرام الأرمني** والي الغربية في الوزارة فقدم إلى القاهرة وحاصرها يوما فاضطر الحافظ إلى توليته الوزارة علي الرغم من عدم دخوله الإسلام.

وعاني المصريون فترة من سيطرة الأرمن وتحيز بهرام لبني جنسه .

حتى أنهم أكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره ..حتى استطاع رضوان بن ولخشي والي الغربية أن يطرد بهرام وأصبح وزيراً سنة ٥٣٠ هـ

ولكنه أراد أن يعزل الحافظ ودار بينهما صراع انتهي بمقتل رضوان سنة ٤٥٢ .

وهكذا ظل النزاع والتنافس علي الوزارة وبين الوزراء والخلفاء جيلا بعد جيل وتدخل الوزراء في تولية الخلفاء ، ولم يراعوا في توليتهم تعاليم الإسماعيلية ..

تطور التنافس علي الوزارة في مصر في نهاية العصر الفاطمي إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة فلقد لجأ شاور وزير الدولة المخلوع علي يد أحد قواد الجيش **ضرغام** سنة ٥٥٨ إلى الالتجاء بنور **الدين محمود** صاحب دمشق ليمده بقوة يستعين بها علي استعادة نفوذه ، علي أن يتنازل له عن ثلث خراج مصر فأعانه نور الدين بحملة بقيادة **أسد الدين شيركوه** فتغلب علي ضرغام وأعيد **شاور** الي منصبه سنة ٥٥٩ هـ .

و لم يف شاور بما عاهد عليه حليفه نور الدين وطلب من شيركوه أن يرجع الي الشام وأرسل شاور الي ملك الفرنجة بيت المقدس يستمده ويخوفه من نور الدين إن ملك الديار المصرية فسارع الملك الي نجدته ونجح في إخراج شيركوه إلى بلاد الشام .

وفي سنة ٥٦٢ أنفذ نور الدين حملة إلى مصر بقيادة شيركوه لما ثبت له غدر شاور به وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا في هذه الحملة.

استنجد شاور ثانية بالفرنجة فأجابوه والتقي جند شيركوه وجند الفرنجة وحلفاؤهم في مكان يعرف بالبابين (علي مقربة من المنيا) وكان النصر من نصيب شيركوه الذي دخل بعد ذلك الإسكندرية وعين ابن أخيه صلاح الدين واليا عليها ولكن قوات الفرنجة والمصريين عادت إلى محاصرة الإسكندرية برا وبحرا فأسرع شيركوه إلى نصرة صلاح الدين . فطلب المصريون والفرنجة الصلح فأجابهم علي ألا يقيم الفرنجة بالبلاد المصرية ثم عاد شيركوه إلى دمشق والحقيقة أن قوات الفرنجة لم تغادر مصر تنفيذا لهذا الصلح ، بل عقدت مع شاور معاهدة كان من أهم شروطها .. (أن يكون لهم بالقاهرة شحنة صليبية ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن إنفاذ عسكره إليهم).

كما اتفق الطرفان علي أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنويا مـــن دخـــل مصـــر ..
أطمع الحال التي وصلت إليها مصـــر الفرنجـــة في أن يقدمـــوا بحملـــة ســـنة ٥٦٤ هـــ لغزوها بقيادة ملك بيت المقدس و لم يجد شاور أمامـــه ســـوي اســـتعمال الحيلـــة فـــأحرق الفسطاط حتى لا يأوي إليها الصليبيون فظلت النار مشتعلة بها أربعـــة وخمســـين يومـــا ..
ثم أرسل إلى ملك الفرنجة أنه يخشى إن دخلتم مصر أن يقدم نـــور الديـــن ليحتـــل مصـــر وأشار عليه بالصلح علي أن يؤدي إليه ألف ألـــف دينـــار ..
علي أن شاور ما لبث أن خدع الفرنجـــة ، فأرســـل إلى نـــور الديـــن يطلـــب النجـــدة ، وتعهد أن يترل له عن ثلث بلاد مصر ،وأن يأذن لأسد الديـــن شـــيركوه بالإقامـــة عنـــده مع جنده، وأن يكون إقطاع هؤلاء الجند خارجا عن ثلـــث البـــلاد الـــذي أفـــرده لنـــور الديـــن .
سارع نور الدين إلى تجهيز قوة كبيرة بقيـــادة شـــيركوه توجـــهت نحـــو مصـــر ، فلمـــا وصلت الأخبار الي الصليبيين قرروا الرحيل إلى فلسطين بغير قتـــال ثم دخـــل أســـد الديـــن شيركوه القاهرة ربيع الآخر سنة ٥٦٤ فرحب بـــه أهلـــها ، واســـتقبله الخليفـــة العـــاضد وخلع عليـــه .
وأصبح أسد الدين شيركوه وزيرا للعاضد واستطاع في فترة وزارتـــه القصـــيرة أن يقبـــض علي زمام الأمر بالدولـــة.
وحاول شاور أن يدبر مؤامرة للقيض علي شيركوه ومن معـــه مـــن الأمـــراء ولكـــن نهـــاه ابنه الكامل وقال :(**والله لئن عزمت علي هذا الأمر لأعرفـــن أســـد الديـــن**)
فقال شاور : (**والله لئن لم نفعل هذا لنقتلـــن جميعـــا**)
قال ابنه : (**صدقت ، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيـــد المســـلمين خـــير مـــن أن نقتل وقد ملكتها الإفرنـــج**)

فعدل عن عزمه ثم تخلص منه أسد الدين بعد ذلـــك وقتلـــه ..

توفي أسد الدين بعد ثلاثة أشهر من دخولـــه القـــاهرة واختـــار العـــاضد صـــلاح الديـــن يوسف بن أيوب وزيرا له فبذل الأموال للرعية فـــأحبوه ، وأمـــر بذكـــر نـــور الديـــن في الخطبة بعد الخليفة الفاطمي وأقطع أصحابه البلاد ، وأسند إليـــهم بعـــض المنـــاصب ..

فهدد بذلك صلاح الدين أصحاب المصالح في بقاء الدولة الفاطميـــة فعملـــوا علـــي المكـــر به واتفق رأيهم علي أن يكاتبوا الفرنجة ودعوهم إلى مصـــــر ، فـــإذا مـــا خـــرج صـــلاح الدين إلى لقائهم قبضوا علي من بقي مـــن أصحابـــه بالقـــاهرة وانضمـــوا إلى الفرنجـــة في محاربتـه

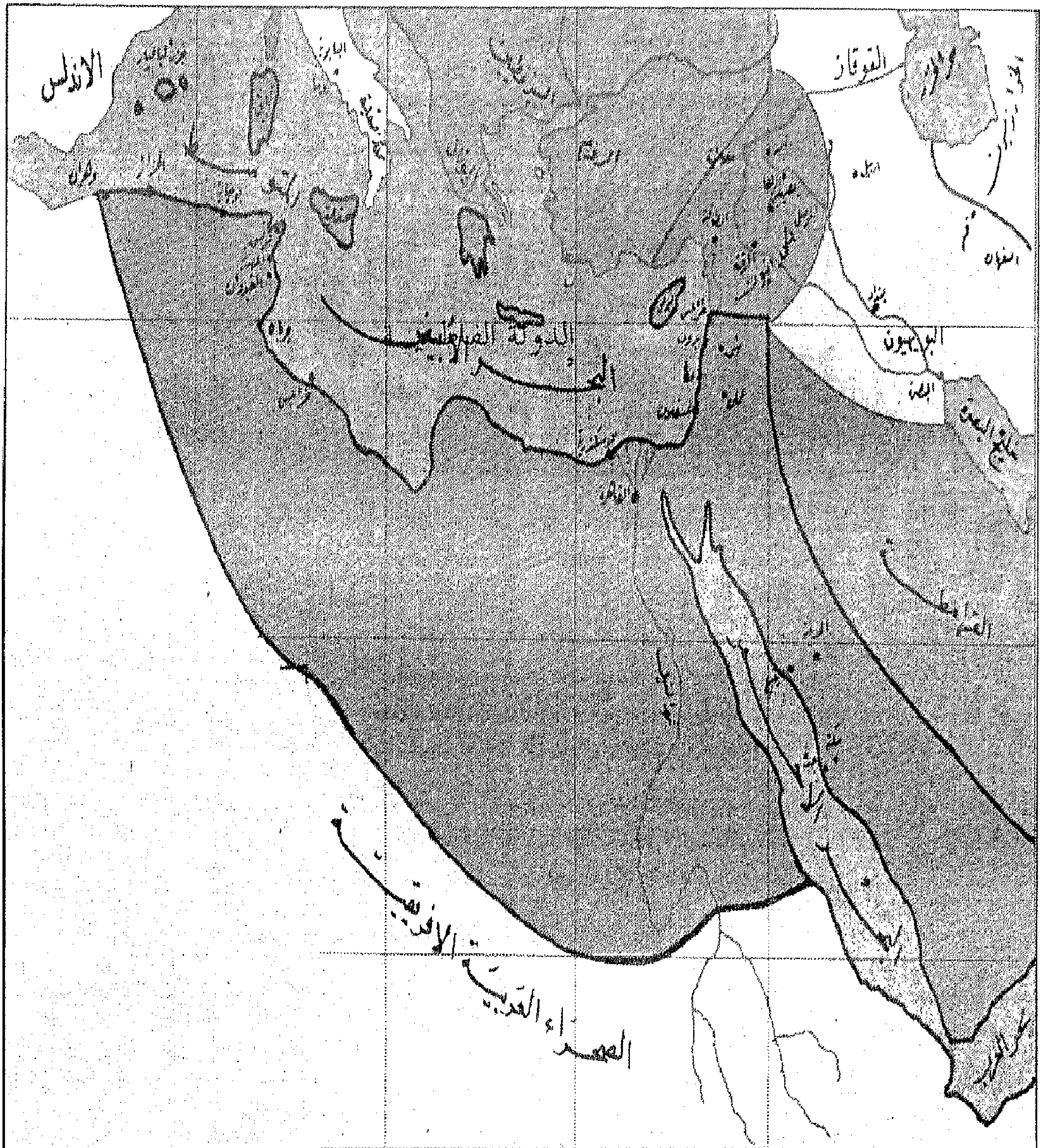
ولكن صلاح الدين كان يقظا واستطاع أن يقضي بقوة علي خطـــط هـــؤلاء فدبـــر لقتـــل جوهر مؤتمن الخلافة فثار الجند السودانيون وكـــانوا يزيـــدون علـــي خمســـين ألفـــا ودار بينهم وبين قوات صلاح الدين قتال عنيف فتتبعهم صلاح الديـــن حـــتى وصلـــوا الصعيـــد حتى قضي علي نفوذهم نهائيا ســـنة ٥٧٢..

كانت الفرنجة تتربص بنور الدين وتوسعاته في مصر ويرون فيـــه خطـــرا يـــهدد كيـــانهم ، ولذلك هيئوا لحملة جديدة علـــي مصـــر اســـتعانوا فيـــها بإمـــبراطور الدولـــة البيزنطيـــة فتوجهوا إلى دمياط يعاونهم أسطول بـــيزنطي مـــزود بـــالمؤن والعتـــاد فوصلـــوا إليـــها في صفر سنة ٥٦٥ فلم يخرج إليهم صلاح الدين بنفسه خوفا من مؤامـــرات الفـــاطميين بـــل أرسل جيشا بقيادة أخيه تقي الدين عمر وخالد شهاب الديـــن محمـــود لمواجهـــة الفرنجـــة وبعث يطلب المدد من نور الدين فأرسل إليه مـــددا ، وكـــان الخليفـــة العـــاضد كذلـــك حريصا علي إعانة صلاح الدين بالمال طوال مدة حصار الفرنجـــة لدميـــاط يقـــول صـــلاح الدين .. (ما رأيت أكرم من العاضد أرسل الي مدة مقـــام الفرنـــج علـــي دميـــاط ألـــف ألف دينار سوي ما أرسله إلى من الثيـــاب وغيرهـــا) .

فترت حماسة الصليبيين فرجعوا من حيث أتوا في ربيـــــع أول ســـنة ٥٦٥.

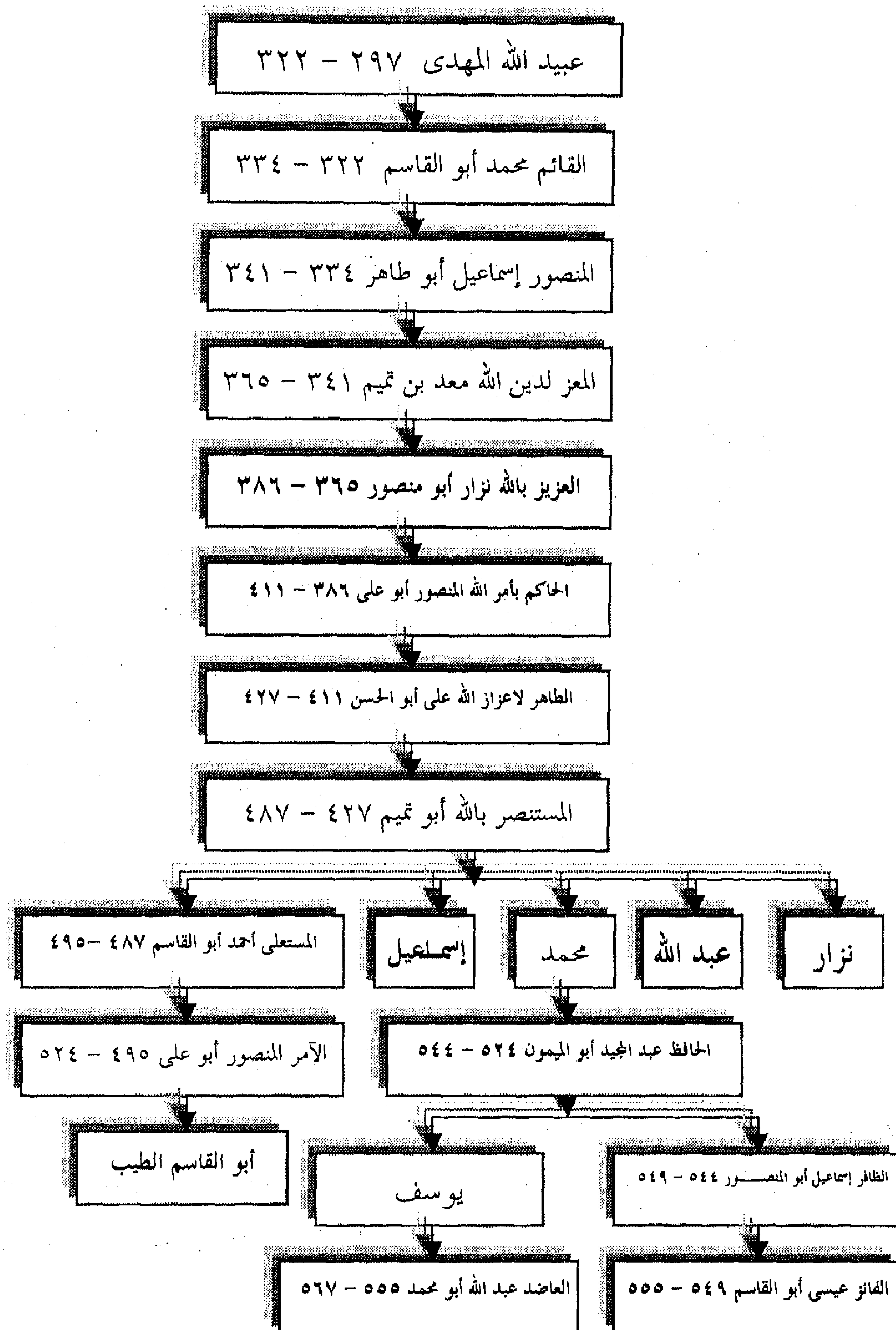
لما أيقن صلاح الدين أن سلطانه قد أستقر ، وجـــه اهتمامـــه إلى القضـــاء علـــي المذهـــب الشيعي في مصر ، فأنشأ سنة ٥٦٦ هــ مدرســـة لتدريـــس المذهـــب الشـــافعي وأخـــري لتدريس المذهب المالكي ،وعزل قضاة الشيعة ، وعـــين صـــدر الديـــن عبـــد الملـــك بـــن درباس قاضيا للقضاة في جميع أنحاء البلاد المصرية فاستعاد بذلك المذهـــب الســـني قوتـــه.

أرسل نور الدين إلى صلاح الدين أن يجعل الخطبة باسم الخليفـــة العباســـي محـــل الخليفـــة الفاطمي ، فتردد متخوفا من سخط المصريين لكن نـــور الديـــن أصـــر فتحولـــت الخطبـــة للخليفة العباسي المستضيئ بنور الله ..وكـــان العـــاضد إذ ذاك مريضـــا و لم يعلـــم أهلـــه بذلك ثم توفي في ١٠ من محرم سنة ٥٦٧ ، وهكـــذا انتـــهت الدولـــة الفاطميـــة الشـــيعية بمصر .



خريطة رقم ٢٠: توضح حدود الدولة الفاطمية في أقصى اتساع لها

لاحظ تزامن وجود ثلاث قوى تمثل الفكر الشيعي في وقت واحد وهى الفاطمية والقرامطة وسيطرة البهويين ذوى الميول الشيعية على مقاليد إدارة عاصمة الخلافة في بغداد وهذا مخطط خلفاء الدولة الفاطمية:


عبيد الله المهدى ٢٩٧ - ٣٢٢
القائم محمد أبو القاسم ٣٢٢ - ٣٣٤
المنصور إسماعيل أبو طاهر ٣٣٤ - ٣٤١
المعز لدين الله معد بن تميم ٣٤١ - ٣٦٥
العزيز بالله نزار أبو منصور ٣٦٥ - ٣٨٦
الحاكم بأمر الله المنصور أبو على ٣٨٦ - ٤١١
الظاهر لاعزاز الله على أبو الحسن ٤١١ - ٤٢٧
المستنصر بالله أبو تميم ٤٢٧ - ٤٨٧
المستعلى أحمد أبو القاسم ٤٨٧ - ٤٩٥
إسماعيل
محمد
عبد الله
نزار
الآمر المنصور أبو على ٤٩٥ - ٥٢٤
الحافظ عبد المجيد أبو الميمون ٥٢٤ - ٥٤٤
أبو القاسم الطيب
يوسف
الظافر إسماعيل أبو المنصور ٥٤٤ - ٥٤٩
العاضد عبد الله أبو محمد ٥٥٥ - ٥٦٧
الفائز عيسى أبو القاسم ٥٤٩ - ٥٥٥

الفصل الخامس
الحروب الصليبية
بين آل زنكي وصلاح الدين وبعده

لقد واجهت الهجمة الصليبية على ديار المسلمين دولتين عظيمتين : آل زنكى و الأيوبيين ، وكأنهما وجدتا لتكونا عقبة فى سبيل تغلب أوروبا على الشرق أو لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة .

لقد كانت الدولة الأيوبية برفقها وقلة تعصبها ووفائها أستاذاً ناصحاً أرشد الصليبيين إلى حسن معاملة البشر ونبذ التعصب الوحشى الذميم ونقض العهود والغدر القبيح .

ملخص الحروب الصليبية بالمشرق ودوافعها وجهاد الأمة الإسلامية ضدها

الحملة الصليبية الأولى سنة (٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م)

۞ لما اختير البابا **ايربان الثاني** بابا لروما سنة ٤٨١ هـ ، وأصبح السيد المطاع بين الشعوب النصرانية جعل يدعو الأمراء إلى القيام بحرب ضد المسلمين من أجل استرداد **بيت المقدس** وإنقاذ الحجاج المسيحيين من مضايقات السلاجقه لهم...

وكان من الذين تحمسوا لهذه الدعوة **بطرس الناسك** ، الذي عمل على جمع المتطوعين لهذه الحرب فكان أغلبهم من السوقة وقطاع الطرق . . وسار بطرس بهذا الجمع الفوضوي إلى بيت المقدس سابقاً الجيوش النظامية فعاثوا في الأرض فساداً وتأذى منهم كل من مروا عليه في طريقهم حتى النصارى واشتكى منهم إمبراطور القسطنطينية وأحدثوا خسائر هائلة في ديار المسلمين حتى تصدى لهم السلاجقة في نيقية فأبادوهم سنة ٤٨٩ هـ.

۞ وفي هذه الأثناء كانت الجيوش النظامية تخرج من فرنسا مروراً على روما ثم القسطنطينية وفيها مليون من النصارى منهم ٣٠٠٠٠٠ مقاتل ولم تكن لها قيادة موحدة وأغلب القيادات من أمراء فرنسا ولم يخرج ملوك أوربا يومها لأن ملوك نصارى الأندلس كانوا مشغولين بقتال المسلمين هناك ولأن ملك فرنسا فيليب الأول وملك ألمانيا هنري الرابع كانا مطرودين من رحمة الكنيسة.

ومن القسطنطينية توجهت هذه الجيوش إلى نيقية (عاصمة السلاجقة الرومية) وانتهزوا غياب أميرها قلج أرسلان فحاصروها من الشمال والجنوب . فلما عاد قلج حاول دخول مدينته وقاتل الصليبيين بشراسة ولكنه لم يفلح في دخول الدينة وسقطت نيقية ـ وأغلب سكانها

مسيحيون في أيدي الصليبيين وضمت للإمبراطور البيزنطي وتوالى الزحف الصليبي فاستولوا على قونية بسهولة لأن قلج كان قد أخلاها من سكانها ثم اتجهوا إلى هرقلة...ثم قليقية وقيصرية ثم اتجهوا إلى مرعش فاستولوا عليها ومنها اتجهوا إلى الشام فوصلوا إلي جسر الحديد على نهر العاصي شرقي إنطاكية.

وبذلك استطاعت الحملة الصليبية الأولى أن تهزم سلاجقة الروم وأن تستولي على أملاكهم وأن تؤسس إمارات وممالك مثل إمارتي أرمينية والرها.

واستطاعت هذه الحملة أن تستولي على إنطاكية من سلاجقة فارس وأن تؤسس فيها إمارات صليبية . . كما استولت على اللاذقية بعد عناء شديد من سلاجقة الشام.

- قام الصليبيون ـ لكي يؤمنوا موقفهم في إنطاكية ـ بعقد اتفاق مع الفاطميين على أن يكون شمال الشام للصليبيين بينما تكون فلسطين للفاطميين . . وقد وافق الفاطميون على ذلك وهم يرونها فرصة للقضاء على نفوذ السلاجقة المسلمين في الشام.

واتخذ الصليبيون طريقهم نحو بيت المقدس وتغلبوا على كل محاولة لصدهم عن ذلك ولم يراع الصليبيون عهودهم للفاطميين ووصلوا إلى أبواب بيت المقدس وعاونهم والي عكا وأهل بيروت . . وبعد حصار دام واحدا وأربعين يوما سقطت المدينة في أيدي الصليبين ولم يكن أمام جند الفاطميين إلا الاحتماء بالمسجد فتبعهم الصليبيون داخل المسجد وأحدثوا فيهم مذبحة عظيمة وأصبحت البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين.

واستطاع الصليبيون بذلك أن يستولوا على بيت المقدس وبيت لحم والخليل والرملة ورام الله ويافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرية ، وبقيت عسقلان وغيرها من القرى في أيدي المسلمين.

وصف أحد المؤرخين الحال يومها قائلاً (**ويمكـــن تشـــبيه المراكـــز الصليبيـــه في الشـــام عندئذ بالجزر المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء الذيـــن ظلـــوا يتحينـــون الفرصـــة المناسبة للانتقام واسترداد حقوقهم المســـلوبة**).

ومما ينبغي أن يذكر أنه على الرغم من نجاح الصليبيين في احتلال بيت المقدس إلا أنهم فقـــدوا عدداً كبيراً من مقاتليهم فبعد أن كان في الجيش ثلاثمائة ألف مقاتل إذا به يوم دخولـــه بيـــت المقدس لا يزيد عن أربعين ألفاً ! ! مما يدل على شراسة المعارك التي خاضوها. .

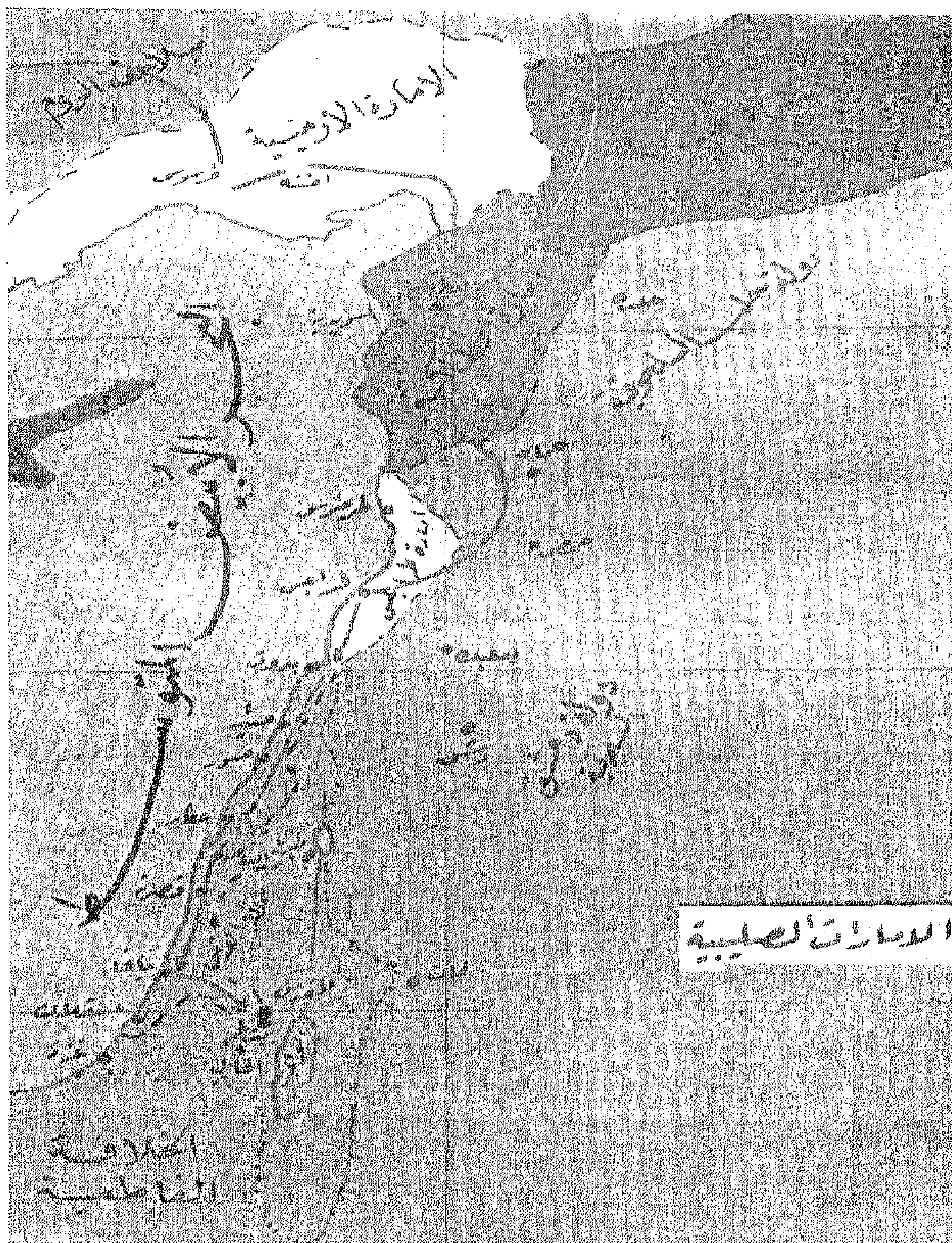
فماذا كان يحدث لو كانت القوى الإسلامية كلها يداً واحدة في وجه الصليبيين ؟ ؟

- وتشكلت للصليبيين أربع إمارات بعد هـــذه الحملـــة :

إمارة الرها - إمارة طرابلس - إمارة بيت المقدس - إمارة إنطاكية.

بين الحملة الصليبية الأولى والثانية :

لم يمض على احتلال بيت المقدس من قبل الصليبيين عام حتى واجـــهوا متـــاعب مـــن كـــل القوى الإسلامية المحيطة بهم. فعاش الصليبيون حوالي نصف قـــرن مـــن الزمـــان يعـــانون من الحروب التي يشنها عليهم المســـلمون في كـــل عـــام تقريبـــاً فـــأرهقوهم وكبدوهـــم خسائر هائلة في الأرواح والأموال. . كما أن الفاطميين الذيـــن كـــانوا حلفـــاء للصليبيـــين ضد السلاجقة تكشفت لهم طبيعة الخيانة عنـــد الصليبيـــين وعـــدم احترامـــهم لعـــهودهم فكان لهم دور في الهجمات على الصليبيـــين..



خريطة رقم ٢١

ظهور آل زنكي

وكان لظهور شخصية **عماد الدين زنكي** وأبنائه من بعده في سنه ٥٢١ هـ . أثر كبير في تاريخ الحروب الصليبية. .

يقول ابن الأثير :(ولولا أن الله تعالى منَّ على المسلمين بولاية الشهيد عماد الدين زنكي لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه)

عين زنكي أتابك الموصل من قبل السلطان السلجوقى محمود ليقوم بحفظها وإصلاح شأنها فأظهر زنكي في ولايته كفاية وقوة وصلاحاً وكان له في جهاد الصليبيين همة لا تزال تذكر له . فكان لا ينقضي عام حتى يستولي على جزء مما احتلته الفرنجة...بالرغم من المخاطر الداخلية التي كانت تتهدد ملكه وبلاده تارة من قبل الخليفة المسترشد بالله الذي حاول أن يقف أمام نفوذ السلاجقة وتارة بسبب الصراع بين أبناء البيت السلجوقى...

يروى ابن كثير ما يصور لنا الأحوال الداخلية للأمة الإسلامية في هذا الوقت :

(وفي سنة ٥٢١ هـ استهلت هذه السنة والخليفة والسلطان محمود متحاربان والخليفة في السرادق في الجانب الغربي ، فلما كان يوم الأربعاء رابع المحرم توصل جماعة من جند السلطان إلى دار الخلافة فحصل فيها ألف مقاتل عليهم السلاح فنهبوا الأموال ، وخرج الجواري وهن حاسرات يستغثن .. فلما وقع ذلك ركب الخليفة في جيشه وجئ بالسفن وانقلبت بغداد بالصراخ حتى كأن الدنيا قد زلزلت وثارت العامة مع جيش الخليفة فكسروا جيش السلطان وقتلوا خلقا من الأمراء ، وأسروا آخرين ومرت...فوضى عظيمة جدا ، ونالت العامة من السلطان وجعلوا يقولون له : (**يا باطني تترك الفرنج والروم وتقاتل الخليفة...**)

حتى كان يوم عاشوراء تماثل الحال وطلب السلطان من الخليفة الأمان والصلح...)

(ففي سنة ٥٢٣ هـ حاصرت الفرنج مدينة دمشق فخرج إليهم أهلها فقاتلوهم قتالا شديدا وبعث أهل دمشق عبد الله الواعظ ومعه جماعة من التجار يستغيثون بالخليفة ، وهموا بكسر منبر الجامع ، حتى وعدهم الخليفة بأنه سيكتب إلى السلطان ليبعث لهم جيشا يقاتلون الفرنج فسكنت الأمور ، فلم يبعث لهم جيشا حتى نصرهم الله من عنده ، فإن المسلمين هزموهم وقتلوا منهم عشرة ألاف)

وفى سنه ٥٣٩ هـ حاصر عماد الدين الرها واستطاع أن يستعيدها من الصليبيين بعد أن احتلوها قرابة نصف قرن فلما دخلها عامل المسيحيين بها معاملة كريمة جعلتهم يشعرون بعدالة زنكي وإنصافه ...

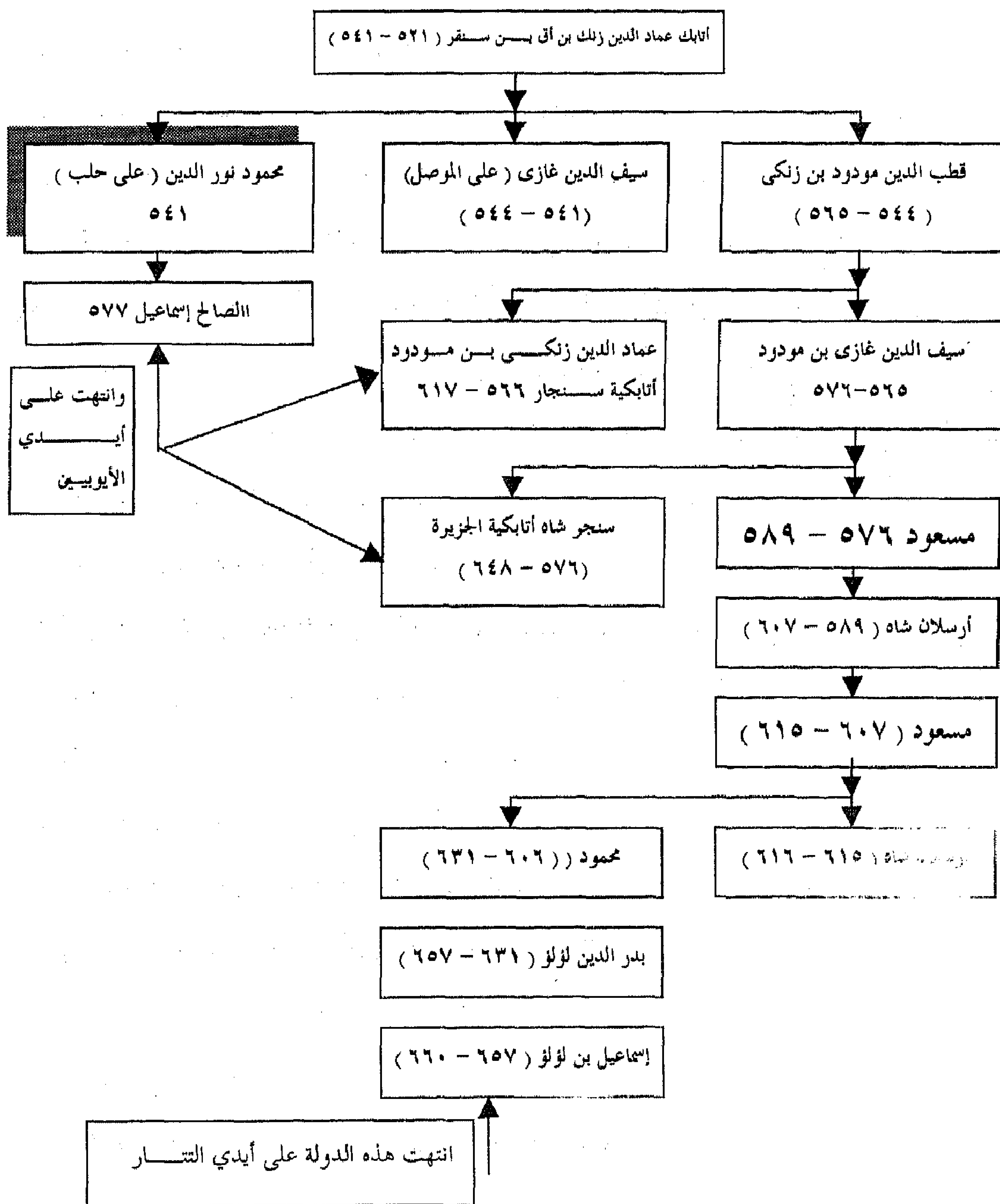
ثم قتل زنكي على يد جماعة من الباطنية وهو محاصر لحصن جعبر (يطل على الفرات)وأصابع الاتهام تشير إلى الباطنية أصحاب اليد الطولى في اغتيال العناصر الإسلامية المجاهدة منذ القرن الثالث الهجري.

ويصف ابن الأثير عماد الدين زنكي فيقول :

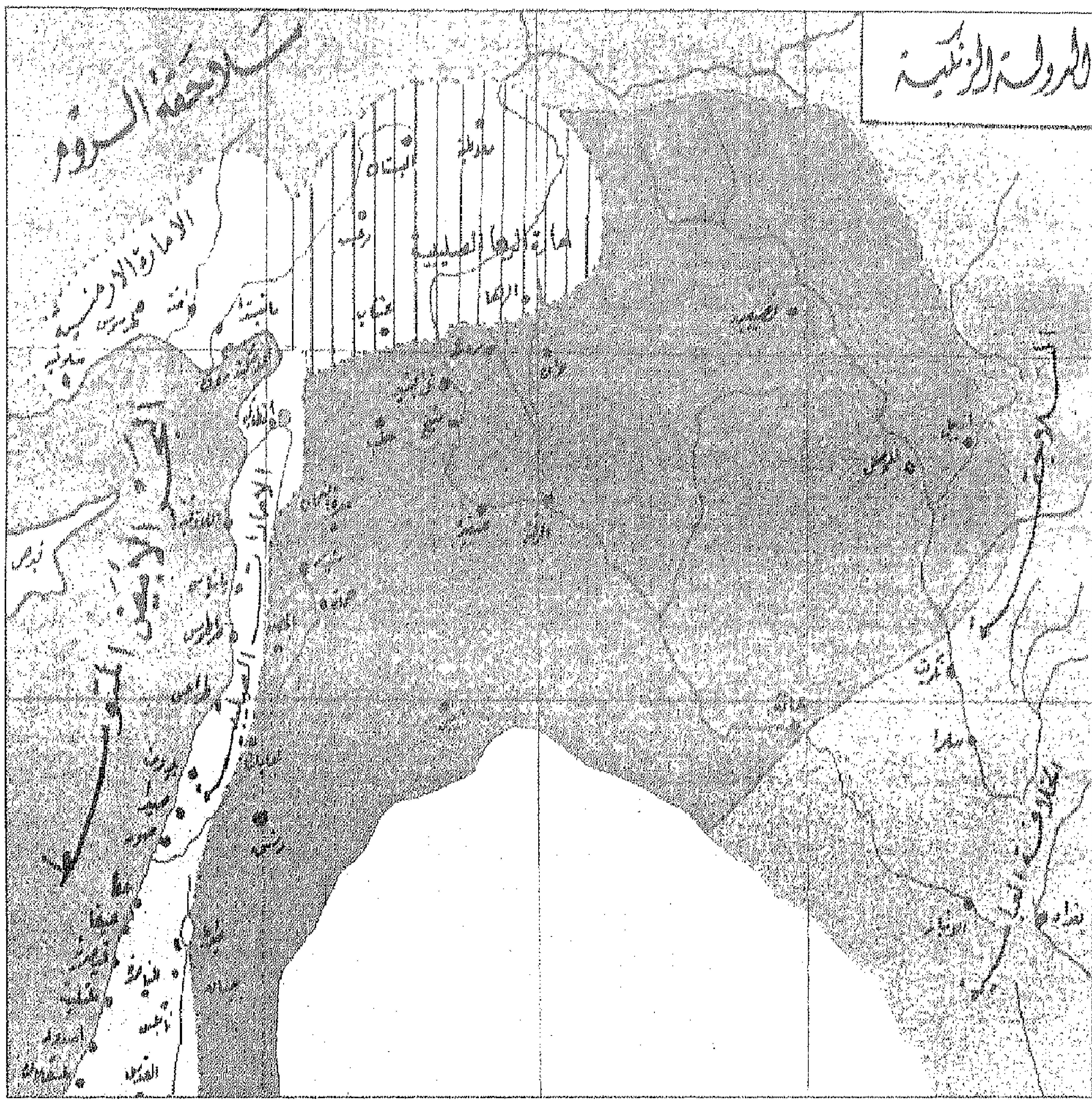
(كان شديد الهيبة على عسكره ورعيته ، عظيم السياسة ، لا يقدر القوى على ظلم الضعيف ، وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمروها وامتلأت أهلا وسكانا ، وكان أيضا شديد الغيرة على نساء الأجناد ، وكان أشجع خلق الله . . .).

و هذا مخطط أتابكية٭ آل زنكي ٥٢١ - ٦٦٠

٭ الأتابكة من الدول التركية التي زاحمت دولة السلاجقة وسامتها، والدولة الأتابكية وبيوتها شتى لا تنتهي إلى نسب واحد إلا أنها يجمعها الاتصال بالبيت السلجوقي ، وأتابك كلمة تركية معناها مربي الملك فكان آل سلجوقي إذا امتاز أحد قوادهم بهذا الامتياز أطلقوا عليه هذا اللقب واستحق به أعلى درجات التكريم والاحترام. وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكية إلى درجة الملك في بعض الأقاليم الإسلامية وأورثوا أبناءهم ملكهم ويطلق على هؤلاء الأسر الأتابكية ومعهم دول ينتسبون أيضا إلى ولاء السلاجقة ولا يلقبون بهذا اللقب بل بلقب شاهات .



أتابك عماد الدين زنك بن أق بســن ســنقر (٥٢١ – ٥٤١)
محمود نور الدين (على حلب)
٥٤١
سيف الدين غازى (على الموصل)
(٥٤١ – ٥٤٤)
قطب الدين مودود بن زنكى
(٥٤٤ – ٥٦٥)
الصالح إسماعيل ٥٧٧
وانتهت علــى أيــــدي الأيوبيـين
عماد الدين زنكـــى بـــن مـــودود
أتابكية ســنجار ٥٦٦ – ٦١٧
سيف الدين غازى بن مودود
٥٦٥–٥٧٦
سنجر شاه أتابكية الجزيرة
(٥٧٦ – ٦٤٨)
مسعود ٥٧٦ – ٥٨٩
أرسلان شاه (٥٨٩ – ٦٠٧
مسعود (٦٠٧ – ٦١٥
محمود ((٦٠٦ – ٦٣١
(٦١٥ – ٦١٦)
بدر الدين لؤلؤ (٦٣١ – ٦٥٧
إسماعيل بن لؤلؤ (٦٥٧ – ٦٦٠
انتهت هذه الدولة على أيدي التتـــــار



خريطة رقم ٢٢

الحملة الصليبية الثانية

وفي سنة ٥٤٣ كانت الحملة الصليبية الثانية التي تحركت من أوروبا لكي تسترد ما افتقده الصليبيون من مناطق كانوا قد احتلوها مثل الرها ولتدعيم موقفهم خاصة بعد ظهور قوة آل زنكي ...

وكان قادة هذه الحملة هم لويس السابع ملك فرنسا وكنراد الثالث ملك ألمانيا.. فسلك الجيش الألماني الطريق الساحلي متوجهين إلى بيت المقدس وعند قونية هاجم

السلاجقة الجيش وهزموهم شر هزيمة وغنم السلاجقة ما لا حصر له ، وفر كنراد إلى نيقية حيث التقى بلويس السابع وهو في غاية الذل والمهانة.

وعلى الرغم من أن لويس اختار الطريق الآمن فإنه لم ينج من غارات السلاجقة مما اضطره لتعديل مساره آخذا طريق البحر ثم إنطاكية فبيت المقدس متناسيا الهدف من حملته وهو استعادة الرها ...

فلما وصل الجيش إلى بيت المقدس ، كان على لويس السابع أن يهاجم دمشق فحاصرها ومعه ملك الألمان وخلق لا يحصون في يوم ١٦من ربيع أول سنة ٥٤٣ ، فخرج إليهم أهلها في مائة وثلاثين ألفا ، فاقتتلوا معهم قتالا شديدا ، قتل من المسلمين في أول يوم نحو من مائتي رجل ، ومن الفرنج خلق كثير لا يحصون ، واستمرت الحرب مدة ، وأخرج مصحف عثمان إلى وسط صحن الجامع ، واجتمع الناس حوله يدعون الله عز وجل ، والنساء والأطفال مكشفي الرءوس يدعون ويتباكون ، فاستغاث مجير الدين أرتق صاحب دمشق بنور الدين محمود صاحب حلب وبأخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل ، فقصداه سريعا في نحو سبعين ألفا بمن أنضاف إليهم من الملوك وغيرهم فنزلوا بمدينة حمص ...

ومن ثم أرسل نور الدين وهو في حمص رسالة إلى معين الدين يقول له :

(... قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح من بلادي ، فأريد أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج ، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكري البلد واحتمينا وإن ظفرنا فالبلد لكم ، لا أنازعكم فيه)

ولكن هذا الطلب أزعج مجير الدين (صاحب دمشق) ومعين الدين (صاحب الكلمة العليا بالدولة) وخافا أن يستولي نور الدين على دمشق وإذا بهما يوصدان الباب أمام نور الدين وسيف الدين ويرسل معين الدين رسالة إلى الفرنج يتوعدهم إن

لم يرحلوا عن البلد بسيف الدين ونور الدين .. وكان من ضمن ما جاء في رسالته إلى الفرنج..

(...إن ملك الشرق ــ يقصد سيف الدين ــ قد حضر ، فان رحلتم وإلا سلمت البلد له وحينئذ تندمون ...)

وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم :

(...بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا ؟ وأنتم تعلمون إنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بين أيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا إن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين ، وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام)

لقد فر الصليبيون لما سمعوا بقدوم نور الدين وسيف الدين ، ولكن الجيش لحقهم وقتل منهم خلقا كثيرا وجمعا غفيرا... يقول ابن كثير : (لقد كاد الفرنجة يأخذون البلد ، ولكن الله سلم ، وحماها بحوله وقوته ، ومدينة دمشق لا سبيل للأعداد من الكفرة عليها ، لأنها المحلة التي أخبر رسول الله ﷺ أنها معقل الإسلام عند الملاحم والفتن ، وبها ينزل عيسى بن مريم)

(وقد قتل الفرنج من أهل دمشق في هذا اليوم خلقا كثيرا ، وممن قتلوا الفقية الكبير الملقب حجة الدين شيخ المالكية بها ، أبو الحجاج يوسف بن درناس الفندلاوي ...)

وفي سنة ٥٤٤ هـ توجه نور الدين نحو إنطاكية فأباد جيش الصليبيين عن آخره وأوغل في إمارة إنطاكية واستطاع أن يستولي على كل أملاك إنطاكية شرقي نهر العاصي ...

وفي هذه السنة توفى سيف الدين غازي أخو نور الدين..

لقد يئس الصليبيون في التوسع في الشام وشمالي العراق لقوة الزنكية واتحادهم فاتجهوا

في حربهم للمسلمين إلى الجنوب الغربي للتوسع على حساب الفاطميين. وفي سنة ٥٤٨ هـ ، استطاع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس أن يستولي على عسقلان التي كانت في أيدي الفاطميين مستغلا سوء الأحوال الداخلية للدولة الفاطمية بمصر..

وبذلك أصبح خالصا للصليبيين ساحل الشام وفلسطين جميعا وخسر المسلمون بعسقلان قاعدة بحرية طالما هاجموا منها أعداءهم

وفي سنة ٥٤٩ هـ توجه نور الدين إلى دمشق وقد بعث برسالة إلى حاكمها مجير الدين موضحا له مبررات قدومه إليها جاء فيها :

وكان مجير الدين حاكم دمشق يسمح لرسل الفرنج أن يدخلوا إلى دمشق ويأخذوا الإتاوات من الرعية..

حاصر نور الدين دمشق واستمر الحصار لمدة عشرة أيام و لم يقم بمهاجمتها تحرجا من قتال المسلمين وقال : (لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم البعض..)وبعث نور الدين برسالة إلى حاكم دمشق مجير الدين يوضح له فيها مبررات قدومه إليها:

إني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالبا لمحاربتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر شكاية المسلمين بأن الفلاحين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج وانعدام الناصر لهم ، فلا يسعني مع ما أعطاني الله ــ وله الحمد ــ من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ، ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم ، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبذلتم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلما لهم وتعديا عليهم وهذا لا يرضي الله ولا أحد من المسلمين

ولكن مجير الدين أرسل إلى الفرنج يستدعيهم على جند نور الدين على أن يبذل لهم الأموال ويسلم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه... !!؟

ولكن أهل دمشق بادروا ففتحوا أبواب المدينة ليدخل نور الدين وقد كانوا يتمنونه، فلما دخل نادي بالأمان ووضع عنها المكوس وأمن مجير الدين وسيره إلى حمص.

والعجيب أن ملوك الفرنجة كتبوا إلى نور الدين يهنئونه بدمشق ويتقربون إليه ويخضعون له .. وقد كانت دمشق الطريق الوحيد لاسترداد مدينة عسقلان التي احتلها الصليبيون سنة ٥٤٨ هـ.

ويعتبر عام ٥٥٠ هـ عام وحدة وتجمع القوى الإسلامية ، فقد استطاع نور

الدين أن يضم إلى أملاكه دمشق وقد كانت في حماية الصليبيين ، فاتحدت الشام كلها تحت ملك نور الدين الذي عمل بعدها على التنسيق مع مصر حتى يكون جبهة قوية ضد الصليبيين ولكن مرضا ألم به أعاقه عن مواصلة طموحاته فتمكن الصليبيون من إنزال بعض الهزائم بالمسلمين ، ولكنه سرعان ما استعاد صحته ليقف للأعداء من جديد وفي سنة ٥٥١ هـ فتح نور الدين **قلعة تل حارم** واقتلعها من أيدي الفرنج ، وكانت من أحصن القلاع وذلك بعد قتال عظيم ووقعة هائلة كانت من أكبر الفتوحات.

ولو تابعنا حال عاصمة الخلافة في ذلك الحين لوجدناها محاصرة من قبل السلطان السلجوقي محمد بن محمود بن ملكشاه ذلك لأن الخليفة رفض أن يخطب له ببغداد..!!

وفي سنة ٥٥٨ هـ توجه الصليبيون بقوة نحو مصر ولكن نور الدين منع ذلك ...

ثم دارت الأحداث بالنسبة لمصر ونهاية الدولة الفاطمية كما سبق وصفه في الجزء الخاص بهذه الدولة وحتى تمكن صلاح الدين من أن يحكم مصر.

وفي سنة ٥٦٥ هـ لما حاصرت الفرنج دمياط كان الملك نور الدين شديد الاهتمام قوى الاغتمام بذلك حتى قرأ عليه بعض طلبة الحديث جزءا في ذلك فيه حديث مسلسل بالتبسم ، فطلب منه أن يتبسم ليصل التسلسل ، فامتنع من ذلك وقال :

(إني لأستحي من الله أن يراني مبتسما والمسلمون يحاصرهم الفرنج بثغر دمياط..)

وقد ذكر الشيخ أبوشامة : أن إمام مسجد أبي الدرداء بالقلعة المنصورة رأى في تلك الليلة التي أجلى فيها الفرنج عن دمياط رسول الله ﷺ وهو يقول : سلم على نور الدين وبشره بأن الفرنج قد رحلوا عن دمياط ، فقلت : يارسول الله بأي علامة ؟ فقال : بعلامة ما سجد يوم تل محارم وقال في سجوده : اللهم انصر دينك ومن هو

محمود الكلب ؟

فلما صلى نور الدين عنده الصبح بشره بذلك وأخبره بالعلامة ، فلما جاء إلى عند ذكر (**من هو محمود الكلب**[1]) انقبض عن قول ذلك ، فقال له نور الدين : قل ما أمرك به رسول الله ﷺ فقال ذلك ، فقال صدقت ، وبكى نور الدين تصديقا وفرحا بذلك ...

وفي سنة ٥٦٥ هـ سار نور الدين إلى الرقة فأخذها وكذا نصيبين والخابور وسنجار، وسلمها إلى زوج ابنته وابن أخيه مودود بن عماد الدين ، ثم سار إلى الموصل فأقام بها أربعة وعشرين يوما وأقرها على ابن أخيه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ، مع الجزيرة ، وزوجه ابنته الأخرى ، وأمره بعمارة جامعها وتوسعته ، ووقف على تأسيسه بنفسه فلما كانت آخر ليلة له بالموصل رأى رؤيا أن رسول الله ﷺ يقول له : طابت لك بلدك وتركت الجهاد وقتال الأعداء ؟ فنهض من فوزه إلى السفر، وما أصبح إلا سائرا إلى الشام...

وفي سنة ٥٦٧ هـ وفي أول جمعة منها أمرنور الدين صلاح الدين بإقامة الخطبة في مصر للخليفة العباسي ليعلن بذلك نور الدين أستاذ صلاح الدين إيمانه العميق بأهمية توحيد قيادة المسلمين ، وقضى بذلك على دولة الفاطمين بمصر ، وهو عمل له خطورته في مجابهة الصليبيين ...

وبذلك يكون ملك نور الدين قد امتد من حد النوبة إلى همذان لا يتخللها إلا بلاد الفرنج ، وكلهم تحت قهره وهدنتة ...

---

[1] قالها نور الدين فى سجوده يعلم أن النصر من عند الله لا من عند محمود فمحمود لا شئ .. إنكارا لذاته بين مولاه ، كقوله ﷺ في الدعاء : (اللهم دبر لنا فإنا لا نحسن التدبير)

فائدة:ذكر حصول النفرة بين نور الدين وصلاح الدين :

كان نور الدين يغزو في هذه السنة بلاد الفرنج في السواحل فـأحل بهم بأسا شديدا ، ثم عزم على محاصرة الكرك وكتب إلى صلاح الدين أن يلتقي به بالعساكر المصرية إلى بلاد الكرك ، ليجتمعا هنالك ليتفقا على المصالح التي يعود نفعها على المسلمين ، ولكن صلاح الدين خاف على اختلال الأمور إذا بعد عن مصر واشتغل عنها وبعد أن خرج سرعان ما عاد إلى مصر وأرسل يعتذر إلى نور الدين ، فوقع في نفس نور الدين منه واشتد غضبه عليه ، وعزم على الدخول إلى مصر وانتزاعها من صلاح الدين وتوليتها غيره ، ولما بلغ هذا الخبر صلاح الدين ضاق بذلك ذرعه ، وذكر ذلك بحضرة الأمراء والكبراء فبادر ابن أخيه تقي الدين عمر وقال :

والله لو قصدنا نور الدين لنقاتله ، فشتمه الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وسبه وأسكته ، ثم قال لابنه : اسمع ما أقول لك ، والله ماههنا احد أشفق عليك مني ومن خالك هذا ـ يعني شهاب الدين الحارمي ـ ولو رأينا نور الدين لبادرنا إليه ولقبلنا الأرض بين يديه ، وكذلك بقية الأمراء والجيش ، ولو كتب إليّ أن أبعثك إليه مع نجاب (الذي يقود الجمال) لفعلت ، ثم أمر من هنالك بالانصراف والذهاب ، فلما خلى بابنه قال له : أمالك عقل ؟ تذكر مثل هذا بحضرة هؤلاء فيقول عمر مثل هذا الكلام فتقره عليه ، فلا يبقى عند نور الدين أهم من قصدك وقتالك وخراب ديارنا ، وأعمارنا ، ولو قد رأى الجيش كلهم نور الدين لم يبق معك واحد منهم ، ولذهبوا كلهم إليه ، ولكن ابعث إليه وترفق له وتواضع عنده ، وقل له : وأي حاجة إلى مجيء مولانا السلطان إلى قتالي ؟

ابعث إلى بنجاب أو جمال حتى أجيء معه إلى بين يديك ، فبعث إليه بذلك فلما سمع

نور الدين مثل هذا الكلام لان قلبه له ، وانصرفت همته عنه ، واشتغل بغيره ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ...

وفي سنة ٥٦٨ هـ سار الملك نور الدين إلى بلاد عز الدين قلج أرسلان بن مسعود وأصلح ما وجده فيها من الخلل ، ثم سار فافتتح مرعش وبهسنا وعمل في كل منهما بالحسنى.

وفي سنة ٥٦٩ هـ توفى الملك نور الدين.

ولقلة من يذكر هذا الملك العظيم ومآثره في التاريخ ننقل كاملا كلام **ابن كثير عنه في البداية النهاية** :(**فصل في وفاة الملك نور الدين محمود زنكي وذكر شيء من سيرته العادلة :**

(هو الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي الملقب بالشهيد بن الملك آقسنقر الأتابك الملقب بقسيم الدولة التركي السلجوقي مولاهم .

ولد وقت طلوع الشمس من يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة ٥٢١ بحلب. ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرهما من البلدان الكثيرة الكبيرة ، وتعلم القرآن والفروسية والرمي ، وكان شهما ذا همة عالية ، وقصد صالح ، وحرمة وافرة وديانة بينة .

لما قتل أبوه سنة إحدى وأربعين وخمسمائه وهو محاصر جعبر كما ذكرنا ، صار الملك بحلب إلى ابنه نور الدين هذا ، وأعطاه أخوه سيف الدين غازي الموصل ، ثم تقدم ، ثم افتتح دمشق في سنة تسع وأربعين فأحسن إلى أهلها وبنى هم المدارس والمساجد والربط ، ووسع لهم الطرق على المارة ، وبنى عليها الرصافات

ووسع الأسواق ، ووضع المكوس بدار الغنم والبطيخ والعرصد ، وغير ذلك .

وكان حنفي المذهب يحب العلماء والفقراء ويكرمهم ويحترمهم ، ويحسن إليهم ، وكان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة ، واتباع الشرع المطهر ، ويعقد مجالس العدل ويتولاها بنفسه ، ويجتمع إليه في ذلك القاضي والفقهاء والمفتون من سائر المذاهب، ويجلس في يوم الثلاثاء بالمسجد المعلق ، الذي بالكشك ، ليصل إليه كل واحد من المسلمين وأهل الذمة ، حتى يساويهم ، وأحاط السور على حارة اليهود، وكان خرابا ، وأغلق باب كسان وفتح باب الفرج ، ولم يكن هناك قبله باب بالكلية .

وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة ، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح ، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده ، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل لأن شعار الرفض كان ظاهرا بها ، وأقام الحدود وفتح الحصون ، وكسر الفرنج مرارا عديدة ، واستنقذ من أيديهم معاقل كثيرة من الحصون المنيعة ، التي كانوا قد استحوذوا عليها من معاقل المسلمين كما تقدم بسط ذلك في السنين المتقدمة .

وبنى بدمشق مارستانا لم ين في الشام قبله مثله ولا بعده أيضا ، ووقف وقفا على من يعلم الأيتام الخط والقراءة ، وجعل لهم نفقة وكسوة ، وعلى المجاورين بالحرمين وله أوقاف دارة على جميع أبواب الخير ، وعلى الأرامل والمحاويج ، وكان الجامع داثرا (الداثر :الخالي والبالي) فولى نظره القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الموصلي ، الذي قدم به فولاه قضاء قضاة دمشق ، فأصلح أموره وفتح المشاهد الأربعة ، وقد كانت حواصل الجامع بها من حين احترقت في سنة إحدى وستين وأربعمائة ، وأضاف إلى أوقاف الجامع المعلومة

الأوقاف التي لا يعرف واقفوها ، ولا يعرف شروطهم فيها ، وجعلها قلما واحدا، وسمى مال المصالح ، ورتب عليه لذوي الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وما أشبه ذلك.

وقد كان رحمه الله حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية ، متبعا للأثار النبوية ، ومحافظا على الصلوات في الجماعات ، كثير التلاوة محبا لفعل الخيرات ، عفيف البطن والفرج مقتصدا في الانفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس حتى قيل : إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا، ولم يسمع منه كلمة فحش قط ، في غضب ولا رضى ، صموتا وقورا .

قال ابن الأثير :

لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه ، وكانت له دكاكين بحمص قد اشتراها مما يخصه من المغانم ، فكان يقتات منها ، وزاد امرأته من كراها على نفقتها عليها ، واستفتى العلماء في مقدار ما يحل له من بيت المال فكان يتناوله ولا يزيد عليه شيئا ، ولو مات جوعا .

وكان يكثر اللعب بالكرة فعاتبه رجل في كبار الصالحين في ذلك فقال : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما أريد بذلك تمرين الخيل على الكر والفر ، وتعليمها ذلك، ونحن لا نترك الجهاد ، وكان لا يلبس الحرير ، وكان يأكل من كسب يده بسيفه ورمحه .

وركب يوما مع بعض أصحابه والشمس في ظهورهما والظل بين أيديهما لا يدركانه ثم رجعا فصار الظل وراءهما ثم ساق نور الدين فرسه سوقا عنيفا وظله يتبعه فقال لصاحبه : أتدري ما شبهت هذا الذي نحن فيه ؟ شبهته بالدنيا تهرب ممن يطلبها ، وتطلب من يهرب منها ، وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى :

مثل الرزق الذي تطلبه مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه مستعجلا فإذا وليت عنه تبعك

وكان فقيها على مذهب أبي حنفية ، سمع الحديث وأسمعه ، وكان كثير الصلاة بالليل من وقت السحر إلى أن يركب :

جمع الشجاعة والخشوع لديه ما أحسن الشجعان في المحارب

وكذلك كانت زوجته عصمت الدين خاتون بنت الأتابك معين الدين تكثر القيام في الليل فنامت ذات ليلة عن وردها فأصبحت وهي غضبي ، فسألها نور الدين عن أمرها فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها ، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبلخانة في القلعة وقت السحر لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل ، وأعطى الضارب على الطبلخانة أجرا جزيلا وجراية كثيرة.

فألبس الله هاتيك العظام وإن بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا
سقى ثرى عابديه رحمة ملأت مثوى قبورهم روحا وريحانا

وذكر ابن الأثير أن الملك نور الدين بينما هو ذات يوم يلعب بالكرة إذ رأى رجلا يحدث آخر ويومئ إلى نور الدين ، فبعث الحاجب ليسأله ما شأنه ! فإذا هو رجل معه رسول من جهة الحاكم ، وهو يزعم أن له على نور الدين حقا يريد أن يحاكمه عند القاضي ، فلما رجع الحاجب إلى نور الدين وأعلمه بذلك ألقى الجوكان (الجوكان : ما تضرب به الكرة) من يده ، وأقبل مع خصمه ماشيا إلى القاضي الشهرزوري ، وأرسل نور الدين إلى القاضي ألا تعاملني إلا معاملة الخصوم ، فحين وصلا وقف نور الدين مع خصمه بين يدي القاضي، حتى انفصلت الخصومة والحكومة ، ولم يثبت للرجل على نور الدين حق ، بل ثبت الحق للسلطان على الرجل ، فلما تبين ذلك قال السلطان إنما جئت معه لئلا

يتخلف أحد عن الحضور إلى الشرع إذا دعي إليه ، فإنما نحن معاشر الحكام أعلانا وأدنانا شجنكية (شجنكية: الخدم أو الحرس) لرسول الله ﷺ ولشرعه فنحن قائمون بين يديه طوع مراسيمه ، فما أمر به امتثلناه ، وما نهانا عنه اجتنبناه ، وأنا أعلم أنه لاحق للرجل عندي ، ومع هذا أشهدكم أني قد ملكته ذلك الذي ادعى به ووهبته له . قال ابن الأثير : وهو أول من ابتنى دارا للعدل ، وكان يجلس فيها في الأسبوع مرتين ، وقيل أربع مرات ،وقيل خمس ويحضر القاضي والفقهاء من سائر المذاهب، ولا يحجبه يومئذ حاجب ولا غيره بل يصل إليه القوى والضعيف، فكان يكلم الناس ويستفهمهم ويخاطبهم بنفسه ، فيكشف المظالم وينصف المظلوم من الظالم ؛ وكان سبب ذلك أن أسد الدين بن شادي كان قد عظم شأنه عند نور الدين ، حتى صار كأنه شريكه في المملكة ، واقتنى الأملاك والأموال والمزارع والقرى ، وكان ربما ظلم نوابه جيرانه في الأراضي والأملاك العدل ، وكان القاضي كمال الدين ينصف كل من استعداه على جميع الأمراء إلا أسد الدين هذا فما كان يهجم عليه ، فلما ابتنى نور الدين دار العدل تقدم أسد الدين إلى نوابه ألا يدعوا لأحد عنده ظلامة ، وإن كانت عظيمة ، فان زوال ماله عنده أحب إليه من أن يراه نور الدين بعين ظالم ، أو يوقفه مع خصم من العامة ففعلوا ذلك ، فلما جلس نور الدين بدار العدل مدة متطاولة ولم ير أحدا يستعدى على أسد الدين ، سأل القاضي عن ذلك ، فأعلمه بصورة الحال ، فسجد نور الدين شكرا لله وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم .

وأما شجاعته فيقال : إنه لم ير على ظهر فرس قط أشجع ولا أثبت منه ، وكان حسن اللعب بالكرة وكان ربما ضربها ثم يسوق وراءها ويأخذها من الهوى بيده ،

ثم يرميها إلى آخر الميدان ، ولم ير جوكانه يعلو على رأسه ، ولا يرى الجوكان في يده ، لأن الكم ساتر لها ، ولكنه استهانة بلعب الكرة ، وكان شجاعا صبورا في الحرب ، ويضرب المثل به في ذلك ، وكان يقول : قد تعرضت للشهادة غير مرة فلم يتفق لي ذلك ، ولوكان في خير ولي عند الله قيمة لرزقنيها ، والأعمال بالنية .

وقال له يوما قطب الدين النيسابوري : بالله يامولانا السلطان لا تخاطر بنفسك فانك لو قتلت قتل جميع من معك ، وأخذت البلاد ، وفسد المسلمون فقال : له اسكت يا قطب الدين فان قولك إساءة أدب على الله ، ومن هو محمود ؟ من كان يحفظ الدين والبلاد قبلي غير الذي لا إله إلا هو ؟ ومن هو محمود ؟ قال فبكى من كان حاضرا رحمه الله.

وقد أسر بنفسه في بعض الغزوات بعض ملوك الافرنج فاستشار الأمراء فيه هل يقتله أو يأخذ ما يبذل له من المال ؟ وكان قد بذل له في فداء نفسه مالا كثيرا ، فاختلفوا عليه ثم حسن في رأيه إطلاقه وأخذ الفداء منه ، فبعث إلى بلده من خلاصته من يأتيه بما افتدى به نفسه ، فجاء به سريعا فأطلقه نور الدين ، فحين وصل إلى بلاده مات ذلك الملك ببلده ، فأعجب ذلك نور الدين وأصحابه ، وبنى من ذلك المال المارستان الذي بدمشق ، وليس له في البلاد نظير ، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء ومن جاء إليه فلا يمنع من شرابه ، ولهذا جاء إليه نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله.

قلت : ويقول بعض الناس إنه لم تخمد منه النار منذ بني إلى زماننا هذا فالله أعلم .

وقد بنى الخانات الكثيرة في الطرقات والأبراج ، ورتب الخفراء في الأماكن المخوفة وجعل فيها الحمام الهوادي التي تطلعه على الأخبار في أسرع مدة ، وبنى

الربط والخانقات .

وكان يجمع الفقهاء عنده والمشايخ والصوفية ويكرمهم ويعظهم ، وكان يحب الصالحين ، وقد نال بعض الأمراء مرة عنده من بعض الفقهاء وهو قطب الدين النيسابوري فقال له نور الدين : ويحك إن كان ما تقول حقا فله من الحسنات الكثيرة الماحية لذلك ما ليس عندكِ مما يكفر عنه سيئات ماذكرت إن كنت صادقا، على أني والله لا أصدقك ، وإن عدت ذكرته أو أحدا غيره عندي بسوء لأؤذينك، فكف عنه ولم يذكره بعد ذلك .

وقد ابتنى بدمشق دارا لاستماع الحديث وإسماعه ، قال ابن الأثير : وهو أول من بني دار حديث .

وقد كان مهيبا وقورا شديد الهيبة في قلوب الأمراء ، لا يتجاسر أحد أن يجلس بين يديه إلا بإذنه ، ولم يكن أحد من الأمراء يجلس بلا إذن سوى الأمير نجم الدين أيوب ، وأما أسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الداية نائب حلب وغيرهما من الأكابر فكانوا يقفون بين يديه ، ومع هذا كان إذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له ومشى خطوات وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون ، وإذا أعطى أحدا منهم شيئا مستكثرا يقول : هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الأعداء ، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم ، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا .

وقد سمع عليه جزء حديث وفيه " خرج رسول الله ﷺ متقلدا السيف " فجعل يتعجب من تغيير عادات الناس لما ثبت عنه عليه السلام ، وكيف يربط الأجناد والأمراء على أوساطهم ولا يفعلون كما فعل رسول الله ﷺ ، ثم أمر الجند بألا

يحملوا السيوف إلا متقلديها ، ثم خرج هو في اليوم الثاني إلى الموكب وهو متقلد السيف وجميع الجيش كذلك ، يريد بذلك الاقتداء برسول الله ﷺ فرحمه الله.

وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر أنه رأى في منامه كأنه يغسل ثياب الملك نور الدين ، فأمره بأن يكتب مناشير بوضع المكوس والضرائب عن البلاد ، وقال له هذا تأويل الرؤيا، وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم ، ويقول لهم إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم ، وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه ، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار وكان يقول في سجوده : اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب ، وقيل إن برهان الدين البلخي أنكر على الملك نور الدين في استعانته في حروب الكفار بأموال المكوس ، وقال له مرة كيف تنصرون وفي عساكركم الخمور والطبول والزمور ؟ ويقال إن سبب وضعه المكوس عن البلاد أن الواعظ أبا عثمان المنتخب ابن أبي محمد الواسطي وكان من الصالحين الكبار ، وكان هذا الرجل ليس له شئ ولا يقبل من أحد شيئا ، إنما كانت له جبة يلبسها إذا خرج إلى مجلس وعظه وكان يجتمع في مجلس وعظه الألوف من الناس- أنشد نور الدين أبياتا تتضمن ما هو متلبس به في ملكه ، وفيها تخويف وتحذير شديد له :

مثل وقوفك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلما ... فاحذر بأن تبقى ومالك نور

ألهيت عن شرب الخمور وأنت في كأس المظالم طائش مخمور
عطلت كاسات المدام تعففا وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى فردا وجاءك منكر ونكير
ماذا تقول إذا وقفت بموقف فردا ذليلا والحساب عسير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في يوم الحساب مسلسل مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في ضيق القبور موسد مقبور
وودت أنك ما وليت ولاية يوما ولا قال الأنام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفيرة في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانا حزينا باكيا قلقا ومالك في الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبك دارس عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه أبدا وأنت معذب مهجور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاء شديدا وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر البلاد ، وكتب إليه الشيخ عمر الملا من الموصل - وكان قد أمر الولاة والأمراء بها ألا يفصلوا بها أمرا حتى يعلموا الملا به ، فما أمرهم به من شئ امتثلوه وكان من الصالحين الزاهدين ، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه ، وكان يرسل إليه بفتيت ورقاق فيفطر عليه جميع رمضان فكتب إليه الشيخ عمر بن الملا هذا : إن المفسدين قد كثروا ويحتاج إلى سياسة ومثل هذا لا يجئ إلا بقتل وصلب وضرب ، وإذا أخذ إنسان في البرية من يجئ يشهد له ؟ فكتب إليه الملك نور الدين على ظهر كتابه : إن الله خلق الخلق وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم ، ولو علم أن في الشريعة زيادة في المصلحة لشرعها لنا ، فلا حاجة بنا إلى الزيادة على ما شرعه الله تعالى فمن زاد

فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادة ، وهذا من الجرأة على الله وعلى ما شرعه ، والعقول المظلمة لا تهتدي ، والله سبحانه يهدينا وإياك إلى صراط مستقيم ، فلما وصل الكتاب إلى الشيخ عمر الملا جمع الناس بالموصل وقرأ عليهم الكتاب وجعل يقول : انظروا إلى كتاب الزاهد إلى الملك ، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وجاء إليه أخو الشيخ أبي البيان يستعديه على رجل أنه سبه ورماه بأنه يرائي وأنه، وأنه وجعل يبالغ في الشكاية عليه فقال له السلطان : أليس الله تعالى يقول :

(وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وقال (وأعرض عن الجاهلين)

فسكت الشيخ ولم يحر جوابا.

وقد كان نور الدين محافظا على الصلوات في أوقاتها في جماعة بتمام شروطها والقيام بها بأركانها والطمأنينة في ركوعها وسجودها وكان كثير الصلاة بالليل ، كثير الابتهال في الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل في أموره كلها ،

قال : وبلغنا عن جماعة من الصوفية ممن يعتمد على قولهم أنهم دخلوا بلاد القدس للزيارة أيام أخذ الفرنج القدس فسمعهم يقولون: إن القسيم ابن القسيم – يعنون نور الدين له مع الله سر ، فإنه لم يظفر وينصر علينا بكثرة جنده وجيشه ، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء وصلاة الليل ، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو فإنه يستجيب له ويعطيه سؤله فيظفر علينا ، قال : فهذا كلام الكفار في حقه .

وحكى الشيخ أبو شامة أن نور الدين وقف بستان الميدان سوى الغيضة التي تليه نصفه على تطييب جامع دمشق ، والنصف الآخر يقسم عشرة أجزاء جزآن على

تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية ، والثمانية أجزاء الأخرى على تطييب المساجد التسعة وهي مسجد الصالحين بجبل قيسون وجامع القلعة ، ومسجد عطية ، ومسجد ابن لبيد بالعسقار ، ومسجد الرماحين المعلق ، ومسجد العباس بالصالحية ، ومسجد دار البطيخ المعلق ، والمسجد الذي جدده نور الدين جوار بيعة اليهود ، لكل من هذه المساجد جزء من أحد عشر جزءاً من النصف .

ومناقبه ومآثره كثيرة جدا ، وقد ذكرنا نبذة من ذلك يستدل بها على ما وراءها. وقد ذكر الشيخ شهاب الدين في أول الروضتين كثيرا من محاسنه ، وذكر ما مدح به من القصائد ، وذكر انه لما فتح أسد الدين الديار ثم مات ، ثم تولى صلاح الدين هم بعزله عنها واستنابة غيره فيها غير مرة ، ولكن يعوقه عن ذلك ويصده قتال الفرنج ، واقترب أجله فلما كان في هذه السنة وهي سنة ٥٦٩ هـ وهي آخر مدته ، وأضمر على الدخول إلى الديار المصرية وصمم عليه ، وأرسل إلى عساكر بلاد الموصل وغيرها ليكونوا ببلاد الشام حفظا لها من الفرنج في غيبته ويركب هو في جمهور الجيش إلى مصر وقد خاف منه الملك صلاح الدين خوفا شديدا ، فلما كان يوم عيد الفطر من هذه السنة ركب إلى الميدان الأخضر القبلي وصلى فيه صلاة عيد الفطر ، وكان ذلك نهار الأحد ، ورمى العتق في الميدان الأخضر الشمالي ، والقدر يقول له : هذا آخر أعيادك ، ومد في ذلك اليوم سماطا حافلا وأمر بانتهابه ، وطهر ولده الملك الصالح إسماعيل في هذا اليوم ، وزينت له البلد ، وضربت البشائر للعيد والختان ، ثم ركب في يوم الاثنين وأكب على العادة ثم لعب بالكرة في ذلك اليوم ، فحصل له غيظ من بعض الأمراء – ولم يكن ذلك من سجيته – فبادر إلى القلعة وهو كذلك في غاية الغضب ، وانزعج ودخل في حيز سوء المزاج ، واشتغل بنفسه وأوجاعه ، وتنكرت عليه جميع

حواسه وطباعه ، واحتبس أسبوعا عن الناس ، والناس في شغل عنه بما هم فيه من اللعب والانشراح في الزينة التي نصبوها لأجل طهور ولده ، فهذا يجود بروحه ، وهذا يجود بموجوده سرورا بذلك ، فانعكست تلك الأفراح بالأتراح ، ونسخ الجد ذلك المزاح ، وحصلت للملك خوانيق في حلقه منعته من النطق ، وهذا شأن أوجاع الحلق وكان قد أشير عليه بالفصد فلم يقبل ، وبالمبادرة إلى المعالجة فلم يفعل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، فلما كان يوم الأربعاء ١١ من شوال من هذه السنة قبض إلى رحمة الله تعالى عن ٥٨ سنة ، مكث منها في الملك ٢٨ سنة رحمه الله ، وصلى عليه بجامع القلعة بدمشق ، ثم حول إلى تربته التي أنشأها للحنفية بين باب الخواصين ، وباب الخميين على الدرب ، وقبره بها يزار ، ويحلق بشباكه ، ويطيب ويتبرك به كل مار، فيقول قبر نور الدين الشهيد ، لما حصل له في حلقه من الخوانيق ، وكذا كان يقال لابنه الشهيد ويلقب بالقسيم وكانت الفرنج تقول له القسيم ابن القسيم.)

فلما مات نور الدين بويع من بعده بالملك لولده الصالح إسماعيل وكان صغيرا فاختلف الأمراء وحادت الآراء وظهرت الشرور وكثرت الخمور ولم يكن أحد يجرؤ على مقارفتها في حياة نور الدين ، وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين ، وعزم الفرنج على نزع دمشق من أيدي المسلمين ، فبرز إليهم ابن مقدم الأتابك قواقعهم عند بانياس ، فضعف عن مقاومتهم ، فهادهم مدة ، ودفع إليهم أموالا جزيله عجلها لهم ، ولولا خوفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لما هادنوه ولما بلغ ذلك صلاح الدين كتب إلى الأمراء وخاصة ابن مقدم الأتابك يلومهم على ما صنعوا من المهادنة ودفع الأموال إلى الفرنج وهم أقل وأذل ، فرد عليه الأمراء ردودا غليظة فعزم صلاح الدين على المسير إلى الشام.

ولكن اضطر أن يؤخر ذلك لقيام الفرنجة بغزو مصر سنة ٥٧٠ هـ . كما أن الفاطميين كانوا لا يزالون يحاولون الإطاحة بحكم صلاح الدين. .

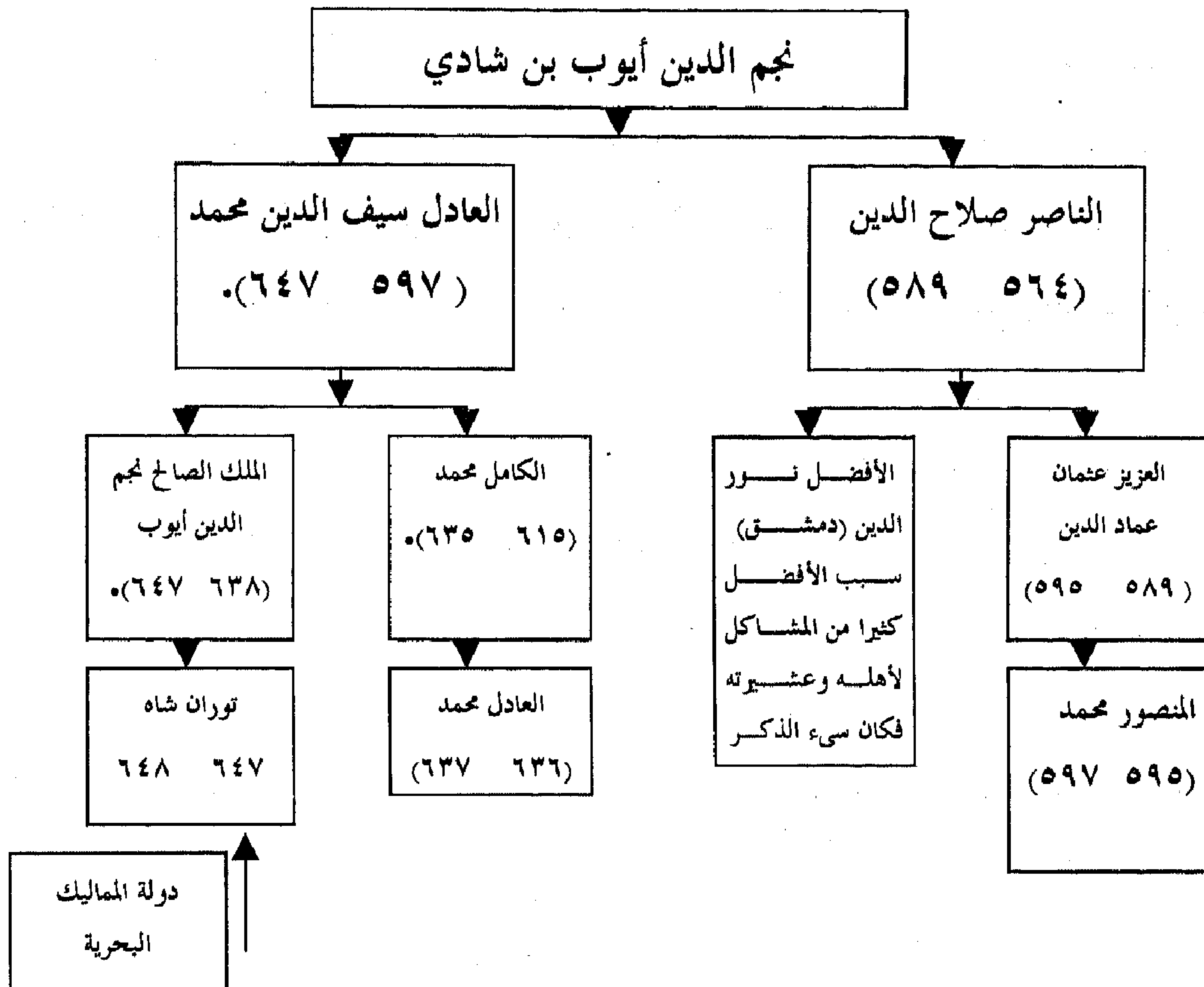
واستطاع صلاح الدين أن يوقف الحملة الصليبية التي تحركت من صقلية لغزو مصر في أسطول لم يسمع مثله ، كما استطاع أن يبطل مؤامرة الفاطميين فلما اطمأن صلاح الدين على الأحوال بمصر توجه إلى بلاد الشام وكان هدفه (جمع شملها بالإحسان إلى أهلها ، وأمن سهلها وجبلها ونصرة الإسلام ودفع الطغاة وإظهار القرآن وإخفاء سائر الأديان . .)

واستناب على مصر أخاه أبا بكر وتوجه إلى دمشق فدخلها سنه ٥٧٠ دون إراقة دماء وأبطل ما أحدث فيها من مفاسد بعد وفاة نور الدين ، ثم استناب أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب على دمشق وتوجه إلى حلب وحاول أمراؤها ومعهم طائفة من الفاطميين قتله ولكن الله أظفره عليهم فقتلوا عن آخرهم. .

قام الشيعة بمراسلة القومص صاحب طرابلس الفرنجى ووعدوه بأموال جزيله إن هو ساعدهم ضد صلاح الدين . . ولكن صلاح الدين كان حذرا إلى أبعد الحدود .فأفشل مؤامراتهم جميعا واستطاع أن يعيد حمص وحلب وحماة إلى الصف المسلم. .

واصل صلاح الدين جهوده لتوحيد الصف المسلم حتى كون مملكة تشمل شمال العراق (الكردستان) والشام ومصر وبرقة.

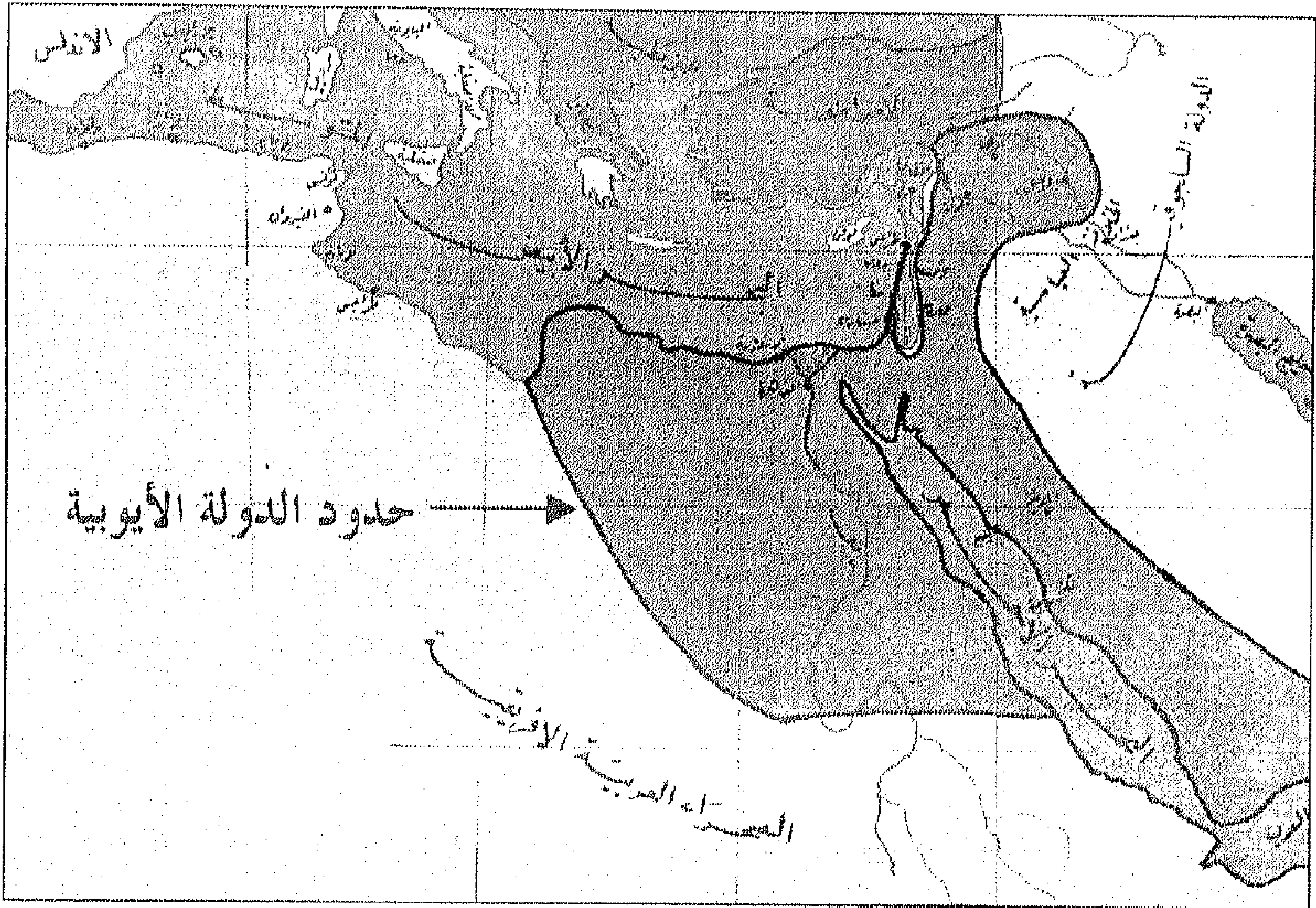
سلاطين الدول الأيوبية



تعريف بوالد صلاح الدين نجم الدين أيوب بن شادي

كان نجم الدين شجاعا ، خدم الملك محمد بن ملكشاه فرأى فيه شهامة وأمانة ، فولاه قلعة تكريت فحكم فيها وعدل ، وكان من أكرم الناس ، ثم أقطعها الملك مسعود لمجاهد الدين هروز شحنة (قائد شرطة) العراق ، فاستمر فيها ، فاجتاز به يوما الملك عماد الدين زنكي منهزما من عدوه فآواه نجم الدين وخدمه خدمة بالغة وداوي جراحاته وأقام عنده مدة خمسة عشر يوما ، ثم ارتحل إلى بلده الموصل ،

فحفظها له عماد الدين زنكي ولكن حدثت حادثة من أيوب أغضبت بهروز فأخرجه من قلعته ، وفي ليلة خروج نجم الدين أيوب منها ولد له ابنه صلاح الدين يوسف فتشاؤم به لفقده بلده ووطنه فقال له بعض الناس : قد نرى ما أنت فيه من التشاؤم بهذا المولود فما يدريك أن يكون لهذا المولود ملكا عظيما له صيت ؟؟! فكان كما قال فاتصل أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه بخدمة الملك عماد الدين زنكي ، ثم كانا عند نور الدين أصحاب منزلة رفيعة عنده فاستناب نور الدين نجم الدين أيوب على بعلبك وكان أسد الدين من اكبر أمرائه ...



خريطة رقم ٢٣ حدود الدولة الأيوبية

وفي سنة ٥٨٢ هـ اعتدى أرناط أمير الكرك على قافلة تجارية تابعة للمسلمين وكان بين صلاح الدين وبين هذه الإمارة هدنه ومسالمة وكان من ضمن بنود هذه الهدنة السماح للقوافل الإسلامية بالانتقال من مصر إلى الشام دون تعرض لها ، ولكن صاحب الكرك استهان ببني الإسلام وقال للأسرى : (إن كنتم تعتقدون في محمد

فادعوه الآن يفك أسركم ، ويخلصكم من شر ما وقعتـــم فيـــه).
فلما وصل الخبر إلى صلاح الدين أقسم لئن أسره ليقتلنـــه بيـــده.
بعد هذا الاعتداء الفاضح أخذ صلاح الدين يعد العدة ويجمـــع الجيـــوش ، وكـــان الوقـــت وقت عودة الحجاج المسلمين من أرض الحجاز وكـــان صـــاحب الكـــرك يـــتربص بهـــم للاعتداء عليهم وهم راجعون ، فخرج صلاح الدين لحمايتهم وقـــد أعلـــن الجـــهاد علـــى الصليبيين قاطبة ، وعسكر في قصر السلامة بالقرب من بصـــري وظـــل فيـــها حـــتى مـــر الحجاج سالمين ، ودعا الحجاج للسلطان صلاح الدين بـــالنصر والغلبـــة.

حطين

وفي ١٧ من ربيع آخر سنة ٥٨٣ هـــ خرج صلاح الدين مـــن دمشـــق ولمـــا وصـــل رأس الماء جعله مركزا لاجتماع جيوشه ، وبقى ولده الملك الأفضل بـــرأس المـــاء وســـار هـــو إلى بصري ، وسار مظفر الدين كوكبري إلى عكا ، ومن بصـــرى توجـــه صـــلاح الديـــن إلى حصن الكرك والشوبك ثم عاد إلى طبريـــة ...
وفي هذه الأثناء وقبلها لم يكن أحد ينظر إلى صـــلاح الديـــن إلا ويجـــده مغتمـــا مـــهتما تعلوه كآبة الحزن .. بل كان عزوفا عن الطعام لا يتناول مـــن الغـــذاء إلا الشـــئ اليســـير ولما سئل عن سبب ذلك كان جوابـــه :
(كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة المنام وبيت المقـــدس بـــأيدي الصليبيـــين)
ويروي صاحبه ومرافقه القاضي بهاء الدين بن شداد يصف حالـــه في حروبـــه الصليبيـــة:
(كان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحملـــه الجبـــال)
وأيقن الصليبيون باتساع الخطة التي دبرها صـــلاح الديـــن ضدهـــم ، فـــاجتمعت كلمـــة رؤسائهم وحشدوا جموعهم ، وتوجهوا إلى طبريـــة وتقـــابل الفريقـــان في مكـــان اسمـــه حطين واستبد العطش بالصليبيين لاستيلاء المســـلمين علـــى مواقـــع الميـــاه وبعـــد معـــارك

ضارية بين الطرفين انتصر فيها صلاح الدين انتصاراً حاسماً ، وانهزم الصليبيون هزيمة منكرة لم يفلت منهم أحد ، وكانوا بين قتيل وأسير.

وبلغ عدد قتلاهم عشرة آلاف ، وفي تلك الأثناء سقط أسقف عكا قتيلاً ووقع بين يديه (صليب الصلبوت) فاستولى عليه المسلمون وكان ذلك من أعظم المصايب عليهم وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك ،وهكذا ظل المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل وأمامهم الصليبيون يتراجعون والقتل والأسر يعملان في فرسانهم حتى بقي ملك بيت المقدس وحوله (١٥٠) من الفرسان الذين تساقطوا على الأرض من الإنهاك والعطش وأسر ملك بيت المقدس ، وأرناط صاحب الكرك ...

وأقيمت للسلطان صلاح الدين خيمة اجتمع فيها بذوي الرأي من أتباعه ومستشاريه فسجد الجميع لله شكراً ، ثم أمر بإحضار ملك بيت المقدس وصاحب الكرك فأجلسهما بداخل خيمته ، وقد أخذ العطش الملك كل مأخذ فطلب ماءً فأحضر له ماء ثلوج ، فشربه إلا قليلا منه ناوله صاحب الكرك ، فقال السلطان حينئذ :(إننا لم نعطه هذا الماء حتى يكون آمناً على نفسه) ثم قام وأنب صاحب الكرك على سوء صنعه وتطاوله على مقام النبوة ، ثم ضرب عنقه بيده تنفيذا لوعده وعند ذلك رعب الملك فطيب السلطان خاطره وقال له :

(لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حده ...)

ثم أمر به فأرسل إلى دمشق ومن بقى من قومه بكل حفاوة وإكرام.

وفي جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ دخل صلاح الدين عكا وانتقل الصليبيون فيها إلى مدينة صور ثم استولى صلاح الدين على (تبنين وصيدا وجبيل وبيروت) وبعد ذلك ساير الساحل وحاصر عسقلان مدة أربعة عشر يوما وانتهى الأمر باستسلامها ، وبذلك نصب صلاح الدين حصارا على بيت المقدس وحال بينها وبين الإمدادات

الخارجية التي كانت تردُ من السلحل ...

توجه السلطان بعد استلام الرملة والداروم وغزة وبيت لحم والنطرون إلى بيت المقدس بعد وكان لا يريد أن يريق به دماً ولكن الصليبيين امتنعوا عن التسليم فاستطاع صلاح الدين أن يستولي عليها بالقوة ورضى الفرنج بالصلح وتم الاتفاق على (أن يسمح لهم بالخروج في مدة أربعين يوماً ، يدفع الرجل منهم عشرة دنانير ، والمرأة خمسة والولد اثنين ، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير وأنهم يتحولون منها إلى مأمنهم وهي مدينة صور ..) ولم يتمكن المسلمون أن يصلوا أول جمعة ، بالمسجد الأقصى فقد أخذوا ينظفونه مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير.

وفي يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ يوم الإسراء كان أول خطيب للمسجد الأقصى هو قاضي دمشق محي الدين بن الزكي وكان من ضمن خطبته:

(أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا ، ولما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة وردّها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقة ، واستعمر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بني عليه فهو موطن أبيكم ابراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ، وقبلتكم التي تصلون إليها في ابتداء الاسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ومهبط الوحي ، ومنزل الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ...

وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي شرفه

الله برسالته وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال الله تعالى :

(لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله)

وقال :

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم)

وهو أول القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، ولاتشد الرجال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيله التي لا يجاريكم فيها مجار ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية والفتكات العلوية ...

جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيكم أفضل الجزاء ..) إلى آخر ما جاء في الخطبة.

سماحة الإسلام في سلوك صلاح الدين مع أعدائه :

يقول استيفن سن : (إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل من غير فدية)

(إن السلطان قد قضى يوما من أول بزوغ الشمس إلى غروبها وهو فاتح الباب للعجزة والفقراء تخرج من غير أن تدفع الجزية..)

ويروي أحد المؤرخين عن مل المؤرخ الإنجليزي قائلا:

(..وذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى إنطاكية المسيحية ، فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم ، فطردهم ، فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب ...)

ويقول أيضاً: (...وقيل للسلطان صلاح الدين ، والبطرك خارج بأمواله وذخائره ، وكانت كثيرة جداً لم يصرفها في فداء الفقراء والمساكين ، من المسيحيين بعد أن وصف - ستانلي - البطرك بأنه كان من غير ضمير ولا وجدان ، قيل للسلطان : لم لا تصادر هذا فيما يحمل وتستعمله فيما تقوي به أمر المسلمين ؟ فقال السلطان : لا آخذ منه غير العشرة دنانير ولا أغدر به ...)

وتعليقاً على هذه الحادثة يقول ستانلي لى بول: (...وقد وصل الأمر إلى أن سلطاناً مسلماً يلقي على راهب مسيحي درساً في معنى البر والإحسان ...)

وأخيراً يقول فيليب متى : (...وكان الفرق جلياً بين معاملة صلاح الدين للمدنيين الفرنج ، ومعاملة الفرنج للمسلمين قبل ذلك بثمان وثمانين سنة ...)

ورحم الله الشاعر المسلم الذي قال :

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحلّلتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٨٥ هـ:

ما إن اجتمعت الفلول الصليبية اللاجئة إلى مدينة صور حتى أغراها اجتماعها وكثرتها على نقض العهد الذي أعطته لصلاح الدين لهذا توجه الصليبيون إلى مدينة عكا وحاصروها برا وبحرا واستمر الحصار عامين ابتداء من ٨ رجب سنة ٥٨٥ هـ.

فلما وصلت الجيوش الإسلامية ، وحاصرت القوات الصليبية من ناحية البر ، ونصب صلاح الدين خيمته على (تل كيسان) ...

وفي هذه الآونة كانت ممالك أوروبا تستعد لحملة صليبية ثالثة لاسترداد بيت المقدس من يد صلاح الدين وكان على رأس الحملة :-

١) إمبراطور ألمانيا (فريديك بربـــــروس)

٢) ملك فرنسا (فيليب أوغســـــطس)

٣) ملك إنكلترا (ريتشارد قلب الأســـــد)

فأما الحملة الألمانية فقد غرق إمبراطورهـــا في الطريـــق فتشـــتت الجيـــش الألمـــاني وعـــاد معظمه من حيث أتى و لم يصل إلى عكا إلا عدد قليل من هـــذا الجيـــش.

وأما الإنكليز والفرنسيون فقد التقوا في صقلية وأقاموا فيـــها مـــدة طويلـــة لخـــلاف وقـــع بينهم .. ثم بارح الفرنسيون صقلية إلى عكـــا ...

ثم بارحها الإنكليز ولكن عاصفة ألقت بأسطولهم على جزيرة قـــبرص الـــتي كـــانت تابعـــة للإمبراطورية البيزنطية فدخل قلب الأســـد في معركـــة مـــع البـــيزنطيين واســـتولى علـــى قبرص واستقربها مدة ثم أبحر إلى عكا بعد أن استنجد به ملك بيـــت المقـــدس الـــذي كـــان قد عفا عنه صلاح الديـــن.

ولما وصلت الحملتان ارتفعت معنويـــات الصليبيـــين.

وفي يوم الجمعة ١٧من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـــ ارتفعـــت فجـــأة الأعـــلام الصليبيـــة على أسوار مدينة عكا ، وفوجئ المسلمون وارتـــاعوا وهـــاجم الصليبيـــون بضـــراوة،ولم تذهب عكا إلا وقد كلفت المسلمين ٦٠ ألـــف نفـــس.

بعدها انصرف الفرنجة في عكا إلى ملذاتهم واشتغلوا بها فترة مـــن الزمـــان وهـــم جيـــوش حاشدة .

وازداد الخلاف بين ملك فرنسا وملك الإنكليز انتهت برحيل ملـــك فرنســـا إلى بـــلاده، والذي يهمنا أن معارك ضارية دارت بين قوات المســـلمين بقيـــادة صـــلاح الديـــن وبـــين قوات ريتشارد قلب الأسد وكان النصر فيها ســـجالا..

ومن المعارك الكبيرة التي دارت معركة (أرسوف) تغلـــب فيـــها الصليبيـــون واعتبروهـــا

أخذا بثأر معركة حطـين..

ثم دخلت سنة ٥٨٨ هـ يروى ابن كثير حاكيا عن الحـال حينئـذ :

(استهلت والسلطان صلاح الديـن مخيـم بـالقدس ، وقـد قسـم السـور بـين أولاده وأمرائه، وهو يعمل فيه بنفسه ، ويحمـل الحجـر بـين القربوسـيين (القربـوس : حنـو السرج ، أي قسمه المقوس المرتفع من قـدام المقعـد ومـن مؤخـره) وبينـه ، والنـاس يقتدون بهم ، والفقهاء والقراء يعملون ، والفرنـج لعنـهم الله حـول البلـد مـن ناحيـة عسقلان وما والاها ، لا يتجاسرون أن يقربوا البلد مـن الحـرس والـيزك الذيـن حـول القدس ، إلا أنهم على نية محاصرة القدس مصممـون ولكيـد الإسـلام مجمعـون ، وهـم الحرس تارة يغلبون وتارة يغلبون ، وتارة ينهبون وتـارة ينـهبون.

وفي ٩ من جمادى الأولى استولى الفرنـج لعنـهم الله علـى قلعـة الـداروم فخربوهـا ، وقتلوا خلقا كثيرا من أهلها ، وأسروا طائفة من الذرية ، فإنـا لله وإنـا إليـه راجعـون ، ثم أقبلوا جملة نحو القدس فبرز إليهم السلطان في حزب الإيمـان ، فلمـا تـراءى الجمعـان نكص حزب الشيطان راجعين ، فرارا من القتال والـتزال ، وعـاد السـلطان إلى القـدس **(ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفـى الله المؤمنـين القتـال وكـان الله قويا عزيـزا)**.

ثم إن ملك الإنكليز لعنة الله – وهو أكبر ملـوك الفرنـج ذلـك الحـين – ظفـر ببعـض فلول المسلمين فكبسهم ليلا فقتل منهم خلقا كثـيرا ، وأسـر منـهم خمسـمائة أسـير ، وغنم منهم شيئا كثيرا من الأموال والجمال ، والخيـل والبغـال ، وكـان جملـة الجمـال ثلاثة آلاف بعير ، فتقوى الفرنج بذلك ، وساء ذلك السـلطان مسـاءة عظيمـة جـدا ، وخاف من غائلة ذلـك ، واسـتخدم الإنكلـيز الجمالـة علـى الجمـال والخربنديـة (

البغالون) على البغال ، والسياس على الخيل ، وأقبل وقد قويت نفسه جدا ، وصمم على محاصرة القدس ، وأرسل إلى ملوك الفرنج الذين بالساحل ، فاستحضرهم ومن معهم من المقاتلة ، فتعبأ السلطان صلاح الدين لهم وتهيأ ، وأكمل السور وعمر الخنادق ونصب المنجانيق ، وأمر بتغوير ما حول القدس من المياه ، وأحضر السلطان أمراءه ليلة الجمعة ١٩من جمادى الآخرة فاستشارهم فيما دهمه من هذا الأمر الفظيع، الموجع المؤلم ، فأفاضوا في ذلك ، وأشاروا كل برأيه ، وأشار العماد الكاتب بأن يتحالفوا على الموت عند الصخرة ، كما كان الصحابة يفعلون ، فأجابوا إلى ذلك ، هذا كله والسلطان ساكت واجم مفكر ، فسكت القوم كأنما على رؤسهم الطير ، ثم قال :

(الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله : اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة ، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم ، فإن وليتم والعياذ بالله طوى البلاد وأهلك العباد، وأخذ الأموال والأطفال والنساء ، وعبد الصليب في المساجد ، ، وعزل القرآن منها والصلاة، وكان ذلك كله في ذممكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله ، وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم ، وتنصروا ضعيفهم ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.)

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال : يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذي أعطيتنا وكبرتنا وعظمتنا ، وليس لنا إلا رقابنا ونحن بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت ، فقال الجماعة مثل ما قال ، ففرح السلطان بذلك

وطاب قلبه ، وانصرفوا من بين يديه على ذلك ، ثم بلغه بعد ذلك أن بعض الأمراء قال : إنا نخاف أن يجري علينا في هذا البلد مثل ما جرى على أهل عكا ، ثم يأخذون بلاد الإسلام بلدا بلدا ، والمصلحة أن نلتقي بهم بظاهر البلد ، فإن هزمناهم أخذنا بقية بلادهم ، وان تكن الأخرى سلم العسكر ومضى بحاله ، ويأخذون القدس وتحفظ بقية بلاد الإسلام بدون القدس مدة طويلة ، وبعثوا إلى السلطان يقولون له : إن كنت تريدنا نقيم بالقدس تحت حصار الفرنج ، فكن أنت معنا أو بعض أهلك ، حتى يكون الجيش تحت أمرك ، فان الأكراد لا تطيع الترك ، والترك لا تطيع الأكراد.

فلما بلغه ذلك شق عليه مشقة عظيمة ، وبات ليلته مهموما كئيبا يفكر فيما قالوا ، ثم انجلى الأمر واتفق الحال على أن يكون الملك الأمجد صاحب بعلبك مقيما عندهم نائبا عنه بالقدس ، وكان ذلك نهار الجمعة ، فلما حضر إلى صلاة الجمعة وأذن المؤذن للظهر قام فصلى ركعتين بين الأذانين ، وسجد وابتهل إلى الله تعالى ابتهالا عظيما ، وتضرع إلى ربه ، وتمسكن وسأله فيما بينه وبينه كشف هذه الضائقة العظيمة.

فلما كان يوم السبت من الغد جاءت الكتب من الحرس الذين حول البلد بأن الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم ، فقال ملك الأفرنسيين إنا إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال العديدة في تخليص بيت المقدس ورده إلينا ، وقد بقى بيننا وبينه مرحلة ، فقال الإنكليز إن هذا البلد شق علينا حصاره ، لأن المياه حوله قد عدمت ، وإلى أن يأتينا الماء من المشقة البعيدة يعطل الحصار ، ويلتف الجيش ، ثم اتفق الحال على أن حكموا منهم عليهم ثلاثمائة منهم ، فردوا أمرهم إلى اثني عشر منهم ، فردوا أمرهم إلى ثلاثة منهم ، فباتوا ليلتهم ينظرون ثم أصبحوا وقد حكموا عليهم بالرحيل ، فلم يمكنهم مخالفتهم فانسحبوا راجعين لعنهم الله أجمعين ، فساروا حتى نزلوا على الرملة

وقد طالت عليهم الغربة والزملة (الاجتماع ، أو البعد عن العيال) وذلك في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ، وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس وسار نحوهم خوفا أن يسيروا إلى مصر ، لكثرة ما معهم من الظهر والأموال ، وكان الإنكليز يلهج بذلك كثيرا فخذلهم الله عن ذلك ، وترددت الرسل من الإنكليز إلى السلطان في طلب الأمان ووضع الحرب بينه وبينهم ثلاث سنين ، وعلى أن يعيد لهم عسقلان ويهب لهم كنيسة بيت المقدس وهي القمامة ، وأن يمكن النصارى من زيارتها وحجها بلا شئ ، فامتنع السلطان من إعادة عسقلان وأطلق لهم قمامة ، وفرض على الزوار ما لا يؤخذ من كل منهم ، فامتنع الإنكليز إلا أن تعاد لهم عسقلان ويعمر سورها كما كانت ، فصمم السلطان على عدم الإجابة ...

ثم ركب السلطان حتى وافى يافا فحاصرها حصارا شديدا ، فافتتحها وأخذوا الأمان لكبيرها وصغيرها ، فبينما هم كذلك إذ أشرفت عليهم مراكب الإنكليز على وجه البحر، فقويت رءوسهم واستعصت نفوسهم ، فهجم اللعين فاستعاد البلد وقتل من تأخر بها من المسلمين صبرا بين يديه ، وتقهقر السلطان عن منزلة الحصار إلى ما وراءها خوفا على الجيش من معرة الفرنج ، فجعل ملك الإنكليز يتعجب من شدة سطوة السلطان ، وكيف فتح مثل هذا البلد العظيم في يومين ، وغيره لا يمكنه فتحه في عامين ، ولكن ما ظننت أنه مع شهامته وصرامته يتأخر من منزلته بمجرد قدومي ، وأنا ومن معي لم نخرج من البحر إلا جرائد (أي مجردين من السلاح) بلا سلاح ، ثم ألح في طلب الصلح وأن تكون عسقلان داخلة في صلحهم ، فامتنع السلطان ثم إن السلطان كبس في تلك الليالي الإنكليز وهو في سبعة عشر مقاتلا ، وحوله قليل من الرجالة فأكب بجيشه حوله وحصره حصرا لم يبق معه نجاة ، لو صمم معه الجيش ، ولكنهم نكلوا كلهم عن الحملة ، فلا قوة إلا بالله ، وجعل السلطان يحرضهم غاية

التحريض ، فكلهم يمتنع كما يمتنع المريض عن شرب الدواء.

هذا وملك الإنكليز قد ركب في أصحابه وأخذ عدة قتاله ، وأهبة نزاله ، واستعرض الميمنة إلى آخر الميسرة ، يعني ميمنة المسلمين وميسرقم ، فلم يتقدم إليه أحد من الفرسان ، ولا نمره بطل من الشجعان ، فعند ذلك كر السلطان راجعا ، وقد أحزنه أنه لم ير من الجيش مطيعا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولو أن له بهم قوة لما ترك أحدا منهم يتناول من بيت المال فلسا ثم حصل للملك الإنكليز بعد ذلك مرض شديد ، فبعث إلى السلطان يطلب فاكهة وثلجا فأمده بذلك من باب الكرم ، ثم عوفي لعنه الله وتكررت الرسل منه يطلب من السلطان المصالحة لكثرة شوقه إلى أولاده وبلاده ، وطاوع السلطان على ما يقول وترك طلب عسقلان ، ورضي بما رسم به السلطان ، وكتب كتاب الصلح بينهما في سابع عشرمن شعبان، وأكدت العهود والمواثيق من كل ملك من ملوكهم ، وحلف الأمراء من المسلمين وكتبوا خطوطهم ، واكتفى من السلطان بالقول المجرد كما جرت به عادة السلاطين ، وفرح كل من الفريقين فرحا شديدا ، وأظهروا سرورا كثيرا ، وعاد السلطان إلى القدس فرتب أحواله ووطدها ، وسدد أموره وأكدها ، وعزم صلاح الدين على الحج عامه ذلك، فكتب إلى الحجاز واليمن ومصر والشام ليعلموا بذلك ، ويتأهبوا له ، فكتب إليه القاضي الفاضل ينهاه عن ذلك خوفا على البلاد من استيلاء الفرنج عليها ، ومن كثرة المظالم بها ، وفساد الناس والعسكر وقلة نصحهم وأن النظر في أحوال المسمين خير لك عامك هذا ، والعدو مخيم بعد بالشام، وأنت تعلم أنهم يهادنون ليتقووا ويكثروا، ثم يمكروا ويغدروا ، فسمع السلطان منه وشكر نصحه وترك ما عزم عليه وكتب به إلى سائر الممالك ، واستمر مقيما بالقدس جميع شهر رمضان في صيام وصلاة وقرآن ، وكلما وفد أحد من رؤساء الفرنج

للزيارة فعل معه غاية الإكرام ، تأليفا لقلوبهم ، و لم يبـــق أحـــد مـــن ملوكـــهم إلا جـــاء لزيارة القمامة متنكرا ، ويحضر سماط السلطان فيمن حضـــر مـــن جمـــهورهم ، بحيـــث لا يرى.

والسلطان لا يعلم ذلك جملة ولا تفصيلا ، ولهـــذا كـــان يعاملـــهم بـــالإكرام ، ويريـــهم صفحا جميلا ويرا جزيـــلا.)

وهكذا عقد **صلح الرملة** بين الطرفين وكان أهم ما في هـــذا الصلـــح :

١ – أن يستقر الصليبيون في الشريط الساحلي الممتد مـــن صـــور إلى حيفـــا.

٢ – السماح للنصارى بزيارة بيت المقدس دون ضريبـــة يدفعونهـــا.

٣ – أن تقع هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات وثمانيـــة أشـــهر.

وبعد الهدنة بقليل غادر قلب الأسد السواحل الشـــامية قـــاصدا بـــلاده بعـــد أن اكتســـب شهرة عظيمـــة.

وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة بعد حرب دامـــت خمـــس ســـنوات ذهبـــت فيـــها أرواح كثيرة ، وخربت بلاد بأسرها ، وفقدت ألمانيا إمـــبراطور ، كمـــا أضـــاعت فرنســـا وإنكلترا نخبة من زهرة شبابها وقوادها ... و لم يحققوا غايتهم فلـــم ينـــالوا ســـوى عكـــا، فلم تكافئ في نتيجة هذه الحرب بأي شكل من الأشكال مـــا تكبدتـــه أوروبـــا ، وفقدتـــه في ســـبيلها.

وعاش الناس في ظل حكم صلاح الدين آمنين ، حـــتى أن حجـــاج بيـــت المقـــدس مـــن النصارى إزداد جدا وخاف ريتشارد قلـــب الأســـد أن يغضـــب ذلـــك صـــلاح الديـــن فأرسل إلى صلاح الدين (يسأله منع الـــزوار واقـــترح ألا يـــؤذن لهـــم إلا بعـــد إحضـــار

علامة من جانبه أو كتاب منـــــه)

وأبى صلاح الدين ذلك وكان رده :(إن هؤلاء قد وصلوا من ذلـــك البعـــد لزيـــارة هـــذا المكان الشريف فلا أستحل منعـــهم)

وفي ليلة الأربعاء ٢٧من صفر سنة ٥٨٩ هـــ وهـــي الليلـــة الثانيـــة عشـــرة مـــن مرضـــه فاضت روح صلاح الدين إلى بارئها (وكان يوما لم يصـــب الإســـلام والمســـلمون بمثلـــه منذ أن فقدوا الخلفاء الراشـــدين ...)

مات محرر بيت المقدس ولم يترك في خزانتـــه سوى سبعة وأربعـــين درهمـــا ناصريـــة ودينارا واحـــدا ...

مات والناس يظنون أنه أدى ما كان يتمناه من تحريـــر المســـجد الأقصـــى ولكـــن أمانيـــه كانت أعلى من ذلك فقد كان يقـــول :

(وفي نفسي أنه متى يسر الله تعالى فتـــح بقيـــة الســـاحل ، قســـمت البـــلاد وأوصيـــت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره وابتعثتهم فيها حتى لا ألقـــي علـــى وجـــه الأرض من يكفر بالله أو أمـــوت ...).

تولى بعد صلاح الدين العزيز عماد الدين ، إلا انه حدثـــت بينـــه وبـــين أخيـــه الأفضـــل ملك دمشق منازعات وحروب انتهت بنفـــي الأفضـــل عـــن دمشـــق وتولاهـــا العـــادل سيف الدين محمد أخو صلاح الدين الذي كان وقتئـــذ حاكمـــا علـــى الجزيـــرة ، وكـــان العادل من أكثر الناس سياسة وحزما ، فبعد أن قبض على أزمـــة الأمـــور بدمشـــق دانـــت له جميع البلاد الســـورية.

وفي سنة ٥٩٥ هـــ مات العزيز ، فحضر العادل إلى مصـــر وتغلـــب علـــى ابـــني صـــلاح

الدين وعزل المنصور بن العزيز من مصر (وكان طفلا صغيرا) وتولى هو ملكها.

وفي سنة ٥٩٦ هـ دانت له معظم دولة صلاح الدين وصارت مصر صاحبة الشأن الأكبر في هذه الدولة.

وفي سنة ٥٩٧ هـ وقع بمصر قحط شديد ثم وباء عظيم أضعفا شأن المملكة ، إلا أن العادل لم يفتر عن توطيد دعائم المملكة ، وجمع كلمة المسلمين وجعلهم يدا واحدة ليستعين بهم على استئصال شأفة الصليبيين.

وكان الصليبيون أثناء اشتغال العادل بتثبيت ملكة بالشام قد جاءتهم أمداد من ألمانيا سنة ٥٩٣ هـ وأرادوا أن ينتهزوا فرصة تفرق المسلمين للاستيلاء على بيت المقدس فانتصروا على العادل وأخذوا منه بيروت ، ولكنهم تفرقوا بعد ذلك وعقد العادل معهم صلحا بالتنازل عن يافا والرملة اعتقادا منه أن الصلح يتيح له فرصة أكبر لتعزيز موقفه.

الحملة الصليبية الرابعة سنة ٦١٤هـ

منذ وفاة صلاح الدين والبابا أنوست الثالث يدعو أوروبا إلى حرب صليبية جديدة لاسترجاع ما استلبه صلاح الدين منهم ...

فتحرك على رأس هذه الحملة أمراء فرنسيون وقرروا أن يتوجهوا بها إلى مصر أولا ثم إلى بيت المقدس.

ولكن ثورة هبت في القسطنطينية أطاحت بالإمبراطور إسحاق الثاني وفر ابنه الكسيوس إلى الغرب طالبا المساعدة من البابا ومن الصليبيين عارضا في مقابل ذلك إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ومساعدة الصليبيين في حملتهم ضد مصر ...

فاتجهت جموع الصليبيين إلى القسطنطينية واستولت عليـــها وقـــاموا بتخريبـــها والعـــدوان على أهلها حتى تمنى بعض البيزنطيين أن لو كـــانت القســـطنطينية قـــد وقعـــت في أيـــدي المسلمين ، وقد أحرق الصليبيون بعض الكنائس والجامع القديم الـــذي بـــنى في عـــهد بـــني أمية وقاموا بسلب المدينـــة.

فكان من نتائج هذه الحلمة أن خضعت الكنيســـة الأرثوذكســـية (الشـــرقية) للكنيســـة الكاثوليكية (الغربية) لأول مرة ... وفـــترت همـــة المحـــاربين الصليبيـــين ... وتعمـــق الخلاف بين مسيحي الشرق ومسيحي الغرب جعلـــت الطريـــق الـــبري إلى الشـــام أشـــد وعورة وأعظم خطـــراً ...

يقول أحد مؤرخي الحروب الصليبية:(إن الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيراً بفشل الحركة الصليبية بأكملها ...)

الحملة الصليبية الخامســـة:

وفي سنة ٦١٥ هـــ توفي العادل سيف الديـــن محمـــود.

وتولى بعده السلطان الكامل محمد ومـــع أول فـــترة حكمـــه كـــانت الحـــرب الصليبيـــة الخامسة بناء على دعوة البابا أنوسنت الثـــالث.

وصلت الحملة وفيها من زعماء أوربـــا:

ليو بولد السادس دوق النمســـا،

وأندريه الثاني ملك هنغاريـــا،

وهمايو ملك قـــبرص،

ولكن أندريه الثاني سرعان ما عـــاد إلى بـــلاده ...

وتوجهت الحملة ناحية مصر واستولت على دمياط بعد قتال شديد ، ولكن الكامل قاتلهم عليها ليلا ونهارا إلا أنه لم يفلح في إخراجهم منها ، حتى أنه عرض عليهم صلحا مغريا إذا خرجوا من دمياط ولكنهم رفضوا واغتروا بعددهم واتجهوا لمهاجمة القاهرة سنة ٦١٩ هـ.

فتقدموا وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هي بحيرة المنزلة من الشرق وفرع دمياط من الغرب والبحر الصغير من الجنوب.

ووقفت السفن الإسلامية في النيل لتسد عليهم الطريق وكان وقت فيضان النيل فقطع المسلمون السدود فغرقت الأرض المحيطة بالصليبيين ولم يبق لهم للعودة إلى دمياط سوى طريق ضيق ملأه الملك الكامل بقواته فأخذت عليهم طريق العودة إلى دمياط.

حوصر الصليبيون واضطروا أن يطلبوا الصلح خانعين فأجابهم الملك الكامل بشرط أن يسلموا له رهائن من ملوكهم حتى يسلموا دمياط للمسلمين ، وبالفعل رحلوا عن دمياط في رجب سنة ٦١٨ هـ ودخلها الملك الكامل بفضل الله تعالى.

وبذلك تكون الحملة الخامسة قد فشلت أيضا.

الحملة الصليبية السادسة:

وفي سنة ٦٢٥ هـ خرج الإمبراطور فريدريك الثاني ملك ألمانيا يطالب بإمارة بيت المقدس وكان على وشك الخروج مع جيوش أوروبية ، إلا أنه أغضب البابا وغيره من أولى الشأن من المسيحيين لاستقلاله عنهم في الرأي فتركوه يخرج وحده لجهاد المسلمين.

كان فريدريك قليل التعصب الديني يميل إلى المسلمين حتى ظن البابا أنه دخل في

دينـهم ...

وكان الخلاف قد دب بين الكامل وأخيـه المعظـم والأشـراف أو شـك أن يصـل إلى التجارب والتقاتل ، وبالإضافة إلى خطر خـارجي أخـذ يـهدد الدولـة الأيوبيـة مـن الخوارزميين الذين شتتهم جنكيز خان فتجمعـوا في أصفـهان وأخـذوا يـهددون الشـام والعراق، فعقد الكامل محالفة مع فردريك على أن يتنازل لـه عـن بيـت المقـدس وعـن طريق حجاجه المؤدية إلى عكا ويافا ، وأن يطلق سراح الأسـرى مـن الفرنـج !! ويقـوم فردريك نظير ذلك بمساعدته على رد كل مهاجم ولـو كـان مسـيحيا وأن يمنـع المـدد عن أمراء الصليبيين الآخرين في الشام مدة عشر سنين ونصـف، فـأخذ فردريـك بيـت المقدس بلا ضرب ولا قتال ، فعد المسلمون ذلك من أشـنع غلطـات الكـامل ...

وبمهادنة الكامل لفردريك وحد قواه لانتزاع أملاك أقاربه حتى تمـت لـه السـيادة علـى جميعها ، ولم يبق له منازع من آل أيوب وعاش نحو تسع سـنيين لم يحـارب فيـها أحـدا من الصليبيين ، وآخر عهده بالحروب أنه خرج سنة ٦٣٥ هـ للاسـتيلاء علـى دمشـق فتم له النصر ، إلا أنه توفى بعدها فعاد التراع بين ملوك بـني أيـوب إلى أشـد مـا كـان عليـه ...

وكان الكامل لا يفتر عن العمل وتقدمت مصر في عهده كثيرا بفضـل مـا قـام بـه مـن الأعمال لإصلاح الري وتحسين حال الزراعة ، وأتم الكـامل بنـاء قلعـة صـلاح الديـن وأسس كثير من المعاهد العلمية ، وكان كمعظـم أفـراد أسـرته محبـا للعلـم والعلمـاء يجلس إليهم في ليالي الجمعة لسماع حديثهم والمناقشـة معـهم.

فائدة :

نقول : ولكنه فرط في مقدسات المسلمين حفاظا على ملكه فماذا يفيده ما أقامه من العمران وحبه للعلم ؟! تبدد ملك أسرته وبقى التاريخ يحفظ تلك النقيصة له.

فخلفه ابنه السلطان العادل سيف الدين أبو بكر الثاني فاشتغل باللهو عن التدبير ، فأنكر الأمراء ذلك وخلعوه بعد سنتين ...

وولى أخوه **الملك الصالح أيوب** سنة ٦٣٧ هـ فكان من خيرة السلاطين دبر المملكة أحسن التدبير وأخمد الفتنة وبنى قلعة الروضة بجزيرة الروضة ، ونزلها وحشد فيها المماليك من الترك وبالغ في شرائهم (وسيكونون سببا في استلاب الملك من أولاده كما سلبوه من أولاد المعتصم العباسي) وكان عمه الصالح إسماعيل من أكبر أعدائه ، فإنه استولى على دمشق واتحد مع الصليبيين وتنازل لهم عن بعض المواقع ، فاستعان الصالح أيوب بقبائل الخوارزمية وهزم الأعداء وأعاد بيت المقدس للمسلمين سنة ٦٤٢ هـ.

واسترد دمشق سنة ٦٤٣ هـ وعسقلان سنة ٦٤٥ هـ ورجعت دولته إلى ما كانت عليه في عهد جده.

الحملة الصليبية السابعة

وفي آخر مدته نزل الصليبيون في أكثر من مائة ألف إلى دمياط فملكوها بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، فرابط الملك الصالح بالمنصورة ومرض مرض الموت فأرسلت زوجته شجرة الدر إلى ولده (توران شاه) بالجزيرة تستدعيه فلما مات الصالح أخفت موته وأصدرت الأوامر بما يشبه توقيعه وجمعت قواد الجيش وأرباب الدولة

وزعمت أن السلطان يأمرهم بالبيعة لولده توران شاه ففعلـوا ، ووقـع الفرنـج في نفـس الخطأ الذي وقعوا فيه في عهد الكامل فإنهم بدل أن يـأتوا مصـر مـن طريـق صحـراء سيناء مارين بالفارما شأن الفاتحين قبلهم أتوهـا مـن قبـل دميـاط والمنصـورة حيـث تعترضهم الترع والخلجان ، فزحفوا على المنصورة سـنة ٦٤٨ هـ وكـادوا يملكونهـا ، فحضر توارن شاه فقاتل الفرنج ودارت عساكره حولهم فاسـتولى علـى أكـثر مراكبـهم وأخذتهم السيوف من كل جانب وقتل منهم نحـو ٣٠ ألفـا ، وغـرق كثـير منـهم في النيل وأسر ملكهم لويس التاسع وسجن في دار ابن لقمـان بـالمنصورة ، ثم فـدى نفسـه وبقية أهله وعساكره بمبلغ ١٠.٠٠٠.٠٠٠ فرنك وخرج مـن دميـاط.

وتعتبر هذه واقعة فاصلة بين المسـلمين والصليبيـين ولمـا ولى السـلطان الملـك المعظـم توران شاه وفرغ من الصليبيين طالب شجرة الدر بمال أبيـه وتهـدد المـاليك ، فقتلـوه بعد سبعين يوما من ملكه ، وولوا مكانه أم خليل شجر الـدر ، و لم يـل المسـلمين أمـرأة قبل فأقامت في المملكة ثلاثة أشهر وعزلـت نفسـها.

واتفق المماليك أن يولوا الأشرف موسى مـن بيـت الملـك فولـوه وعمـره ٨ سـنوات وجعلوا عز الدين أيبك التركماني أحد مماليك الصـالح قيمـا عليـه ، وتـزوج شـجرة الدر و لم يلبث أن خلع الأشرف واستبد بـالملك ، وانتـهت دولـة آل أيـوب في مصـر وبقيت منهم دولة بالشام دخلوا بعد في طاعة المماليك مـع نـوع اسـتقلال.

يقـول المؤرخــون :

كانت الدولة الأيوبية دولة فتح وجهاد مــــن مبدئــها إلى منتــهاها فمؤسســها صــلاح الدين وآخرها توران شاه كللت حياتهم بالانتصار الباهر علــى الصليبيــين وكــان بينــهما ملوك لم يقصروا عنهما في رد غاراتهم ، فكأن هــذه الدولــة وجــدت لتكــون عقبــة في سبيل تغلب أوربا على الشرق أو لتأخير ذلك أكثر مـــن ســتمائة ســنة وعــوده بشــكل آخر، وكأنها كانت برفقها وقلة تعصبــها ووفائــها أســتاذاً ناصحــاً أرشــد اختــلاف الصليبيين إلى حسن معاملة البشر ونبــذ التعصــب الوحشــي الذميــم ونقــض العــهود والغدر القبيح ، ولولا وقوف الدولة الأيوبيــة في وجــه أوربــا المســيحية (المتعصبــة في ذلك الوقت) لا نقرض الإسلام من جميع بقاع الشام والجزيــرة ومصــر وشمــالي أفريقيــة كما أنقرض من الأندلــس

نقول وكذلك كان آل زنكي الأساتذة الأوائل في دحــــر الصليبيــين ...

فكان من نتائج هذه الحروب أنهــا أحيــت روح الإيمــان في نفــوس عامــة المســلمين في مواجهة من احتل ديارهم وانتهك حرمة المســـجد الأقصـــى ...

وكان من نتائجها كذلك أن ضعفت الدولة الرومانية الشــرقية (بيزنطيــة) ممــا مــهد إلى الاستيلاء عليها نهائيا بعد الحروب الصليبية بزمن غير بعيد علــى يــد العثمــانيين ...

الفصل السادس
دولة المماليك

كانوا دائماً أهل طعان ونزال .. كانوا أشقاء للسيف والرمح .. أبطال عين جالوت ووقعة حمص ووقعة شقحب وفاتحي قبرص ..

ولكن لما نسوا الرسالة التي عاشوا من أجلها في الدفاع الخارجي .. نسوا السيف وانقلبوا إلى متسلطين داخليين على الأمة فقدوا دورهم في التاريخ .

دولة المماليك ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ

أولاً : دولة المماليك البحرية ٦٤٨ - ٧٨٤ هـ

وعددهم ٢٤ سلطاناً أولهم السلطان عز الدين أيبـك التركمـاني .

تولى أمر مصر سنة ٦٤٨ هـ وتزوج الملكة **شجرة الدر** ، ثم سلب منها كل سلطة واضطهدها.

ثم قتل سنة ٦٥٥ هـ ثم قتلت شجرة الدر فتولى ابن أيبك الإمارة ولقب بالملك المنصور وهو صبي لا يزيد عمره عن ١١ سنة!!!

ولاية سيف الدين قطز

فقام بأمر الدولة سيف الدين قطز فوقعت في مدته سنة ٦٥٦ هـ النكبة العظمى وهي سقوط بغداد في يد التتار وزوال الخلافة ... فجمع قطز القضاة والعلماء لذلك فأفتوه بخلع السلطان الصبي وولوه مكانه.

فتولى سنة ٦٥٧ هـ ولقب بالملك المظفر.

فلما جاءت سنة ٦٥٨ هـ كان العالم الإسلامي يتحكم فيه ملوك أربعة باستثناء الشمال الأفريقي .

- شمال آسيا (بلاد ما وراء النهر وأذربيجان وسمرقند وخراسان وغيرها يحكمها هولاكو ملك التتار)
- البلاد الشامية يحكمها الملك الناصر بن العزيز.
- بلاد الكرك يحكمها المغيث بن العادل ومصر يحكمها قطز.

عجباً لملوك يتحاربون من أجل الملك ويذهلون عن أعدائهم

وكان ملك الشام بمعونة ملك الكرك قد عزما على محاربة الملك قطز لأخذ مصر منه عنوة ، ولكن وصول الخبر بعزم هولاكو على غزو بلاد الشام حال دون ذلك فدخل حلب بعد حصار سبعة أيام وأعمل في أهلها القتل وانخلع قلب حاكم حماه فأرسل مفاتيح البلد إلى هولاكو قبل أن يتحرك نحوها ...

ثم دخل دمشق بغير مدافع ولا ممانع في آخر صفر سنة ٦٥٨ هـ واستعصت قلعة دمشق على التتار فضربوها بالمجانيق حتى استسلم من فيها وجعل التتار حكم البلد والقلعة إلى رجل تتري يسمى إبل سيان...

وكان إبل سيان هذا ميالاً إلى النصارى ، معظِّماً لدينهم ، فصار للنصارى صولة وجولة وعاثوا في الأرض الفساد ، وأخذوا يطوفون بالشوارع وهم يصيحون ظهر الدين الصحيح دين المسيح ، وذموا الإسلام وأهله ، ورفعوا الصليب ، وأجبروا الناس على القيام له ، ولما شكا المسلمون إلى الحاكم التتري طردهم وأهانهم ...

وكان لكتبغا نائب هولاكو أسلوب خبيث في حربه مع المسلمين:

فكان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذي يليه ويطلب من أهل ذلك البلد أن يؤوا هؤلاء إليهم ، فإن فعلوا حصل مقصوده في تضييق الأطعمة والأشربة عليهم فتقصر مدة الحصار عليه لقلة المخزون ...

فإن امتنعوا من إيوائهم عندهم قاتلهم بأولئك المقاتلة الذين هم أهل البلد الذي فتحه قبل ذلك فان حصل الفتح وإلا كان قد أضعف أولئك بهؤلاء حتى يُفني تلك المقاتلة ، فإن حصل الفتح وإلا قاتلهم بجنده وأصحابه مع راحة أصحابه وتعب أهل البلد وضعفهم حتى يفتحها سريعاً ...

وكان يبعث إلى الحصن وهو يحاصره يقول : إن ماءكم قد قل فنخشى أن نأخذكم

عنوة عن آخركم ونسبي نساءكم وأولادكم فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم ، فافتحوا صلحاً قبل أن نأخذكم قسراً ، فيقولون له : إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء . فيقول : لا أصدق حتى أبعث من عندي من يشرف عليه فان كان كثيراً انصرفت عنكم ، فيقولون : ابعث من يشرف عليه ، فيرسل رجالاً من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سماً ، فإذا دخلوا الحصن ظهروا أنهم يقيسون عمق الماء بتلك الرماح فينفتح ذلك السم ويختلط بالماء فيكون سبب هلاكهم وهم لا يشعرون !!!

العز بن عبد السلام

وصلت أخبار التتار إلى مصر عند ذلك عقد المصريون مجلساً حضره قاضي مصر بدر الدين السنجاوي والشيخ عز الدين بن عبد السلام ليدبروا أمرهم واقترح أحد الحاضرين أن تأخذ الدولة شيئاً من أموال الناس للأنفاق على المعركة فوقف الشيخ العز بن عبد السلام وقال :

(...إذا لم يبق في بيت المال شيء ، ثم أنفقتم أموال الحوائض المذهبة وغيرها من الفضة والزينة ، وتساويتم أنتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب بحيث لم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها ، ساغ للحاكم حينئذ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء عنهم ، لأنه إذا دهم العدو البلاد ، وجب على الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم ...)

خروج المسلمين إلى التتار

رأى قطز أن يبادر التتار قبل أن يبادروه ، وأن يذهب إليهم قبل أن يهاجموه ، فجيش جيشه وأعد عسكره وخرج متوجهاً نحو الشام ، فاستيقظ جيش التتار بقيادة كتبغا على صهيل جيش قطز تملأ عليهم سهل البقاع ....

وفي رمضان سنة **٦٥٨ هـ** كانت عين جالوت دارت معركة عنيفة بين الطرفين انتهت بهزيمة التتار وقتل قائدهم وكثير من أهل بيته وأمر قطز الأمير **بيبرس البنداقداري** أن يتبع الجيش المنهزم فأتبعوهم حتى وصلوا إلى حلب ...

وأما من كان في دمشق من التتار ، فقد فروا هاربين ، وتبعهم المسلمون من أهل دمشق يقتلوهم ويستخلصون الأسرى من بين أيديهم ... وأسقط في أيدي النصارى الذين أيدوا التتار ، وهاجم المسلمون الكنيسة التي يخرج منها الصليب وأحرقوها وأحرقوا بيوت النصارى الذين أجبروهم على القيام للصليب ، وقتل المسلمون رجلاً رفضياً كان عوناً للتتار على الاستيلاء على أموال المسلمين...

و نجح بيبرس أن ينتزع أكثر امارات الشام من أيدي بني أيوب ، فوعده قطز بولاية حلب و لم يستطع أن يفي بوعده ، فقتله بيبرس وهم عائدون إلى مصر وتولى بعده أمر مصر .

مشهد من المعركة:

ذكر عن الملك قطز أنه لما كان يوم المعركة قتل جواده ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوشايقة الذين معهم الجنائب ، فترجل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً ، والقتال عمال في المعركة ، وهو في موضع السلطان من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك ... ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب ، فلامه بعض الأمراء وقال : ياخوند لم لا ركبت فرس فلان ؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك فقال : أما أنا فكنت أروح إلى الجنة ، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه ، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقاً

من الملوك ؟ فأقام الله للإسلام من يحفظه غيرهم ، ولم يضيع الإسلام ...

بدء الملك الحقيقي للمماليك البحرية

المماليك البحرية هم مماليك الصالح نجم الدين أيوب الذين كثر عددهم ، وزادت تعدياتهم فضج منهم السكان فبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة سنة ٦٣٨ هـ فعرفوا بالمماليك البحرية.

الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٥٨ حتى ٦٧٦ هـ

ويعتبر أو حاكم لهم بعد مرحلة تأسيس دولتهم هو الظاهر بيبرس البندقداري فبدأ بتنظيم أمور الدولة وإصلاح الجيوش وإنشاء الأسطول ، ثم عنى بتحصين الشام وأنشأ بريداً سريعاً بالحمام الزاجل بين دمشق والقاهرة وكان بيبرس يرمي إلى بلوغ ما بلغه صلاح الدين ، وإلى استئصال شأفة الصليبيين مما بقى في أيديهم بالشام ، ولكي يعزز زعامته للإسلام دعا إلى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد وبايعه بالخلافة وهو المستنصر ثم إن المستنصر هذا ذهب لمحاربة التتار فقُتِل وبويع بالخلافة من بعده للحاكم بأمر الله احمد وهو جد الخلفاء العباسين بمصر ، واستمرت الخلافة في العباسيين حتى ورثها منهم العثمانيون.

بركة خان ابن عم هولاكو يدخل في الإسلام

بعد هزيمة التتار في عين جالوت دب النزاع بينهم وطالب الأمراء هولاكو بنصيبهم من الأموال والأملاك ووصل النزاع ذروته سنة ٦٦٠ هـ حينما دب الخلاف بين هولاكو وبين بركة خان ابن عم هولاكو ... وكان بركة خان محباً للمسلمين .. فأعلن دخوله في الإسلام وأرسل إلى الظاهر بيبرس ، رسالة يقول فيها :

(... قد علمت محبتي للإسلام ، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين ، فاركب أنت من ناحيه حتى آتيه أنا من ناحية حتى نهزمه أو نخرجه من البلاد ، وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد...).

وأعجب الظاهر بهذا الرأي ، فإن الله عز وجل سيكفيه التتار ، ويسلط بعضهم على بعض .. ودارت معركة شرسة بين هولاكو وبركة خان انتهت بهزيمة هولاكو وفراره في شرذمة من بقايا جيشه ...

ثم أغار بركة خان على القسطنطينية فهادنه صاحبها ، وأرسل السلطان الظاهر بيبرس إلى بركة خان هدايا وتحفاً عظيمة ...

وجاء وفد من التتار على الظاهر بيبرس مستأمنين يطلبون النجاة ، فأمنهم واحسن وفادتهم ، ومنحهم إقطاعيات عظيمة ...

وفي سنة ٦٦٤ هـ كانت وفاة هولاكو حيث مرض بالصرع ودفن في قلعة تلا ...

وقام بأمر التتار بعده ولده **ابغا خان** وهو أحد أولاده العشرة الذين خلفهم هولاكو ولما علم بركة خان بتولية ابغا أمر التتار ، قصده بجيشه فهزمه ، وفرق عنه جموعه...

وفاة بركة خان

عاش بركة خان بن تولى بن جنكيز خان محباً للإسلام ولعلمائه ، وكان الملك الظاهر يناصحه ويكرم رسله حتى توفى سنة ٦٦٥ هـ .

وقام مقامه بعض أهل بيته وهو منكوتمر بن طغان لن بابوبن تولى بن جنكيز خان وكان منكوتمر مسلماً سار على طريقه بركة خان ...

تهديد التتار من جديـــد

• كتب أبغا خان إلى السلطان الظاهر وهو في دمشق يقـــول لـــه :

(أنت مملوك بسيواس ، فكيف يصلح لك أن تخالف ملـــوك الأرض ؟ واعلـــم أنـــك لـــو صعدت إلى السماء وهبطت إلى الأرض ، مـــا تخلصـــت مـــني ، فـــاعمل لنفســـك علـــى مصالحة السلطان ابغـــا ..)

فلما وصلت الرسالة إلى بيبرس قال للرســـــل :

(... أعلموه أني من ورائه بالمطالبة ، ولا أزال حـــتى أنـــتزع منـــه جميـــع البـــلاد الـــتي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وســـائر أقطـــار الأرض ...)

أفزع التتار بقيادة أبغا وعاونهم الصليبيون المسلمين بالديار الشـــامية حينـــاً ولكـــن ...

وفي سنة ٦١٩ هـ وقع التراع بين ابغـــا خـــان وريـــث هولاكـــو وبـــين ا بـــن عمـــه منكوتمر فهزم أبغا وجاءت البشارة للسلطان بيبرس وهو في عســـقلان ففـــرح بها.

وفي سنة ٦٧١ هـ بلغ بيبرس أن طائفـــة مـــن التتـــار عنـــد الفـــرات تســـتعد لعبـــوره للهجوم على الشام مرة أخرى ، فركب الســـلطان ، وخـــاض افـــرات بنفســـه وجنـــوده والتقى مع التتار فقتل منهم مقتله عظيمة وكان معه يومئذ الأمير ســـيف الديـــن قـــلاوون وبدر الدين بيســـري.

وفي سنة ٦٧٥ هـ وقعت معركة أخرى بين المســـلمين والتتـــار واستشـــهد فيـــها نفـــر من خيرة المسلمين ولكن النصر حـــالف المســـلمين.

بيبرس والصليبيين

أرهب بيبرس الصليبين فوقع بعضهم صلحاً معه وتوجه بيـــبرس إلى إنطاكيـــة الـــتي كـــانت متحالفة مع التتار فهاجمها وأسر حاكمها وأسر من أهلـــها قرابـــة مائـــة ألـــف ... ســـنة

٦٦٥ هـــ .

وكان هذا النصر سبباً في أن طلب ملك أرمينية الصلح مع بيـــبرس وحـــذا حـــذوه أمـــير طرابلس وملك بيت المقدس ،وقد صالحهم بيبرس ليتفرغ لعدويـــن خطريـــن التتـــار مـــن ناحية والاسماعيلية من ناحية أخـــرى..

بيبرس والباطنية

استطاع بيبرس أن يخضع الباطنية مـــن الإسماعيليـــة النـــازلين في الشـــام والمســـمين عنـــد الأفرنج بالحشاشين (١)بعد أن كانوا آفة على ملوك مصر منذ أيـــام صـــلاح الديـــن ... ولم تلهه غزواته في الشمال عن الالتفـــات للأقـــاليم الجنوبيـــة فأرســـل جيشـــاً إلى بـــلاد النوبة سنة ٦٧٤ هـــ فأخضع أهلها وأعاد جزية العبيد بعـــد أن امتنعـــوا عنـــها .

ثم توفى بيبرس سنة ٦٧٦ هـــ فحدثت منازعات بشـــأن تـــولى الملـــك ، فخلفـــه ولـــدان أحدهمـــا بعـــد الآخـــر ولم تطـــل مدهمـــا ، وانتـــهى الأمـــر بتـــولي الســـلطان **الملك المنصور سيف الدين(قلاوون) الصالحي(ســـنة ٦٧٨ حـــتى ٦٨٩ هـــ)** فبقـــى الملك في بيته أكثر من مائة عام وبعد أن تم له الأمر عقد هدنة مع الصليبيـــين لمـــدة عشـــر سنوات على ألا يسمح للسفن المصرية بدخـــول المـــواني المســـيحية بالشـــام ، وألا يقـــوم الصليبيون بأي تحصين جديد في مدهم ، ومـــن ذلـــك يعلـــم مقـــدار مـــا وصـــل إليـــه الصليبيون أن ذاك من الضعف والهـــوان.

(١) انظر فصل الفـــرق

فائدة:

ذلك أن السلطان المنصور قلاوون وقبل وقعة حمص (١) .

بعث مرسوماً إلى دمشق بعد أن خرج منها باستسلام أهل الذمة من الدواوين والكتبة ، ومن لا يسلم يصلب ، فأسلموا كرهاً ، وكانوا يقولون آمنا وحكم الحاكم بإسلامنا بعد أن يُعرض من امتنع منهم على الصلب بسوق الخيل وجعلت الحبال في أعناقهم ، فأجابوا والحالة هذه .

ثم كانت وقعة حمص.

وفي شوال من نفس العام.

عقد مجلس بسبب أهل الذمة من الكتاب الذين كانوا قد أسلموا كرهاً وقد كتب لهم جماعة من المفتيين بأنهم كانوا مكرهين فلهم الرجوع إلى دينهم ، وأثبت الإكراه بين يدي القاضي جمال الدين ابن أبي يعقوب المالكي ، فعاد أكثرهم إلى دينهم وضربت عليهم الجزية كما كانوا.

وقد كان عقد الهدنة مع الصليبيين من الحكمة إذا إن التتار كانوا يتأهبون للإغارة على مصر مرة أخرى.

وقعة حمص:

وفي رجب سنة ٦٨٠ هـ كانت **معركة حمص** الرهيبة التي تشبه في شراستها معركة عين جالوت وكان السلطان قلاوون لما علم بعزم التتار قد أرسل إلى أمراء المسلمين في أنحاء البلاد الإسلامية يستدعيهم ويطلب منهم المدد لمواجهة التتار فأقبل الأمراء

---

[1] سيأتي ذكرها

بجيوشهم إلى حيث يقيم المنصور في دمشق ، ووفد إليه الناس من كل مكان ، وجاءت التركمان والأعراب وغيرهم وتضرع الناس إلى الله طلباً للمدد والعون...

ودارت المعركة ورجحت كفة التتار في أول الأمر وفر بعض المسلمين ولكن ذلك لم ينل من عزيمة السلطان قلاوون الذي ثبت في جماعة قليلة من الجند ورأى كثير من الأمراء والفرسان ثبات السلطان فعزموا على العودة والثبات معه والناس على دين ملوكهم ...

فدارت الدائرة على التتار وقتل منهم عدد عظيم وفر الباقون لا يلوون على شئ .

وفي سنة ٦٨٠ هـ مات ابغا خان بن هولاكو ولم تكن موقعة حمص عن رأيه أومشورته بل بأمر أخيه ولكنه خرج مع الجيش يرقب الموقف فلما رأى هزيمة قومه تحسر ومات بعدها بقليل ، وتولى الأمر بعده أخوه أحمد بن هولاكو .

وفي سنة ٦٨٣ هـ ثار التتار على أحمد هذا وقتلوه وولوا مكانه أرغون بن أبغا .

وقضى قلاوون باقي أيامه في محاربة الصليبيين بعدما أمّن بلاده من جانب التتار فاتجه إلى حصار اللاذقية فحاصرها واستولى عليها ، ثم هاجم طرابلس سنة ٦٨٨ هـ فحاصرها واستولى عليها وأسر معظم سكانها ... ولم يبق للصليبيين بعد ذلك سوى صور وعكا وبيروت ، وكانت عكا أمنع الحصون فقرر الاستيلاء عليها وأعد لذلك العدة ولكن منيته عاجلته ...

ساد في عهد قلاوون العدل ومن أعماله العظيمة إنشاؤه البيمارستان الكبير بين القصرين (المسمى بمستشفى قلاوون الآن بالنحاسين) وبجانبه المدرسة العظيمة والقبه التي دُفن بها ، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة وشرط في وقفه كثيراً من أنواع البر والخير مما لم يسبق إليه أحد من الملوك..

ثم خلفه ابنه الأشرف خليل سنة ٦٨٩ حتى ٦٩٣ هـ

وكان شجاعاً مقداماً ... قام بإعداد الجيش الذي كان يعده والده لفتح عكا آخر مدينة حصينة بقيت بأيدي الصليبين وهنالك جمع الصليبيون فلول جيوشهم للدفاع عنها ،إلا أنهم اختلفوا حسب عادتهم ، ففتح جند الأشرف المدينة سنة ٦٩١ هـ . ودمروا حصونها وفتكوا بكثير من الصليبيين ثم سقطت باقي مدن الصليبين في أيديهم وانقرضت دولهم بالشام ...

وأما فلول الصليبيين الذين خرجوا من الشام فقد استطاعوا أن يؤسسوا مملكتين صليبيين في الشرق الأدنى هما : مملكة أرمينية ومملكة قبرص ...

وأصبح الخطر الصليبي خارج الديار الإسلامية الشامية بإمكانه أن يأتي من إحداها .

وتوفى الأشرف سنة ٦٩٣ وخلفه أخوه الملك الناصر (محمد بن قلاوون سنة ٦٩٣ حتى ٧٤١ هـ) تولى وهو صغير وخلع في هذه المدة مرتين الأولى سنة ٦٩٤ هـ مدة خمس سنوات والثانية سنة ٧٠٨ هـ مدة سنة واحدة ...

وفي سنة ٦٩٤ هـ :قازان من ولد هولاكو يعلن الإسلام

ظل التتار يتخبطون فيما بينهم يولون الملوك ثم يعزلوهم ثم يقتلوهم حتى كانت سنة ٦٩٤ هـ وفي أواخر هذه السنة تولىقازان بن أرغون بن ابغا بن هولاكو أمر التتار وأعلن قازان إسلامه على يد الأمير تسوزون - رحمه الله - ودخل التتار في الإسلام اقتداء بقازان ، وكان يوم إسلامه يوماً مشهوداً نثر فيه الذهب والفضة على رءوس الناس وسمى نفسه (محمودا) وحضر صلاة الجمعة والخطبة ، وخرب كنائس كثيرة وضرب على النصارى الجزية ، ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها ، وبدأت المظاهر الإسلامية تظهر بين التتار.

قازان يطمع في بلاد الشام

طمع قازان في توسيع ملكه إلى الشام ومصر فدخل في معارك مع المسلمين بالشام

منها ما كان مجرد مناوشات ومنها ما كان قاسياً عنيفاً نال المسلمين منه شر عظيم..

ابن تيمية ودوره في هذه البلية :

وهنا ظهرت مسألة كيف نقاتل هؤلاء التتر وهم مسلمون وليسوا بغاة على الإمام ، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه.

فأفتاهم ابن تيمية – رحمه الله –

(... هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على عليّ ومعاوية ، ورأوا انهم أحق بالأمر منهما ، وهؤلاء يزعمون انهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم ، وهم متلبسون بما هو أعظم منه أضعاف مضاعفة ...)

وقال لهم مشجعاً :

(... إذا رأيتموني من هذا الجانب – يعني جانب التتار – وعلى رأسي مصحف فاقتلوني ...)

وكان ابن تيمية يتحرك في اتجاهين فهو يشجع المسلمين من أهل الشام ومصر على الثبات ويحرض الأمراء على القتال من جهة ، وكان يذهب إلى التتار ليأخذ الأمان للمسلمين من جهة .

وفي ١٣من ربيع آخر توجه ابن تيمة ومعه جماعة من العلماء والأعيان ليكلموا ملك التتر فكلمه ابن تيمية كلاماً قوياً فيه جرأة وقوة فتحققت بذلك مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين وفرض التتار على أهل الشام إتاوات كثيرة .

وفي ٨من رجب سنة ٦٩٩ هـ ذهب ابن تيمية إلى مخيم القائد التتري (بولاي) وكلمه فيمن تحت يده من الأسرى وكان من بين الأسرى أهل ذمة فعفا عن جميع الأسرى المسلمين فقال له ابن تيمية : لا ، حتى تعفو عن أهل ذمتنا ... فاستخلص

عدداً كبيراً من الأسرى ، وأقام عنده ثلاثة أيـــام ثم عـــاد ...

واجتازت طائفة من التتر ، فمرت بدمشق فخاف الناس خوفـــاً شـــديداً ، ونـــادى نـــائب دمشق في الناس (احفظوا الأسوار ... ومن بات في داره شـــنق) فـــاجتمع النـــاس علـــى الأسوار لحفظ البلاد ، وكان ابن تيمية يدور على الأسوار كـــل ليلـــة يدعـــو النـــاس إلى الجهاد ويحرضهم على الصبر ويحثهم على قتـــال العـــدو.

وكان ابن تيمية أثناء المعركة يقوم مع جماعـــــة مـــن أصحابـــه إلى الخمـــارات والحانـــات فيكسر أوانيها وما فيها من الخمور ، وعـــزر أصحـــاب الحانـــات الـــتي كـــان يرتادهـــا الفسقة لارتكاب الفواحش ... ويقول إن هؤلاء هم الذيـــن يؤخـــرون النصـــر ...

ودخلت سنة ٧٠٠ هـــ وكان الناس في هلع من التتار ولكن ابـــن تيميـــة رحمـــه الله أخـــذ يشجعهم ويذكرهم وكان سلطان مصر محمد بن قلاوون قـــد تراجـــع عـــن نصـــرة أهـــل دمشق فسافر إليه ابن تيمية وقال لـــــه:

لو قُدّر أنكم لستم حكاماً للشام ولا ملوكـــه ، واســـتنصركم أهلـــه وجـــب عليكـــم النصر فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه ، وهم رعاياكم وأنتـــم مســـئولون عنـــهم .

ولم يزل بهم يقويهم ويضمن لهم النصر حتى أمضى بقلعـــة مصـــر ثمانيـــة أيـــام ثم عـــاد إلى دمشق ، ولما علم ملك التتار بتجميع كلمة المسلمين ، رجـــع إلى بلـــده لضعـــف جيشـــه وقلتـــهم ...

وفي رجب سنة ٧٠٢ هـــ تأكدت الأخبار بعـــزم التتـــار علـــى دخـــول الشـــام فخـــاف الناس ولكنهم اطمأنوا حين علموا بقدوم السلطان ومعـــه جيشـــه ...

وقعة شقحب ٣من رمضان سنة ٧٠٢ هـــــ

تواجه الفريقان وهُزِم التتار شر هزيمة وفـــروا واعتصمـــوا بالجبـــال والتـــلال و لم يســـلم منهم إلا القليـــل ..

وكان في صفوف الجند ابن تيمية رحمه الله الذي كان يدور على الجيش يرفع معنوياتهم ويأكل من شئ في يده ليعلمهم أن الفطر أفضل ...

وكان السلطان محمد بن قلاوون قد قيد فرسه حتى لا يفر من هول المعركة وشارك الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان في المعركة...

وفي سنة ٧٠٣ هـ توفى قازان وقام بالملك بعده أخوه خوبندا (محمد) بن أرغون ولقبوه بالملك غياث الدين وخطب له على منابر العراق وخراسان وغيرها من البلاد.

الرافضة مرة أخرى:

تولى خوبندا أمر التتار وهو على طريقة أهل السنة ثم غلب عليه الرفض فتشيع وأقام شعائر الشيعة في بلاده ... وكان بعد ذلك يقرب علماء الرفض مثل جمال الدين بن مطهر الحلي تلميذ الخواجة نصر الدين الطوسي الذي كان وزيراً لهولاكو ...

وقد طمع الرافض في أنحاء الأمة الإسلامية في مساعدته لهم لينشروا مذهبهم في أنحاء البلاد حتى قدم عليه صاحب مكة المكرمة – الأمير حميصة لينصره على أهل مكة ولكن خوبندا مات قبل أن يحقق حميصة مأربة سنة ٧١٦ هـ .

فشلت خطة الشيعة وعاد حميصة إلى مكة خائباً وعاد معه أحد كبار الرافضة من التتر يقال له (الدلقندي) وقد جمع مالاً كثيراً ، وأعطاه لحميصة لينشر به مذهب الرفض في الحجاز ، فالتقي بهما الأمير محمد بن عيسى زعيم العرب ، وأوقع بهما وهزمهما واستولى على ما كان معهما من الأموال ، وفرح المسلمون بذلك ورضى السلطان محمد بن قلاوون عن الأمير محمد بن عيسى وقربه وألزمه...

تولى أمر التتار بعد خوبندا أبو سعيد بن خونبد وعدل عن مذهب أبيه إلى مذهب أهل السنة،يقول عنه ابن كثير :

(... وقد كان من خيار ملوك التتار ، وأحسنهم طريقة ، وأثبتهم على السنة ،

وأقومهم بها وقد عز أهل السنة بزمانه ، وذلـــت الرافضـــة ...)

وتوفى سنة ٧٣٦ هـــ وبوفاته لم تقم للتتار قائمة بعدها بل اختلفوا فيمـــا بينـــهم وقبعـــت التتار في بلادها و لم يعد لها سلطانها القاهر الذي هددت به قـــارة أســيا مـــن قبـــل حـــتى جاء تيمور الأعرج لنـــك...

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون زادت ثروة البلاد ، ومما ساعد على ذلـــك أنـــه فـــرض ضريبة على جميع التجارة التي تمر من مصـــر بنســـبة ١٠ % مـــن ثمنـــها وكـــانت تجـــارة أوروبا مع الهند تمر من هذا الطريـــق...

وكان الناصر يعني بالشئون الداخلية لبلاده ،فضبـــط الموازيـــن والمقـــاييس ومنـــع شـــرب الخمر ، وتشدد في حفظ الآداب ، وفي مدته بلغ فن المباني والنقـــوش الإســـلامية أقصـــاه، إذ اتضح أن اكثر الآثار الإسلامية الجميلة التي في متاحف العالم من صنـــع هـــذا العصـــر، وهو منشئ لقناطر المياه الموصلة بين القلعة والنيـــل ، ووصـــل بـــين النيـــل والإســـكندرية بترعة ، وأنشأ طريقاً عظيماً بجانب النيل أفاد فائدة الجســـور وقـــت الفيضـــان ...

وكان الناصر مع ذلك ضئيل الجسم ، أعرج ، أعور ، إلا أنـــه بـــالرغم مـــن ذلـــك رأينـــا شدة بأسه على أعدائه وكان ذا رأي سديد وعزيمة مـــن حديـــد ..

توفى سنة ٧٤١ هـــ ولم يترك خلفاً يقدر على القيـــام بعـــبء الملـــك فوقعـــت البـــلاد في فوضى مدة ٤١ سنة تنازع الملك فيها ملك بعـــد ملـــك مـــن أولاده وأدومـــهم أثـــراً إلى الآن ابنه السلطان حسن سنة ٧٤٨ حتى سنة ٧٥٢ هـــ ، وهـــو بـــاني المدرســـة العظيمـــة التي لم يخلف السلاطين أعظم منها بناء ولا أتقـــن صناعـــة وهـــي المشـــهورة الآن بجـــامع السلطان حسن (بجوار قلعة القاهرة) وانتهى الأمـــر بـــانقراض هـــذه الدولـــة واســـتيلاء المماليك الشراكسة على الملـــك.

أسماء سلاطين دولة المماليك البحرية ٦٤٨ - ٧٨٤ :

قامت في ظل خلافة عباسية صورية بمصـــر والشـــام.

١- شجرة الدر ٦٤٨ - ٦٤٨ (٨٠ يومـــاً)

٢- عز الدين أيبك ٦٤٨ - ٦٥٥ (قتـــل)

٣- نور الدين على بن أيبـــك ٦٥٥- ٦٥٧ (خلـــع)

٤- سيف الدين قطز ٦٥٧ - ٦٥٨ (قتـــل)

٥- الظاهر بيبرس ٦٥٨ - ٦٧٦ (قتـــل)

٦- السعيد بركة بن بيـــبرس (خلـــع) ٦٧٦- ٦٧٨

٧- العادل بدر الديـــن ٦٧٨ - ٦٧٨ (خلـــع)

٨- المنصور قلاوون ٦٧٨ - ٦٨٩ (تـــوفى)

٩- الأشرف خليل بن قـــلاوون ٦٨٩ - ٦٩٣ (قتـــل)

١٠- الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٣ - ٧٤١ (خلع مرتـــين مـــرة ســـنة ٦٩٤ - ٦٩٨ ومرة ٧٠٨ - ٧٠٩ حكم هذه الفترات ثلاثة من المماليك ليس لهـــم أثـــر في التـــاريخ

١٤ - المنصور أبو بكـــر ٧٤١- ٧٤٢ (خلـــع)

١٥-الأشرف كجك ٧٤٢ - ٧٤٢ (خلـــع)

١٦ الناصر أحمد ٧٤٢ - ٧٤٣ (خلـــع)

١٧ - الصالح اسماعيل ٧٤٣ - ٧٤٦ تـــوفى

١٨- الكامل شعبان ٧٤٦ - ٧٤٧ (قتـــل)

١٩ - المظفر أمير حـــاج ٧٤٧ - ٧٤٨ (قتـــل)

٢٠ - الناصر حسن ٧٤٨ - ٧٥٢ خلـــع ثم أعيـــد ٧٥٥ - ٧٦٢

٢١- الصالح صالح ٧٥٢ - ٧٥٥ خلـــع

٢٢- المنصور محمد ابن المظفر ٧٦٢ - ٧٦٤ (خلع)

٢٣- الأشرف شعبان ابن حسين ٧٦٤ - ٧٧٨ (قتل)

٢٤- المنصور علي بن الأشرف شعبان ٧٧٨ - ٧٨٣ (توفى)

٢٥- الصالح حاجي ابن الأشرف شعبان ٧٨٣ - ٧٨٤ (خلع)

٢٦- برقوق ٧٨٤ - ٧٩١

٢٧- الصالح حاجي ٧٩١ - ٧٩٢

دولة المماليك الشراكسة أو المماليك البرجية (٧٨٤ - ٩٢٣)

هؤلاء المماليك أكثر المنصور قلاوون من شرائهم وجعلهم في أبراج القلعة فسموا البرجية وهم يختلفون في الجنس عن المماليك البحرية لأن معظمهم من الشراكسة وأولئك من الترك ولم يكن الملك فيهم وراثياً قط كما كان في بيت قلاوون ، بل كان استيلاء كل ملك من ملوكهم على الحكم متوقفاً على شهرته الحربية ومقدرته على استجلاب مودة زملائه من الأمراء . وعدد ملوكهم ثلاثة وعشرون حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة وحكم في تسع السنوات الأخرى أربعة عشر .

وقد كان لكثير من ملوك هذه الدولة وأمرائها ولع بالعلوم ، واشتهروا بالتنافس في بناء القصور الفخمة والجوامع والمدارس والسبل وغير ذلك من المعاهد الخيرية .

وأكثر ما نراه في القاهرة من المباني العظيمة من أثارهم .

إلا أنهم كانوا يميلون إلى الظلم والعسف ، فأثقلوا كاهل الأمة بالضرائب ، وتسرب الخلل في عهدهم إلى جميع فروع الحكومة فأصبح العدل فيهم يشرى ويباع .

وكثرت الثورات والفتن في البلاد حتى ضج الناس من شر الجنود وعبثهم بالأمن على

أنهم بالرغم من شقاقهم فيما بينهم كانوا يداً واحدة على الأعـــداء فحفظـوا البـلاد مـن الغارات نحو قرن ونصف من الزمـــان .

وأول سلاطينهم هو **الملك الظـافر سـيف الديـن (برقـوق)** خلـع آخـر المماليك البحرية وتولى الملك ، ثم ثار عليه المماليك وخلعــوه وأعـادوا إلى الملـك أحـد حفـدة الناصر بن قلاوون ، فاشتغل بالحماد فتنتهم حتى عاد إليه الملـــك ثانيـــة .

تهديد التتار مرة أخرى

حكم التتار منذ سنة ٧٩٥ ببغداد قائدهم تيمورلنـــك وخضعـت لـه الجزيـرة بأسـرها سنة ٧٩٦ فأرسل رسالة إلى مصر يطلب من حكامها تسليم مصـــر إليـــه فـامتنع برقـوق واتحد مع أمراء شمالي الشام وسـلطان العثمـانيين .

ولكن المنية عاجلته فمات سنة ٨٠١ هـ قبل الشروع في الحـــرب ، فـترك ذلـك لابنـه **الناصر (فـرج)** .

وفي سنة ٨٠٣ خرج السلطان فرج إلى الشام لمحاربـــة تيمورلنـك الـذي خـرب حلـب وزحف على دمشق ، فوقع بين الجيشين بعض مناوشــات بـالقرب مـن دمشـق كـان الغلب فيها للمصريين ، فطلب تيمورلنك من السلطان الصلـح فأجابـه إليـه .

وبينما هم يتفاوضون أثار المماليك فتنة في المعسكر وتســللوا منـه راجعـين إلى مصـر ، فانزعج السلطان واضطر أن يعود مع بقيتهم مسرعاً إليـــها وتـرك دمشـق يدافـع عنـها أهلها ، فدخلها تيمورلنك وفعل الفظائع بأهلها كما فعل بحلـب مـن قبـل ،

ثم خلع المماليك فرج سنة ٨٠٨ وولوا أخاه ، ثم اســتطاع أن يعـود إلى الملـك فخـرج في عدة غزوات إلى الشام لتوطيد الملك وإخضاع الثائرين مــن الأمـراء .

واستفحل أمر اثنين من هؤلاء الأمراء وهما شيخ دنـــوروز فتغلـب شـيخ علـى فـرج في خرجته السابقة إلى الشام ، ووافق الخليفة العباســي بمصـر علـى قتلـه وانتـهى الأمـر

باستيلاء شيخ على الملك فسمى **بالمؤيد شيخ** ، وهو باني الجامع المعروف بجامع المؤيد بجوار باب زويلة ثم كان من بعده عدة ملوك لم يكن لهم أثر في حالة مصر سوى أن المماليك لم يعبئوا بهم .

الملك الأشرف برسباي

فساءت حالة الناس ، حتى ولى الملك الأشرف برسباي (سنة ٨٢٥ - ٨٤١) هـ فبالغ في إثقال كاهل الأمة بالضرائب الباهظة وأنواع الاحتكار في التجارة ، إلا أنه لشدة بأسه لم تحدث في البلاد فتن في عهده .

فتح قبرص

كانت قبرص منذ أن سقطت عكا سنة **١٢٩١ م** . قد أصبحت معقلاً هاماً للصليبيين في الشرق وفتحت أبوابها لكل منهزم من الصليبيين ، ولما تولى عرش قبرص الملك بطرس الأول لورجثان .. أخذ يعتدي على السفن الإسلامية ويستولى عليها .. كما هاجم الإسكندرية في يوم جمعة والمسلمون في المساجد سنة (٧٦٧ هـ - سنة ١٣٦٥م)وعاث فيها فساداً وفر عندما تجمعت له المماليك وأسر معه خمسة آلاف .

وفي عهد السلطان برسباي وفي سنة ١٤٢٢ صمم السلطان على القضاء على شوكة الصليبيين في قبرص فأرسل حملة للاستكشاف أغرقت عدداً من سفن الفرنجة وعادت بعدد من الأسرى ، ثم أرسل حملة أخرى ودارت معركة مع الفرنجة بقبرص قتل فيها خلق من الصليبيين ورفعت راية السلطان بقبرص وعادت الحملة إلى مصر محملة بالغنائم والأسرى .

ثم أرسل حملة أخرى سنة ١٤٢٦ وكانت الحملة القاضية واستطاعت جيوش برسباي أن تلحق هزيمة ساحقة بالصليبيين ودخل المسلمون نيقوسيا فصلوا الجمعة في كنيستها

وأصبحت قبرص جملة من بلاد السلطان الملك الأشـــرف برســباي .

بالغ برسباي في فرض الضرائب على سفن الأجانب التي تمـــر عـــن طريـــق مصـــر حـــتى ضج التجار الأجانب وهمت فرنسا باستدعاء جميع تجارها من مصر فخـــاف علـــى تجـــارة البلاد من الكساد فنظر في مطالبـــهم .

وفي سنة ٨٤١ مات برسباي وولى بعده ابنه ثم عـــدة ســـلاطين لم يكـــن لهـــم ذكـــر في التاريخ حتى ولى **الأشرف قايتباي** (٨٧٣ حتى ٩٠٢ هـــ) وهـــو أطـــول ملـــوك هـــذه الدولة حكماً كان شجاعاً يحبه قواده قـــوى الجســـم .

كان أكبر شاغل له قوة العثمانيين الذين صاروا بعد اســـتيلائهم علـــى القســـطنطينية ســـنة ٨٥٧ هـــ مصدر خطر لمن جاورهم .. خاصة أنهم تدخلوا في شـــئون مصـــر والشـــام .

عندما منعوا تجارة الرقيق من المماليك الشراكسة وغيرهم عـــن مصـــر .

واشتدت العداوة عندما أجار قايتباي أخا (بايزيد الثـــاني) الســـلطان العثمـــاني وخصمـــه وأكرم مثواه فحنق بايزيد على قايتبـــاي ونشـــبت معـــارك كبـــيرة بـــين طـــائفتين مـــن المماليك، ومرض قايتباي فخلعه أرباب الدولة وبايعوا ابنـــه النـــاصر ثم مـــات قايتبـــاي في اليوم التـــالي

وكان قايتباي محباً للعمارة ، ولا يضارع عصره في المباني المصريـــة جمـــالاً ســـوى عصـــر الناصر بن قـــلاوون .

ثم تولى بعده عدة سلاطين كان من أشهرهم السلطان **الأشـــرف قـــانصوه الغـــوري** ســـنة ٩٠٦ – سنة ٩٢٢ هـــ وهو باني جامع الغوري والمدرســـة الغوريـــة .

تولى الحكم وعمره ستون ســـنة

وفي عهده اكتشف فاســـكودى جامـــا رأس الرجـــاء الصـــالح ســـنة ١٤٩٧ م فتحولـــت معظم التجارة الهندية إليه مما أثر على الاقتصـــاد المصـــري حينئـــذ بشـــدة فوقعـــت بـــين

المماليك والبرتغال منازعـــات .

وفي سنة ٩١٨ خرج سليم خـــان الأول العثمـــاني بجيـــش إلى الشـــام ، والتقـــى بجيـــش المماليك بميدان **مرج دابق** شمال حلب سنة ٩٢٢ وانتصر الجيـــش العثمـــاني بـــلا مقاومـــة تذكر وقتل **قانصوه** الغـــوري.

وتولى أمر المماليك من بعده **طومان بـــاي** جمـــع مـــا اســـتطاع مـــن جيوشـــه وخـــرج لمواجهة سليم خان والتقى الفريقان بالرياندية بالعباســـية فـــانهزم طومـــان بـــاي وقبـــض عليه وصلب على باب زويلـــة.

وبموته صارت مصر ولاية عثمانية وتنـــازل الخليفـــة العباســـي بمصـــر عـــن الخلافـــة لآل عثمان.

الفهرس

فهرس المجلد الأول